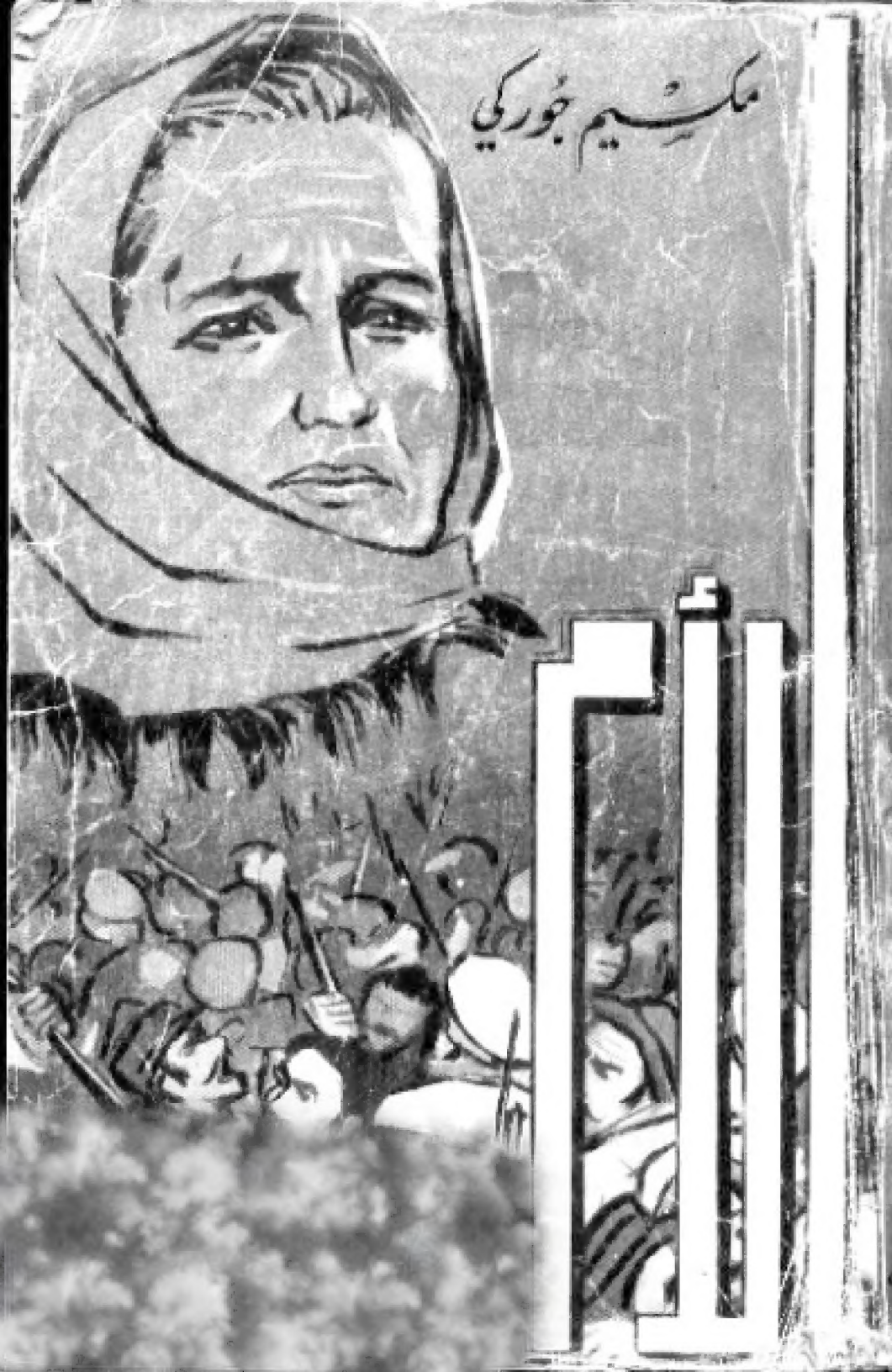


مکسیم جورکی



مقدمة الترجمة الفرنسية

كانت بواكير انتاج غوركي تعكس روابط القوة الجديدة التي اخذت تتركز مع تطور الرأسمالية السريع في المجتمع الروسي منذ نهاية القرن الأخير ، وما لا شك فيه ان غوركي لم يكن في البدء اشتراكياً إلا في قلبه ، ولكن قصصه الأولى « تشلكاتش » ، « ايزدغيل العجوز » و « أغنية البصر » وسواها ، كانت تفيض عزة نفس وإثارةً وعتفواناً إنسانياً ، وبطولة شخصية لمصلحة الجماعة كلها ، وكانت ترفعه الى مستوى ثوري ، وبعضها كقصّة « المهرج » - ١٨٩٦ - كانت يشير الى الإهمية التي كان يعلقها على أولى مظاهر الوعي العمالي .

وإذا كانت قصصا الاشتراكية لم تكن في رواية « توماس غورديف » - ١٨٩٩ - قد تطورت بعد إلا بشكل تعليمي على يد الصحفي « ييوف » فإن ظهور الوعي الاشتراكي في وسط عمالي هو إحدى القضايا الأساسية التي تعالجها الرواية اللاحقة لها : « الحظوظ الثلاثة » - ١٩٠٠ - .

وفي السنة اللاحقة كان « نيل » في مسرحية « البرجوازيون الصغار » - ١٩٠٢ - نموذجاً للعامل الواعي الذي كان مجرد ظهوره - على قلة هذا الظهور - يسيطر على المأساة كلها . وإلى هذا العام نفسه ، عام ١٩٠٢ يمكن ان يرد - كما يقول غوركي نفسه - مشرّع الرواية التي ستصبح فيما بعد « الأم » .

ففي « نيجني نوفنورد » حيث كان يقم آنذاك ، كانت صلته بالتنظيمات الاشتراكية الفعلية محدودة ، وانتفاً لا ننسى ان حزب العمال الاشتراكي المديوقراطي في روسيا ، ظل شكلياً عندما اتى في مؤتمر « منسك » وانه لم يؤسس بصورة فعلية إلا بعد المؤتمر الثاني الذي انعقد في « لندرة » في تموز عام

١٩٠٣ . أما في «نيجني» فإن لجنة الحزب كانت قد تأسست منذ صيف ١٩٠١ . وثبتت ذكريات المعاصرين أن «غوركي» كان يب التاثيرين منحتة التعليمية التي يتقاضاها ، ويساعدهم بنصائحه وقلمه ، وقد نوهت تقارير الشرطة ببراعته في « جمع الأعمال المشروعة الى العمل السري للدرجة أنه يحول كل نشاطه مشروع الى نشاط ثوري » .

وكان توقيفه في آذار ١٩٠٦ بسبب مظاهرات الطلبة في «سانت بطرسبورغ» مناسبة لانتفاضات عنيفة قام بها عمال « نيجني » وطلابها .

وبعد ستة أشهر من السجن أذن لغوركي المريض الذي يصبى دماً أن يذهب للاستشفاء في «القرم» التي لم يعد منها الى « نيجني » إلا في تشرين الأول عام ١٩٠٢ ، فلم يتح له ، والحالة هذه ، أن يشهد احتفال أول ايار حيث كان صانع الأقفال الفتي « ب . زالوموف » وعضو اللجنة التي ألقت في العام المنصرم ، يحمل العلم الأحمر ، ويسير في طليعة الموكب .

هذا الفتى الذي أوقف على الأثر ثم سوّم وأدين ، هو الذي سيتقمص بطل « الأم » ، بول فلاسوف .

وكان غوركي ، دون أن يعرفه شخصياً في ذلك الحين ، أحد الذين يسعون ليخففوا عنه وطأة السجن ، كما سيكون أحد الذين يقدمون له المعونات الضرورية لتسهيل فراره من سيبيريا ، ولم يقدر له أن يلتقي به إلا بعد سنوات ثلاث . وفيما كان «بيير زالوموف» مطارداً ، أوقف غوركي بسبب النور الذي قام به في كانون الثاني عام ١٩٠٥ واحتجز في حصن «بيير بول» المظلم ، ثم نقل تحت ضغط الرأي العام العالمي الى «ريغا» حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية ، ولكنه استطاع الهرب الى فنلندا ، وأقام في «كوفوكالا» عند صديقه الرسام «ريين» ، وظل من هذه المحطة الصغيرة على الحدود التي تكاد تكون الضاحية الكبرى لمدينة «سانت بطرسبورغ» ظل على صلته بالمنظمات الثورية ، وعلى الأخص ، الحزب الاشتراكي الثوري ، وحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي .

ومن فنلندا اجتاز المانيا ، ليحل في الولايات المتحدة حيث كان عليه أن يقوم

بمحولة دعائية لصالح الحركة الثورية ، وأن يحجم الأموال لتنشيطها وتحجيمها . وابتدأ لنجد آثار جهده الدعائي في الندوات الكثيرة التي نشرها في عامي ١٩٠٥ و١٩٠٦ باللغات الألمانية والانكليزية والفرنسية ، في الصحف الاشتراكية بأوروبا الغربية ، وفي رسائله الى «أناول فرانس» التي هاجم فيها القروض الروسية وخاصة في رسائله لهجائية «فرنسا الجميلة» التي أثارَت في بلادها نقاشات عنيفة ، وقد دمج البورجوازية الأميركية في هجائياته : « في اميرك » ، « شارلي ماكس » ، « مقابلاتي » .

وفي الوقت نفسه كان يعد « الأم » (بدأ كتابتها في تموز عام ١٩٠٦ وأنهاها في اوائل كانون الأول) وخلال ذلك انتقل الى إيطاليا ، ولكن قصر هذه الحقبة لم يحل دون العمل الكثير . ولقد نسخ النص الأصلي أكثر من خمس مرات ، وكانت التنقيحات التي تدخل عليه هامة . وفي نهاية كانون الأول بدأت الرواية تظهر باللغة الانجليزية في «نيويورك» ثم في المانيا في «Vorwärts» ، ومنذ العام التالي بدأت ترجمة الرواية الى اللغات الرئيسية في العالم ومنها الفرنسية . وقد اعتمدت في هذه الترجمات المخطوطة التي نصحها غوركي في «كاري» ، وفي الاسابيع الأخيرة من عام ١٩٠٦ ، ولم يكن غوركي نفسه لينقطع عن العودة الى تنقيح هذه النسخة ، فقد عاد اليها مرتين في عام ١٩٠٧ ثم في عام ١٩١٣ . وأخيراً في عام ١٩٢٢ .

وهذا النص الأخير يختلف اختلافاً بيناً عن النصوص الأولى من حيث الانشاء والخصائص ، وحتى الأسلوب . وهو النص الذي تنتقل لأول مرة الى اللغة الفرنسية . ان غوركي لم يحذف أو يضيف اليه بعض الحوادث فحسب ، ولم يعدل البعض المهم منها ، بل انه في جلسة المحكمة جعل دور المحامين ثانوياً ، وأظهر التضاد العنيف بين العالمين : عالم العمال ، وعالم قضائهم ، واسبق على افساده بول معنى ثورياً أكثر عمقاً ، كما حوّر كذلك في الخصائص ، فزع عن بول الملامح التي يمكن ان تضعفه كبطل بلشفي شاب ، كالبعض من عدم الثقة بقواه ، والحنو المصطنع نحو والديه ، واتجاهه الى العاطفية ، وميله الى الزهد .

لقد أجد نفسه ليظهر في نفس الوقت أكثر كلاً وأكثر طبيعية، وجعل حبه الخفي لساندين أكثر بساطة وإنسانية .

وكذلك فإن صورة الأم عدلت بشكل أكثر عمقا ، فلقد جدد غوركي من شبابها فهي امرأة في الأربعين ما تزال قوية ، منفتحة ، حساسة ، وخفف من قديتها ، وتحولت مشقتها الشاملة الى حب للضطهادين ، وكره للضطهدين ، وحل محل إيمانها الساذج بقلبة العدالة ، السخط والازدراء والقيظ .

وبقدر ما اغتشت لغته بالبساطة والحياة ، بقدر ما اتخذت تبرز تحرر احكامه . أما الشخص الذي تبدل قبيلاً جوهرياً فهو على التأكيد « اندريه » : فهذا الثوري العجوز الشديد الرأفة ، الذي كانت يبدو كأنه المعلم « لبول » ، انتقل الى الصف الثاني ، فإذا ضعفه السياسي مثلاً أمام فوضوية الفلاحين ، يجعل ما في انسانيته من عاطفية شديدة أمراً معلوماً ، ويوضح قوة التفكير والطبع الثوري الاكيد عند بول .

غير أن هذه التنقيحات بالغة ما بلغت من الأهمية ، لا تغير الخاصة الأساسية للكتاب . أنها فيما تصفيه ، تعمقه ، أنها تنبثق عن الغاية نفسها التي دفعت الى تأليفه . ان غاية غوركي لم تكن في الواقع ، ان يقص ببساطة في عام ١٩٠٦ مقطعا من النضال الثوري في « نيجني نوفغورد » خلال عام ١٩٠٢ ، بل كانت غايته اثراء ملامح ابطاله بلامح لمجاهدين آخرين ، ومع ذلك فإن من أهم خصائص هذه الرواية ان الجانب الضعيف من الابتداع الذي استباحه المؤلف لنفسه كان يعينداً عن كل تزويق ومحصوراً فيها عرقه أو لاحظته من خلال تجربته الثورية الخاصة . الا ان مبدأ سياسياً هو الذي تحكم فيها اختاره غوركي ، فمنذ عام ١٩٠٢ الى عام ١٩٠٦ كانت الحركة العمالية قد نضجت ، وكان لينين قد أسس الحزب وطهره من « الاقتصاديين » وعصبتهم ، أي من الانتهازية ، وجعل منه منظمة جديدة بقيادة الثورة الديمقراطي في نضالها ضد الحكم الاستبدادي .

وكانت هذه السنوات الأربع من النضال قد انضجت تحت قيادته طليعة عمالية ثورية من طراز جديد ، وهذه الطليعة هي التي اختار غوركي ان يبرزها ،

فأدخل في روايته التجربة السياسية لسنوات الثورة . الى هذا الوعي السياسي كان ابطاله مدنيين بمعظمهم وحقيقتهم ، حقيقة التاريخ .

من أجل هذا لم يكن بناء الرواية قائماً على عقدة تحمل وتعتد أقداراً شخصية ، بل على نحو روابط طبقية تمكس الاقدار الشخصية فيها ما بينها من تناقضات . فالخصائص والغنى الداخلي عند كل من ابطال الرواية ، وقابليته للانفتاح للحياة وللتأثير عليها ، كل ذلك يتوضح في هذا العرض كما يمكن للكتاب ايضاً ان يقتني بالحكم على بول واندريه ، بتوقف الأم ، ولكن هذه الحزينة لا تضعف شيئاً من الثقة بالنصر النهائي ، نصر القيم الانسانية التي يحملونها في اعماقهم .

وكذلك فإن بول وأمه كانا يدركان دائماً بالأحظ لها بتجنب السجن والتغني ولكنها كانا يدركان أن مصيرها شخصياً ، وهو أبعد ما يكون عن اضعاف الحركة الثورية ، يجب ان يكرس لتنشيط هذه الحركة .

ان التزامها الشخصي في الكفاح يعادل سمو الوعي عند الجماهير ، هذا الوعي الذي يقود ، بصورة عادية ، ويتصمم لا يقهر ، الى انتصار الثورة .

وبهذا المعنى تكون خاتمة الكتاب ايجابية متفائلة ، لأنها تظهر الواقعية في ذكريات غوركي الثورية ، ويكون التاريخ هو نفسه الذي تكفل بإظهار الحقيقة .

وما كان يتنبأ لغوركي ان يعطي روايته الصورة الصحيحة إلا لأنه هو نفسه كان يعتبر كتابه الذي تخط في لعب الحركة ، عملاً ثورياً ، وقد امتدحه لينين فقال : « انه يربط بصميمية صليبه الادبي بالحركة العمالية في روسيا وفي العالم أجمع » .

وفي الظروف القاسية ، ظروف القمع التي اعطت هزيمة عام ١٩٠٥ ، عندما كان « المنشيفيك » يراجعون برعب ، ارد غوركي ان يذكي شجاعة المناضلين الثوريين بأن يوضح لهم محتوي معركتهم ومتطلباتها . انه أراد كتاباً يمي ، ومن أجل ذلك كتب الأم بسرعة .

لقد قال له لينين :

د لقد أحسنت اذ أمرعت ، فإن كتابك لمفيد ، لأن كثيراً من العمال

اسموا في الحركة الثورية دونما وعي حقيقي ، انهم اسموا فيها غريزيًا ، اما الآن
فانهم سيقراءون « الأم » وسيجئون منها الكثير .
ثم اضاف : « هذا كتاب تلج اليه الحاجة آتيا »
... اجل ... انه كتاب آتي ... ومن هنا كان خلوده .

القسم الاول

من قوى ، وامسحى هذا النهار دون أن يترك وراءه آثاراً ، وخطا المرء نحو قبره خطوة... ولكن عذوبة الراحة بدت له قريبة المنال ، وكذلك لذة الملهى العابق بالدخان ... وإنه لسعيد من أجل ذلك !

وفي أيام الأعياد ينام الناس حتى العاشرة ، ثم يرتدي المترصنون منهم والمتزوجون أبهى ملابسهم ، ويذهبون الى الصلاة ، وهم ينعمون على الشباب استهتاره بالأمر الدينية ، وعندما يعودون من الكنيسة ، يأكلون ثم يستسلمون الى الرقاد حتى المساء .

ولما كان الانهك المتكدر خلال السنين يفسد الشهية ، فإن الكثيرين منهم يلجأون الى الشرب ، ليشيروا نشاط معدم بالاحتراقات الكحولية الحادة . وفي المساء يتنزهون في الشوارع بكسل ، يلبس الذين يملكون جزمات اجزمايتهم ، حتى ولو كان الطقس صالحاً ، ويحمل الذين يملكون مظلات مظلاتهم ، حتى ولو كانت الشمس مشرقة .

وعندما يتلاقون يتحدثون عن المعمل ، عن الآلات ، ويكيلون الشتائم لرؤسائهم . إن أحاديثهم وأفكارهم لا تعتمد الأشياء المتعلقة بالعمل ، وقليل ما تبدي خاترة مسكينة سيئة الاداء ، فتلقي التامة فريدة في رتبة أيامهم الدكناء . وعند العودة ، يتجادلون مع نساءهم ، ويضربونهم غالباً دون ان يزعموا قبضاتهم .

أما الفتيان فإنهم يمشون في المقهى ، أو ينظّمون سهرات قصيرة متناوبة ، يعزفون خلالها على الأكورديون ، ويغنون الأغاني الماجنة ، ويرقصون ، وينثرون النكات ويشربون .

... ويشربون بسهولة لأنهم منهكون بالعمل ، فالشراب يثير فيهم حقناً لا سبب له ، حقناً مرضياً ينشد المبرر ، ولكي ينفسوا عن كبرهم ، يشتبكون تحت ستار مبرر تافه ، يشتبكون بضراوة وحشية ، فإذا هي معارك دامية ، يخرج البعض منها مشوهاً ، وقد تنجلي بعض الاحيان عن ضحايا .

أما علاقاتهم فإن شعور الحقد ، حقد الكائدين هو الذي يسودها في الغالب ،

في كل يوم ، في دخان زيت الضاحية العالية ورائحته ، كانت صافرة المعمل تزار وترتفع .

وكالصرابير المروعة ، يخرج على عجل ، ومن منازل صغيرة رمادية ، رجال كثيرون الوجوه ، ما يزالون هلكى العضلات ؛ وفي الظهيرة الباردة ، ينطلقون ، ينطلقون في الشوارع غير المبلطة ، نحو القفص الحجري الشاهق الذي ينتظرهم بهدوء ولا مبالاة ، بعيونه المربعة اللزجة التي لا عداد لها ولا حصر .

تحت أقدامهم يفرقع الوحل ، وهتافات مبجوحة ، هي هتافات الأصوات النعسى كانت تسعى لاستقبالهم ، وسبابٌ بذيء كان يمزق الهواء ، ثم تأتي اصوات اخرى الآن ، هي ضجيج الآلات الأخرى ، وبغام البخار .

وعلى الضاحية تشرف المداخن العالية السوداء ، عبوسة قاتمة ، كالأعمدة الجبارة . وفي المساء ، عندما تغرب الشمس ، وتلمع أشعتها الحمراء على زجاج النوافذ ، نوافذ البيوت ، يقيم المعمل من أحشائه الحجرية ، حثالاته البشرية ، وينتشر من جديد في الشوارع ، العمال الملطخو الوجوه بسواد الدخان ، العمال ذوو الاسنان اللامعة ، اسنان الجياح ، ينتشرون ليثقلوا الهواء بالعبق الرطب ، عبق زيوت الآلات .

إن أصواتهم تنطلق الآن نشيطة ، بل فرحة ، فلقد انتهت سخرة اليوم ، وفي المنازل ينتظرهم العشاء والراحة .

لقد ابتلع المعمل النهار ، وامتصت الآلات من عضلات الرجال ما تحتاج

وهو حقد أكثر عراقه من نصب عضلاتهم .

لقد ولدوا وهم يحملون هذا الداء النفسي الذي ورثوه عن آبائهم ، والذي يلازمهم كالشبح الاسود ، حتى القبر ، ويحملهم على اقرار اعمال بغيضة هي ابنة الفظاظه التافهه .

وفي أيام الأعياد يعود الشبان ، في ساعات متأخرة من الليل ، يعودون وثيابهم ممزقة ، ملطخة بالوحل والغبار ، ووجوههم مشخنة بالجراح ، يتباهون بلؤم بما سدوا الى رفاقهم من ضربات ، أو يحتاجون ويكون للاهانات التي لحقت بهم ، حتى اذا وصلوا الى منازلهم ، وصلوها ثالى تعساء ، بشكل يثير الشفقة ، والقرص .

وأحياناً يقود الأهل قدام الى البيت ، اذ يعثرون عليه منطرحاً من السكر عند قدم سياج أو في حانة ، فيمطرون الجسد الساكن بشتائمهم وضرباتهم ، ثم يلقونه في سريره ، كيفما اتفق ، ليوقظوه في ساعة مبكرة من الغد ، وليرسلوه الى العمل ، عندما ترسل الصافرة ، كالسيل المظلم ، هديرها الحائق .

واذا كانت الاهانات والضربات تنهمر قاسية على الفتيان ، فإن سكرهم وهذيانهم يبدوان ، في نظر الشيوخ ، شيئاً مباحاً مغتفرأ ، فلقد كانوا ، في شبابهم يملون مثلهم ويضربون ... وكان ذوهم ايضاً يضربونهم .

انها الحياة ، كالماء العكر تنساب رتيبة بطيئة ، سنة بعد سنة ، وكل يوم يمر يمر وهو يحمل نفس العادات القديمة اللازمة ، في التفكير والعمل ، وما من أحد يستشعر رغبة للتغيير فيها .

وقد يظهر في الضاحية أحياناً ، غرباء لا يدري أحد من أين أقبلوا ، فيسترعون الانتباه ، أول الامر ، لأنهم ، بكل بساطة مجهولون ، ويشيرون قليلاً من الفضول بعد ذلك ، بمجديتهم عن الأماكن التي عملوا بها من قبل ، ثم يتلاشى جاذب الجديد ، ويتعودهم الناس ، فيدخلون في النسيان ، وتظل أحاديثهم تحمل حقيقة واحدة هي أن حياة العامل هي هي في كل مكان... فلم يحدث عنها إذن ؟

غير انه قد يوجد بعض الاحيان ، من ينقل الى الضاحية اشياء جديدة بالنسبة لها ، وهؤلاء لا يناقشهم أحد فيما ينقلون ، بل يُصغى ، دونما تصديق الى أقوالهم الغريبة التي تثير عند البعض سخطاً اخرس ، وعند البعض الآخر كآبة . ويشعر فريق ثالث بأن هناك املاً غامضاً يقلقهم ، فينصرفون الى الاسراف في الشراب ، ليطردوا هذا الشعور المزعج الذي لا جدوى فيه .

وكان سكان الضاحية اذا ما لاحظوا على دخيل سمة غريبة ، اخذوه طويلاً بالقسوة ، وعاملوه بازدرأ غريزي كأنهم انما يخشون ان يحمل الى وجودهم ما يفسد عليه رتبته المتجبهة الأليمة ، الهادئة رغم ذلك .

وكانوا ، وقد تعودوا ان تسحقهم قوة ثابتة لا تتغير ، لا يتوقعون اي تحسن في حياتهم ، بل يعتقدون ان كل تغير قد يطرأ على هذه الحياة ، لن يكون الا وسيلة تجعل نيرهم اشد وطأة .

وكان اولئك الذين يتحدثون عن اشياء جديدة ، يرون ان سكان الضاحية يتجنبونهم بصمت ، فيتوارون ، ويعودون الى التشرذ ، واذا ما لبسوا في المعمل ، فإنهم يعيشون في عزلة لا يستطيعون معها أن ينصهروا في كتلة العمال الموحدة .

لقد عاش الرجل في هذا الجو خمسين عاماً ثم قضى نحبه .

-- ٢ --

هكذا كانت حياة صانع الأقفال ميشال فلاسوف ، الرجل القاتم الكثر الشعر ذي البسمة الشريرة ، والعينين الحذرتين القابعتين تحت حاجبيه الكثيفين . لقد كان أفضل صانع للأقفال في المعمل ، وجبار الضاحية . وكان رحمه نزرأ لأنه كان فظاً مع رؤسائه ، وفي كل أحد كانت له ضحية . وكان الناس جميعاً يكرهونه ويخشونه ، وقد حاول البعض البطش به ، ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، فكلما كان فلاسوف يشعر بأنه هدف هجوم ماء ، يلتقط حجراً أو خشبة ، أو قطعة حديد ، وينتصب على قائمته ، ينتظر عدوه بصمت .

وكان وجهه المكسو بلحية سوداء من عينيه حتى عنقه ، ويداه اللتان يغطيها

الشعر ، منار رعب شامل ، وكان الناس يرهبون ، بصورة خاصة غنية الضعيرين
النفاذتين اللتين تحترقان الناس كمنقب من قولاد ، فيستشعر من تقع عليه نظراته ،
انه امام قوة وحشية ، لا يجرها الخوف ، قوة على أهنة البطش دواما راحة .
- تتخى ايها الجيف .

هكذا كان يقول بلهجة صماء . ومن خلال صوف وجهه الكثيف تلمع أسنانه
الصفراء ، فإذا بخصومه يتراجمون ، جنباء ، وهم يطرونه وابلا من السباب .
ويصبح بهم ثانية :

- أيتها الجيف .
... وتبرق نظراته شريرة حادة كالخز ، ثم يمشح برأسه في تحد ، ويتهمهم
ويستقزم :

- حسنا . من منكم يود ان تشكله امه ؟
ولكن احدا لم يكن يود ذلك .

لقد كان تزر الكلام ، وكان تعبيره الفضل : « أيتها الحقيقة » تبعث بها
مدراء العمل والبوليس ، ويستعملها حين يخاطب زوجته .
- ألا ترين أيتها الحقيقة ان سراويلي ممزقة ؟

... وعندما بلغ ابنه « بول » الرابعة عشرة ، راق فلانوف ان يسكه
من شعره ، ولكن « بول » أمسك بطريقة ثقيلة وقال بايجاز :
- لا تنسني .

وتساءل فلانوف :
- لماذا ؟

وتقدم نحو الفتى الرشيق الالهيف ، كالقطب الكبير حينما يغمر غصنا طريا ،
ولكن بول هز المطرقة وقال :
- هذا يكفي . ان ادعك تسمى .

ورنا إلى الأب ، ووضع يديه المكسوتين بالشعر وراء ظهره ، وقال ساحرا :
حسنا .

ثم أضاف وهو يتأوه بعمق :
- يا للجيفة النتنة .

وبعد قليل قال لزوجته :
- لا تطليبي مني دواهم بعد الآن . ان يول سيعيلك .
وتشجعت زوجته فسألته :

ولكنك ستدبر مالك كله على الشراب !
بهذا أمر لا يعينك أيتها الجيفة ، سأخذ لنفسي خلية صالحة .
ولم يتخذ خلية ، ولكنه منذ ذلك الحين حتى مماته ، اى طوال عامين
تقريبا ، لم يلق نظرة على ابنه ، ولم يوجه إليه كلمة .

فيلما وكان يملك كلبا ضخما الجثة ، كثيف الشعر مثله . وكان هذا الحيوان
يرافقه كل يوم الى العمل ، وينتظره ، في المساء ، عند بابه .
وفي الاحاد ، كان فلاسوف يجوب المقاهي . يسير صامتا دون ان يلبس

بكلمة او نظراته تجرّح المارة كأنه إنما يفتش عن أحد ما . وكان كلبه يتبعه
طوال المساء ، يخرج من الملبد الضخم .

وعندما كان فلاسوف يعود الى المنزل فلا ، يجلس الى المائدة ويقدم لكلبه
الطعام في طبقه ، وكان لا يظفره أبدا ولا يوكله ، ولكنه كان أيضا لا يدلله .
وكان إذا ما تهاونت زوجته برفع المائدة في الوقت المناسب ، يتدفق الاطباق
الى الارض ، ويضع أمامه زجاجة من الكحول ، ويسند ظهره الى الجدار ، ثم
يعوي بصوت كربه أصم ، يعوي بأغنية ما ، وفمه واسع مفتوح وعيناه
مغمضتان .

... وتعلق كلمات الأغنية الرعاعية الكثيرة بشاويبه اللذين يتساقط منها
فتات الحبز ، وتطلق اصابعه الغليظة تمشط لحية .
وبغني فتتطلق الكلمات مفتوحة مستعصية على الفهم ، ويدكر النغم
بالعواء ، عواء الذئاب في الشتاء .
ويستمر في الغناء ما احتوت زجاجة شرابا ، ثم يهوي الى جانب المقعد ، أو

يلقي برأسه الى الطاولة ، وينام على هذا الوضع ، وينام معه كلبه .. الى ان يتعالى نداء الصافرة .

... وأودى به فتق بعد ان لبث مسوّد الأسارير ، طوال ايام خمسة ، وكان يتقلب على سريره ، مطبق الاجفان ، ويصر بأسنانه ، ويقول لزوجته أحياناً :
- اعطني سماً ... سم الجرازين .

ووصف له الطبيب الكمادات ولكنه ، بالإضافة الى ذلك ، أعلن ان العملية الجراحية ضرورية ، وأن المريض يجب ان يُنقل ، في النهار نفسه ، الى المستشفى .
وصرف فلاسوف بأسنانه :

... - يا للشيطان . سأموت لوحدي أيتها الجيفة .
وعندما انصرف الطبيب ، ارادت زرجته الباكية ان تقنعه بإجراء العملية ، ولكنه قال لها ، وهو يهددها بقبضته :
- سأريك إذا ما شفيت .

... ومات في أحد الأصابع عندما كانت الصافرة تطلق نداءها الى العمل .
وعندما كان مسجى في تابوته ، كان فمه مفتوحاً غير ان حاجبيه كانا مقطعين مستشارين . وشيعته امرأته وابنه وكلبه ، ودانيلو فيسو فشيكوف ، اللص السكير الذي طرد من العمل ، وبعض البؤساء في الضاحية .

ولم تبكه زوجته كثيراً ، ولم يسفح عليه بول دمعة واحدة . أما أولئك الذين كانوا يمشون بالموكب ، من سكان الضاحية ، فكانوا يتوقفون ويرسمون علامة الصليب ويقولون لجيرانهم :

- يجب ان تكون بيلاجي مسرورة بلا شك ... لأنه مات !

ويرتفع صوت آخر مصحفاً :

- انه لم يمت ولكنه انطلق .

... وبعد ان انزل النعش في حفرته ، انكفأ الناس ، ولكن الكلب ظل هناك منظرحاً على الثرى الرطب ، يشم طويلاً ، تراب القبر ، دون ان ينبج .
وبعد ايام قليلة ، نُصرع الكلب ولا يدري أحد من الذي صرعه .

وفي يوم أحد ، وبعد وفاة أبيه بخمسة عشر يوماً عاد بول فلاسوف الى المنزل مثلاً ، وولج اول حجرة وهو يترنح ، ثم صاح وهو يضرب الطاولة بقبضته ، كما كان يفعل والده :- الى العشاء .

واقتربت امه فجلست الى جانبه ، واحتضنته ثم جذبت رأسه الى صدرها ، ولكنه : وقد كان يستند يده الى كتفها ، دفعها وصرخ :

- ابتعدي يا اماء ، ابتعدي خيباً .

وخاطبته بصوت حزين ملاطف ، منتصرة على مقاومته :

- أيها الحيوان الصغير .

وغغم بول ، ولسانه العصي يدور بصعوبة :

- اريد ان ادخن ، اعطني غليون أبي .

لقد كانت هذه هي المرة الاولى التي يشعل فيها ، وكانت الكحول قد انهكت جسمه ، ولكنها لم تكن قد أخذت ضميره ، وكان هناك سؤال يضح في رأسه :
- هل انا مثل ؟ هل انا مثل ؟

... وأربكته ملاطفات امه ، ومسته الحزن المثل من عينها ، فشعر برغبة في البكاء ، ولكنه تظاهر ، لكي يقهر هذه الرغبة ، بأنه مثل اكثر مما هو في الواقع .

وظلت هي تداعب شعره المشعث ، المبلل بالعرق ، وتخطبه برقعة :

- ما كان يجب ان ...

... وأخذته نوبة تقيؤ ، فحملته الى سريره ، بعد سلسلة من التقيؤات الغنيقة ، وغطت جبينه الباهت بمنديل مبلل ، فاستعاد نشاطه بعض الشيء ، ولكن كل شيء كان يدور حوله ، وفي محجريه ثقل وفي فمه حرارة وتقرز ؛ وكان يرنو من خلال أجفانه الى وجه امه الواسع ، ويفكر بلا انقطاع :

- أي ما أزال صغيراً على الشرب .. إن الآخرين يشربون فلا يحدث ذلك

اي ازعاج هم .. أما أنا فالشرت بسبب لي التقيؤ .

وتناهي إليه صوت أمه العذب البعيد :

— كيف ستمكمن من إعالي ، إذا ما بدأت تدمن الشراب ؟

فأغض عينيه وأجاب :

— إن الجميع يشربون .

... وتأوهت بيلاجي ، فهو على حق ، وهي تعلم إن الرجال لا يحسدون مكاناً آخر سوى الحانة ، ينشدون فيه المنيعة ، ومع ذلك فقد أجابته :

— أما أنت فيجب ألا تشرب ؛ لقد شرب إيك كثيراً بالنيابة عنك ؛ وعذبني كثيراً ، واستطاعتك أنت أن ترفقي بأهلك .

وأصغى بول إلى هذه الكلمات الحزينة الوداعة ، وذكر كيف عاشت أمه في الصمت ، والنسيان ، يعذبها الانتظار الممزق ، انتظار الصفعات ، لقد كان في الفترة الأخيرة لا يمكث في المنزل إلا قليلاً تجنباً للمقاء أبيه ، فكان لذلك إن ينسى أمه ، والآن وقد أخذ يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً ، ها هو يحرق بها بإمعان .

إنها كبيرة ، مقوسة القلعة قليلاً ، وجسمها الذي أنكره الجسد الطويل المتواصل ومعاملة أبيه السيئة ، يتحرك دونما ضجة ، يتحرك بانحراف ، كأنها حين تخطو ، تخشى الاصطدام بشيء ما . وفي وجهها البينوي الواسع المنتفخ الذي جفرت له التجاعيد تشع عيناها قاتمتان ، حزيتان ، تلفها الكراوية كيمبون معظم النسوة في الضاحية . وفوق حاجبها الأيمن يلوح ندب عميق الغور ، ويخيل للرائي أن أفتها لليفي ، أعلى قليلاً من الأخرى ، فهي تبدو لبدأ كأنها تنشر في الفضاء أدناً كثيباً ؛ وفي شعرها الكثيف الأسود تلوح خصلات بيضاء تميز بلونها

عن الآخرين .

لقد كانت كلها تسميل رقة وخزناً واستسلاماً ؛ وكانت عيناها تسميل على خديها ببطء .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

وعندما عادت إليه بالماء وجدته قد غفا ، فلبثت جامدة أمامه لحظة ، وفي

يدها يرتجف الأبريق ، ويرفع الجليد على حفافه .

ووضعت الأبريق على الطاولة ، وركعت بصمت أمام صور القديسين !

... وهزت زجاج النوافذ صرخات سكرى ؛ وفي الظلمات ، وضباب الليلة

الحريفية تعالى نباح الكوردون . وكان أحد المارة يغنى بصوت مرتفع جداً ، وآخر

مخفف بكلمات بذئية ، وكانت تسمع أيضاً أصوات نسوة مستثارة ونسوة كئيبة

منهمكة . وكانت الحياة في منزل آل فلاسوف الصغير تتابع سيرها أكثر هدوءاً

وسلاماً من ذي قبل ، ومختلفة بعض الشيء عما هي عليه في المنزل الأخرى . وكان

منهم هذا يقوم في طرف الشارع الكبير ، قريباً من منحى قصير وعري يؤدي

إلى مستنقع ، وكان ثلث المنزل عبارة عن مطبخ وغرفة صغيرة تنام فيها الأم ،

ومصطلي عن المطبخ حاجز رقيق ؛ أما الباقي فيؤلف غرفة مربعة ذات نافذتين ، ولم

يقوم في زاوية من زواياها سرير بول ، وفي زاوية أخرى مائدة ومقعدان . ولم

يكن في البيت من أثاث سوى بعض الكراسي ، وخزانة فوقها مرآة صغيرة ،

وصندوق للثياب ، وساعة جدار ، وايقونتان في إحدى الزوايا .

وقد فعل بول كل ما يوافق مزاج شاذ فاشيء ، فاشترى « الكوردون » وقمصاً

منشئ الصدر ، ورباط عنق براقاً ، وجزمة وعصاً ، فسأوى بذلك أترابه وكان

يسمر ويرقص بعض الرقصات التي تعلمها ، ويعود في الأحاد ، بعد أن يكون قد

شرب لفأعيرف ، وكانت « الفودكا » ذات تأثير قوي عليه ، فإذا شرب ،

شكا في اليوم الثاني صداً وحرقاً في المعدة ، وشحوباً في الملامح ومخموراً .

في سائر أحواله ، يميل إلى أن يكون رقيقاً ، ولا يملك إلا أن يمشي بهدوء .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

— لا تبكي ، وأعطني ماءً لأشربها .

من الليل .

وكانت بيلاجي تعرف انه يذهب الى المدينة ، ويتردد على المسرح ولكن
أحداً لم يعد من المدينة ليخبرها انه رآه . وكان يخيل اليها ان ابنها يغدو على مر
الأيام اقل ثروة ، ولكنها كانت تلاحظ ، في الوقت نفسه ، انه كان يستعمل بين
الفنية والفنية ، ما لا تدري من الفاظ جديدة لا تفهمها ، في حين ان التعابير الفجة
القاسية التي تعودتها منه ، قد اخذت تحتفي من لغته .

وظهرت في سلوكه تفاصيل كثيرة استرعت انتباهها ، فلقد أفلح عن التصنع
وصار يظهر عناية اشد بنظافة جسمه وثيابه ، واصبحت مشيته اشد اطمئناناً
وتحرراً ، ومظهره اكثر بساطة ورقة ، وهذا ما كان يقلق أمه .

وكان هناك ايضاً شيء جديد في سلوكه نحوها ، فلقد كان يكنس احياناً
حجرته ، ويرتب سريره ، ايام الاحاد ، ويحتد ، على وجه العموم ، في ان يخفف
من عبء مشاغلها ، ولم يكن في الضاحية كلها من يتصرف مثل هذا التصرف .
... وفي احد الأيام حمل بول معه لوحة تمثل ثلاثة اشخاص يسرون بحفنة
وجذل ، ويتحدثون ، وثبتت هذه اللوحة في الجدار وعلق عليها قائلاً :

— هذا هو المسيح الذي بُعث حياً في طريقه الى عمواس .

وأعجبت اللوحة بيلاجي ، ولكنها اعترضت :

— إنك تبارك المسيح ، ولكنك لا تذهب الى الكنيسة .

... وكان عدد الكتب يتكاثر باطراد ، فوق الرف الذي صنعه رفيق له
نحجار ، وكذلك كانت حجرتة تأخذ شكلاً لطيفاً محبباً ، وكان يخاطب بيلاجي
بـ «عظيم» ويسمها « الأم » ، ولكنه كان في بعض الأحيان يفاجئها متردداً :
— لانتلقي يا أماه ... فسأعود متأخراً .

... ومن خلال هذه الكلمات كانت تستشعر انه ينطوي على شيء قوي جاد
يثلج صدرها ، ولكن قلقها كان ينمو ، وكان الوقت الذي يمر لا يفلح في
تهدئة هذا القلق لأن الأحساس بأمر غريب مجهول كان يسحق فؤادها .
وكان عدم الرضا من ابنها يداخلها احياناً فتفكر :

الصمت ، تعبر عيناه الزرقاوان الواسعتان كعيني امه ، عن عدم رضاء .

... ولم يشتر بندقية ، ولم يذهب الى صيد السمك ، ولكنه كان يصدف
رويداً رويداً عن الحياة المشتركة التي يحياها الفتيان ، فلا يشهد السهرات الانادراً
وانسى كان يذهب ، في الاحاد ، فإنه كان يعود دون ان يكون قد تناول شيئاً
من الشراب ابداً .

وكانت امه التي تراقبه بعين يقظة ، كانت تلاحظ ان وجهه الامير المسفوح
يهزل ، وأن نظرتة تغدو اكثر صرامة ، وشفتيه تحملان تفضن قسوة غريبة .
وكان يبدو كمن ملأه غيظ أخرس ، أو كمن تلبسه داء وبيل .

لقد كان رفاقه من قبل يأتون إليه ، أما الآن فقد انقطعوا عن زيارته ، لأنهم
لا يجدونه ابداً في البيت ؛ وكانت امه تلاحظ بكثير من الغبطة انه لا يقلد أترابه
في العمل ، ولكن احساساً بخطر مجهول كان يحتاج قلبها ؛ عندما كانت تلمس
عناده وتهربه من الانتظام في تيار الحياة العامة .

وكانت تسأله أحياناً :

— إنك لست على مايرام يا صغيري بول .

فيجيب : بلى ... اني على مايرام .

وتتأوه : كم انت نحيل .

ويدأ يحمل كتباً ويقراها في الخفاء ثم يخبئها في مكان ما ، وكان أحياناً ينسخ
فصلاً بكامله على ورقة ، ثم يخبئها هي أيضاً .

وكانا قليلاً ما يتحدثان ، أو يتقابلان ، كان يشرب شايه في الصباح دون
ان ينبس بكلمة ، ثم ينطلق الى عمله . وعند الظهيرة يعود ، لتناول الغداء ،
فيتبادلان على المائدة بعض الكلمات المجردة من المعنى ، ويتوارى هو من جديد
حتى المساء .

وإذا ما تصرم النهار استحم بعناية ، وتناول عشاءه ثم انصرف الى كتبه
طويلاً ، فإذا أقبل الأحد ، انطلق منذ الصباح ، كيلا يعود إلا في ساعة متأخرة

« إن الآخرين يعيشون كرجال ، أما هو فيحيا كراهب . انه مسير في الجدية والاتزان وهذا ما لا يتلاءم وسنه . »
وكانت تسأل : اتراد عاشقا ؟

— اتي اقرأ كتباً ممنوعة. انهم يحرمون قراءتها لأنها تنطبق بالحقيقة عن حياتنا كغالب هؤلاء الكتب تُطبع في الخفاء وإذا عثروا عليها في حوزتنا ، فإنهم ينجسونني في السجن ، أجل في السجن ، لأنني اريد ان اعرف الحقيقة !

تشعر بفيض من الأحاسيس العذبة يتدفق في صدرها ، وبعدوبة هذه الأحاسيس المحبولة تبعث الدفء في قلبها .

— ثم .. ماذا تريد ان تفعل ؟

— أعلم ثم أعلم الآخرين . يجب علينا نحن معشر العمال ان ندرس ، ان نعرف ، ان ندرك لم كانت حياتنا هكذا شديدة القسوة !

واستعذبت ان ترى عينيه الزرقاوين القاسيتين الجادتين أبداً ، نومضان الآن بكثير من الرقة والعذوبة ، وبدت على شفيتها ابتسامة خفيفة ، ابتسامة رضى ، في حين ان عبراتها كانت ما تزال ترتعش في تجاعيد وجهها .

لقد كانت موزعة بين شعورين : كانت فخورة بإنها الذي يدرك جيداً أسباب البؤس في الحياة ، ولكنها كانت لا تستطيع أن تنسى أنه ما فتى صغيراً ، وأنه لا يتكلم كأترابه ، وأنه قرر أن يخوض المعركة وحده ضد الحياة الرتيبة التي يحياها الآخرون ، والتي تحياها هي أيضاً ، وكانت تود أن تقول له :

« وماذا تستطيع أن تفعل وحدك يا صغيري ؟ » ولكنها كانت تخشى أن تقطعه حقه من الاعجاب ، حقه هو الذي بدا لها بفتة حاد الذكاء ، فيه بعض من غرابة .

ورأى بول البسمة على شفتي امه ، وقرأ الانتباه في ملاحظها والحب في عينيها ، فأدرك أنه استطاع أن يفهمها حقيقة ، وفجر الزهو الفتي ، الزهو بقوة حديثه ، الإيمان في نفسه ، فاندقم ، وقد ملأه الحماس ، يتكلم ساخراً تارة ، مقطب الجبين تارة أخرى . وكان الحقد يدوي ، بين الفينة والفينة في صوته ، وكانت أمه ، حين تسمع مقاطعه العنيفة القاسية تهز رأسها مذعورة وتسأله بصوت خفيض :

— أهكذا إذن يا بول ؟

وكان يحجب بصوت حازم : نعم .

لقد كان يحدثها عن أولئك الذين يبتغون خير الشعب ، عن أولئك الذين يبدرون الحقيقة ، والذين يطاردهم أعداء الحياة من أجل ذلك ، يطاردونهم كالحيوانات المتوحشة ، ويزجونهم في السجن ، وصاح بحدة :

بناءين .. أما الآن فهو مؤلف من سبعة !

وكانت تصغي اليه برعب ونهم ، وكانت عيناه تبرقان جيلتين صافيتين ، وكان يقترب من امه ، وهو يسند ظهره الى الطاولة ، حتى كاد يلامس وجهها الغارق بالدمع . ولأول مرة ، كان يبوح بما وعى ، ويتحدث بكل إيمان الشباب ، وحرارة التلميذ الفخور بمعرفته للحقيقة ، هذه المعرفة التي يؤمن بها كدين . كان يتحدث عما يعتقده جلياً واضحاً ، ولم تكن غايته ان يتحدث الى امه فحسب ، بل ان يبرهن أيضاً عن إيمانه .

.. وكان يتوقف بين الفينة والفينة ، إذ تعوزه الكلمات فيروا الى الوجه الكئيب الذي تلمع فيه عينا طيبتان غاصتان بالدمع ، ملفعتان بالرعب والقلق ، يروا إليه فيشفق عليها ، على امه ، ويمضي ليتحدث عنها هذه المرة ، عن حياتها : — أية هنا أت عرفتكم .. ؟ أتستطيعين ان تحدثيني عن شيء بهيج في حياتك ؟ .. وكانت تصغي ، وتهز رأسها بأسى ، وتعاني احساساً بشيء جديد لم تعرفه من قبل ، احساساً هو مزيج من الغضب والغبطة ، وكان هذا الإحساس يداعب بعدوبة قلبها المتوجع .

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها حديثاً كهذا عن نفسها ، عن حياتها ، وكانت تلك الكلمات التي سمعتها توقظ فيها مخاوفاً مبهمة طواها الحذر منذ أمد بعيد ، وتعيد بلطف ، الحياة الى إحساسها المنطفيء بالحرمان المظلم ، الحرمان من الحياة . وتبعث من جديد خوافاً شبيهاً البعيد وانطباعاته . لقد كانت تستعيد قصة طفولتها مع أترابها . وتتحدث طويلاً عن كل شيء . ولكنها كانت ، كالأخريات ، لا تعرف إلا التشكي ، ولم يكن احد ليشرح لها لم كانت الحياة شديدة القسوة ، شديدة العسر .

وهو ذا ابنها القابع هناك ، يس بكل ما تقوله عيناه وملاحظه وكلماته ، يس بذلك كله قلبها . ويلاً هذا القلب زهو أبه ، هو الذي فهم جيداً حياتها ، وحديثها عن آلامها ورثى لها كل ذلك . ما كان لأحد أن يرثي للأمهات !

وكانت تعلم ان ما قاله بول عن حياة النساء هو الحقيقة ، الحقيقة المرة . وكانت

— لقد رأيت رجالاً كهؤلاء .. وانهم لأفضل من في الدنيا ..
وأثار « هؤلاء الرجال » رعب أمه وودت أن تسأله ثانية :
— أهلكذا إذن يا بول ؟
ولكنها لم تفعل ، بل راحت تصغي ، مبهورة ، إلى أحاديث بول عن
هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع فهمهم ، والذين لقنوا ابنها أسلوباً خطراً في
القول والتفكير .

وقالت له : لقد أوشك النجر أن يزعج ، فهلاً ذهبت لتنام ؟
فأجاب : سأذهب حالاً ..
ومال إليها يسألها : ..
— هل قهمني الآن ؟
وتأومت : أجل : وفاضت دموعها من جديد .. وأضافت وهي تشفق :
— إنك تلقي بنفسك إلى التهلكة ..
وتنهض ، وخطا يضع خطوات في الغرفة ..

— حسناً . لقد عرفت ماذا أفعل ، وأي طريق أسلك ، لقد بحث لك
بكل شيء ، وإني لأتوسل إليك يا أماء ، إذا كنت تحبيني حقاً ، ألا تحولي بيئي
وبين ذلك ..
وصرخت : يا عزيزي ..

ثم قتمت : ليت لم يبع لي شيء ..
فأخذ يدها ، وشد عليها بقوة بين يديه .
ومستها هذه الكلمة التي لفظها بكثير من الحرارة « يا أماء » ، وهذا الضغط

الغريب على يديها وهو ما لم تألفه من قبل ، فقالت بصوت لاهث :
— لن أفعل شيئاً لأحول بينك وبين ما تبغي ، ولكنني أطلب إليك فقط
أن تكون حذراً ، أن تكون حذراً ..
ودون أن تدري هم تنحدره أضافت بأسى :

— إنك تزدد انحوراً يوماً عن يوم ..

ولفت جسمه القوي المتين بنظرة حادة مدله ، وقالت له بصوت منخفض ،
وعلى عجل :

— ليحفظك الله يا بني . افعل ما تشاء فلن امنعك أبداً ، ولن أطلب منك
إلا أمراً واحداً فحسب ، هو أن تكون حذراً حين تخاطب الناس . يجب أن
تجنبهم . انهم يكرهون بعضهم بعضاً . انهم طماعون حسودون ، يسعون أن
يقترفوا الأذى ، وإذا ما شرعت في اطلاعهم على حقائقهم ، في الحكم عليهم ،
فإنهم سيكرهونك ، سيقضون عليك .

وابتسم بول الذي كان يصغي إلى هذه الكلمات المرة ، وهو منتصب بالقرب
من الباب :

— أجل إن الناس أشرار ، ولكنهم أصبحوا ، مذ تعلمت أن هناك حقيقة
على الأرض ، خيراً مما كانوا وأفضل .
وابتسم ثانية ثم أردف :

— أنا نفسي لا أدري كيف حصل ذلك . لقد كنت في طفولتي اخشى كل
شيء في العالم ، وعندما كبرت مُيئت لأن أكره البعض لجنهم ، ولأن أكره
الآخرين هكذا دون أن أعرف لذلك سبباً ، أما الآن ، فإنهم مختلفون بالنسبة
إلي ، وإني لأشفق عليهم كما أعتقد ، أنا لا أدري كيف ، ولكن قلبي يتفطر عندما
أدرك انهم ليسوا هم المسؤولين عن خساستهم !

وصمت لحظة ، كأنه إنما يصغي لشيء في داخله ، ثم تابع وهو مطرق :
— لهذا ما تهمس به الحقيقة .

ودنت إلى يمينها وغمغت :
— لشد ما تغيرت ، ولشد ما تخيفني ... آه يا بني .

... وعندما أوى إلى فراشه وتام ، نهضت دونما جلبة ، ودنت من سريره
بهدهوء ، وكان بول مستلقياً على ظهره ، ووجهه الشاحب الصارم يلقي بظله على
الوسادة البيضاء ، ويداه تنعقدان فوق صدره ... وكانت هي إلى جانب السرير
حافية القدمين ، تتحرك شفتيها بصمت ، وتنحدر من عينيها ، ببطء ، دموع
كبيرة عكرة تتساقط دموعاً بعد دموعاً .

... واستمرت حياتها صامتة ، واستمر اقربين بعيدين ؛ حتى إذا كان يوم عيد في وسط الاسبوع ، قال بول لأمه وهو يهيم بالذهاب :

— سيكون عندي ، نهار السبت ، ضيوف من المدينة ؟

وسألتها امه : من المدينة ؟

ثم انخرطت في البكاء .

وصاح بها بول محتثاً : لم تبكين يا اماه ؟

فتأوهت وهي تمسح دمعها بثمرها : لا أدري لماذا ؟

— هل أنت خائفة ؟

فاعترفت : أجل ... اني خائفة .

فقال إليها ، وقال لها بصوت غاضب كما لو كان يخاطب طفلاً :

— هذا الخوف هو الذي يفجرتنا جميعاً . أما اولئك الذين يحكوننا فإنهم يستغلون هذا الخوف ، ويزيدوننا وهبة .

فناحت امه : لا تغضب . أتريدني ألا أخاف وقد عشت حياتي كلها خائفة ؟

فأجابها بصوت خفيض ناعم :

— اغفري لي ، لا أستطيع أن أفعل غير هذا .

ثم خرج .

وظلت مضطربة طوال أيام ثلاثة ، وكان قلبها يتوقف عن الوجيب كلما تذكرت أن أولئك الناس سيأتون إلى منزلها .. إنهم غرباء لا بد أن يكونوا مخيفين ، ثم إنهم أولئك الذين اوضحوا لابنها الطريق الذي يسلكه الآن .

وفي مساء السبت عاد بول من المعمل ، فاستحم ، وأبدل ملابسه ، ثم غادر المنزل وهو يقول لأمه دون أن يرفع إليها بصره :

— قولي لهم إذا جاءوا ، اني سأعود في الحال ؛ وأرجوك ألا تخافني .

... وتهاكت على المقعد خائزة القوى ، فقطب بول حاجبيه وسأها :

— ربما كنت تودين الخروج !

فأحنقها ذلك ، وهزت رأسها بالنفي :

— لا ، وعلام أخرج ؟

... وكان ذلك في نهاية تشرين الثاني ، وكان ثلج خفيف ناعم قد تساقط اثناء النهار على الأرض المتجمدة ، وانها لتسمعه الآن يفرقع تحت أقدام بول الذي مضى ، وفي زجاج النافذة كانت تزدحم الظلمات الكثيفة البغيضة ، تزدحم دون حراك في الكوى ، في حين ظلت هي جالسة تسند مرفقيها الى المقعد ، وتنتظر وبصرها مستمرة على الباب .

وكانت تتراءى لها في العتمة كائنات شريرة ، غريبة الازياء ، تتوافد نحو المنزل من كل صوب ، وكانت هذه الكائنات تشي بخطى ذنبية مقوسة الظهور ، تتلفت في كل اتجاه ؛ وهوذا الآن شخص منا يطوف بالبيت ، ويتحسس الجدار بيديه .

وتعالى صفير شق طريقه في الصمت كالخط الدقيق ، حزينا منغمماً ، وباه متأملاً في فراغ الظلمات ينشد شيئاً ما ، ويدنو ، ثم غار فجأة تحت النافذة ، كأنه إنما تخار في خشب الحاجز .

وسمعت وقع خطوات تتساحب في الداخل ، فارتعشت ، ونهضت قد عينيها الجاحظتين .

وشرع الباب وظهر أولاً رأس يعتمر قبعة واسعة من القطيفة ثم انسلت جيطم قامة فارعة مخنية ما لبثت أن انتصبت ورفعت ، على مهل ، ذراعها الأيمن ، وتنفس الداخل الصعداء بصوت صادرٍ من اعماق الصدر وحيثاً :

— طبت مساءً .

فأحنخت الأم دون أن تنبش بينت شفة .

— أليس بول هنا ؟

... وخلع الرجل ببطء سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع رجله ، وراح ينكت بقبعته ، ما علق على حدائه من ثلج ، ثم كرر نفس الحركة ونفض الثلج

عن حذائه الآخر ؛ والقى بالقبة في احدى الزوايا ، ودخل الحجرة مترخفاً على
ساقيه الطويلتين .

ودنا من كرسي فتفحصها كما لو كان يتأكد من متانتها ، ثم جلس وتشاءب
مغطياً فيه يديه .

وكان رأسه كامل الاستدارة ، نظيفاً من الشعر ، وكان حليق الوجه يحمل
شاربين طويلين متهدي الاطراف .

وتفحص الحجرة بعينه الواسعتين الجاحظتين كعيني ثعل ، ووضع احدى ساقيه
فوق الاخرى ، وسأل وهو يهدد كرسيه :

— وكوخك ، أهو ملك لك أم أنك تشغلينه بالايحار ؟

وأجابته بيلاجي التي كانت تجلس قبالة :

— إننا نشغله بالايحار .

فقال : إنه ليس فخماً .

وقالت بفتور : سيعود بول بعد قليل ، فانتظره .

فأجاب الرجل الطويل بهدوء :

— وهذا ما أفعله .

وأعاد هدوءه وصوته العذب وبساطة ملامحه ، الشجاعة الى نفسها ، وكان هو
ينظر إليها بصراحة ووجه عطوف ، وكان شعاع من المرح يتراقص في عينيهِ
الشفافتين ، وكان في هيكله المقرن المحدود ، بساقيه الطويلتين ، شيء يثير
البسمة ويحببه الى القلب ، وكان يرتدي قميصاً أزرق ، وبنطلوناً اسود أدخلت
اطرافه في الحذاء .

وودت الأم أن تسأله من يكون ؟ ومن أين أقبل ؟ وما اذا كان يعرف
ابنها منذ امد بعيد ، ولكنه تمل فجأة ، وبأدورها هو بالسؤال :

— ومنذا الذي ثقب جبهتك هكذا ايته الأم الصغيرة ؟

وكانت لهجته لا كلفة فيها ، وكانت في عينيهِ بسمة طيبة صافية ، ولكن
السؤال أحنقها ، فزمت شفتيها ، وبادهته بعد لحظة من الصمت ، وبتهذيب بارد :

— وماذا يعنيك امر ذلك ايها السيد العزيز ؟

فاستدار نحوها بكل كيانه :

— لا تخفي ، فلقد سألتك هذا السؤال لان أمي بالتبني كانت هي أيضاً تحمل
في جبهتها ندباً كالذي تحملينه ، ولقد احده لها قرينها الذي كان اسكافياً إذ ضربها
بأحد القوالب ، لقد كانت هي غسالة ، وعندما تبنتني كان ذلك السكير قد عثر
عليها لسوء حظها ، في مكان لا أدريه ، وكان يضربها ولن اقول لك غير هذا ،
فقد كان يتولاني خوف منه كخوفي من الشياطين .

وشعرت الأم ان هذه الصراخة قد جردتها من سلاحها ، وفكرت بأن ما
أظهرته من طبع سيء تجاه هذا الرجل الشاذ ، سيحرق بول ، فابتسمت ابتسامة
الخطيئة :

— أنا لم أغضب ، ولكنك فاجأتني بالسؤال : إن زوجي ، تعمد الله برحمته ،
هو الذي قدم لي هذه « الهدية » ... ثم ألسنت انت تقريباً ؟

... وارتعشت ساقاه الطويلتان ، وتألق وجهه ببسمة عريضة جداً بحيث
قدلت معها اذناه حتى غنقه ثم قال يحد :

— كلا ، لست تقريباً حتى الآن !

فقال ، وقد ادركت مغزى مزاحه :

— ولكن لهجتك ، كما يقال ، ليست لهجة روسي .

فصاح اللصيف بمرح ، وهو يمز رأسه وقد ادرك نكتتها :

— بل احسن من لهجة روسي . « إي بيوروسي » (١) من مدينة « كاينيف » .

— وهل انت هنا منذ زمن طويل ؟

فقال وهو يمسد شاربيه :

— لقد حللت في المدينة منذ غام تقريباً ، ومضى حتى الآن شهر على مجيئي

الى العمل . لقد التقيت في العمل برجال اخبار ، ابنك والآخرين ، واني اود
ان استقر هنا .

(١) من سكان روسيا البيضاء

حوادث أعجابها ، واحسث برغبة في ان تشكره للكلمة الطيبة التي اثنى بها على ولدها :

- أود ان تتناول قليلا من الشاي ؟

فأجاب وهو يهز كتفيه :

- ولكن أتريدني ان اكون المدعو الوحيد ؟ عندما يجتمع الشمل تقومين بواجبات الضيافة !

وعاودها الخوف فهبت بحرارة :

« شريطة ان يكونوا جميعهم مثله »

وسمع من جديد وقع اقدام في الرواق ، وفتح الباب بعنف ، فنهضت الأم ، وادهمشها كثيرا ان ترى ان القادم لم يكن سوى فتاة حديثة السن ، ذات وجه قروي بسيط ، وضافتر كثيفة من شعر متألق :

- احسب اني لست متأخرة ؟

فأجاب البيوروسي الذي كان ما يزال في الحجرة :

- كلا .. وهل أتيت مشيا ؟

- اجل ... وهل انت والدة بول ؟ طاب مساوك ... اني ادعى نانشا ،

- واسم ابيك ؟

- فاسيليفنا . وانت ؟

- بيلاجي نيلوفنا .

- ها نحن إذن قد تعارفنا .

وأجابت بيلاجي بزفرة خفيفة :

- اجل .

ثم راحت تتفحص الفتاة باسمة .

... وساعد البيوروسي الفتاة على خلع معطفها :

- هل الطقس بارد ؟

- نعم ... إنه بارد جداً في الحقول .. والرياح تصفر ...

... وكان صوت الفتاة صافياً مرناً ، وفيها صغيراً مكتنزاً ، وجسمها للدنا

ملتفاً ، وبعد ان خلعت معطفها ، راحت تفرك بشدة وجنتيها القرمزيتين بيديها الصغيرتين اللتين احمرتا من البرد ، ثم ولجت الغرفة بسرعة ، بعد ان نفضت على العتبة اعقاب حذاءها .

ومرت يحاطر الأم هذه الفكرة :

- لعلها لا تملك حزمة .

وقالت الفتاة وهي ترتجف ، وتمط كلماتها :

- اجل .. اني متجمدة ... يا آلمي .

وقالت الأم بحرارة وهي تتوجه نحو المطبخ :

- سأعد لك الشاي بسرعة ، وستشعرين بالدفء .

ولم تخيل اليها انها تعرف الفتاة من زمن بعيد ، وانها تحبها كأم طيبة رؤوم ،

وراحت وهي تبتسم ، تصفي الى الحديث الذي يدور في الحجرة .

- إنك لا تبدو منشراحاً يا ناكودكا .

ويجب البيوروسي بصوت منخفض :

- وهو كذلك . ان لهذه الأرملة عينين طيبتين ، واعتقد ان عيني أمي ربما

كانتا شبيهتين بها . وانت تعلمين اني كثير التفكير بأمي ، ويخيل اليّ دوماً انها

ملا تزال حية .

- اتقول انها ماتت ؟

- كلا ... هذه أمي بالتبني ... وانا اتحدث عن أمي الحقيقية . اني اتصورها

تتسول في ناحية ما من « كييف » ، وتشرب الفودكا ، وعندما تشمل ، يهشم

رجال الشرطة وجهاها .

وقالت الأم في نفسها : « يا للسكين » ثم تأوهت .

.. واخذت نانشا تتكلم بسرعة وحرارة ، ولكن بصوت خفيض ، ثم رن

من جديد صوت البيوروسي .

— أنت ما زلت غرة يا رقيقة . انك لم تتعودي شطف العيش . ان الاتيان
يطفل الى الدنيا أمر عسير ، وتربيته تربية صالحة أمر أشد عسراً .
وقالت الأم لنفسها : أرايت ؟

وودت أن تتوجه بكلمة لطيفة معزية الى البيوروسي ، ولكن الباب فتح
ببطء ودخل نيقولا فيسوشيكوف ، ابن ذلك اللص العجوز ، لص «دانيلا» .
ان الضاحية كلها تعتبره كذب . إنه ابتداء مقطب الجبين ، يعيش في عزلة عن
الناس ، وهو دائماً عرضة لسخرتهم بسبب خلقه النفور .
وسألته بيلاجي وقد اخذتها الدهشة :

— ماذا تريد يا نيقولا ؟

فسح براحتة الواسعة وجهه المجدور النائي الوجنتين ، ودون ان يلقي تحية
المساء سألها بصوت خفيض :

— هل بول هنا ؟

— لا .

... وألقى نظرة على الحجرة ثم دخل .

— طبت مساء ايها الرفاق .

ومست الأم بحقد : «وهو ايضاً ؟ وادهمها ان ترى نانا قد اتى اليه يدها
بوجه طلق ودود .

... ثم اقتبل شابان يافعان يكادان يكونان غلامين ، وعرفت بيلاجي احدهما .

إنه «تيو» حفيد عامل في المعمل يدعى «سيروف» ، وكان ذا وجه مقرن ،
وجبهة عالية وشعر مضفور . أما الثاني فكانت لا تعرفه ، وهو ذو شعر أملس
ومظهر متواضع ، وليس في شكله — هو الآخر — ما يبعث على الخوف .

... وأخيراً اقتبل بول يصحبه رفيقان تعرفهما ، انهما من عمال المعمل .
وسألها ابنها بلطف :

— هل اعددت الشاي ؟ شكراً .

وسألته ، وهي لا تعرف كيف تعبر له عن شعورها بالتقدير الذي تحسه في لاوعياها :

— اينبغي استحضار بعض المشروب ؟

فأجابها بول وهو يتسم بطيبة .

— كلا ... لا لزوم لذلك .

ورأودها خاطراً بأن ابنها قد بالغ كثيراً في تصوير خطر هذا الاجتماع ،

ليسخر منها ، فسألته بصوت هامس .

— أهؤلاء هم الناس الخطرون ؟

فأجاب وهو يلج الغرفة :

— انهم هم بالضبط .

فقالت بغبطة : حسناً ..

ولكنها غفقت في سرها :

— انه ما زال طفلاً ...

— ٦ —

كان الماء يغلي في ابريق الشاي ، فحملته الأم الى الغرفة ، وتحلق الضيوف

حول الطاولة ... أما «ناناشا» فظلت ، قابضة ، وفي يدها كتاب ثقليه ، تحت

المصباح ، في احدى الزوايا .

— لكي ندرك لم يعيش الناس حياة سيئة جداً ..

فقاطعها البيوروسي :

— ولكي ندرك لم يكونون هم انفسهم اشراراً ...

— يجب أن نعرف كيف بدأوا حياتهم .

ومست الأم وهي تهيب الشاي :

— اسمعوا يا ابنائي اسمعوا ...

وصمت الجميع وسألها بول مقطب الحاجب :

— ماذا قلت يا اماء ؟

— أنا ؟

— ٢٩ —

— ٢٨ —

ولكنها ، وقد رأت عيونهم جميعاً مركزة عليها ، أجابت بارتباك :
- لقد قلت ما قلته عفواً ، قلته هكذا لنفسى .

وضحكت ناتاشا ، وابتسم بول ، أما البيوروسي فقال :
- شكراً على الشاي أيتها الأم الصغيرة .

وردت :

- أتشكرني ولم تتذوقه بعد ؟

ثم أضافت ، وهي تحديق بابنها :

- لعل وجودي بينكم يزعجكم .

وأجابتها ناتاشا :

- وكيف تزعين ضيوفك وانت ربة البيت ؟

ثم صاحبت بلهجة طفولية صارعة ؟

- اعطني الشاي بسرعة يا بيلاجي الطيبة ؛ إني أرشح ، ورجلاي متجمدان .

وردت الأم : حالاً ، حالاً .

وشربت ناتاشا فنجانها ، وتهدت بصوت مسفوع ، وقذفت ضيقها الى ما وراء ظهرها ، واخذت تقرأ في كتاب مصور أصفر الجلد .

... وراحت الأم ، وهي تحاول ألا تحدث بفنائنها أية جلبة ، راحت

تسكب الشاي ، وتصفي الى صوت الفتاة الأيقاعي الصافي النبرة ، هذا الصوت الذي كان يواكب الأغنية العذبة ، أعنية إيريقي الشاي .

... وكالثوب الرائع انبسط أمام عينيها قصة أولئك البدائين المتوحشين الذين كانوا يعيشون في الكهوف ، ويصطادون الحيوانات الضارية بالحجارة .

لقد كانت القصة ممتعة ، وكانت بيلاجي ، بين الفينة والفينة ، تلقي على ابنها نظرة متسائلة ، وتود أن تسأله عما هو محرم في هذه القصة ؛ ولكنها لم تلبث أن تعبت من متابعة السرد ، فراحت تتفحص ضيوفها :

لقد كان بول يجلس الى جانب ناتاشا ، وكان هو أو مهمم جميعاً ؛ وكانت

الفتاة وهي منكبة على كتابها ، ترد بين اللحظة واللحظة ، شعرها الذي ينهمر على جبينها .

لقد كانت تهز رأسها ، وتترك كتابها قليلاً ، وتخف من صوتها لتدلي ببعض الملاحظات الشخصية ، في حين كان بصرها ينزلق بحبة ، على وجوه سامعيها . وكان البيوروسي يستند بصدرة العريض الى زاوية الطاولة ، ويلقي نظرة حواء على شاربيه ، محاولاً أن يرى أطرافها العصية . وكان فيسو شيكوف جالساً على كرسيه ، جامداً كالتمثال ، ويداه على ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العطل من الحاجبين ، يبدو بشفتيه الرقيقتين جامداً كالقناع ؛ وكانت عيناها الضيقتان ، تتركزان على ملامحه التي يعكسها النحاس المتألق ، فيبدو كأنه خامد الأنفاس . وكان «تيو» الصغير يصغي الى القراءة ، وهو يحرك شفتيه بصمت كأنه يستعيد الكلمات ، في حين كان رفيقه يبسم بتفكير ، محدوب الظهر ، ويسند مرفقيه الى ركبتيه ، ويحضن خده بباطن كفييه .

وكانت احد الشابين اللذين رافقا بول اشقر الشعر ، اجعده ، ذا عينين خضراوين مرحتين ، وكان يريد بلا شك أن يقول شيئاً لأنه كان يتملبل بصبر نافذ . أما الآخر ، ذو الشعر الأشقر القصير ، فقد كان يمر يده على رأسه المائل نحو الارض ، ولا يرى من وجهه شيء . وكان الجو في الحجرة على ما يرام ، وكانت الأم تستشعر ارتياحاً خاصاً تجمل سببه حتى الآن ، وعندما عادت ناتاشا الى القراءة ، مزهوة ، كانت هي تستعيد أمسيات شبهاها الصاخبة ، والأحاديث الفجة ، أحاديث الفتيان الذين كانت رائحة الحرة تتضوع من انفاسهم ؛ وتذكر مزاحهم الوقح الماجن ؛ وهصر قلبها ، وهي تستعيد هذه الذكريات ، احساس بالشفقة ، الشفقة على نفسها .

... وانبعثت في خاطرها ذكرى خطبتها لزوجها الراحل : لقد امسك بها في احدى الامسيات ، في ظلام المدخل ، وحشرها بالجدار وهو يميل عليها بكل ثقله ، وسأله بصوت مخنق اصم :
- هل تريدان الزواج مني ؟

وشعرت بأنها أهنت ، وآلمته وهي تعرك صدره ، فنتق مخاطه ، واطلق في وجها انقاسه الحارة الرطبة ، فيما ظلت هي تحاول ان تفلت من بين يديه ، ان تهرب منه . وزبحر :

— الى اين تذهبين ؟ اجيني .

.. ولم تجب ؛ فهي جريمة الكرامة حتى الاعماق ، يكاد الخجل يخنقها .

وفتح باب المشي فجأة ، فأفلتها ببطء وقال :

— سوف أبعث نهار الاحد بمن يطلب لي يدك !

... ولم يخلف وعده .

وأغمضت بيلاجي عينيها ، وارسلت زفرة عميقة .

وبغتة ، دوى صوت فيسو شيكوف الحانق :

— أنا لست بحاجة لان اعرف كيف كان الناس يعيشون من قبل ، ولكنني

بحاجة الى أن اعرف كيف ينبغي أن يعيشوا اليوم .

فصاح الفتى الاحمر الشعر وهو يثب واقفاً :

— أجل هذا ما ينبغي ان نعرفه .

ورد تيو :

— انا لا اوافقكما على ذلك .

واحتدم النقاش ، وكانت صرخاتهم تندفق كالسنة الذهب ، ولم تكن الأم

لتدرك لم يتصاحبون ، وكان الانفعال يضرع وجوههم جميعاً ، ولكن احداً

منهم ، لم يتلفظ بما تعودت سماعه من خشن الكلام .

ومرت بخاطرهما هذه الفكرة :

«لعل وجود الفتاة بينهم هو الذي يهذب الفاظهم»

ووجدت لذة في تأمل وجه ناتاشا الصارم ، ناتاشا التي كانت تراقبهم بيقظة كما

تراقب الأم اطفالها .

وصاحت بهم الفتاة فجأة :

— اصغوا الي ايها الرفاق .

فصمتوا جميعاً ، واستدارت نحوها عيونهم .

— إن أولئك الذين يقولون بأنه ينبغي لنا ان نعرف كل شيء هم المصيدون .

إن نور العقل يجب ان يهديننا نحن ايضاً ، واذا كنا نود ان نغد بالنور أولئك الذين

يغفرون في الظلمات ، فيجب ان يكون باستطاعتنا الرد بشرف وامانة على كل

الاسئلة . يجب علينا ان نعرف الحقيقة كلها ، والبهتان كله .

وكان البيوروسي يصغي ، ويهز رأسه على إيهام كلماتها ، أما فيسو شيكوف

والفتى الاحمر الشعر ، والعامل الذي جاء مع بول ، فقد كانوا يشككون زمرة

متميزة . وكان ذلك لا يروق للأم ، دون ان تدري لماذا .

وعندما انتهت ناتاشا كلامها نهض بول ، وسأل يهدوء :

— هل ان ما نفيه هو أن نأكل حتى التخممة ؟

ورد بنفسه على هذا السؤال ، وهو يحدق بثبات ، الى زملائه الثلاثة :

— كلا .. علينا ان نبرهن لأولئك الذين يسكون بأعناقنا ويسملون ابصارنا

انتا نرى كل شيء ، وانتا لسننا بلهاء ولا بدائين فطريين ، وان ما ننشده ليس

هو أن نأكل فحش ، بل أن نعيش ككائنات جديرة بالحياة ، يجب ان نبرهن

لأعدائنا ان حياة الارهاق التي يفرضونها علينا ، لا تحول دون ان نكون في

مستواهم ذكاء ، بل ، وفوق مستواهم .

... وكانت الأم تصغي اليهم وترتمش مزهوة إذ تسمعه يحسن الكلام الى

هذا الحد .

وقال البيوروسي :

— في الناس اكثر من متخم ، ولكن ليس فيها شرفاء ، وعلينا ان نقيم عبر

المستنقع الآسن ، مستنقع الحياة ، ممراً يقود خطانا نحو عالم جسد من الطيبة

الاخوية . هذه هي مهمتنا ايها الرفاق .

وردد فيسو شيكوف يهدوء :

— عندما تحين ساعة المعركة ، لا يبقى هناك من وقت لتنظيف الاظافر .

.. وكان اكثر من نصف الليل قد تصرّم ، عندما افترقوا ، وكانت اول

النصر فين فيسو شيكوف والفتى الاحمر الشعر ، ولم يعجب ذلك ايضاً الام ،
فغمغت في سرها مخنقة ، وهي ترد على تحيتهم :

— انظري كم هم متمجلون !

وسألت ناناشا :

— هل ترافقني يا ناكودكا ؟

فأجاب البيوروسي : هذا اكيد ،

وفيا كانت ناناشا ترتدي معطفها في المطبخ قالت لها الأم :

— إن جواربك شفافة لا تلائم طقساً كهذا الطقس ، وسأصنع لك ، اذا

وافقت ، جورباً من الصوف .

فأجابت ناناشا ضاحكة :

— شكراً يا بيلاجي . إن جوارب الصوف خشنة تحز ساقى .

— ولكني سأصنع لك زوجاً ناعماً لا يحز ساقيك .

فتأملتها ناناشا بعين غامزة قليلاً ، واريكت هذه النظرة الثابتة الأم ،
وأردفت بصوت خفيض :

— اغفري لي بلامتي ، فلقد قلت ما قلته عن طيبة قلب .

وردت عليها ناناشا ، برقة ، وهي تشد يدها :

— لكم انت طيبة .

وقال لها البيوروسي وهو ينظر اليها نظرة صريحة :

— طابت ليلتك أيتها الأم الصغيرة .

واغنى ليخرج في اعقاب ناناشا .

ورنت الأم الى ابنتها الذي كان واقفاً على عتبة الحجره ويسم وسألتها مضطربة :

— ما الذي يضحكك ؟

— اضحك لانني فرح .

فقالت بمصيبة :

— أني عجزت بلها ، هذا اكيد ، ولكنني ، في الوقت نفسه أدرك ما هو حسن .

فردد عليها :

— إنك على حق ، وعليك ان تنامي فلقد حان وقت رقادك .

— سأذهب الى فراشي حالاً .

.. ودارت حول الطاولة تقوم بتنظيفها راضية ، ومع ذلك فقد كانت

ملاحها تم بعض الشيء عن القلق الحلو الذي كانت تستشعره . لقد كانت سعيدة ،

لأن الأمور قد سارت بهدوء ، وعلى احسن ما يكون الحال .

— لقد كان رأيك مصيباً يا صغيري بول . ان البيوروسي لطيف جداً ،

والفتاة ، يا لها من فتاة ذكية .. فمن تراها تكون ؟

وأجاب بول بإيجاز وهو يندفع ارض الغرفة بخطاه :

— انها مدرسة .

— لذلك فهي فقيرة ، وروثة الثياب جداً . انها ستصاب بالبرد . واهلها ؟

أين هم اهلها ؟

— انهم في موسكو .

وتوقف بول أمامها وقال لها بصوت وقور :

— اسمعي .. إن أباهما ثري يبيع الحديد ، ويملك بيوتاً كثيرة ، ولقد طردها

لأنها اختارت لنفسها هذا الطريق . لقد نشأت نشأة مرفهة ، وكان ذووها جميعاً

يدخلونها .. اما الآن فهي تاترين . انها ستشي ، على قدميها ، وفي ظلام الليل

ستمشي وحيدة ، أكثر من سبعة كيلومترات .

وأذهلت هذه التفاصيل بيلاجي ، فوقفت في وسط الحجره تحديق بولدها

صامتة ، وقد انشغل حاجبها من الدهشة :

— هل هي ذاهبة الى المدينة ؟

— نعم .

— آه .. ألا يساورها الخوف ؟

وقال بول مبتسماً :

— كلا . إنها لا تخاف .

— ولكن لم ذهبت ؟ لقد كان بإمكانها ان تقضي الليل هنا ، كان بإمكانها ان تنام في سريري .

— ليس ذلك يسيراً ، فلو بقيت لرأها الناس في الغد وهي تخرج من هنا . وهذا ما نتحاشاه .

وألقت الام بصرها على النافذة ، بنسوم ، واردفت برقة :
— لا أفهم يا بول لم كان ذلك خطراً ومحرمًا ، فانا لا أرى فيه اي ضرر .. أليس كذلك ؟

ولم تكن متيقنة ؛ بل كانت تريد من ابنتها تأكيداً ، فحدقت في عينيها وقال بهدوء :

— أجل . ليس في ذلك اي ضرر ، ومع ذلك ، فالسجن ينتظرنا جميعاً ، ويجب ان تدركي هذا جيداً .

وأخذت يداها ترتعشان وقالت بصوت منسحق :

— ولكن قد يساعدكم الله ، فيغيّر الحال .

ورد عليها بحنو :

— كلا ، فانا لا اريد ان اخذعك . إننا لن ننجو من السجن .

وابتسمت :

— إنك مجهد فبياً الى سريرك . طابت ليلتك .

وعندما أصبحت وجدها ، اقتربت من النافذة ، وتسمرت هناك ترنو الى الشارع :

لقد كان الطقس في الخارج بارداً ، وكان الظلام مسيطراً ، وكانت الرياح ، وهي تلهو ، تكنس الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الهاجعة ، وتلطم الجدران مدممة ؛ ثم تهوي الى الارض ، وتطارد ، على امتداد الشارع ، السحب البيضاء المتكونة من تنف الثلج المتناثر .

وغمغت بهدوء :

يا يسوع ارحمنا .

... وأحست بالدموع تتجمع في عينيها ؛ ورف في داخلها البؤس المنتظر الذي حدثها عنه ابنها بكثير من الوضوح والتأكيد ، رف ، كفراشة ليل عيباء مهيضة الجناح .

وانبسط امام عينيها سهل عار تغمره الثلوج ، وكانت الرياح تهب باردة هوجاء بيضاء ، يواكبها صفيح خفيف . وفي وسط السهل ، كان يعدو وحيداً متعثراً ، شبح صغير قائم ؛ تلتف الرياح حول ساقيه ، وتنفخ ردائه ، وتذرو في وجهه ذرات الثلج الوخازة .

انها منهكة ؛ يغوص قدمها في الطبقة الكثيفة ، وتعماني البرد والخوف . انها مقوسة الظهر ، انها كمشة ضعيفة في السهل الاغبش ، في اللعبة المجنونة ، لعبة ريح الجريف .

وعلى يمينها ، عند المستنقع ، كان ينتصب جدار الغابة القاتم ، حيث تنوح اشجار الحور والضنوبر عجفاء عارية .

وأمامها ، في البعيد يلوح ألق باهت من أضواء المدينة

وغمغت الأم وهي ترتعد خوفاً .

— يا الهي ارحمنا .

— ٧ —

... كانت الايام تزلق يوماً بعد يوم كجبات السبعة ، وانجمعت أسابيع واشهرًا ، وفي كل سبت ، كان رفاق بول يجتمعون في منزله ، وكان كل اجتماع من اجتماعاتهم كدرجة من سلم طويل ، هين المرتقى ، يفضي الى البعيد البعيد ، دون ان يدري احد الى اين ؛ سلم يرفع ببطء اولئك الذين يتسلقونه .

.. وكانت وجوه جديدة تظهر ، حتى ضاقت بهم حجرة آل فلاسوف الصغيرة ، وكادوا يحتنقون فيها . وكانت فاناشا ، تصل مرهقة مقرورة ، ولكنها مزودة دائماً بمخزون لا ينضب من المرح والحياة .

وكانت الأم قد حاكت لها جورباً ، وألبسته القدمين الصغيرين بنفسها ،

وضحكت نائشا بادی الأمر ثم صمت وقالت وهي مفرقة في التفكير :
— لقد كانت مربيتي أيضاً طيبة ، الى ابعد حدود الطيبة . لكم هو غريب
أن يحيا الشعب حياة قاسية مليئة بالحزى والمهانة ، ثم يكون اكثر طيبة ، وارق
قلبا من الآخرين .

وأشارت الأم بحركة من يدها ، الى مكان مجهول ، في البعيد القصي وقالت :
— وإنك لكذلك ، فلقد ضحيت بدويك وبكل ...

ولم تستطع ان تكلم جلتها ، فتأوهت ، وصمت ، وراحت تحديق نائشا .
إنها تشعر نحوها بعاطفة من عرفان الجميل ، ولا ندري لماذا .

وظلت جالسة امامها على الارض ، في حين كانت الفتاة تبسم حاملة ، بحنية
الرأس :

— ذوي ؟ ان ذلك لا يهم . فوالدي فظ شديد الفظاظه ، وكذلك أخي .
ثم إنه سكير يدمن الخمر . وشقيقي الكبيرى بائس . فلقد اقترنت برجل
يكبرها سناً ، يكبرها بكثير . وهو فوق ذلك ، ثري بمثل شحيح . أما أمي ،
فوا حسراته عليها . إنها بسيطة مثلك ، صغيرة كفارة ، شرود تحشى الناس
جميعاً . لكم يحتاجني احياناً الحنين الى رؤيتها .

وقالت الأم وهي تهز رأسها حزينة :

— اواه يا صغيرتي المسكينة .

فانتفضت الفتاة بغتة ، ومدت يدها كأنها تريد أن تدفع عنها شيئاً ما :

— أوه .. كلا .. هناك بعض الاوقات استشعر فيها مثل هذا الفرح ، ومثل
هذه السعادة .

وبهت وجهها ، ولعلت عيناها الزرقاوان ، ووضعت يدها على كتف الأم ،
وأردفت وهي تهمس بصوت عميق متزن :

— ليتك تعرفين ، ليتك تدري كين أي عمل عظيم نأته .

ومس قلب بيلاجي شعور كالغيرة ، كالحسد ، فنهضت ، وقالت بكآبة :
— لقد فات الاوان ، فإنا عجوز مسرفة في الشيخوخة ، جاهلة مسرفة في الجمل .

وصار بول يتولى المبادرة في الحديث ، اكثر فاكثراً ، ويناقش بجرارة فائقة
ولكنه كان يزداد نحولاً ، وكانت الأم تلاحظ انه حين يخاطب نائشا ، او حين
ينظر اليها ، ترق نظراته القاسية ، ويزداد صوته عذوبة ، ويبدو أكثر بساطة .
وتهمس الأم في سرها وتبسم : ان شاء الله .

... وفي الاجتماعات ، عندما كان النقاش يبلغ أوج حرارته وعنفه ، كان
البيوروسي يقف مترنحاً كمضرب الجرس ، ويتكلم بصوته المرن الضاج :
فتغطي بساطته وما يحمله هذا القول من طيبة ، على اصوات الآخرين ، ويعيدهم
الى الهدوء والاعتدال . أما فيسوشيكوف العبوس أبداً ، فإنه كان يثير جواً
من التوتر الشامل ، وكان هو والفتى الأحمر الشعر المدعو « ساموالوف » يبدأان
العراك ويشدان أزرها أيقان بوكين ، الفتى المستدير الرأس ، الأشقر الحاجب
الذي يبدو كالمفسول .

وكان « جاك سوموف » الفتى الأملس الشعر ، الشديد النظافة ، يتكلم
نزراً دون ان يرفع صوته المتلي ، وكان كـ « ثيو » مازين الشاب الديرى
الجبهة ، يتفق دائماً في وجهة نظره مع بول والبيوروسي .

واحياناً ، كان نقولا ايفانوفيتش هو الذي يأتي من المدينة بدلاً من نائشا ؛
وكان يلبس نظارتين ، ويحمل حبة صغيرة صهباء ، ويحتفظ بلهجة الاقليم النائي
الذي تحذر منه ، وكان يبدو دائماً ساهم النظرة ، موزع الفكر ؛ وكان يتحدث
عن الاشياء البسيطة ، عن حياة العائلة ، عن الاطفال والتجارة والبوليس ، وعن
الحب والحم ، وكل ما يتعلق بالحياة اليومية ، وكان يكتشف في كل شيء
التناقض والفوضى ونوعاً من البلاهة المضحكة غالباً ، المؤذية دائماً ؛ وكانت بيلاجي
تشعر كأنه آت من بعيد ، من مملكة أخرى يحيا الفارس فيها حياة شريفة هينة ،
لذلك يبدو له كل شيء هنا غريباً ، فهو لا يستطيع أن يتعود هذه الحياة ،
وإن يتقبلها كضرورة . إنها لا تروق له ، ولا تبتعث فيه أية رغبة مطمئنة ، بل
إنه يصبر بعناد على أن يعيد صياغتها كما يشتهي .

لقد كان شاحب اللون ، تتوزع حول عينيه تجعدات خفيفة ، وكان صوته عذبا ويديه أبداً حارتيْن ؛ وعندما كان يضافج بيلاجي ، يحنضن يدها كلها بين أصابعه القوية الخشنة ، وكانت هذه الحركة تبعث في قلبها الراحة والاطمئنان . وكان بين الذين يقبلون من المدينة أيضاً فتاة هي أكثرهم مثابة على الحضور ، فتاة متناسقة الجسم فارعة القوام ، رجة العينين ، ذات وجه أصفر هزيل ، تدعى « ساندريْن » .

وكان في خطوها وحركاتها شيء من الرجولة ، وكانت تقطب حاجبيها الاسودين كالاستشارة ، وكانت جوانب أنفها الأفنى ترتعش عندما تتكلم . وكانت هي اول من اعلن بصوت قوي أجش :
— نحن اشتراكيون .

وعندما سمعت الأم هذه الكلمة ، رفت الى الفتاة برعب صامت . لقد سمعت . وكان ذلك في شبابه — ان الاشتراكين هم الذين قتلوا القيصر ، وشاع يومذاك ان الملاكين ، وقد رغبوا في الانتقام من القيصر لأنه حرر الاقنان ، اقسموا على ألا يقصوا شعورهم إلا إذا صرعوه ، وهم من اجل ذلك سماوا اشتراكيين . والآن ... لا تستطيع ان تفهم لم كان ابنها ورفاقه اشتراكيين !
... وعندما أنصرف الحضور جميعاً كاشفت بول :

— اصحيح انك اشتراكى يا بول ؟

فاجاب بحزم وصراحة كعادته :

— اجل ، فهل في ذلك ما يضير ؟

فاطلقت زفرة عميقة ، وتابعت ، منكسة الاجفان .

— أهذا ممكن يا بول ؟ ولكنهم ضد القيصر . وقد قتلوا واحداً من القياصرة .

وخطا بول في الحجرة بضغ خطوات ، وقال وهو يمرر يده على خده باسماً :

— إنهم شيء لا حاجة لنا به .

... وحدثها طويلاً ، وبصوت رصين مطمئن ؛ وكانت هي تحدد في عينيه

وتفكر :

« إنه لن يقترب شراً ابداً ، ولن يستطيعه . »

.. واخذت هذه الكلمة الرهيبة « اشتراكى » تتردد بعد ذلك كثيراً ، ثم اخذ اثرها العنيف يتلاشى رويداً رويداً حتى غدت شيئاً مألوفاً في سمعها ، تماماً كمجموعة التعابير الاخرى التي تستعصي على فهمها .
ولكن « ساندريْن » كانت لا تعجب الأم ، وكانت كلما رأتها ، تشعر بالاضطراب والضييق .

وفي احدى الامسيات قالت وهي تقلب شفتيها استياءً :

— ان ساندريْن شديدة القسوة . انها تأمر دائماً : « افعل هذا وانت افعل ذلك » ... واطلق البيوروسى ضحكة هدوية :

— احسنت ... لقد اصبت الهدف ايها الأم .. أليس كذلك يا بول ؟

ودنا الى الأم ، وقال ساخر النظرة :

— يا للنبلاء .

ورد بول يحفاف :

— انها فتاة طيبة .

— حقاً انها كذلك ولكنها لا تدرك ان عليها هي كنبيلة ان تطيع ، واننا

نحن الذين نشاء وتقدر ان نحقق ما نشاء .

ودخلا في نقاش حول موضوع لم تفهمه .

... ولاحظت الأم ان ساندريْن كانت ، بصورة خاصة ، شديدة القسوة .

بالنسبة لبول . وكانت هذه القسوة تبلغ احياناً حد العنف ؛ وكان بول يتسم

ووصمت ، ويتفرس في وجه الفتاة بنفس النظرة الوداعة التي كان من قبل ينظر

بها الى ناتاشا ؛ وكان هذا أيضاً لا يروق للأم .

وكانت بيلاجي احياناً تفاجأ بفكرة الفرح الذي يستخف الفتيان فجأة وينتشر

بينهم كالعدوى . وكان ذلك يحدث عادة في الامسيات ، حين يقرأون في الصحف

اتباء تتعلق بالعمل في الخارج . إن عيونهم حينئذ تلتصع بالفرحة ، ويفقدون ،

وهذا ما يحيرها ، سعداء كالاطفال ، ويضحكون ضحكات صافية مرحة ، ويربتون

محب ، على اكتاف بعضهم بعضا
ويصرخ احدهم وقد اثلته الغبطة .

— يا لهم من ابطال . . العمال الالمان .

ويتعالى الهتاف ثانية :

— ليحيا عمال ايطاليا .

وعندما كانوا يرسلون بهتافات الاعجاب هذه الى البعيد ، الى وفاق لا يعرفونهم
ابداً ، ولا يفهمون لغتهم ، كانوا على يقين بأن اولئك الجمهوريين سيستمعونهم ،
سيذركون تحمسهم .

ويعلن البيوروسى براق العيتين ، طافح القلب بحب يحتضن الكائنات جميعاً ، يعلن :
— انه جميل ان نكتب اليهم ، اليس كذلك ؟ لكي يدركوا ان لهم في
روسيا اصدقاء يعتقدون نفس العقيدة ، ويعيشون للاهداف نفسها ، ويفتبطون
بانتصاراتهم .

ويتحدثون جميعاً ، والنظرة الخاملة في عيونهم ، والبسمة على شفاههم ، يتحدثون
طويلاً عن الافرنسيين والبريطانيين والسويديين كأصدقاء شخصيين لهم ،
ككائنات قريبة منهم يقدرونها ويقاسمونهم افراحها ، ويستشعرون آلامها .
وفي الحجرة الصغيرة ، كان يولد شعور القربى الروحية التي تربط بين عمال
الارض كلها ؛ وكانت الأم أيضاً تلمس هذا الشعور الذي يجعلهم جميعاً قلباً
واحداً ، تلمسه رغم انها لا تفهمه بوضوح ، وكانت تستمد منه الفرح والشباب ،
وقوة طاغية تزخر بالامال .

وقالت يوماً للبيوروسى :

— غريب امركم . ان الجميع بالنسبة لكم رفاق ؛ ارمينيين كانوا ام يهوداً ام
مجاورين ، انكم تحزنون لحزن الناس جميعاً ، وتفرحون لفرحهم .
وهتف :

— « أجل ، رفاق للجميع ايها الام الصغيرة ، رفاق للجميع . ليس هناك
بالنسبة لنا اسم ولا عروق ، بل هناك اصدقاء او اعداء ؛ والعمال جميعاً اصدقاء

لنا ، اما الأترياء ، وأولئك الذين يحكون ، فهم جميعاً اعداء لنا .

إننا حين نلقي نظرة مجردة على العالم ، ونرى اية كتلة ضخمة نكوّرت نحن
العمال واية قوة مختزنة فينا ، نحس بغمرة من الفرح كأن قلوبنا في عيد . ان هذا
الشعور نفسه ، ايها الام الصغيرة ، هو ما يحسه الفرنسي والالمانى ، والايطالى ،
حين يصون الحياة . إننا جميعاً أبناء ام واحدة ، وفكرة واحدة لا تقهر ، هي
اخوة العمال في الاوطان كلها ؛ وهذه الاخوة تبعث فينا الحرارة . انها الشمس
المشرقة في سماء العدالة ، وهذه السماء هي في صدر العامل .

إن الاشتراكي ، مهما كان مبتغاه ، وأي اسم اختار ، اخ لنا في الفكر ، اخ
لنا اليوم والى الابد ، اخ لنا على مدى الاجيال .

.. وكان هذا الايمان الطفولي الذي لا يتزعزع ، يعبر عن نفسه يوماً بعد
يوم في هذه الشلة القليلة ، وبقوة متنامية ؛ وكانت الأم كلما لاحظت ذلك الفيض
من الأمل ، تشعر شعوراً غريباً بأن هناك شيئاً عظيماً مشعاً قد ولد في العالم ،
شيئاً كالشمس ، التي تشرق في كبد السماء .

وكانوا يغنون احياناً كثيرة ، يغنون بمرح وملء حناجرهم ، اغنيات شائعة ،
وأحياناً كانوا يستهلون مرحهم باغنيات جديدة فائقة الحلاوة ، ولكنها غريبة
الالان كئيبتها ، يخفزون فيها من اصواتهم الجهرية ، كأنهم إنما يؤدون لحناً
ديلياً ، وتصفر وجوههم ، وتتأجج باللب ، وتنساب من الكلمات الرنانة قوة
فائقة .

وكانت إحدى هذه الاغنيات الجديدة ، بوجه خاص ، تبث الكآبة والقلق
في نفس بيلاجي . انها اغنية لا تسمع فيها التأملات الحزينة لنفس جريحة وجيدة .
تألمة في الدروب المظلمة ، دروب الشكوك المعبدة ، ولا شكائات لا وصف لها
ولا لون ، شكائات روح هاتما الاملاق والخوف . ولم تكن ترقن بالامات
المقومة ، آهات قلب قوي يشده الى المدى منهم غامض ، ولا بصرخات التحدي
من تجسور يقف على اهبة الاستعداد ليسحق الخير والشر دونما تمييز ، ولم يكن
فيها ابداً ذلك الحقد الاعمى ، حقد المهان الذي يحطم كل شيء . ليشكر لكرامته .

وبكلمة واحدة ... لم يكن فيها اي صدى للعالم الهرم ، عالم العبيد .
لم تكن تروق للام كلماتها القاسية ، ولا نغمها الصارم ، ولكنها كانت مع
ذلك ، تزخر بقوة اكبر من الكلمات والانغام ، قوة تتخطى الكلمات ، الانغام
لتوقظ في النفس شعوراً مسبقاً بشيء فائق السمو . وكانت الام تقرأ ذلك في
وجوه الفتيان وعيونهم ، وتحسه يضح في صدورهم ، وكانت ، تحت تأثير تلك
القدرة الغامضة الكامنة في الاغنية ، تصفي اليها ابداءً ، بانتباه شديد ، وبقلق
يفوق كثيراً ذلك الذي تثيره الاغنيات الاخرى في نفسها ...

... وكانوا يؤدونها بهدوء اكثر من الاخرى ، ولكنها كانت تضح بالقوة ،
وتُسَكر كأنسام اليوم الاول من آذار ، كأنفاس اول يوم من ايام الربيع .
وكان فيسوشيكوف يقول بمقطب الحاجبين :

— سيأتي اليوم الذي يُتاح لنا فيه ان ننشدها في الشارع .
وفي احدى المرات التي ادخل والده فيها الى السجن بتهمة السرقة ، اعلن بهدوء :
— نستطيع الآن ان نجتمع في منزلي .

وفي كل مساء تقريباً ، بعد الانصراف من العمل ، كان لا يد لاحد افراد هذه
الاشلة من أن يأتي الى منزل بول ، وكانوا يقرأون معاً ، وينسخون بعض الفصول من
الكتب ، ويبدون كثير من المشاغل ، ولم يكن لديهم وقت للاستحمام ، وكانوا
يشاولون العشاء ، والشاي ، دون ان يتخلوا عن كراريهم ، وكانت اجاديتهم
تزداد استعصاء على إدراك الام .

وكان بول يردد دائماً :

.. نحن بحاجة الى جريدة !

وكانت حياتهم تزداد حركة وحرارة ، وكانوا ينتقلون بسرعة من كتاب الى
كتاب ، كما ينتقل النحل من زهرة الى زهرة .

وتأت فيسوشيلوف يوماً :

— لقد بدأ الناس يتحدثون عنا . ومن الاكيد انه سيكف عن علينا عما قريب .
واجاب البيورومي :

— لقد وجد السمن ليقع في الشبكة .

... وكان اعجاب بيلاجي بالبيورومي يزداد يوماً عن يوم ، وكان اذا مادعاها
الأم الصغيرة .. تخيل اليها كأن يد طفل ناعمة تدغدغ وجنتيها ، وكان هو الذي
يقطع لها الخطب عندما يكون بول مشغولاً .

وفي احد الأيام أقبل يحمل على كتفه لوحاً خشبياً ، ثم اخذ الفأس واستبدل
بمهارة ورشاقة ، احدى الدرجات المهترئة أمام مدخل البيت . وفي مرة أخرى ،
اصلاح السهاج المتهدم ، وكان ، وهو يقوم بعمله ، يصفر ألحاناً حلوة كثيفة .
وقالت الأم يوماً لابنها :

— لم لا تؤوي البيورومي في منزلنا ؟ فذلك خير لكما معاً ، لأنه يوفر على
كل منكما الذهاب لرؤية الآخر ؟

فسأها بول وهو يهز كتفيه :

— ولم تزعجين نفسك ؟

— إزعاج ؟ لقد كانت حياتي كلها مليئة بالإزعاج دون ان ادري سبباً
لذلك . وإني لأرى ان بإمكانني ان أؤدي هذه الخدمة لفتي طيب مثله .
— افعل ما شئت ، وسأكون سعيداً اذا ما رضي بذلك .

... وجاء البيورومي فأقام في بيتهم !

— ٨ —

ولفت للبيت الصغير في طرف الضاحية انتباه الناس ، فراجت الأبصار
المراقبة تخترق جدرانهم ، واخذت تحوم فوقه اجنحة الشائعات من كل لون .
وكان الناس يحارلون ان يكشفوا السر الغامض الذي يخفيه ، وكانوا ، في
ظلمة الليل يتلصصون ، من النوافذ ، وفي بعض الاحيان كان ينقر الزجاج جباناً ،
ثم لا يلبث أن يولي الأبدار سريعاً .

واستوقف بيلاجي ، في احد الأيام ، صاحب فندق يدعى « بينوفتسوف »

استوقفها في عرض الشارع . وكان عجوزاً ، ضئيل الجسم ، حسن البزة ، يربط
باحكام حول عنقه الأحمر المترهل ، منديلاً من الحرير الأسود ؛ ويرتدي صدرة
سميكة ، خبازية اللون ، وتمتطي أنفه الدقيق الماع نظارتان من صدف ، وهذا
ما أكسبه لقب : « العين العظيمة » ، وبدون ان يتوقف او ينظر جواباً فاجأها
بسيل من الكلام المفرق كالخطب اليابس :

— كيف انت يا بيلاجي ؟ وكيف حال صغيرك ؟ ألن تزوجه عما قريب ؟
لقد اصبحت في سن الزواج ، وفي زواج الأبناء راحة الأهل . إن الحياة الزوجية
تكسب المرء عافية عقلية وجسدية . إنها تحفظه كما يحفظ الخل الفطر . وأنا لو
كنت مكانك لزوجه . في عصرنا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجود كل انسان
فلقد اخذ الناس يعيشون على هوام ، وغزت القوضى العقول ، وصار الناس
يأتون اعمالاً ذميمة . لقد انصرفت الشيبية عن بيوت الله وتجنبت الأندية العامة ،
وصارت تجتمع في الحفاء ، وتتهامس في الزوايا . ولماذا يتهامون ؟ أسمحين لي
أن اسألك ذلك ؟ ولم يتعبدون عن المجتمع ؟ وماذا يعني القول الذي لا يستطيع
المرء ان يجهر به امام الناس ، في الفندق مثلاً ؟ اسرار ؛ اسرار ؛ ... ولكن
كنايسةنا الرسولية المقدسة هي مكان الأسرار ؛ اما الأسرار الاخرى التي تطبخ
في الزوايا فمنشؤها ضلال العقل . أغني لك صحة طيبة .

... ووقع قبمته ، وهو يطوي ذراعه بمودة ، ولوح بها في الهواء ثم مضى
وتركها فريسة الارتباك .

وفي مرة أخرى التقت ماريا كورسونوف ، جارة آل فلاسوف ، وهي ارملة
محدودة كانت تباع المأكول عند باب المعمل ، التقت الأم في السوق وقالت لها :

— راقبي ابنك قليلاً يا بيلاجي ؟

— ولماذا ؟

واجابها ماريا بلهجة غامضة :

— انه يثير الاقاويل ، الاقاويل السيئة يا عزيزتي ، ويشاع انه ينظم نوفاً
من الجمعيات العمالية على طريقة الشياطين ، وهذا يدعى « فرقا » . انهم سيتبادلون

ضرب السياط مثلهم .

— كفى حماقات يا ماريا .

وردت البائعة :

— يجب ان تصبي اللوم على مرتكبها لا على ناقلها .

... وحملت الأم كل هذه الاقاويل الى ابنها ، فبرز كنفه دون ان يجيب :

أما البيوروسي فقد أطلق العنان اضحكته الطيبة الداوية .

وقالت لها : ... والفتيات أيضاً ناقات عليكم جداً ؛ فأنتم من خير الفئات ،

وكلكم من اطيب العمال ، وكلكم لا تعاقرون الحجرة ، ولا تأبهون لهن ؛ ويقال

أن فتيات منحطات يأتين من المدينة للقائم .

وصرخ بول بسخرية القرف :

— لا شك في ذلك .

وزفر البيوروسي

— كل ما في المستقيم تنجح منه رائحة النتن . وكنت تحسنين صنعاً أينما الأم

الصغيرة لو شرحت لهذه البطات الناشئة ما هو الزواج ، لكيلا يستعملن . طبع

اضلاعهن .

— إنهن يعرفن ذلك جيداً يا عزيزتي . ويدركنه ولكنهن لا يعرفن ماذا

يفعلن بأنفسهن .

ولاحظ بول :

— إنهن يستن الفهم ، وإلا لوجدن طريقاً آخر .

ولفت الأم نظرة على وجهه الصارم :

— حسناً ، علمن أنت ، فليس عليك إلا ان تدعو أقلهن طيشاً .

واجاب بول بحفاف :

— ليس ذلك مستطاعاً .

وسأل البيوروسي : وماذا لو حاولنا ؟

نصفت بول لحظة ثم قال :

— إن ذلك يبدأ بنزهات ثنائية ... ثم يتزوج البعض ، وينتهي الأمر .
... وأوغلت الأم في تأملاتها . لقد كانت صلابة بول الرهبانية ثقلمها ،
وكانت تلاحظ ان رفاقه ، حتى الأكبر منه سناً كالبيوروسي مثلاً ، يعملون
بتوجيهاته ، غير انه كان يتراءى لها أن الجميع يرهبونه ، ولا يحبونه بسبب من
هذه القسوة .

وفي إحدى الأمسيات كانت مضطجعة ، وكانت بول والبيوروسي ما زالوا
يقترآن ، فأصاحت بسمعها ، من خلال الحاجز الرقيق ، الى حديثها الخفيض :
وقال البيوروسي فجأة :
— أتعلم أن ناتاشا تعجبني ؟
ولم يجب بول على التو ، بل قال بعد صمت :
— أعلم ذلك .

واحست بالبيوروسي ينهض ببطء ويذرع الحجر ، وسمعت قدميه الخافيتين
تتساحبان على أرضها ؛ وسمعته يصفر لحناً حزيناً ، ثم يعود الى الكلام :
ولكن هل لاحظت هي ذلك ؟

وصمت بول ، وسأله البيوروسي خافضاً من صوته :
— وماذا تعتقد أنت ؟

— لقد لاحظت . ومن اجل ذلك رفضت العمل معنا .

وعادت خطى البيوروسي تتساحب على أرض الحجر ، وعاد صفيه الخفيف
يتهدج ، ثم سأل .

— وماذا قلت لها ... ؟

— ماذا ؟

— همس : أني ... أني .

فقاطعه بول : ولم تقول ذلك ؟

وتوقف البيوروسي ، واحست الأم انه يبتسم :

— حسناً . انا اعتقد ان الشاب اذا احب فتاة وجب عليه ان يزوج لها بذلك

والا فان حبه لن يقضي الى نتيجة .

وصفق بول كتابه وهو يفلقه :

— واية نتيجة تنتظر منه ؟

وصمت الاثنان هنيهة .

وسأل البيوروسي : وأذن ؟

فأجاب بول بتأن : يجب ان يتصور المرء بوضوح مقصده . لنفترض انها
هي ايضاً تحبك يا اندريه ، وهذا ما لا اعتقده ، ولكننا نفترضه افتراضاً ؛
وانكما تزوجتما . فإله من زواج طريف : زواج عامل ومثقة ... وسترزقان
اطفالاً ؛ وستوجب عليك ان تعمل وحدك ، وان تعمل بارهاق ؛ وستصبح
حياتك حياة حرمان ، لأنك ستحتاج ان تدفع نفقات الاطفال والمسكن ؛
وستنتهيان كلاكما ، من اجل ذلك ، الى الدمار .

وخيم الصمت ، ثم استأنف بول كلامه بصوت هادئ :

— الأفضل يا اندريه ان تدع هذا الأمر ، والا ترعجها .

وخيم الصمت ثانية ، ونبضت ساعة الجدار تحصى بدقاتها الثواني التي تمر ،
وقال البيوروسي :

— أهو قلب ذاك الذي يحب بنصفه الاول ويكره بنصفه الآخر ؟

... وسمع حفيف اوراق تقلب . لقد عاد بول بلا شك الى القراءة .

... وظلت الأم مستلقية ، مغمضة العينين ، تخشى الاثيان بأية حركة ،

وداخلها اشفاق على البيوروسي كاد يستدر عبراتها ، واشفاق اشد منه على ابنها

فغمغت في مرها : « يا حبيبي » .

وسأل اندريه فجأة :

— اذا فعلي ان اصمت ؟

فرد بول يهدوء : ذلك اشرف لك .

فقال اندريه : حسناً . هذا هو السبيل الذي سأملكه .

ثم صمت لحظة ، و اضاف بلهجة حزينة :

- وسيكون هذا عسيراً عليك يا صغيري بول عندما انت ايضا...

- لقد كان عسيراً علي ...

ولامست جدران المنزل هبة ريح ، وسجل دقات الساعة ، بدقة ، تفككت

الزمن ، وقال البيوروسي ببطء :

- هذه القضايا يجب الاثير ضحكنا !

فدفنت الام وجهها في الوسادة وبكت بصمت .

... وفي الصباح بدا لها اندريه اصفر قامه واكثر رقة ، وكان ابنها ، كما

قمره ، نحيل ، منتصب القامة ، صموتا ، وكانت ما تزال حتى ذلك الحين ،

قنادي البيوروسي باندريه اونيسيموفيتش ، ولكنها خاطبته اليوم ، دون

اكتراث :

- يجب ان تصلح حذاءك يا صغيري اندريه ، والا فستبرد قدمك .

واجاب هو : سوف اشترى بأجري حذاء جديداً .

ثم شرع يضحك ، وراح فجأة يسألها ، وهو يضع يده الطويلة على كتفها :

- بما كنت انت امي الحقيقية ، ولكنك لا تودين ان تعترفي بذلك امام

الناس ؟ انك لا تجدينني سيماً .. أليس كذلك ؟

واجابته بأن ربت على يده . وكانت تود ان تحدثه احاديث كثيرة مفعمة

بالود ، ولكن قلبها كان يعصره الاشفاق ، ولسانها يأبى ان يطيع .

- ٩ -

... وانتشر الحديث في الضاحية عن الاشتراكيين الذين ينترون في كل مكان

وربقات مكتوبة بالخبر الازرق . وكانت هذه الوربقات تقض بخنف ما يدور

في المعمل ، وتحدث عن الاضرابات العمالية في (بطرسبورغ ، وجنوب البلاد ،

وتهيب بالعمال الى الاتحاد والنضال دفاعاً عن مصالحهم .

وكان اولئك الذين يثلون جيلاً معيناً ، ويتقاضون في المعمل اجراً طيباً

يحملون الوربقات الى ادارة المعمل ويصيحون :

- خربون ... يجب ان تخطم رؤوسهم .

اما الشبان فكانوا يقرأونها بحمية :

- هذه هي الحقيقة .

وكانت الاكثريه التي سحقها المعمل والتي لا تقابل بشيء تحجب بكسل :

- لن يؤدي هذا الى خير ... أمن المستطاع أن ...

ولكن الأوراق كانت تروق للناس ، فاذا مر اسبوع دون أن تصدر ،

سأل بعضهم البعض الآخر :

- لقد انتهى امرهم ؟ .. يقال ...

خير ان الوربقات لا تلبث أن تعود الى الظهور نهار الاثنين ، ويبدأ التعليق

الحامى عليها من جديد

وفي المعمل والفندق كان يلاحظ وجود أشخاص لا يعرفهم احد ؛ يطرحون

الاسئلة ، ويختبرون ، ويتنسمون الأخبار ، ويستلفتون ، بغتة ، أنظار الجميع .

بعضهم يستلفت النظر بمجذره المريب ، وبعضهم الآخر بإجتاعته المفرطة .

وكانت الأم تعرف أن هذا الاضطراب كله من صنع ابنها ؛ وكانت ترى

الناس يتألبون حوله ، فتختلط مخاوفها على مستقبله بزهوها في أن تكون

أماً له .

وفي احدى الامسيات نقرت ماريا كورسونوف زجاج النافذة ، وعندما

فتحت الأم لها ، وشوشت في أذنها على عجل :

- إحدري يا بيلاجي ... لقد أنهى حملناك الصغار ضحكهم ... ففي هذه

الليلة سيفتش منزلكم ومنزل مازين وفيسو شيكوف .

وكانت شفتا ماريا الغليظتان تصططان بسرعة ، وانفها المكتنز ينشق ،

وهينما تفتران وقدوران من اتجاه الى آخر ، وهما ثرقيان شخصاً في الشارع .

- وأنا لا اعرف شيئاً ، ولم أقل لك شيئاً ... وحتى أي لم أرك اليوم

أبدأ ... أسمعت ؟

ثم قوارب ..

واغلقت الأم النافذة ، وتهاقت ببطء على كرسي ، غير ان حسن الخطر الذي كان يهدد ابنها ، جعلها تثب بسرعة واقفة على قدميها . وارقدت ثيابها برشاقة ، ولفت رأسها بشال أحكت شده ، واسرعت الى منزل « تيومانزين » الذي كان مريضاً فلا يذهب الى العمل .

وكان ، عندما دخلت عليه ، يجلس بالقرب من النافذة يقرأ ، ويده اليسرى ، تهدد اليمنى بشكل يظل معه المختصر طليقاً . وما كاد يسمع النبأ حتى انتصبه بعنف مصفر الوجه ؛ ودمد :
- هذه المرة ... اذن ..

وسألته بيلاجي ، وهي تمسح بيدها المضطربة ، العرق عن جبينها :
- ماذا ينبغي ان تفعل ؟

فأجاب تيومان وهو يمسح بيده السليمة شعره الأجمد :
- مهلاً ... ولا تخافي .

فصاحت به : ولكني واثقة من انك انت ايضا خائف .
- انا ؟

وتضرعت وجنتاه على الفور ، وابتمس بارتباك :

- ذ ... نعم ... يا للشيطان . يجب اخطار بول ، وسأرسل اليه من يخطره حالاً ؛ اما انت فعودي الى منزلك ، ولا تهتمي فالامر بسيط ، انهم لن يشفقونا ... سري .

وعادت بسرعة ، وجمعت الكتب كلها في كومة احتضنتها ، ودارت في المنزل طويلاً تفتش عن مخبأ لها . لقد فكرت ان تخبئها في الفرن تحت المدفأة ؛ وحتى في برميل الماء ؛ وكانت تعتقد ان بول سيرك عمله ويعود سريعاً الى المنزل ، ولكنه لم يأت ... واخيراً جلست متعبة منهكة على مقعد في المطبخ ، وخبأت الكتب تحت ثيابها ، وظلت على وضعها هذا دون ان تجرؤ على التحرك ، الى ان عاد بول واندرية .

وصرخت دون ان تنهض : هل عرفت ؟

فأجاب بول مبتسماً : نعم ... وهل انت خائفة ؟

اجل انا خائفة . جد خائفة .

وقال اندرية : يجب الاتخافي ، فالخوف لا يجدي شيئاً .

ولاحظ بول : حتى ابريق الشاي لم تهينيه .

فنهضت الام عندئذ ، وأشارت الى الكتب ، وقالت بارتباك :

- لم افعل بسبب هذه .

وانفجر بول واندرية ضاحكين ، فرد ذلك عليها شجاعتها . وتناول بول بعض المجلات ، وانطلق يخبئها في الخارج ، في حين كان اندرية يشغل موقد الشاي .

- يجب الاتجزعي ايها الأم الصغيرة ؛ فنحن نخجل لأولئك الذين يشغلون أنفسهم بمحادثات كهذه .. لسوف يأتي قتيان ضخام اقوياء البنية ، على جنوبيهم سيوف ، وفي جزماتهم مهاميز ؛ وسينقبون في كل مكان : يفتشون تحت السرير ، وتحت المدفأة ، واذا كان هناك من قبو ، فانهم سيهبطون اليه ، او امراء فانهم سيصعدون اليه ، وتلتف على خراطيمهم خيوط العنكبوت ، فيحشرون . ولا تعجبهم التسلية ، بل يداخلهم الحجل ، فيبدون من اجل ذلك ، بلامح الاشرار ، ويقضون . عمل قذر يعرفونه جيداً . لقد قلبوا مرة كل ما في بيتي ، قلبوه رأساً على عقب ؛ وكانوا ، كذبي قبل ، اغبياء بلهاء فانصرفوا دوننا كلفة . وفي مرة اخرى اقتادوني معهم ، وزجوني في السجن حيث لبثت اربعة اشهر ... وهو ، على ما ترين ، وقت قصير .

انهم يقبلون اليك ، فيجتازون الشارع بموكب ، ويطرحون عليك كومة من الاسئلة . انهم ليسوا خبيثاء ، ولكنهم يفكرون كالطبول ، ويقودونك ، من بعد ، الى السجن . انهم يتقاذفونك من جهة الى جهة ، فلا تفهم . فعليهم ان يحصلوا قوتهم . ومن ثم فانهم يطلقون سراحك ، وهذا كل ما في الامر .
وصاحت بيلاجي :

— إن لك دائماً طريقة خاصة في الكلام يا صغيري أندريه .

وكان ، وهو جاثٍ أمام الموقد ، ينفخ النار ليؤجج الجمر ، ثم ما لبث أن رفع وجهه العابق بالدم نتيجة للجهد الذي بذل ، وسأل وهو يعقص شاربيه : — وكيف أتكلم ؟

— كان أحداً لم يذكك الهوان أبداً .

فتنهض وقال وهو يهز رأسه باستمسا : —

— أهناك فوق سطح الأرض أمروءٌ لم يُذل ؟ لقد أذقت الهوان حتى لم يعد الهوان يثير حنقي . إذ ما العمل إذا كان الناس لا يستطيعون التصرف إلا بهذه الطريقة ؟ إن الاستفزازات تعرقل سير العمل ، والتوقف عندها ، يعني إضاعة الوقت ، هذه هي الحياة . لقد كنت قبلاً أنقم على الناس ، ولكنني فكرت فيما بعد ، فوجدت ألا داعي لذلك ، فكل امرئٍ يخشى أن يتلقى الضربة من جاره ، وهو من أجل ذلك ، يتأهب ليسبقه إليها . هكذا هي الحياة أيتها الأم الصغيرة .

... وكانت كلماته تنساب بهدوء واتزان ، فتلطف من حدة القلق الذي يشيعه انتظار التفتيش ، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان صافيتين ، وقامته الفارعة المترنحة تبدو رشيقة .

وزفرت الأم وقالت بحرارة :

— ليهبك الله السعادة يا صغيري أندريه .

وخطا البيوروسي خطوة واسعة نحو الموقد ، واقعى من جديد وهو يغمغم : — إذا وهبت السعادة فلن أرفضها ، أما أن أطلبها ... فإني لن أفعل ذلك أبداً .

وعاد بول من فناء الدار ، وقال بصوت واثق وهو يشط شعره :

— إنهم لن يعثروا على شيء .

ثم تابع وهو يسح يديه بعناية :

— إذا أظهرت لهم بأنك خائفة ، يا أماه ، فانهم سيقولون في انفسهم : لا بد

ان هناك شيئاً ، وإلا لما اضطربت هكذا . انك تدريكين جيداً أننا لا نضمر الشر أبداً ، فالحقيقة هي في جانبنا ، واننا من أجلها نعمل طوال حياتنا . هذه هي جريمتنا ، فلم الارتعاش إذن ؟

ووعده : سأستعيد وباطة جأشي يا بول .

وفي الوقت نفسه أردفت :

— ليتهم ، على الأقل ، أسرعوا في الهجيء .

ولكنهم لم يأتوا تلك الليلة . وفي صباح الغد ، توقعت أن تكون مخاوفها مثار مزاح ، غير أنها كانت على العكس أول الضاحكين من نفسها :

— لقد خشيت ان أخاف .

— ١٠ —

وبعد شهر تقريباً من ليلة الذعر تلك ، جاؤوا .

وكان نقولا نيسوشيكوف هناك ، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن جريدتهم . وكان الوقت متأخراً ، نحو نصف الليل ، وكانت الأم مضطجعة توشك ان تغفو ، ولكنها كانت تسمع بغموض اصواتهم الحفيضة القلقة .

ونهض أندريه بغتة ، واجتاز المطبخ وهو يمشي على رؤوس أصابعه ، ثم أحكم بهدوء أقفال الباب وراءه . وفي المدخل تعالت جلبة دلو حديدي وشرع الباب فجأة على مصراعيه ، وخطا البيوروسي خطوة في المطبخ ، وقال بصوت خفيض ولكنه واضح :

— اني أسمع صوت مهميز .

ووثبت الأم من سريرها تتلصص يداها المرتعشتان ثيابها ، ولكن بول ظهر على العتبة وقال لها بهدوء :

— إبقى في سريرك فأنت مريضة .

وُسمع خفيف خفي في الردهة ، فالتفت بول من الباب وقال وهو يدفعه بيده : — من هناك ؟

وفي سرعة البرق انتصب في العتبة شبحٌ طويل رمادي، ثم تبعه آخر، وأحاط
الدركيان بالفتى، ورن صوت حادٌ ساخر :
— لسنا من تنتظرون أليس كذلك ؟

وكان المتكلم ضابطاً طويل القامة نحيفاً، يحمل شارباً أسود كثيفاً، وظهر
بالقرب من سرير الأم « فيدياكين » موظف البوليس في الضاحية، وهو يؤدي
التحية بإحدى يديه في حين تشير الثانية الى بيلاجي، ويقول، وهو يقلب
عينيه الخفيفتين :

— هذه أمه يا صاحب السعادة .

ثم يضيف، وهو يحرك ذراعه باتجاه بول :
— وهذا هو بالذات .

وتسأل الضابط وهو يرخي أجنانه :
— بول فلاسوف ؟

وهز بول برأسه أن « نعم » وتابع الضابط وهو يقتل شاربه :

— يجب ان أجري تفتيشاً في منزلكم . انهضي أيتها العجوز .. من يوجد هناك ؟
ونظر الى الحجرة ثم توجه اليها بخطى واسعة :
— أسماؤكم ؟

ودخل شخصان طلباً كشاهدين . إنها « تيرياكوف » السبّاك العجوز وأجيريه
السائق « ريبن » الرجل الجاد ذو الشعر الأسود واللحية السوداء، الذي
قال، عند دخوله، بصوت ممتليء رنان : تحية يا بيلاجي .

وارتدت الأم ثيابها، ثم دمدمت لتمنح نفسها شيئاً من الشجاعة .
— يا لأساليهم . يأتون في الليل والناس نيام !

واكتظت بهم الحجرة التي كانت تقف منها رائحة دهان قوية، وتقدم دركيان
ومفوض شرطة الضاحية « ريسكين » وهم يضربون بأحذيتهم أرض الغرفة ؛
فحملوا ما على الرف من كتب، وكدسوها على الطاولة أمام الضابط ؛ وكان
هناك آخران يضربان الجدار بقبضتيهما، ويفتشان تحت الكراسي، وتسلق

أحدهما المدفأة بصعوبة . وكان البيروسي وفيسوشيكوف ما يزالان في إحدى
الزوايا، يلتصق أحدهما بالآخر، وكان وجه نيقولا المجدور مغطى ببقع حمراء،
وعيناه الصغيرتان لا تتحولان عن وجه الطابط؛ أما اندريه فقد كان يمسد شاربه،
وعندما دخلت الأم الى الحجرة حيّتها باحناء رأس حيمه باسمه .

وتقدمت بيلاجي، وهي تبذل جهدها في كبت رعبها، تقدمت لا بمشية
جانبيه كعادتها، بل شاحخة الصدر، وهذا ما أضفى على شخصيتها عظمة مصطنعة
ساخرة . لقد كانت تسير دوغماً ضجيج، وكان حاجبها يرتعشان .

وكان الضابط يأخذ الكتب برشاقة، يأخذها بين أنامله البيضاء النحيفة،
فيقلبها، يهزها، ثم يطرحها جانباً بحركة بارعة . وكان أحدها يهوي احساناً الى
الأرض بشيء من الفتور . وكانوا جميعاً صامتين، فلا تسمع إلا شخير الدركيين
الذين يتصبون عرقاً، ورنين المهاميز، وسؤالاً يرتفع بين الفينة والفينة :
— هل فلتشتم هنا ؟

وجلست بيلاجي بجانب بول قرب الحاجز، وشبكت مثله ذراعيها فوق
صدرها، وحدقت كذلك بالضابط، وكانت ركبتيها ترتعشان، والضباب
يفشتي عينها .

وللع صوت فيسوشيكوف فجأة، حاداً قاطعاً :

— ولم تطرحون الكتب في الأرض ؟

وارتعشت الأم، وحرّك فيرياكوف رأسه كأنه إنما تلقى صفة على رقبته،
وسعل ريبن وحدق في نيقولا بإمعان .

وأسدل الضابط أجنانه، ثم أغرق بصره، للحظة، في الوجه الجامد المجدور،
وراحت أصابعه تقلب الصفحات بسرعة أكثر، وكان، بين الفترة والفترة يبخلق
بعمليه الرماديتين، حتى ليخيل للرائي أنه يعاني ألماً غليظاً، وأنه يكاد يطلق في
وجه هذا الألم صرخة كلية من الرعب .

وصاح فيسوشيكوف من جديد :

— ايها الجندي . اجمع هذه الكتب ..

وتلفت الدركيون جميعاً نحوه ، ثم تلفتوا الى الضابط الذي رفع ايضاً رأسه
ولفّ هامّة نيّقولا الضخمة بنظرة متفحصة ، وقال بصوت متساحب أخنّ :

— اجمعوها .

وانحنى أحد الدركيين ، وراح وهو يرمق فيسوشيكوف بطرف عينه ،
يجمع الكتب المتناثرة الأوراق .

ومست الأم في أذن ابنها :

— يجب ان يصمت هذا الـ « نيّقولا » !

ولكن ابنها هزّ كتفيه : أما البيوروسي فطأطأ رأسه

— من منكم يقرأ الكتاب المقدس ؟

وأجاب بول : انا

— ولما هذه الكتب كلها ؟

فأجاب بول ايضاً : انها لي .

وقال الضابط وهو يستلقي على متكأ المقعد :

— حسنًا .

ثم شد اصابع يديه الدقيقة ، ومد ساقيه تحت الطاولة ، وقتل شاربه ،
ونادى فيسوشيكوف :

— أنت اندريه ناكودكا ؟

وأجاب نيّقولا وهو يتقدم نحوه :

— نعم .

ومد البيوروسي يده ، وأمسك نيّقولا من كتفه ، وأرجعه الى الراء :

— انه مخطيء فأنا اندريه .

ورفع الضابط مهدداً فيسوشيكوف بسبابته :

— إحدرا هذا ..

ثم راح يقلّب اوراقه .

وفي الخارج كانت العيون اللامبالية ، عيون الليلة القمراء تروى من النافذة ،

وكان شخص ما يسير أمام المنزل ، والثلج يصير تحت خطواته .

وسأل الضابط :

— هل سبق يا ناكودكا أن أجري معك تحقيق في جرائم سياسية ؟

— نعم ، في روستوف ، وساراتوف ، ولكن رجال الدرك هناك كانوا
يخاطبونني باحترام .

وغمز الضابط بعينه اليمنى ، ثم فركها ، وتابع ، وهو يكشر عن أسنانه الصغيرة :

— وألا تعرف ، يا ناكودكا ، نعم أنت بالذات ، ألا تعرف من هم السفلة الذين

ينشرون في العمل النداءات المجرمة ؟

وترنح البيوروسي فوق قائمته وكان ، والبسمة العريضة تنطرح على شفتيه ،

يهم بأن يقول شيئاً ، عندما ارتقع من جديد ، صوت نيّقولا المحنق :

— هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها سفلة !

واصفرت ندوب الجرح في وجه الأم ، وشغل حاجبها الآمين ، وراحت لحية

ريبين تهتز بشكل غريب ، وراحت أصابعه تسرحها ببطء وهو مطأطأء الرأس .

وصاح الضابط :

— إطرحوا هذا الحيوان خارجاً .

وتقدم دركيان فأخذوا نيّقولا من إبطه ، واقتاداه بعنف الى المطبخ حيث

وقف ، وقد ستر رجله في الأرض ، وصاح :

— انتظروا ربنا ارتدي ثيابي .

وعاد مفوض الشرطة ليقول : لقد فتشنا كل مكان فلم نعثر على شيء .

وهتف الضابط مبتسماً : — مفهوم .. فنحن هنا أمام رجل خبير .

وكانت الأم تصغي الى صوته النسائي الراجف ، وتنظر برعب الى وجهه الأصفر ،

وتتبين ، في أعطاف هذا الرجل ، عدواً لا رحمة عنده ، وقلباً يملأه احتقار

ارستقراطي للشعب . إنها لا ترى ، رجلاً من هذه الفضيلة ، إلا قادراً ، حتى كادت

تنسى أنهم موجودون ؛ ودار في خلدها : « هؤلاء هم الذين نضايقتهم . »

- ايها السيد اندريه او نيسيموف ناكودكا، المجهول الأب، إني أمر بتوقيفك.

وسأل البيوروسي يهدوء :

- ولأي سبب توقفتني ؟

وأجاب الضابط بتعذيب حاقده : هذا ما سأقوله لك فيما بعد .

واستدار نحو بيلاجي : أتعرفين القراءة ؟

فرد بول : كلا .

- إني لا أسألك انت .

قال ذلك بقسوة ثم أردف :

- أجيبي أيتها العجوز .

وانتصبت الأم وقد اجتاحتها حقد غريزي عليه ، وانتظمتها رعدة كأنها انما أغرقت في ماء مجمد ، وتخضبت ندوب وجهها بلون ارجواني ، وحط حاجبها ، ثم أجابته وهي تمد نحوه ذراعها :

- لا ترفع من صوتك . فأنت ما تزال شاباً ، ولم تعرف الأسى بعد .

وقاطعها بول : هدئي من روعك يا أماء .

فصرخت وهي تندفع نحو الطاولة : لحظة يا بول ... ولم توقفون هؤلاء ؟

فصاح بها الضابط وهي تنهض :

- اخبرني ، هذا أمر لا يعينك . أحضروا فيسوشيكوف .

وراح يقرأ في ورقة أمامه ، وهو يرفعها ويدنيه من وجهه .

وأدخل نيقولا . وصاح به الضابط بعد أن توقف عن القراءة :

- اخلع قبعتك .

واقترب ريبن من بيلاجي وقال لها بصوت خفيض وهو يدفعها من كتفه .

- لا تحتدي أيتها الأم .

وسأل نيقولا قاطعاً على الضابط قراءة الحضر :

- كيف أستطيع ان أخلع قبعتي ويداي مغلولتان ؟

فسلح الضابط الورقة على الطاولة وصاح به :

- وقتها .

ورنت الأم الى الحضور وهم يقعون محضر الضبط ، وكان انفعالها قد خمد ، وقلبها قد وهن ، ودموع الاستخذاء والضعف تملأ عينيها . لقد سفحت مثل هذه الدموع طوال الأعوام العشرين من حياتها الزوجية ، ولكنها ، كانت في سنواتها الأخيرة ، قد نسيت حرقتها الكاوية .

ورنا اليها الضابط وقال بإيماءة احتقار :

- لم يئن بعد أوان البكاء يا سيدتي ... فاحذري . فقد لا يبقى لك شيء من الدموع للغد .

فأجابته وقد عاودها الحنق :

- إن دموع الأمهات لا تنضب فعندهن منها ما يكفي ... وإذا كانت لك أم فإنها تعرف ذلك جيداً .

ورتب الضابط أوراقه بسرعة في لحظة جديدة ، ذات قفل لماع ، وأمر :

- الى الامام ... سر .

وبصوت منخفض تملأه المرارة قال بول وهو يشد على أيدي رفاقه :

- الى اللقاء يا اندريه .. الى اللقاء يا نيقولا .

ورد الضابط بسخرية :

- أجل الى اللقاء .

كان فيسوشيكوف يتنفس باعياء ، وعنقه الضخم يحتقن بالدم ، وعيناه تبرقان بالغضب الشديد . وكان البيوروسي ضاحك الوجه ، يمز رأسه ، موجهاً بعض الكلمات الى الأم التي كانت تباركه بإشارة الصليب قائلة :

- إن الله يرى العادلين .

وتهادت الشرذمة ذات المعاطف الرمادية ، تهادت في المدخل على رنين المهاميز ، ثم توارت . وكان ريبن هو آخر من انصرف . ولقد لف بول قبل ان يخرج بنظرة متفحصة من عينيه السوداوين وقال حالماً :

- حسناً ... الوداع .

وخرج بطيء الخطى ، يسعل في لحيته .

وظل بول ، وقد شبك يديه وراء ظهره ، ظل يذرع ببطاء أرض الغرفة ، يذرعها طولاً وعرضاً بين الكتب المبعثرة ، والثياب التي تغطي الأرض ... ويردد متجهم الاساري :

— أرايت كيف حدث هذا ؟

وغنمت الأم وهي تتأمل بقلق وحيرة ، الحجرة التي عصفت بها الغوضى .

— لم كان نيقولا فظاً غليظاً ؟

ورد بول يهدوء :

— لقد كان بلا شك خائفاً .

ودمدت بيلاجي ، بوهن واعياء :

— لقد جاؤوا ، وقبضوا عليهم .. ثم اقتادوهم ..

ولم يبق لها إلا ابنها . وأخذ الاطمئنان يعود الى نفسها ، في حين كان تفكيرها يتركز بلا جدوى ، على الواقع . هذا الواقع الذي لا تستطيع فهمه وإدراكه :

— لقد سخر منا ذلك الرجل الشاحب . إنه يهدد ..

وقاطعها بول بحزم :

— كفى يا أماء ، وتعالى ، نرتب ما بعثروا ..

لقد خاطبها بيا أماء ، وبصيغة المفرد كما كان يخاطبها حين يكون أكثر قرباً منها . وسارت هي اليه ، وحدثت في عينيه ، وسألته بهمس :

— هل أهانوك ؟

— نعم ... وانه لشديد عليّ ذلك . لقد كنت أفضل أن اذهب معهم .

وخيل للأم انها ترى الدموع في عينيه ، وتحس ألمه ، فصعدت زفرة وقالت له لتسري عنه :

— انتظر فسيأتي دورك أيضاً .

— أجل .

وبعد صمت قصير قالت بمرارة :

— لك انت قاس يا بول ، فليتك على الأقل تواسيني . اني اذا ما تفوهت

بأشياء رهيبة ، زددت عليّ بما هو أشد رهبة .

فرشقها بنظرة ، واقترب منها وقال يهدوء :

— هذا ما لا أدريه يا أماء .. وعلى كل حال ، يجب ان تتعودي ذلك .

فتأوهت وصمتت ، ثم تابعت ، وهي تكبت ارتعاشة رعب :

— وهل يمكن ان يعذبوهم ؟ ان يمزقوا اجسادهم ويسحقوا عظامهم ؟ اني

عندما أفكر في هذا ، اواه .. انه لشيء رهيب يا صغيري بول . يا ابني الحبيب .

— انهم يعذبون الروح ، وهذا العذاب أشد إيذاء وألماً حين تقتترفه ايديهم القادرة .

— ١١ —

وفي صبيحة اليوم التالي علم ان بوكين وسوموف وخمسة آخرين قد اوقفوا ،

وفي المساء من تيومازين مروراً خاطفاً : لقد فتشوا منزله هو ايضاً ، وشفوا غلته

ولذلك فهو يشعر بأنه بطل .

وسألته الأم : هل داخلك الخوف يا تيو ؟

فشحب لونه ، وتقرع وجهه ، وارتعشت فتحة أنفه :

— لقد خشيت ان يضربني الضابط ، فلقد كان مارداً أسود اللحية ، يغطي

الشعر ذراعيه ، وتتركز فوق أنفه نظارتان سوداوان يبدو معها انه لا يحمل

في وجهه عينين . وكان يصرخ ، ويرفس الأرض بقدمه ، ويقول بأني سأتعفن في

السجن ، انا الذي لم يضربني احد من اهلي ، لا ابني ولا أُمي ، فلقد كنت وحيدهما ،

وكانا يحبانني .

وأغض عينيه لحظة ، وعض شفتيه ، وبجرمة سريعة نقش شعره بكلتا يديه ،

وقال وهو يحدق في وجه بول بعينه المحمرتين قليلاً :

— اذا ضربني احد ، فإنني أبقر بطنه بسكين ، واقطعه بأسناني . انه ليحسن

صنعاً حين يقتلني على الفور .

وصاحت به بيلاجي .

— إنك شديد الهزال ، شديد النحول ، فماذا تصنع للدفاع عن نفسك ؟

ولاك تيو هذه الكلمات :

- سوف افعل .

وعندما انصرف قالت الأم لبول :

- سيتحطم هذا قبل الآخرين .

واعتصم بول بالصمت .

وبعد لحظات قليلة فتحت باب المطبخ ببطء ، ودخل ريبيّن وقال باسمًا :

- تحية . هو ذا أنا . لقد تحملت مساء الأمس على المجيء ، اما اليوم ، فلقد

جئت بمطلق ارادتي .

وشد ريبيّن بول بحماسة ، وأمسك الأم من كتفها قائلاً :

- هل تقدمين لي الشاي ؟

وتفحص بول بصمت وجهه المريض ، البرونزي اللون ، ذا اللحية السوداء

الكثة ، والعينين القائمتين ، وكان في نظراته الهاذئة ما يبعث على الرهبة .

وانطلقت ببلاحي الى المطبخ تعد الشاي ، أما ريبيّن فقد جلس يداعب لحيته ،

وراح وهو يستند مرفقيه الى الطاولة ، يلف بول بنظرته السوداء .

وقال ... وكأنه يكمل حديثاً سابقاً :

- وهكذا ... يجب عليّ ان أحدثك بصراحة . لقد راقبتك منذ أمد طويل

- فنحن نكاد نكون جارين - فلاحظت انك تستقبل كثيراً من الناس ، دون

ان ينتج عن ذلك شغب او فضائح .

هذا أولاً ... ثم ان الناس الذين لا يثيرون الفضائح ، يستلقتون الانظار

بسرعة : أليس كذلك ؟ وانا يزعجني ان ارى قوماً يعيشون في عزلة .

وكانت لهجته صارمة ، ولكنه كان يتكلم ببسر ، ويمسح لحيته بيده السمراء ،

وعيناه لا تتحولان عن بول :

- لقد اخذوا يتحدثون عنك ... ولكن رؤساءك في المعمل يسمونك

زنديقاً ، فأنت لا تذهب الى الكنيسة ... وانا كذلك لا اذهب اليها ... ثم

هناك قضية المناشير التي ظهرت ... فهل انت صاحب هذه الفكرة ؟

- نعم ... انا .

فصاحت الأم هائجة وهي تخرج من المطبخ :

- ولكنك لست وحدك .

فابتسم بول ؛ وابتسم ريبيّن كذلك ، وهو يقول :

- حسناً .

وأحرق الأم انها لم يعبرها كلامها أي انتباه ، فنشقت بصوت مسموع ،

وعادت الى المطبخ .

هذه المنشورات كانت فكرة جميلة ... انها تحرك الجماهير ... بلغت

تسع عشرة نشرة ؟

- أجل

- لقد قرأتها جميعها بامعان ، وهناك أشياء لم أفهمها . اشياء لا ضرورة لها .

نعم . فعندما يتكلم المرء كثيراً ، تكون هناك كلمات كثيرة لا قيمة لها .

وابتسم ريبيّن ، وكانت اسنانه بيضاء قوية .

- ثم كان التفتيش ... وهذا على الأخص ما حلني على اشتاذ موقف . أما

أنت والبيوروسي ونيقولا فلقد اسفرتن عن وجوهكم و...

ولم يجد اللفظة المتباعدة ، فصمت ، وألقى نظرة نحو النافذة ، وهو ينقر

بأصابعه على الطاولة :

- لقد أعلنتن عن عزمكم ... فكأنكم قلتم : « يا صاحب السعادة : قم بعملك

ونحن نقوم بعملنا » ... والبيوروسي هو أيضاً فقي طيب . لقد سمعته مراراً

يتكلم في المعمل ؛ وقلت في نفسي : هذا الفتى لا يمكن ان يحطّم والموت وحده

هو الذي يقهره . انه قوي الأعصاب ... أتصدقني يا بول ؟

فأجاب بول وهو يهز رأسه : نعم .

- حسناً . انت ترى أنني في الاربعين ، فأنا أكبر منك مرتين ؛ وهذا يعني

أنني رأيت أكثر منك عشرين مرة . لقد خدمت في الجندية ثلاث سنوات ،

وتزوجت مرتين ، أما زوجتي الأولى فقد ماتت ، وأما الثانية فقد هجرتها .

وكنيت في القوقاز وعرفت الدوخوبوريين « Dokhodors ». يحسب الناس يابني
انهم أسياذ الحياة المسيطرون عليها ، ولكن الأمر على عكس ما يعتقدون .

وكانت الأم تصغي بنهم الى حديثه الواصل ، وقد سرها ان ترى رجلاً ناضجاً
مثله ، يزور ابنها ويحادثه كأنه انما يعترف له ؛ ولكنها كانت تلاحظ ان بول
يعامل ضيفه بكثير من الفتور ؛ ولكي تزيل من نفسها هذه الانطباعة سألت ريبين :

— أتريد شيئاً من الطعام يا ميشال ؟

— اشكرك ايتها الأم فلقد تناولت عشاءي ... هكذا إذن يا بول ، فانت
تعتقد ان الحياة لا تسير حسب القانون ؟

ونفض بول ، وراح يذرع أرض الغرفة ، ويداه وراء ظهره :

— كلا ... ان الحياة تسير على احسن حال . ألا ترى انها قادتك إلي مفتتح
البصيرة ؟ انها توحد بيننا شيئاً فشيئاً ، نحن الذين نعطي العمل كل وجودنا ؛
وسأتي الوقت الذي توحدنا فيه جميعاً . انها جائزة قاسية بالنسبة لنا ، ولكنها
هي نفسها التي تفتح عيوننا وتكشف لنا عن معناها المريب . انها هي نفسها التي
تعلم الانسان كيف يستحث خطاه .

وقاطعه ريبين :

— هذا صحيح . يجب ان يُجحد الانسان . اذا كانت جرباً فقدته
الى الحمام ، اغسله وألبسه ثياباً نظيفة ، فإنه سيشفى ... أليس هذا صحيحاً ؟
ولكن كيف تنظف الإنسان من الداخل ! هذه هي المشكلة .

وراح بول يتحدث بحرارة وحيوية عن السلطات ، عن العمل ، عن الطريقة
التي يدافع بها العمال في الخارج عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر الطاولة أحياناً
بأصبعه ، كأنه إنما يضع النقاط ، ولكنه كان يصيح في كل مرة
— هذا هو الواقع .

وجاء وقت ارتسمت فيه على شفتيه بسملة غائرة ، ثم قال يهدوء :

— هه ؛ انك شاب ؛ انك لم تعرف الناس بعد .

ولكن بول أجابه باتزان وهو ينتصب أمامه :

— يجب ألا نتحدث عن الشيخوخة او الشباب ، ولننظر أي الأفكار

هي الأصح .

— إذا فإنهم ، حسب رأيك ، يخذعوننا حتى في الله ؟ هذا صحيح . ثم إني
أعتقد أيضاً ان الدين الذي نتمسك به ليس هو الدين الصحيح .

... وهنا قدخلت الأم . لقد كانت حين اخذ ابنها يتحدث عن الله ، وعن
كل ما عيس الإيمان ، وعمما هو عزيز لديها ومقدس ، كانت تلاحق باستمرار نظراته
لتطلب اليه بصمت ألا يترق قلبها بتبشيره القاسي الكنود ، ولكنها كانت تعتقد
انها تتلمس الأيمان في تشككه ، وهذا ما كان يطمئنها ويجعلها تسائل نفسها :
« كيف استطيع ان افهم افكاره ؟ » ، ولقد تصورت انه لمن المزعج والمشين في
آن واحد ، ان يستمع ريبين ، وهو الرجل الناضج ، الى موعظة بول ، ولكنها
عندما طرح الضيف سؤاله لم تتألك ان تجيب بإيجاز واصرار :

— عندما يتحدثون عن الله تعالى ، يجب ان تكونوا أكثر جذراً ، أما انتم ،
فمن المؤكد انكم تفعلون ما تشاؤون .

واستعادت انفاسها ، وتابعت باندفاع وقوة :

— علام تعتمد عجوز مثلي في حزنها اذا انتزعتم الله منها ؟

وطفحت عيناها بالدمع . وكانت تغسل الآنية ويداها ترتعشان .

وقال بول بوقار وحنو :

— إنك لم تفهمينا يا أمّاه .

وأضاف ريبين بصوت بطيء معبر وهو يلتفت الى بول باسم :

— ساعينني ايتها الأم ، فلقد نسيت أنك طعنت في السن لدرجة لا نستطيع

معها اجتثاث ثأليلك .

وقابع بول :

— لم اكن اتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنون به ، بل عن الله الذي

تهددنا به الكهنة ، كما لو كانوا يهدوننا بعضاً عن إله يُراد باسمه ان يخضع العالم

كله للإرادة القاسية ، ارادة البعض .

وصرخ ريبين وهو يضرب الطاولة :

- اجل . هذا هو الواقع . لقد زيفوا لنا حتى الله ، وسخروا ضدنا كل ما في ايديهم . أتذكرون إيتها الأم ؟ لقد خلق الانسان على شاكلته ، على صورته ، اذا فهو يشبه الانسان اذا شابه الانسان ، ولكننا نحن لا نشبه الله ، بل نشبه الوحوش الضارية . انهم يظهرونه لنا في الكنيسة على شكل فزاعة . لذا ينبغي ان نطور الله ، إيتها الأم ، ينبغي ان نظهره ، فلقد ألبسوه ثوباً من الكذب والنميمة وشوهوا وجهه ليقتلوا روحنا .

وكان يتكلم بصوت منخفض ، ولكن كل كلمة من كلماته كانت تنقض على رأس الأم كالقبضة الثقيلة ، فتمسها بالصمم ، وكان وجهه المريض الذي توطره لحيته السوداء بإطار من حداد ، يثير رعبها ، وألقى عينيه القاتم يثقل عليها ويوقظ في قلبها الخوف الممّذب .

وقالت وهي تهز رأسها :

- خير لي ان انسحب ، فإن سماع هذا التجديف أمر فوق احتمالي .

وهربت الى المطبخ في حين كان ريبين يصرخ :

- أرايت يا بول ؟ ليس هو العقل مرتكز كل شيء بل القلب ، فالعقل منطقة في الانسان ، لا ينبت فيها شيء آخر ... ابداً ..

فقال بول بإصرار :

- ان العقل وحده هو الذي سيحرر الانسان .

وأجاب ريبين بعناد :

- ان العقل لا يعطي القوة ، أما القلب فيعطي قوة ، ولكنه لا يعطي عقلاً .

وكانت الأم قد تخففت من ملابسها ، واستلقت دون ان تؤذي صلاتها ، وكانت تحس بالبرد ، وتشعر بانحراف صحتها .

ان ريبين الذي بدا لها ، أول الأمر ، متزنًا صحيح التفكير ، يثير الآن كرها .

وكانت تردد وهي تصغي الى صوته :

- زنديق ، باذر فوضى .. لقد كان ينقصنا ان يأتي هو أيضاً ..

... اما هو فكان يتكلم بهدوء وثقة :

- ان المكان المقدس يا بول يجب ألا يظل فارغاً . وان نفسنا نقطة حساسة . انها المكان الذي يسكنه الله ، فإن يهجرها يشق فيها جرحاً ، وعلينا ان نكتشف ايماناً جديداً ، ان نبذل إلهاً يكون صديقاً للناس .

فصاح بول : هذا ما كانه المسيح .

- لم يكن المسيح ذا إرادة ثابتة : لقد كان يقول : ابعديني هذا الكأس .

ولقد كان يعترف بقبصر ، أما الله فلا يعترف بسلطان انسان على الآخرين لأنه

هو السلطان كله . انه لا يجزيء نفسه ، ولا يقول : هذا إلهي ... وذاك بشري .

وكان المسيح يبيع التجارة ، ويبيع الزواج ، ثم انه لمن شجرة التين ، فكان

ذلك ظلماً ، فمجرمة هي لأنها كانت لا تحمل ثمراً ؟ اذا كانت النفس لا تعطي الثمر

الطيب ، فليس الذنب في ذلك ذنبها ، افأنا الذي غرس الشر فيها ؟ قل لي ؟

وكان صوتها لا يفتأ يلعلع في الحجرة ، يعلو تارة وينطفئ أخرى ،

وكان بول يروح ويحيي ، والحشب يصير تحت خطواته ، وكانت الأصوات كلها

تنصهر حين يتكلم ، في دوي صوته ، أما ريبين فكانت دقات الساعة تسمع عندما

يجيب بصوته الاجش الهادي ، كما تسمع ايضاً الفرقة الجافة ، فرقة الجليد الذي

كان يخدش بأظفاره الحادة جدران المنزل .

- سأقول لك على طريقي كسائق ، ان الله كالنار . انه يعيش في القلب ، ولقد

قيل : ان الله هو الفعل ، والفعل هو الفكر ...

فردد بول بإصرار : هو العقل .

- هو كذلك ، وهذا يعني ان الله هو في القلب ، وفي العقل وليس في

الكنيسة . ان الكنيسة هي قبر الله .

وكانت الام قد نامت ، فلم تشعر بريبين عندما خرج .

... وأخذ يتردد على بول دائماً ، وكان حين يجد أحد رفاقه عنده يقبع في

الزوايا صامتاً يردد بين الفينة والفينة هذه الكلمة :

- هذا هو الواقع .

وفي احدى المرات نقل بصره بين الحضور ، وقال بوجه يأس :

- يجب ان تتحدثوا عما كان ... أما الذي سيكون فلا يعرفه أحد .

اسمعوا : عندما يتحرر الشعب يقرر بنفسه ماذا يحسن به ان يفعل . انهم يحشون رأسه بأشياء لا يريدوها ، وهذا يكفي . ليختبر الشعب نفسه ، فلربما كان يود ان يرفض كل شيء ، الحياة كلها ، والعلوم كلها ، ولربما رأى أن كل شيء موجه ضده ، كإله الكنيسة مثلاً ، وليس لكم انتم إلا ان تضعوا بين يديه الكتب كلها ، وسيجيب هو بنفسه جيداً .

وكان إذا ما وجد بول وحده ، يدخلان في نقاش لا نهاية له ، ولكنه نقاش هادئ أبداً ، وكانت الام تصغي اليها بقلق ، وتتبعها بنظراتها محاولة ان تفهم ما يقولان . وكان يخيل لها أحياناً ان الفلاح ذا المنكين العريضين واللحية السوداء ، وابنها القوي الشديد البنية . قد أصيبا كلاهما بالعمى . لقد كانا يسيران من ناحية إلى أخرى بحثاً عن مخرج ، ويتشبثان بكل شيء ، ويزعزعان كل شيء بأيديهما القوية غير الحاذقة ، ويبدلان وضع الأشياء ، ويطرحانها ارضاً ثم يدوسانها بأقدامها ... وكانا يلامسان هذا ، ويتلمسان ذلك ، ثم يدفعاها كليهما دون أن يفقدا الأمل ، ولا الإيمان .

وكانا قد عوداها سماع الكثير من الكلمات الخفيفة ، يتلفظان بها بحرية ووقاحة ، ولكن هذه الكلمات كانت لا تصدمها بنفس العنف الذي تعرضت له أول مرة ، فلقد تعلمت كيف تتحامي تأثيرها ، وكانت أحياناً تستشعر وراء الكلمات التي تنكر وجود الله ، إيماناً قوياً به ، وإذا كان ريبين لا يعجبها ، فإنها لم تعد تضمحل له الكره الذي عرفته من قبل .

وكانت تذهب الى السجن مرة في الاسبوع لتحمل إلى البيوروسي الثياب والكتب ، وقد استحصلت يوماً على إذن بمقابلته ، وعندما قفلت ، راحت تتحدث عنه بجنون .

- إنه ما فتىء كما عرفناه في البيت ، لطيفاً مع كل الناس ، يمازح من يمازحه . إن السجن بالنسبة له قاسٍ ومؤلم ، ولكنه لا يُظهر ذلك ابداً . وعلق ريبين :

- هكذا يجب ان يكون الرجل . إننا نعيش جميعاً في العذاب ، ونتنفس به ، كأنه جزء من كيانتنا ، وليس هناك ما نزهو به . إن الناس ليسوا معصوبي العيون ، كلهم ، بل هناك من يعصب عينيه بنفسه . وعندما يكون الناس ضرباً من الحيوانات ، لا يكون لنا إلا ان نصبر .

- ١٢ -

كان منزل آل فلاسوف الصغير الأشهب ، يسترعي اكثر فأكثر ، انتباه سكان الضاحية ؛ وكان في ذلك الاهتمام الذي يولونه إياه كثير من الحذر والريبة ؛ والكره اللاواعي ؛ والى جانب هذا الشعور كان ينمو باطراد فضول مطمئن . وكثيراً ما كان يقبل على المنزل رجل مجهول ليقول لبول وهو يتفحص ما حوله بكثير من الاحتراس :

- يا بني إنك تقرأ الكتب والقوانين ، ومن المحتم أنك تعرفها ، إذن تعال فاشرح لي .

ثم يروي لبول ظلامه ألحها به رجال البوليس أو إدارة المعمل ، وفي الحالات المعقدة ، كان بول يسطر بطاقة صغيرة ، ويرسل الرجل الى المدينة ، الى محام من معارفه ، وقد يشرح بنفسه السائل الأشياء التي تستعصي على فهمه ، حين يكون ذلك بمقدوره .

وأخذ شعور الاحترام يتنامى شيئاً فشيئاً ، الاحترام لهذا الشاب المتزن الذي يتكلم عن كل شيء ببساطة وجرأة ، ويلاحظ ويصغي لكل شيء بانتباه ، وينفخ بعناد في خضم كل قضية خاصة معقدة ، ويكتشف أبداً الخيط المشترك ، الخيط الذي لا نهاية له والذي يربط الآلاف من البشر بوشائج لا تنفصم .

وزادت مكانة بول في نظر الرأي العام أيضاً ، بعد حادثة «كوبك المستنقع»^(١) ، فلقد كان ينبسط وراء المعمل مستنقع واسع ، تنمو فيه اشجار الشربين والخور ويكاد يؤلف حوله حلقة عفنة ؛ وفي الصيف كانت الابجرة الصفراء الكثيفة تتصاعد

(١) الكوبك جزء من مائة من الروبل - أي الليرة الروسية .

(المترجم)

منه ، مع سحب البعوض التي تنتشر في الضاحية ، فتزرعها بالحبيات .
وكان المستنقع ملكاً للمعمل ؛ وقد وضع المدير الجديد مشروعاً لتجفيفه
بقصد الاستفادة منه ؛ وفي الوقت نفسه لاستخراج ما فيه من فحم . وقد قال
للمال ان هذه العملية تجعل جو المنطقة صحياً ، وتحسن شروط المعيشة ، وأصدر
أوامره باقتطاع كوبك واحد من كل « روبل » من اجورهم ؛ لتأمين المال اللازم
للتجفيف .

وكان استياء العمال عظيماً ، وأثارهم بشكل خاص ان هذه الضريبة الجديدة لم
تكن تطبق على الموظفين المستخدمين .

وفي اليوم الذي اعلن فيه قرار المدير اي يوم السبت ، كان بول مريضاً فلم
يشتغل ، ولم يعرف شيئاً عن القضية ، وقد جاءه في اليوم الثاني ، بعد القداس ،
المعدن سيزوف - وهو عجوز لطيف - وصانع الاقفال « ما كوين » وهو رجل
فارح القامة شديد النزق فقصاً عليه ما حدث .
وقال سيزوف باتزان ؛

- لقد اجتمع المستون فينا وتباحثنا في الموضوع ، فأوقدنا رفاقنا إليك
لنساءك لأنك رجل واع مثقف ، عما إذا كان هناك قانون يميز للمدير ان يشن
الحرب على البعوض بدراهمنا ؟

وقال ما كوين وهو ينقل عينيه المتقبضتين ؛
- إنك تذكر ان « الشطار » كانوا قد جمعوا المال منذ سنوات اربع .
لبناء حمامات . ولقد تجمع لديهم يومذاك ثلاث آلاف وثمانماية روبل . ولم تنشأ
الحمامات فأين ذهب المال ؟

وبين بول جور هذه الضريبة ، وأظهر الفائدة الكبرى التي يجنيها المعمل من
تحقيق هذا المشروع ، وعلى هذا الأساس انصرف الرجلان ، وقد بدا عليهما التجهم .
وقالت الأم باسمة بعد ان شيعتها الى الباب :

- ارأيت يا بول . حتى الطاعنون في السن يأتون إليك ليتزودوا من فطنتك .
ولم يجب بول ، بل جلس الى طاولته مهيموماً ، وراح يكتب ، وبعد بصع
دقائق قال لها : ارجوك الذهاب فوراً الى المدينة لا يصلح هذه الوريقة .

- وهل الامر خطير ؟

- أجل ... فهناك تطبع جريدتنا ، ويجب منها كلف الامر أن تظهر قصة
« الكوبك » في العدد المقبل .

واجابت : حسناً ، سأنتقل حالاً .

وكانت هذه اول مهمة يكلفها لها ، وكانت سعيدة لأنه أنبأها عن محتواها
بصراحة .

وقالت وهي ترتدي ثيابها :

- إني ادرك هذا يا بول ، انه عمل لا يختلف عن السرقة . ماذا يدعى ذلك
الرجل ؟ ايفور ايفانوفيتش ؟

... وعادت في المساء متأخرة منهكة ، ولكنها سعيدة ، وقالت لابنها :
- لقد رأيت ساندرين وهي تسلم عليك ... وايفور هذا ، ليس بالمتعجرف
إنه يمزح بلا انقطاع .

واجابها بول برقة :

- اني في غاية السرور لأنهم ظفروا باعجابك .

- يالهم من قوم بسطاء يا صغيري بول . كم هو جميل ان يكون الناس بسطاء .
ثم ... انهم جميعاً يقدرونك .

ولم يذهب بول نهار الاثنين الى العمل ، فلقد كان يشكو بعض الصداع ، غين
ان « تيومازين » اقبل عليه ، عند الظهيرة ، متفعلاً مسروراً ، وأخبره وهو
يسترد انقاسه :

- اسمع . لقد ثار عمال المعمل جميعاً ، وبعثت اليك لأحضرك . فلقد قال
سيزوف وماكوتين انك تستطيع شرح القضية احسن من الآخرين . ليتك ترى
ما يحدث ؟

وارتدى بول ثيابه دون ان يتفوه بكلمة .

- لقد تجمعت الفسوة ، وبدأن الصراخ .

وقالت الأم : وانا ايضاً سأذهب ، لأرى ماذا يطبخون هناك ؟ سأذهب

وقال بول : اذمي .

وساروا مسرعين ، صامتين ، وكان الانفعال يرهق الأم ، فتحس ان شيئاً خفياً سيحدث . وعند باب العمل ، كان رهط من النساء ، يصرخن ويتشاجرن . وعندما اوشك الثلاثة ان يندفعوا الى الساحة ، اصطدموا فجأة بجمع كثيف اسود يضج هياجاً ، ولاحظت الأم ان العيون كلها كانت تتلفت باتجاه واحد ، نحو جدار معمل الحديد . وهناك كان يقف سيزوف ، وماكوتين ، وفيالوف ، وخمسة آخرون او ستة من العمال النافذين الناضجين ؛ يقفون على كومة من بقايا الحديد ، وهم يؤشرون بأيديهم .

وصاح احد الناس : هو ذا فلاسوف .

— فلاسوف ؟ ليأت الى هنا .

وتعالت الصيحات من هنا وهناك :

— الصمت . الصمت .

وارتفع من مكان قريب صوت ريبين المتسقى الثبرات :

— يجب ان نقاوم من اجل العدالة ، لا من اجل «كوبك» ؛ وان ما نتمسك به ليس هو هذا الكوبك ؛ فهذا القرش الصغير ليس اكبر من سواه . ولكنه اقل وزناً ، لانم اغنى بالدم البشري من «روبل» مدير . إننا لا نصنع منه قضية ولكننا نصنعها من دمنا ، من الحقيقة .

— احسنت . هذا صحيح يا ريبين .

— انك على حق ايها السائق .

— هو ذا فلاسوف .

وكانت الاصوات تتلاقى في عاصفة من الضجيج والضوضاء ، فتطنى على جلبة الآلات وتأوهات البخار العميقة ، ودوي الحركات ، وكان الناس يترامسون من كل صوب ، يلوحون بسواعدهم ويحتمس بعضهم بعضاً ، بكلمات ملهبة مثيرة . إن الهياج الذي كان يغفو ابدأ في الصدور المتعبة يستيقظ الآن ، وينشد لنفسه منطلقاً ؛ وهامي القضية تنطلق منتصرة ، ناشرة جناحيها القائمين لتنظيم الجماعات

بقوة متناهية ولثيها وتمخضها وتغدها بالحقد اللاهب المسعور .

وكانت سحابة من الضباب والغبار تسبح فوق الحشد ، وكان العرق يتصبب من الوجوه المحترقة ، وهمي دموعه السوداء على الوجنات المسفوعة ، وكانت الاسنان تلعب ، والعيون ينطلق منها الشرر .

وظهر بول الى جانب سيزوف وماكوتين ، وعلت صرخته :

— ايها الرفاق .

ولاحظت الأم ان وجه ابنها كان مصفراً ، وان شفتيه كانتا ترتعشان فاندفعت بلا وعي منها الى الامام ، تشق لنفسها طريقاً بين الحشد . وكان الحضور يتدافعونها ويقولون لها بحق : الى اين تريدن الذهاب ؟ ولكن ذلك لم يثنها ، إذ استطاعت ان تشق طريقها بين الجمهور بكتفها ومرفقيها ، واستطاعت ان تقترب ببطء من ابنها ، مدفوعة برغبة جاعحة في ان تكون على مقربة منه . وعندما قذف بول تلك الكلمة التي شحنها بمعنى عميق هائل ، احس بتشنج البفرخة ، فرحة النضال يزحم حنجرتة ، واجتاحته الرغبة في ان يلقي الى الجماهير بقلبه ، هذا القلب الذي استغرقه حلمه اللاهب بالحقيقة والعدالة .

— ايها الرفاق

وكررها ، وهو يصب فيها كل حيويته واندفاعه :

— إننا نحن الذين نبني الكنائس ونقيم المصانع ؛ نحن الذين نصنع السلاسل

ونصهر النقود ، نحن القوة الحية التي تهب الناس جميعاً الحيز والملاذات من المهدي الى اللحد .

وصرخ ريبين : اصبت ، اصبت .

— ابدأ وفي كل مكان . نحن اول من يعمل ، وآخر من يعيش . من من

الناس يتم بأمرنا ؟ من منهم ينشد خيرنا ؟ من منهم يعاملنا كبشر ؟ لا احد ودوت صوت : لا احد .

وراح بول بعد ان سيطر على نفسه ، يتكلم بكثير من البساطة والهدوء ، واخذ الحشد يدنو منه شيئاً فشيئاً ، ويكتظ حوله كجسد قائم كثير الرؤوس

ويحدق به بثبات العيون اليقظة ، وينتشي بأقواله .

— لن يكون لنا مصير إذا لم نشعر بأثنا رفاق ! وإذا لم نكون أسرة واحدة من الأصدقاء ، تربطها بقوة رغبة واحدة ، رغبة النضال من أجل حقوقنا .

وتعالت بالقرب من الأم أصوات خشنة :

— اخلص بنا الى النتائج .

وتصاعدت أصوات أخرى من هنا وهناك :

— دعوه يتكلم .

وكانت السحن المسودة المحتقنة تبدو حذرة متشككة ، وكانت بعض الابصار تتركز على بول وقورة متأمل .

وقال أحدهم : انه اشتراكي ، ولكنه ليس غيباً .

وصاح رجل أعور ضخم الجرم ، متين البنية ، صاح وهو يدفع الأم يكتفه :

— انه ليس بخائف .

— لقد آن ايها الرفاق ، ان ندرك ان احداً لن يساعدنا إذا لم تساعد نحن

انفسنا . الفرد للجميع ، والجميع للفرد ، هذه هي شريعتنا إذا كنا نريد ان نقهر عدونا .

وصاح ما كوتين : إنه على حق ايها الغتيان .

ثم لرج بقبضته في الهواء ، بحركة عريضة .

وتابع بول : يجب ان نحمل المدير على الحضور الآن ...

وكان إعصاراً أعصف بالحشد ، فأخذ يشموج ، وأخذت عشرات الأصوات

تتعالى متضامنة :

— المدير ، المدير .

— لنرسل إليه وفداً في الحال .

وكانت بيلاجي قد بلغت الصف الامامي ، وراحت تحدق ، من أسفل ،

بابنها ، وقد امتلأت زهواً . وكان بول هناك ، بين العمال الشيوع الذين يحظون

بالاحترام والتقدير ، وكانت الجموع كلها تصغي إليه وتمتصوب رأيه ، ومهما أنه

لم يفقد اعتداله ، وانه لا يهدف كالأخرين .

وكتقاط المياه المتساقطة على سطح من تنك ، انهمرت الهتافات المتقطعة ،

وانهمر معها السباب والشتم ، وكان بول يتطلع من على الى الحشد ، بعينه

الواسعتين المفتوحتين كأنه إنما يبحث عن شيء ما .

— أعضاء الوفد .

— سيزوف .

— فلاسوف .

— ريبين ... فهو شرس الناب .

وفجأة نددت بعض الصرخات اقل دويك :

— هو ذا مقبل علينا .

— المدير .

وافسح الجمهور الطريق لرجل فارح القامة ، مستطيل الوجه ، يحمل في اسفل

ذقنه حية خفيفة ، فاندفع ، ينحني العمال من طريقه بحركة عصبية من يده ،

ينحنيهم دون ان يلسمهم ، مردداً :

— اسمحوا لي .

وكانت عيناه مزورتين ، وبصره يتفحص وجوه العمال بنظرة متقصية مستبشرة ،

نظرة رجل مجرب ، وكان هؤلاء يرفعون له قبعاتهم ، وينحنون ، في حين كان

هو يتابع طريقه دون ان يزد على مظاهر الاحترام هذه ، ناشراً الصمت

والاضطراب في صفوفهم ، بشكل يستشعر المرء معه ان وراء البسبات المرتبكة

وضجيج الهتافات الاصم ، ندم أطفال واعين ، على الحماقات التي ارتكبوها .

ومر أمام الام مصوباً إليها نظرة قاسية ، ثم وقف أمام كومة الحديد .

ومد له احدهم يده من اعلى فلم يلمسها ، وبحركة رشيقة قوية تسلى ، واتخذ

لنفسه مكاناً امام بول وسيزوف .

— ماذا يعني هذا الاجتماع ؟ ولماذا تركتم العمل ؟

وخيم الصمت في لحظات ، وتموجت الرؤوس كالسنابل ، وبدأ على سيزوف

انه يود لو يقذف بقبعته في الفضاء ، ثم هز كتفيه وطأطأ رأسه .

وصرخ المدير : أجبوا .

فانتقل بول الى جانبه ، وقال بصوت قوي مشيراً الى سيزوف وريبين :

— لقد كلفنا نحن الثلاثة ، من قبل وفاقنا ، ان نبلغك ضرورة الرجوع عن قرارك باقتطاع « كوبيك » من اجورنا .

وقال المدير دون ان ينظر الى الشاب :

— ولماذا ؟

فرد بول بصوتٍ داور :

— لاننا نعتبر هذه الضريبة جائزة .

— انكم إذا لا ترون في مشروعى الرامى لتجفيف المستنقع إلا رغبة في

استئجار العمال ، لا وسيلة لتحسين مستواهم ، أليس كذلك ؟

وأجاب بول : نعم !

وسأل المدير ريبين : وأنت أيضاً ؟

فرد هذا : ان وجهة نظرنا جميعاً متفقة .

وقال المدير ، وهو يستدير نحو سيزوف :

— وأنت أيها « البطل » ؟

— وأنا أيضاً أرجوك ان تتخلى عن « قرشنا » .

وابتسم بارتباك وهو يطأ طيه رأسه من جديد .

وأجال المدير بصره ، في الحشد ، ببطء ، وهز كتفيه ثم صب على بول نظرة

متفحصة وقال :

— إنك شاب مثقف ، كما أحسب ، فهل أنت أيضاً لاتدرك فائدة هذا المشروع ؟

— إذا جفف المستنقع على نفقة المعمل ، فإن كلا منا يلمس فائدة ذلك .

فأجاب المدير يحفاف :

— ليس المعمل مؤسسة للإحسان ، واني آمركم جميعاً باستئناف العمل فوراً .

ثم هبط ، تحسناً أطراف قدميه الحديد بحذر ، ولا يلتفت الى أحد .

وانتشرت بين الجمع ضوضاء تم عن عدم الرضا فتوقف المدير وسأل :

— ما هذا ؟

وصت الجميع إلا صوت لملع من بعيد ، من بين العمال :

— اذهب واعمل بنفسك .

وصاح المدير وهو ينتزع الكلمات انتزاعاً :

— سأفرض الغرامة عليكم جميعاً إذا لم تستأنفوا العمل في مدى ربع ساعة .

ثم تابع سيره وسط الزحام ، وارتفعت وراءه غممة خرساء ، وكان كلما

نأى ، تملوشيناً فشيناً ضوضاء الأصوات .

إذهب الآن وكلمه .

— هذا هو موقفهم من حقوقنا .. آه .. إننا حقاً لمحظوظون .

وكانوا يصرخون في وجه بول :

— مه أيها الهامي ، ماذا يجب ان نفعل الآن ؟

فيا يشق بالكلام ، لقد أحسنت الكلام . . . ولكنه أتى ولم يتيسر

الحال .

— وأنت يا فلاسوف ... ما العمل ؟

وتلاحقت النداءات الملحة ، فأعلن بول :

— أيها الرفاق .. إني أقترح ان تتركوا العمل ما زال مصراً على اقتطاع

« كوبيك » من أجرتنا .

وتأججت جذوة الهياج من جديد :

— إنك تحسبنا بلهاء .

— الاضراب ؟

الاضراب من أجل « كوبيك » ... ؟

— وماذا يهم ؟ ... فلنضرب .

— إنهم سيطرحوننا جميعاً خارج الابواب .

— ومنذ الذي يستجديهم البقاء ؟

— سيجدون من يتوسل إليهم .

— أمثال يوضاس ؟

ونزل بول ، وعاد الى جانب امه ، وعاد حولها الطنين : هذا يجادل ذاك ،
والكل منفعلون صارخون .

وقال ريبين لبول وهو يقترب منه :

— لا تعلن الاضراب ، فالشعب متعطش الى الريح ولكنه جبان ، وهناك
ثلاثمائة عامل فقط قد يتبعونك لا أكثر . إننا لن نستطيع ان نزيح مزيلة
كهذه بمذراة واحدة !

وكان بول صامتا ينظر الى الحشد ذي الوجه الاسود الهائل ، ينظر إليه وهو
يتململ ، ويحدق به ينتظر منه شيئا ، وكان قلبه يخفق بضيق ، ويتراءى له ان
كلماته قد تبددت دون أن تترك أثرا في نفوس القوم ؛ كالفطرات المتناثرة
المتساقطة فوق أرض أنهاكها طول الجفاف .

وقفل الى منزله حزينا منهكاً ، وكانت امه وسيزوف يسيران وراءه أما
ريبين فكان يسير الى جانبه وصوته يطن في اذنه :

— إنك تتكلم جيداً ، هذا صحيح ، ولكنك لا تفس القلب ، والشرارة يجب
ان تلقى في أعناق القلب . إنك لن تقنع الناس بالمنطق ، فالخذاء لطيف جداً
ولكنه شديد الضيق على أقدامهم .

وكان سيزوف يقول للأُم :

— هذا هو الزمن الذي يجب أن نرحل فيه ، نحن المجائز ، الى المقبرة ؛ لاننا
الآن أمام شعب جديد ينمو . كيف نعيش ؟ لقد كنا نرحف ، وننحني حتى
الأرض لكي نحيا . ولكنني لا أدري ما إذا كان الشبان قد ثابروا اليوم الى رشدهم ،
أم أنهم ما زالوا ينغمسون في ضلال يفوق ضلالنا أنهم على كل حال ليسوا مثلنا .
لقد رأيتهم كيف يخاطبون المدير كأنه نذل لهم . أجل . . . الى اللقاء يا بول ،
لقد أحسنت يا بني الدفاع عن الناس ، وستجد بعونه تعالى للطريقة التي تتقدم
بها ، إن شاء الله .

ومضى سيزوف ؛ ودمدم ريبين :

— الى قبرك ، لا ردك الله . فإنك لم تكن اليوم إنساناً بل غزاة صالحاً لسد
الشقوق . رأيت يا بول ؟ إن أولئك الذين كانوا يهتفون ليرسلوك مندوباً عنهم .
إنهم هم أنفسهم الذين كانوا يقولون عنك أنك اشتراكي مشاغب . أجل إنهم هم .
لقد كانوا يتهايمسون : سيترد من العمل ، وهذا ما يليق به .

— إنهم على حق بوجهة نظرهم .

— والذئاب أيضاً على حق عندما يمزق بعضها بعضاً .

وكان وجه ريبين مكفهراً وصوته يرتعش بشكل غير معتاد .

— إن الناس لا يصدقون الكلام المجرد العاري ، بل يجب أن تتألم ليصدقوك ،
وأن تقمس كلماتك بالدم .

... وظل بول طوال نهاره مغموهاً ، مضيقاً ، يسيطر عليه قلق غريب ،
وكانت عيناه البراقتان تبدوان كأنها تبحثان عن شيء ، وقد لاحظت أمه ذلك ،
فسألته يمزح : ما بك يا صغيري بول ؟

فأجابها مطرقاً : إنه الصداق .

— يجب أن تنام ، وسأذهب لاستدعاء الطبيب .

— لا حاجة لذلك .

وحدث نفسه بصوت هامس :

ما زلت فتي تنقصني القوة . هذا هو الواقع . إنهم لم يثقوا بي ، ولم يتبعوني
لأنني لم أعرف كيف أقول لهم الحقيقة . وان ذلك لإذلال لي .

وقالت له أمه برقة ، وهي تزو الى وجهه المتجهم وتزويه :

— قليلاً من الصبر ، إنهم لم يفهموا اليوم شيئاً ، ولكنهم غداً سيفهمون .
يجب أن يفهموا .

— هذا مؤكد ، فلقد فهمت أنا نفسي حقيقتك .

ودنا بول منها : ولكنك يا أماء امرأة طيبة .

ثم تحول عنها أما هي فقد هزتها الرعدة ، كما لو أحرقتها النار ، متأثرة
بالكلمات التي سمعته يردد ما ماساً ، ووضعت يدها على قلبها ، وابتعدت متقبلة

بجذر دعاب ابنها .

، وفي الليل عاد رجال الدرك ، فيما كانت هي نائمة ، وكان هو في سريره يقرأ ، عادوا واستأنفوا التفتيش بصرارة . لقد فقتشوا في كل مكان ، في غرفة المؤونة ، في فناء الدار ، وتصرف الضابط البامت اللون ، كالمرّة الأولى ، تصرفاً جارحاً ساخراً ، كأنما كانت هوايته أن يسخر ، وقد أجهد نفسه ليمسهم بمخبريته حتى الأعماق ، وكانت الأم تجلس في إحدى الزوايا صامتة لا تحول بصرها عن ابنها ، أما هو فكان يحاول أن يكبت اضطرابه ، ولكن أصابعه كانت ترتعش بشكل غريب عندما يضحك الضابط ، وكلت تشعر أنه يكاد يعجز عن الاجابة على أسئلة الدركي ، وأنه يتحمل مزاحه الثقيل ، ولم يكن دعرها كمثل عند التفتيش الأول ، وكانت تستشمر كرها أكثر لضيوف الليل هؤلاء بلباسهم الرمادي ومهاميزهم ، وكان كرها يطنى على خوفها .

وجاء بول يوشوشا :

— إنهم سيأخذونني .

فطأطأت رأسها ، وأجابت بصوت خفيض .

— أفهم ذلك .

أجل . لقد كانت تفهم أنهم سيزجونهم في السجن لأنه خطب اليوم في المال ، ولكن المال جميعاً كانوا موافقين على كل ما قاله ، وسيدافعون عنه جميعاً فلا يلبث أن يطلق سراحه .

واشتهت أن تضمه الى صدرها ، وأن تبكي ، ولكن الضابط كان الى جانبها يراقبها مسبل الأجناف ، وكانت شفتاه تحتلجان ، وشارباه يتراقصان ، وداخلها احساس بأن هذا الرجل ينتظر منها أن تسفح بين يديه الدمسوع ، والشكوى والتوسلات ، وظلت تضغط على يد ابنها ، وهي تحشد كل إرادتها ، وتحاول ان تجتريء في كلامها . وقالت له ببطء ، وهي تمسك أنفاسها ، هامة :

— الى اللقاء يا بول ، هل أخذت كل ما يلزمك ؟

— أجل ... لا تقلقي .

— ليكن الله معك .

وعندما اقتادوه تهاكت على المقعد مغمضة العينين ، وراحت تلتجب ببطء وانتجبت طويلاً وهي مطأطئة الرأس ، تسند ظهرها الى الجدار كما كان يفعل زوجها ، ويثقل عليها الضيق وشعورها المذل بضعفها ؛ وتصب في نوح تأوهات الرتيب كل ما في قلبها المجرّوح من أمي . وكانت ترى أمامها ، كالبقعة الجامدة ، ذلك الوجه الشاحب ، ذا الشاربين الخفيفين ، الذي تبدو الغبطة في عينيه المتفتضتين ، فيتدحرج في صدرها ، كالكرة السوداء ، الغضب الشديد والسخط على أولئك الذين ينتزعون الأب من والدته ، لا لسبب إلا لأنه ينشد الحقيقة وكان الطقس بارداً ، والمطر ينقر زجاج النوافذ ، وكان يخيل إليها أن أشباحاً تروّد حول منزلها في حلك الليل ، أشباحاً رمادية ، طويلة الأذرع ، ذات وجوه حمراء عريضة لا عيون فيها . وكانت هذه الأشباح تسير ورنين مهاميزها يتصادى ضعيفاً .

وكانت الأم تتمنى :

— ليتهم على الأقل أخذوني معه .

وعوت صافرة العمل بصوتها الأمر تدعو لاستئناف العمل ، وكان صوتها اليوم أصم خفيفاً ، مضطرباً ، ودخل ريدين وهو يمسخ قطرات المطر عن لحيته ، وسألها :

— هل أخذوه ؟

وتنهت : أجل ... لقد أخذهم الملاعين ،

وقال ريدين ساخراً : حسناً ... ولقد فقتشوا منزلي ، نبشوا كل شيء ، نعم ... وعووا ، ولكنهم لم يوجّهوا اليّ أية إهانة . إذن لقد أخذوا بول ؟ لقد أدركت المؤامرة ، فلقد غمز المدير غمزة ، وأشار الدركي إشارة معناها : لقد فهمت ... ومن ثم ... كان الاعتقال آه ... انهم زملاء ... بعضهم ينهمك في حلب الشعب ، في حين يمسك الآخرون بقرونه . وصاحت الأم وهي تنهض :

— يجب أن تعملوا شيئاً من أجل بول ، لأن ما فعله كان من أجلكم جميعاً .
 — ومن الذي يجب أن يعمل ؟
 — أنتم جميعاً .
 — اتصدقين أن ذلك يحدث ؟ لا ... يجب ألا تدخل في حسابك .
 ، ومضى ضاحكاً ثقيل الخطى ، وظلت كلماته القاسية اليائسة تؤجج حزنها .
 — إنهم قد يضربوه ويعذبونه ...
 وتحملت جسد ابنها وقد أشبع ضرباً ، تخيلته ممزقاً مدمى ، فجثم الرعب على صدرها كالخرف البارد ، وسحقها هذا الرعب ، واحست بألم في عينيها . ولم تشعل في هذا اليوم موقدها ، ولم تهين فطورها ، ولم تشرب الشاي ، ولم تتناول إلا كسرة من الخبز أكلتها عند المساء .
 وعندما آوت إلى فراشها استعرضت حياتها كلها . أنها لم تكن في يوم من أيامها شديدة الوحدة ، شديدة العري كمثلها الآن . لقد تعودت في سنواتها الأخيرة أن تعيش في الترقب الدائم ، ترقب شيء ذي أهمية ، شيء يحمل إليها السعادة ، وكانت ترى الفتيان حولها يضطربون ضاجين جذلين تملأهم الحيوية ، وكان وجه ابنها الجاد نصب عينيها أبداً ، وجه ابنها ، خالتي حياتها المنكودة ، الطبية مع ذلك . وها هو الآن بعيد عنها ...

— ١٤ —

ومر النهار بطيئاً ، وجاء في أعقابه ليل مؤرق ونهار آخر أشد طوولاً ، وكانت ترجو أن يلم بها خلاله أحد ، ولكن أحداً لم يأت ، وهبط المساء ، ثم خيم الظلام .
 وكان المطر ينتحب ، ويرشح من الجدران ، والريح تعصف في المدخنة ، وشيء ما يتحرك تحت الخشب في أرض الحجرة ؛ وكانت قطرات الماء تتساقط من السقف فيواكب نقرها الكئيب دقات الساعة . وبدأ المنزل كله كأنه يتأرجح بفتور وهو منغرس في قلب الغم ، غير مبالي بما يحيق به .

— ٩٤ —

ونفرت النافذة نكرة ... ثم نفرتين ..
 لقد كانت تعرف هذه الإشارة ، ولم تك من قبل تروعا ، ولكنها هذه المرة أحست معها برعشة من الغبطة ، وقذفها من سريرها أمل غامص ، فطرحت على كتفها شالاً ، وفتحت .
 ودخل سامو الوف ، وقبعه آخر كان يغطي وجهه بقبعة معطفه وينثال شعره على عينيهِ .
 وسألها سامو الوف دون أن يحییها ، وكان ، على غير عادته ، قائم الوجه مغموماً ، سألها :
 — لعلنا أيقظناك من رقادك ؟
 فأجابته : لم أك نائمة .
 وسكنت ، وسمرت على الزائرين عينيّن يملأهما الترقب .
 وخلع رفيق سامو الوف قبعته ، وهو يطلق آهة ثقيلة مبسوطة ، ومد إلى الأم يداً عريضة قصيرة الأنامل ، وقال لها بمحبة كما لو كان يخاطب صديقة قديمة :
 — طاب مساؤك يا أماء ... ألم تعريفني ؟
 وصرخت بيلاجي فجأة وبفرح غامر :
 — أهذا أنت . يا اينغور اينغور فيتش ؟
 ورد وهو يحني رأسه الضخم ، ذا الشعر الطويل كشعر الكاهن :
 — بلحمني وعظمي .
 وتآلق وجهه المستدير ببسمة حلوة ، وكانت عيناه الصغيرتان الرماديتان تركزان على الأم نظرة صافية ودوداً . لقد كان ، بعنقه الضخم المستدير وذراعيه القصيرين ، أشبه ما يكون باريق الشاي ؛ وكان وجهه يطفح بالبشر ، وينساب من صدره صوت كأنه الحشرة المبحوحة .
 واقترخت الأم :
 — تفضلاً إلى الغرفة ، فسأرتدي ثيابي بسرعة .
 وأجاب سامو الوف وهو قلق الملامح ، يصوب إليها نظرة مزورة :

— ٩٥ —

— تريد أن نحدثك في أمر .

ودخل ايغور ايفانوفيتش الغرفة وقال :

— في هذا الصباح يا عزيزتي خرج من السجن نيقولا ايفانوفيتش الذي تعرفينه .

— لقد كان في السجن إذن !

— لقد قضى فيه شهرين وأحد عشر يوماً ، والتقى بالبيوروسي وبول اللذين يقرآنك السلام . إن ابنك يتوسل إليك ألا تقلقي ، ويقول لك إن الطريق التي اختارها تستلزم أن يكون السجن أبداً موطن الراحة ، وأن هذا هو ما قررته « سلطاتنا الباسلة » . ولننتقل الآن الى الموضوع ... أفنديين كم هو عدد الذين أوقفوا نهار أمس ؟

— كلا ..: أهنأك إذن آخرون غير بول ؟

فقاطعها ايغور بهدوء :

— إنه الموقوف التاسع والأربعون ، وينتظر أن يصطاد البوليس دزينة أخرى ، وهذا السيد واحد منهم .
وقال سامو الوف متجهماً : نعم ... أنا واحد منهم .
وشعرت بيلاجي أنها تتنفس بسهولة أكثر ، ومرت بخاطرهما هذه الفكرة كالبرق :

« إنه ليس وحده هناك » .

وعندما ارتدت ثيابها ، دخلت الغرفة ، وقابلت ضيفها ببسمة شجاعة :

— حتماً إذا كانوا قد اعتقلوا عدداً كبيراً ، فإنهم لن يوقفهم طويلاً .

وأجاب ايغور ايفانوفيتش .

— هذا صحيح . وإذا نظمنا أنفسنا لنفسد عليهم لعبتهم ، فإنهم سيكونون كالسابق بلهاء أغبياء ، وهذه هي الخطأ . إننا إذا ما توقعنا الآت عن توزيع المناشير في العمل ، فإن رجال الدرك ، عليهم اللعنة ، سيتراحون من هذا العمل المؤسف ، وسيكسرون جهودهم لمقاومة بول ورفاق سجنه ...
وصاحت الأم مضطربة :

— وكيف ذلك ؟

فقال ايغور بهدوء : انه امر بمنتهى البساطة . إن رجال الدرك قد يفكرون أحياناً تفكيراً صحيحاً : عندما يكون بول طليقاً يكون هناك كراريس ومناشير ، وإذا لم يكن كذلك ، فليس هناك كراريس ولا مناشير .
فماذا يعني هذا ؟ هذا يعني انه هو الذي ينشرها . أليس كذلك ؟ واذن فسيبدأ رجال الدرك في نهشهم ، لأنهم يحبون ان يعملوا أسنانهم في احد ما ، فلا يبقوا منه إلا الغبار .

وردت الأم مغفمة ؟

— لقد فهمت ، لقد فهمت ... يا آلهي ، ما العمل إذن ؟

ورفع سامو الوف من صوته :

— لقد اعتقلهم السفلة ، اعتقلوا الجميع تقريباً ، وعلينا الآن أن نتابع العمل كالسابق ، ليس من أجل قضيتنا فحسب ، بل لانقاذ رفاقنا .
واضاف ايغور وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
— ليس لدينا رجال للعمل ، ولدينا مقال رائع أنشأته بنفسي ؛ فكيف ندخله الى العمل ؟ هذه هي العقدة .

وقال سامو الوف : لقد بدأوا في تقشيش الداخلين جميعاً ، عند الباب .
وأدركت الأم انهم ينتظرون منها شيئاً فسارعت تسأل :

— حسناً ... ما الذي يجب عمله ، وكيف ؟

وظهر سامو الوف على العتبة :

— أنت على صلة طيبة بالباثة ماريا كورسونوف .

— نعم .. وماذا يعني ذلك ؟

— فاتحها بالأمر فقد تقوم هي بتهديب الكراريس ...

فأشارت الأم بيدها إشارة الرفض :

— لا ، لا ، إنها شرارة ، وسيصرفون أن ذلك قد حصل بإيجاء مني وبأنه صدر عن بيتنا ...

وفجأة ، لمعت في خاطرها فكرة ، فقالت بصوت خفيض :

— ماتوها ، أعطوني إياها فسأتدبر الأمر جيداً وسأجد الوسيلة ، سأطلب من ماريانا أن تأخذني كمساعدة لها . سأقول لها : انني مضطرة أن اعمل لكي أكل . وسأحل الطعام الى المعمل . سأدبر الأمر جيداً .

وأكدت لهم بكلام سريع ، وهي تضع يديها فوق صدرها ، بأنها ستؤدي المهمة على وجهها الاكمل دون أن ينكشف أمرها ، ثم انتهت الى القول بلهجة ظافرة :

— سيرون إنه وإن كان بول ليس هنا ، فارت يد تظاهم حتى وهو في سجنه . سيرون .

وانتشي الثلاثة ، وكان ايغور يتسم ويفرك يديه بجرارة :

— عظيم أيتها الأم . ليتك تعلمين كم هو مدهش هذا ... إنه بكل بساطة شيء رائع .

وقال ساموا لوف وهو يفرك يديه ايضاً :

— اذا نجحت الخطة فسأكون في السجن اسعد حالاً مما لو كنت على مقعد وثير .

وصاح ايغور بصوته المبحوح : إنك كنز ، إنك ثروة .

وابتسمت الأم ، فلقد كانت تدرك انه اذا ما ظهرت المناشير في المعمل ، فان الادارة ستأكد أن ابنها ليس هو الذي يحملها . وكانت ترتعش من الغبطة ، ترتعش بكل كيانها ، وهي تأنس في نفسها القدرة على إداء هذا الواجب .

وقال ايغور لساموا لوف :

— أبلغ « بول » عندما تذهب لزيارته ان له أما مدهشة .

وأجاب ساموا لوف والبسمة ترتسم على ثغره :

— سأقابه أولاً .

— قل له اني سأعمل مايتوجب عمله ؛ وليثق من ذلك .

وقال ايغور وهو يشير الى ساموا لوف :

— واذا لم يوقفوه ؟

— وماذا نصنع ؟ ليكن ما يكون .

وانفجرا صاحكين ، وابتسمت هي ، بعد أن أدركت هفوتها ، ابتسامة طويلة غامضة فيها شيء من الحث ؛ ثم قالت وهي تطرق برأسها :

— لكل همومه التي تشغله عن التفكير بهوم الآخرين !

واندفع ايغور يقول :

— هذا طبيعي . اما بشأن بول فلا تقلقي ولا تبتئسي ، انه سيخرج من

السجن افضل من ذي قبل ، ففي السجن يرتاح المرء ويتنقف ، وهذا — ولنتكلم بحرية — ما لا يتيح لنا الوقت ، نحن الآخرين ، ان نحصل عليه . وانا مثلاً ، دخلت السجن ثلاث مرات ! لم ادخله بفرح عظيم طبعاً ، ولكن دخوله كان شيئاً مفيداً جداً بالنسبة لي روحياً وفكرياً .

وقالت الأم وهي تتأمل بمحبة وجهه البسيط الملامح :

— انك تتنفس بصعوبة .

فأجاب وهو يرفع اصبعه في الهواء :

— ان لذلك اسباباً خاصة . والآن ... هل ما قلته مفهوم يا اماء ؟ غداً

سنهنيء لك المواد ، وستبدأ الآلة التي تبدد ظلمات القرون عملها . عاش القول الحر ، وعاشت قلوب الأمهات ... والى اللقاء بانتظار الغد .

وقال ساموا لوف وهو يشد على يده بقوة :

— الى اللقاء ، اما انا فلا استطيع ان امس مثلك اية كلمة من هذا ، في

اذن الأم .

واجابت بيلاجي تحامله :

— سننتهي جميعاً الى الفهم .. !

وأوصدت الباب بعد انصرافهم ، وركعت في وسط الحجرة تصلي ، في حين كان المطر يتساقط في الخارج .

لقد كانت تصلي دون ان تنبس بكلمة ؛ وكانت تجمع في فكرة واحدة

عظيمة ، كل أولئك الذين اقحمهم بول في حياتها . لقد كانت تراهم يعبرون بينها وبين الصور القديسة ، وكانوا جميعاً شديدي البساطة ؛ شديدي التواضع ، والانفراد .

وفي ساعة مبكرة من الغد انطلقت الى ماريا كورسونوف ، فاستقبلتها البائعة الصاخبة ابدأ ، الملطخة ابدأ بالشحم ، استقبلتها بجرارة وسألتها وهي تربت على كتفها بيدها السمينة :

— هل تشعرين بالسأم ؟ لا لا تقلقي فالامور تسير في مجراها وليس ثمة خسر . لقد كانت الامور في السابق هكذا . كانوا يسجنون الناس عندما يسرقون ولكنهم الآن يسجنونهم اذا جهرروا بالحقيقة . ربما كان بول قد قال ما لا يجب قوله ، ولكنه ، انبرى للدفاع عن الجميع ، والناس جميعاً يعرفون هذا ؛ فلا تقلقي . انهم لا يقولون جميعاً قوله ، ولكن الشجعان منهم يعرفونه جيداً . لكم وددت ان الزورك دائماً ولكن ليس لدي متسع من الوقت ، فأنا اهتم بشؤوني المطبخية ... ثم بتجارتني ؛ وسأموت متشردة . ان عشاقى — يا لهم من سفلة — هم الذين ينهشونني . ! انهم شرهون ، شرهون كالديويات في قطعة خبز . لقد وفرت عشرة روبيلات ولكن واحداً من هؤلاء المارقين زحف ، فالتهم منها على الاقل روبلين . لكم هو بائس ان يكون المرء امرأة ، ولكم هي قدرة الحياة على وجه هذه الارض . انه لقاس حقاً ان يعيش المرء وجيداً ، ولكنه شيء قاتل ايضاً ان يعيش مع آخر .

وقطعت بيلاجي هذا السيل من الكلام :

— لقد جئت اطلب اليك ان تقبليني مساعدة لك .

وسألت ماريا : وكيف ذلك ؟

ثم راحت بعد ان فرغت صديقتها من الكلام ، تهز رأسها مدعنة :

— هذا ممكن . اتذكرين كم مرة حيتني من زوجي ؟ حسناً ... فسأحميك

أنا الآن من العوز . يجب علينا جميعاً ان نساعدك لان ابنك يقاسي العذاب من اجل قضية هي قضية الجميع . انه فقي شجاع ؛ هذا ما يقوله الجميع ويتألمون له ،

اما انا فأتنبأ بان هذه التوقيفات لن تحمل الهناء للادارة ... الا تعلمين ما يحدث في العمل ؟ انهم يا عزيزتي مستأوون . اما في الادارة فانهم يقولون لبعضهم بعضاً : لقد عقص الرجل في كاملة ، ولن يستطيع ان يتابع طريقاً طويلاً ... اما النتيجة فهي انه من اجل عشرة ضروب ، يثور سخط المئات . وتوصلنا الى اتفاق . وفي اليوم التالي ، وفي وقت الغداء كانت بيلاجي في العمل ، تحمل الطعام الذي اعدته ماريا في طنجرتين ؛ اما هذه ، فكانت في السوق تشتري حوائجها .

- ١٥ -

وسرعان ما تنبّه العمال الى البائعة الجديدة ، وكان البعض يقرّبون منها مشجعين :

— هل عثرت على عمل يا بيلاجي ؟

وكانوا يواسونها ، ويؤكدون لها أن بول سيطلق سراحه عما قريب ، وكان آخرون يثيرون بعباراتهم المواسية قلبها المعبذب ، في حين يكيل آخرون غيرهم الشتائم للادارة ورجال الدرك ، فيترك سخطهم هذا أعمق الأثر في نفسها .

والى جانب هؤلاء كانت هناك فتاة تنظر اليها بشائسة ، حتى ان المصوب « ايساي غوربوف » قال لها وهو يركز اسنانه :

— لو كنت حاكماً لشنقت ابنك ، لأعلمه كيف ينكّب الشعب الطريق

القويم .

وجدهما هذا التهديد الحقود يبرد ميت ، ولم تجب على « ايساي » بشيء ، بل ألقت نظرة خاطفة على وجه الضيق المغطى ببقع الكلف ، ثم اسبلت عينيها متأومة .

وكان الإضطراب يسود العمل ، والعمال يتناثرون جماعات صغيرة ، وينقدون باهتمام وبصوت خفيض ، ارباب العمل وتند عنهم من حين الى حين ، وهم يطوفون ارجاء العمل ، شتائم وهتافات خائفة .

ورأت بيلاجي ساموا لوف يمر بالقرب منها يخفّره اثنان من رجال البوليس ،

وكان يسير واحدى يديه في جيبه ، والاخرى تلامس شعره الأشقر والأشهب ،
ونحو من مئة عامل يواكبونه ، ويفرقون رجلي البوليس بالسباب والسخرية .
وصاح به أحدهم : هل ستقوم بجولة ؟
وهتف آخر : المجد للعمال ... انهم يسيرونهم بموكب . ثم نددت عنه شتيمة
صارخة .

وصرخ رجل اعور ضخيم ، صرخ بحنق :
— انه لأجدى لكم ان تقبضوا على اللصوص ، لا أن تطاردوا الشرفاء .
واكمل آخر من بين الجمع :

— ليتهم فعلوا ذلك في الظلام ، ولكنهم سفلة لا يخجلون حتى في وضوح النهار .
وكان الشرطيان يسيران مسرعين متجهي الملامح ، يحاولان ألا يريا شيئاً مما
حولهما ، ويتظاهران بأنها لا يسمعان الهتافات التي كانت تواكبها . وتقدم منها
ثلاثة عمال يحملون عصياً ضخمة من الحديد ، فهددوا بها صاحبين :
— حذار يا عشاق الصيد .

وعندما مر ساموا لوف بالقرب من بيلاجي ، أوما لها برأسه ضاحكاً وقال :
— لقد امسكوني .

وحيته باكبار وصمك ، وقد أثر فيها مشهد أولئك الفتيان الشرفاء الذين لا
يعاقرون الحجرة ، بل ينطلقون الى السجون والبسمة تقوف شفاههم ؛ وبدأت
تكن لهم حباً عطوفاً ، حب ام .

وبعد عودتها من العمل ، قضت بعد الظهر كله عند ماري ، تساعدها في عملها
وتستمع الى ثروتها ، وفي ساعة متأخرة من المساء عادت الى بيتها الفارغ البارد
الذي لا ود عنده ، ولبثت وقتاً طويلاً تروح وتجيء ، قلقه لا تدري أين تجلس
ولا تدري ماذا تفعل . لقد كانت قلقه ؛ اذ هبط الليل ولم يأت ايغور
والمنشورات التي وعد باحضارها .

وراء النافذة كانت تتراقص تنف الثلج الثقيلة الرمادية ، ثلج الخريف ،
وتعلق بالزجاج ثم تنزلق بصمت ، وتدوب ثاركة بقايا رطوبة . وكانت بيلاجي

تفكر بابنها .

وطرق الباب بجد ، فعدت اليه مسرعة لتفتحه ، فاذا الطارق ساندري . انها
لم ترها منذ أمد بعيد ، وكان اول ما فاجأها من الفتاة بدانتها المفرطة .
وحيتها ، سعيدة بأن تثر على رفيقة ، تجنبها قضاء جزء من ليلاها في الوحدة ،
وكان قد مضى عليها زمن طويل لم تلتقيا فيه فسألتهما :

— هل كنت في سفر ؟

واجابت الفتاة باسمه :

— كلا .. لقد كنت في السجن مع نيقولا ايفسانوفيتش ، الا تذكرينه ؟
وصاحت الأم :

— وكيف انساء ، لقد قال لي ايغور البارحة انهم اطلقوا سراحه . أما انت
فلم اك اعلم ، ولم يقل لي احد انك ...

وقاطعتها الفتاة وهي تدير بصرها فيما حولها :

— ولم الخوض في هذا الحديث ؟ يجب ان استبدل ثيابي ويثا يصل ايغور .
— إنك مبتلة ،

— لقد كنت احمل المنشورات .

وقالت الأم بلهفة : اعطينها ، اعطينها .

... وفكت الفتاة ازرار معطفها بسرعة ثم انحنت فتساقطت منها رزم
الأوراق كما تساقط اوراق الشجرة ، فجمعتها الأم ضاحكة :

— لقد قلت في نفسي عندما رأيته منتفخة هكذا أنك لا شك متزوجة ،
وانك تنتظرين مولوداً ... يا لله ، كيف حملت هذا كله ؟ .. ألم تأتي سيراً
على قدميك ؟

وقالت ساندري وهي تبدو رشيقة رقيقة كالسابق :

— بلى .

ورأت الأم ان وجنتيها كانتا غائرتين ، وان عينيها قد أمتسا واستمتن تحف
بها هالات سوداء .

وقالت الام وهي تهز رأسها متأوهة :

.. لقد اطلقوا سراحك منذ قليل ، وكان عليك ان ترأحي ، وبدلاً من ان...

.. ذلك واجب . قولي لي كيف حال بول ؟ أليس شديد الهم ؟

وكانت تتكلم دون ان ترفع بصرها الى الأم ، وتصف شعرها بحنية الهام ،

من عتشة الأمل .

.. أؤكد لك انه قوي العزيمة ، وانه على ما يرام .

وتابعت الفتاة بصوت خفيض :

.. ان سمعته حسنة أليس كذلك ؟

.. إنه لم يعرف المرض أبداً ... لشد ما ترأحين ... مهلاً ، سأريك بقدر من

لقشاي مع مربى التوت الشوكي .

.. لا بأس ... ولكن علام ترعجين نفسك ؟ ان الوقت متأخر فامعني لي

ان أعد ذلك بنفسي .

وردت الأم بلمحة مؤنبه :

.. إنك جد متعبة .

ثم انهكت في اعداد الشاي ، وتبعها ساندريين الى المطبخ ، وجلست

على المقعد .

وقالت وهي تلقي بيدها وراء رأسها :

.. ومع ذلك فالسجن ينهك القوى . يا للبطالة اللعينة ، فليس هناك ما هو

اشد إبلاماً منها . ان المرء ليعرف كل ما عليه ان يعمله ... ولكنه يظل هناك

في قفصه كالحيوان .

.. ومن يثيبك عن هذا كله ؟

وردت الأم بنفسها على السؤال الذي طرحته ، ودت متأوهة :

.. لا احد إلا الله . اما انتم فما من ريب انكم لا تؤمنون به .

واجابت الفتاة بإيجاز وهي تهز رأسها :

.. كلا ...

واعلنت الأم بلمحة حماسية مفاجئة :

.. حسناً ... وانا لا اصدقكم .

وبعضية مسحت بمرورها يديها الملطختين بالفحم ، وتابعت بأيمان متأجج :

.. انكم لا تفهمون عقيدتكم ! كيف يستطيع المرء ان يحيا حياة كهذه دون

ان يؤمن بالله ؟

وتساجبت في المدخل خطىً صاخبة ودمدم صوت ، واخذت الأم رجفة

اما الفتاة فانتصبت واقفة ، ووشوشت بسرعة :

.. لا تفتحي إذا كانوا من رجال الدرك . قولي لهم انك لا تعرفيني ، وأنتي

اخطأت المنزل فدخلت بيتك صدفة ، وأنتي كنت في غيبوبة ، فنصوت عني

ثيابي ، ووجدت الكتب .. أفهمت ؟

وسألها الأم بخنان :

.. ولم ذلك يا صغيرتي العزيزة ؟

.. انتظري .

واصفت ساندريين : يخيل إلي انه يغور .

وكان القادام هو يغور فعلاً ، وكان مبلل الثياب يحطمه التعب ، وعندما

دخل صاح :

.. آه . آه . ابريق شاي ؟ هذا افضل ما في الدنيا يا أماء ؟ هل وصلت

يا ساندريين ؟

وكان ، وهو يلاً المطبخ الضيق برنات صوته المبحوح ، يخلع ببطء معطفه

الثقيل ، ولا يتوقف عن الكلام :

.. هي ذي يا أماء فتاة غير مرغوب بها من السلطات . لقد أهانها خارس

السجن فأعلنت أنها ستدع نفسها تموت جوعاً اذا لم يقدم لها اعتذاره ، ولبثت

ثمانية أيام مضرية عن الطعام ، وكان من العدل ألا تخرج إلا وقدمائها من أملم ...

وبطني الصغير ماذا تقولون عنه ؟

ودخل الغرفة وهو ما زال يثرثر ويحتضن بذراعيه القصيرين بطنه المترهل ،

ثم ما لبث ان صفق الباب وراءه .

وسألت الأم ساندريين مندهشة :

- أصبح أنك لم تأكلي طوال أيام ثمانية ؟

فردت الفتاة وهي تهز كتفها بتأثر ظاهر :

- لقد كان عليه أن يقدم لي اعتذاره .

وأثار هدوؤها وعنادها الصارم شعوراً في نفس الأم يمازجه التعنيف ، فسألها

من جديد :

- وماذا لو مت ؟

- فأجابت بصوت خفيض :

- ليكن ، ومع ذلك فقد اعتذر . إن الإهانة يجب ألا تغتفر .

وقالت الأم ببطء :

- أجل . . . ولكننا نحن النساء نهان طوال حياتنا .

وصاح ايغور وهو يفتح الباب :

- لقد تحققت من حلي الآن . هل الشاي جاهز ؟ اممحي لي ان اذهب

لأحضاره .

واضاف وهو يقترب من ابريق الشاي :

- كان ابي الفاضل لا يشرب أقل من عشرين قدح من الشاي يومياً . ولذلك

سلخ بسلام في هذا العام الحفير ثلاثاً وسبعين عاماً دون أن يمرض . لقد كان يزن

مئة وخمسة وعشرين كيلو غراماً ، وكان خادم رعية في قرية فوسكريسانسكي .

وصاحت بيلاجي :

- أنت ابن الكاهن جان ؟

- أجل ... وكيف عرفت ذلك ؟

- لأنني انا أيضاً من قرية « فوسكريسانسكي »

- اذن أنت مواطنة ؟ من اي عائلة ؟

- نحن جيران لكم ... فأنا من آل « سيرغين »

- أنت ابنة « نيل » الاعرج ؟ لقد عرفته جيداً ، ولقد شد اذني أكثر من مرة .

وكانا يتضحكان واحدهما يقف قبالة الآخر ، يتضحكان تحت نار الاسئلة والأجوبة المتشابكة ، وكانت ساندريين ، وهي منهمكة في اعداد الشاي ، ترنو اليها وتضحك .

ونبه احتكاك الاقداح الأم الى واجباتها :

- آوه ، المعذرة . اني اثرثر . ولكنه من الجميل جداً ان يلتقي المرء بمواطن ...

- انا الذي يتوجب علي ان اطلب منك المعذرة لتصرفي في بيتك كما اتصرف في بيتي ... ولكن الساعة الآن قد بلغت الحادية عشرة ، وامامي طريق طويل يجب ان اقطعه ...

وصاحت الأم بدهشة : الى اين ؟ الى المدينة ؟

- نعم .

- كيف ذلك . ان الوقت ليل والسماء ممطرة ، والت منهمك ... ابق الليلة هنا .

والتفتت الى ساندريين :

- ينام ايغور في المطبخ ، وننام نحن هنا .

فأجابت الفتاة ببساطة :

- كلا ... يجب ان انصرف .

وقال ايغور :

- أجل ... يجب ان تتواري هذه الفتاة يا مواطنتي ، فهي معروفة هنا ، واذا ظهرت غداً في الشارع فسيكون ذلك سيئاً .

- ولكن ... هل ستذهب وحدها ؟

وقال ايغور والبسمة ترتسم على شفثيه : نعم .

وصبت الفتاة شيئاً من الشاي لنفسها ، وتناولت قطعة من الخبز ، واخذت

قلتهما ، وعيناها المتأملتان تتركزان على الأم .

— وكيف تستطيعين السير بمفردك ؟ وناقشا أيضاً ؟ .. أأنا لا أسير وحدي ؟
لأنني أخاف .

وقال اينغور : وهي تخاف أيضاً .. أليس كذلك يا ساندرين ؟
— هذا أكيد .

ونقلت الأم بصرها عليها واحداً بعد الآخر ، وهتفت بصوت كالهمس :
— لكم انتم قساة .

وعندما انتهت ساندرين من شرب الشاي ، شددت على يد اينغور مودعة ،
دون ان تنبس بكلمة ، واجتازت المطبخ ، والأم تتبعها :
— ارجوك ان تبقي بول تحيتي اذا ما رأيتك .

وكانت يدها على مزلاج الباب ، حين استدارت بغتة ، وسألت بصوت خفيض :
— هل لي ان اعانقك ؟

واحتضنتها الأم دون ان تجيب ، وعانقتها بحرارة :
— شكراً لك .

... وخرجت بعد ان حيتها بإيماءة من رأسها .

وألقت الأم ، وهي تعود الى الحجرة ، نظرة خاطفة مقمومة عبر النافذة . لكنه
كانت تنف الثلج المتميع تساقط في الظلمات ثقيلة بطيئة . وسألهما اينغور :

— أأذكرين آل بروزوروف ؟

وكان يجلس متباعد الساقين ، وينفخ قدح الشاي بصوت مسنوع وكان
وجهه احمر مطمئناً ، ينضح بالمرق .

وقالت الأم بهجوم وهي تتجه نحوه بخطى مزورة :
— اجل آني اذكرهم .

ثم جلست ، وركزت على الرجل نظرة حزينة ، وسأله بلهجة رؤوم :
— آه ... وساندرين ... كيف ستصل ؟

وابشمت اينغور :

— سوف تصل منهكة . لقد سهر السجين غورها ، وكانت من قبل اصلب
عوداً ، خاصة انها لم ترب تربية قاسية ... واعتقد انها تشكو مرضاً في رثتها .
واستوضحت الأم :

— من اي عائلة هي ؟

— انها ابنة ملاك ، ووالدها — كما تقول هي — رجل خليع ... أتعرفين
يا اماء انها سيتزوجان ؟

— ومن هما اللذان سيتزوجان ؟

— بول وهي ... ولكن ذلك متعذر ، فحين تكون هي طليقة يكون هو
في السجن ، والعكس بالعكس .

وأجابت الأم بعد صمت :

— لا اعرف شيئاً من ذلك ؛ فإن بول لا يتكلم ابداً عن خصوصياته .

كانت ما تزال تحس بالاشفاق على الفتاة ، فقالت لضيفها وهي ترمقه بنظره
حقد غير مقصود :

— لقد كان من الواجب ان ترافقها .

وأجاب بهدوء :

— إن ذلك مستحيل ، فلدي هنا كومة من الاعمال يتوجب علي ان انجزها
واحتاج معها الى السير نهائياً بكامله ... وانه لعمل سيء بعض الشيء ... مع
الربو الذي اعانيه .

وقالت بلهجة لا يمكن تعريفها :

— إنها الفتاة جريئة .

وكانت تفكر بما قاله لها اينغور ، ويعيظها الا تتلقى هذا النبأ من ابنها مباشرة
بل من رجل غريب ... وكانت من اجل ذلك تزم شفيتها وتقطب حاجبيها .

وقال اينغور وهو يمز رأسه :

— جريئة جداً . ولكنني لاحظت انها تثير فيك الشفقة فعلاً ذلك ؟ اذا كنت

متوزعين شفتك علينا جميعاً فلن يكفيناك ما عندك . إننا جميعاً ، نحيا ، في الواقع

حياة قاسية، فنذ امد غير بعيد مثلاً عاد احدى رفاقي من المنفى؛ وعند وصوله الى « نيني - نوفغورد » كانت زوجته وطفله ينتظرانه في « سمولانسك » وعندما بلغها كانوا في سجن من سجون موسكو. اما الآن فلقد جاء دور زوجته للذهاب الى سيبيريا. وانا ايضاً كانت لي زوجة، زوجة رائعة، ولكن خمس سنوات من هذه الحياة جرتها الى المقبرة.

وكرر قدحه دفعة واحدة، واستمر في كلامه، وراح يعد الاشهر والسنين التي قضاها في المعتقل والمنفى، ويسرد قصص الشقاء المتنوع، والضرب الذي تعرض له في السجون، وقصص الجوع في سيبيريا. وكانت الأم ترنو اليه، وتصفي رقد اذهلتها تلك البساطة، وذلك الهدوء اللذان كان يصف بها تلك الحياة المقهمة بالآلام والاضطهاد، والمذلة.

- ولكن ... لنحدث في موضوعنا ...

وتغير صوته واتزنت ملامحه وسألها أولاً عن الحطة التي اعدتها لأدخال المناشير الى العمل؛ وذهلت بيلاجي لمعرفة الدقيقة للتفاصيل كلها، حتى اذا انتهيا من هذا الحديث، عادا الى استرجاع الذكريات، ذكريات مسقط الرأس. وفيما كان ايفغور يتفكه، كانت هي تتبجح بمجى سنيها العابرة فتبدو لها كالمستنقع تتناثر فيه الهضاب المتشابهة، وتتمتع شجيرات الحور بارتعاشها الجبان، واشجار الصنوبر، والصفصاف الابيض الضائع بين التلال. لقد كانت اشجار الصفصاف تذبذب ببطء وتعيش خساً من السنوات أو ستاً، فوق هذه التربة والموارة العفنة، ثم تتساقط، وتتغفن هي الأخرى.

لقد كانت الأم تستحضر في ذهنها هذه اللوحة وقد استبد بها اشفاق ينوء به قلبها، وكان ينتصب امامها ظل لفناء قاسية الملامح، غنيمة التقاطيع، تنطلق الآن تحت تنف الثلج الرطبة، وحيدة هلكى.

... وابنها في السجن قد يكون ما زال حتى الآن ارقاً لم ينام .. إنه يفكر، ولكنه لا يفكر بأمة، بل هناك من هو أقرب اليه منها.

وكفامة ملونة الانمكاسات، حائرة الاشكال، كانت الافكار الثقيلة ترحف،

نحوها وتهصر قلبها بقوة.

وقال ايفغور وهو يتسهم: انك متعبة يا امساء، فيها الى النوم. وتنت له ليلة طيبة، واجتازت المطبخ بخطى متأرجحة وحذر، تحمل في قلبها اساءها المحرق، وفي الصباح؛ عندما كانا يتناولان الشاي سألها:

- .. واذا قبضوا عليك، وسألوك من أين لك هذه المنشورات الملحدة، فماذا تقولين لهم؟

- أقول لهم ان هذا الأمر لا يعينهم.

- نعم ... ولكن هذا القول لا يقنعهم، وسيقنعون جيداً، فيما لو كان الأمر يعينهم بالفعل؛ وسيسألونك بالراح دون ان يضجروا ..

- ولكنني لن ابوح لهم.

- إنهم سيسجنونك.

فزفرت: سأحمد الله، لأنني سأكون عضواً صالحاً لشيء ما على الأقل. من يحتاج الي؟ لا احد .. ثم انهم - على ما يقال - لا يعذبون ...

ومهم بعد أن حذر فيها بامعان:

- كلا .. انهم لا يعذبون ... ولكن سيدة جريئة مثلك يجب ان تحتاط ...

واجابت بابتسامة مرة:

- انه لمجمل منك ان تلقني هذا الدرس.

وصحت ايفغور لحظة، وذرع ارض الغرفة ثم اقترب منها:

- ان هذا لعسير يا مواطني، اشعر جيداً انه عسير جداً بالنسبة لك.

واجابت بحركة من يدها:

- إنه عسير بالنسبة للجميع، ولكنه ربما كانت يسيراً على اولئك الذين -

يدركون، وأنا، ادرك شيئاً فشيئاً ما ينشده الناس الطيبون.

وقال ايفغور بلهجة وقور:

- اذا كنت يا اماء تدركين ذلك فالطيون جميعهم، اجل جميعهم،

بحاجة اليك.

ورشقها بنظرة خاطفة ، وابتسم بصمت .
... وعند الظهيرة خبأت النشرات في صدرها بهدوء وبكثير من المهارة
بما حمل انفور على ان يصيح مقتبظاً :

« شيرغات » كما يقول الالماني الطيب عندما يكرع اناء من الجمعة .
ان الأدب لم يبدل فيك شيئاً ايها الام ، فلقد ظلت امرأة باسلة طيبة ، متقدمة
في السن بعض الشيء ، ولكنها قوية كبيرة ، ألا فلتبارك خططك الآلهة التي
لا عد لها .

.. وبعد نصف ساعة وصلت الى باب المعمل وهي تنوء بحملها الثقيل ، ويبدو
عليها الهدوء ورباطة الجأس .

وكان هناك حارسان احنقها هزه العمال ، يفتشان كل من يدخل الباحة
دونما تمييز ، ويتراشعان الشتائم مع الداخلين ، وكان احد رجال البوليس يقف
جانباً ، كما يقف ايضاً رجل آخر هزيل القامتين ، احمر الوجه ، زائغ النظرة ،
وقد اخذت بيلاجي ، وهي تنقل حملتها من كتف الى آخر ، تتتبع حركاته
بطرف عينها ، ويداخلها إحساس بأنه جاسوس .

وكان هناك فتى فارغ الطول اجعد الشعر ، يملق قبعته في عنقه ، ويصرخ في
وجه الحارسين اللذين كانا يفتشانه :

— يجب ان تفتشوا في الرأس أيها الأبالسة لا في الجيب .

واجابه أحد الحارسين :

— ليس في الرأس شيء سوى القمل .

— حسناً ... التقطوا هذا القمل . فهذا هو العمل الوحيد الذي تتقنونه .

ولف الجاسوس الفتى بنظرة سريعة ثم بصق .

وقالت الأم : اسمحوا لي بالمرور ، فأنتم ترون اني مثقلة ، وان حملي

يقصم ظهري .

وضاح بها الحارس الرهيب : مرتي ، مرتي ولا تثرثري .

وروضت الأم آنيها على الأرض ، عندما وصلت الى مكانها المعتاد ، ثم القت

نظرة عجل على ما حولها وهي تمسح العرق المتصبب من وجهها ... واقترب منها
في الحال صانعا افعالها الاخوان « غوسوف » وسألها أكبرهما ، ويدعى « فاسيلي » ،
سألها بصوت مرتفع ، وهو مقطب الحاجبين :

— هل يوجد معك فطائر ؟

فأجابته : كلا .. سوف احضر منها غداً ..

وكانت تلك كلمة المرور ، فبرقت أسارير الأخوين ، ولم يتألك جان وهو
اصغرهما ، من أن يهتف : آه ايها الأم ... إنك امرأة فاضلة .

وقرقرض فاسيلي وراح يحرق في أحد الأوعية بينما كانت رزمة من الأوراق
تنزلق تحت سترته .

وقال لأخيه بصوت جهر :

— لن نذهب الى المنزل يا جان ، وستتناول غداءنا من طعام السيدة ، إذ من
الواجب ان نقدم العون للبائعة الجديدة ..

ثم دس ببراعة ، كلية من المنشورات في ساق جزمته .

ووافق جان على الفكرة : هذا صحيح ... ثم انفجر ضاحكاً .

وكانت الأم تتلفت حولها بحذر ، وتنادي بين الفترة والفترة معلنة عن بضاعتها :

— شوريا ... عجة سخنة ...

وكانت تحتال فتسحب من المنشورات رزمة بعد رزمة ، ثم تدسها في أيدي

العمال الأصدقاء ، ومع كل رزمة ، كان وجه ضابط الدرك يبدو لعينها كبقعة
صفراء أشبه ما تكون بلهيب عود من الثقباب في غرفة مظلمة ، وكانت تقول له
بذكاء وغبطة ساخرة :

— خذ ... هذه لك يا ابني الصغير .

ثم تضيف منشحة الصدر وهي تدس الرزمة التالية :

— خذ أيضاً ...

... وعندما أقبل العمال وصحونهم في ايديهم أخذ جان يضحك بضجيج ،

فتوقفت بيلاجي عن توزيع النشرات ، وراحت تسكب شوريا المفلوف والعجة ،

في حين كان غوسوف يقول مازحاً:

— لكم هي بارعة ... هذه البيلاجي .

ورد عليه سائق متجهم الوجه :

— الحاجة تعلمك كيف تصطاد الجرذان . لقد اختطف الاوباش ذاك الذي

كان يعولك .. حسناً .. اعطني عجة بثلاثة قروش .. ولا تبتشي أيتها
الأم .. فستدبرين أمرك .

وابتسمت الأم : شكرأ لهذا الكلام الطيب .

وابتعد العامل وهو يغتم : هذا الكلام الطيب لا يكلفني غالباً .

وعادت بيلاجي تنادي من جديد :

— شوريا سخنة ، عجة ، شوريا بالمقفوف ..

وكانت تقول في نفسها بأنها ستقص على ابنها حديث هذه الخطوة الأولى ،

وكان وجه الضابط الشاحب يمثل أمامها أبداً ، كرهاً قلماً ، وشارباً الاسودان

يتراقصان فيمان عن اضطرابه ، وكانت أسنانه المتراسة تلمع تحت شفته العليا

التي قلصها الغضب ، وكان الفرح يغرد في قلب الأم كالمصفور ، وعيناها تنفضان

بجذب ، وكانت تحدث نفسها وهي توزع بضاعتها بمهارة فتمس :

— خذ هذه ... وهذه ايضاً .

— ١٦ —

وفي المساء بينما كانت تتناول الشاي ، تعالى ، تحت النافذة ، وقع حوافر ،

حوافر جواد تحب في الوحل ، وسمعت صوتاً تعرفه ، وبوثة واحدة تخطت

المطبخ إلى الباب ؛ فإذا بها ترى شخصاً يحجاز الباحة بخطى واسعة ، فيزوغ

بصرها ، وتدفع الباب برجلها وهي تستند إلى حاجز السلم .

وقال الصوت الذي تعرفه جيداً :

— طبت مساءً أيتها الأم الصغيرة .

واستقرت على كتفها يدان طويلتان خشتان .

— ١١٤ —

واجتاحها مرارة الأمل الخائب ، وفرحة اللقيا ، لقيا اندريه ، وامترح
الاحساسان المتفجران في احساس واحد ، احساس عميق لأهب ملأها بموجته
العارمة ، وعصف بها فألقاها على صدر اندريه .

وضمها اندريه بذراعيه الراعشين ، وكانت هي تبكي بصمت دون ان تنفوه
بكلمة وكان اندريه يداعب شعرها ، ويقول لها بصوت غرّيد :

— لا تبكي أيتها الأم الصغيرة ، ولا تنهكي قلبك . أقسم لك انهم سيطلقون

مراحه قريباً ، فهم لا يملكون ضده أي دليل ، لأن الشبان التزموا الصمت جميعاً

كالأسماك المشوية .

وقادها إلى الحجرة وهو يفمر كتفها بذراعه ، وراحت وهي تلتصق به ،

تمسح الدموع عن وجهها بجذر السنجاب ، وبدا وجودها المتمطش لساع ماسيقول ،

بدا هذا الوجود كله معلقاً بشفتيه .

— ان بول يعانقك ؟ وهو بصحة جيدة وعلى احسن ما يكون نشاطاً ؛ ولا شيء

يشكو منه إلا ضيق السجن ، فلقد أوقف عدد من الناس يفوق المئة ، من هنا

ومن المدينة ، ولذلك يقيم في الغرفة الواحدة ثلاثة أو أربعة . ولا مجال للتشكي

من إدارة السجن فالقوم هناك ليسوا بأشراراً ، ولكنهم مرهقون بالعمل ، العمل

الذي أغرقهم به حتى الأذان رجال الدرك الشياطين ؛ وهم ليسوا ، في مطلق

الأحوال ، قساة القلوب ، بل انهم يرددون دائماً : « اهدوء أيها السادة ، اهدوء .

لا تخلقوا لنا المتاعب » ، وهكذا تسير الأمور على أحسن وجه .

أما السجناء فإنهم يثرثرون ، ويتبادلون الكتب ويتقاسمون الطعام ، والسجن

سجن جيد ، صحيح انه قديم البناء ؛ مسرف في القدم ، ولكنه رغم ذلك لطيف ،

لا يصاب المرء فيه بالصفراء . ورجال السلطة العامة قوم طيبون يساعدوننا

كثيراً . لقد أطلق سراحي أنا ، وسراح بوكين وأربعة آخرين ، وسيطلق سراح

بول عما قريب ، وهذا أمر أكثر من أكيد ... اما فيسو شيكوف فسيطول أمد

اعتقاله : انهم غاضبون عليه وهو يوسعهم سباً بلا هوادة . ورجال الدرك لا يطيّقون

رؤيته ، وربما أحيل إلى المحاكمة أو إلى الجلد ويحاول بول أن يهدئه

— ١١٥ —

فيقول له : «استكن يا نيقولا ، فإنهم لن يكونوا أفضل مما هم ، اذا صرخت في وجوهم» ولكن نيقولا يخور : «سأبقر بطونهم كالآرانب» ... أما بول فيظل هادئاً مترناً ، واني لأؤكد انهم سيطلقون سراحه عما قريب .

ورددت الأم باسمه مطمئنة :

— نعم ... عما قريب ، أنا أعلم ذلك ، عما قريب .

— حسناً ... ما دمت تعرفين ذلك ، فصبي لي قدحاً من الشاي وحدثيني عن الحال .

وكان يرنو إليها متلهللاً الوجه ، وقد التمع في عينيه لب ودود يخالطه حزن خفيف . وقالت الأم ، وهي تطلق زفرة عميقة ، وتتأمل وجهه النحيل الذي يثير السخرية بما انبث فيه من أجسام الشعر القاتم :

— يا صغيري اندريه ... إني أحبك حباً جماً .

وردّ البيوروسي وهو يتأرجح فوق كرسيه :

— ان القليل منه يكفيني ؟ فأنأ أعلم انك تحبيني ، وانك تستطيعين ان تحبي العالم كله ، لأن لك قلباً كبيراً ...

واصرت : لا ... إني احبك انت بصورة خاصة ، فلو كانت لك ام لغبها الناس لأن لها ابناً مثلك .

وقال بهمس : وانا أيضاً لي ام في ناحية ما من الارض .

وهتفت : هل عرفت ما فعلته اليوم ؟

وقصت عليه بحماسة ، ولسانها يتعثّر من الغبطة ، كيف ادخلت المنشورات إلى العمل وزوّقت القصة بعض التزييق .

وجحظت عيناه دهشة ، ثم انفجر ضاحكاً ، هازاً فخذه ، ولطم رأسه بيده وصاح يملأ الفرح .

— اوه ، اوه ... ولكن هذا ليس مزاحاً . إنه عمل جدي سيسريه بول أليس كذلك ؟ هذا جميل أيتها الأم الصغيرة بالنسبة لبول ، وللجميع .

وكان يفرقع بأصابعه جذلاً ، ويتأرجح في مقعده ويصفّر ، وكانت فرحته

المتفجرة الغابرة توقظ فيها رجماً قوياً .

وعادت إلى الكلام كأنما قد فتح قلبها على مصراعيه وانجس منه كينبوع طروب ، فيض من الألفاظ المعبرة عن تلك الغبطة الهادئة التي تقعمها .

— يا إلهي ... لقد تأملت حياتي ، وتساءلت ... لماذا عشت ؟ عشت

للضرب ... والعمل ... وكنت لا أرى أحداً سوى زوجي ؛ ولا اعرف شيئاً

سوى الخوف . وحتى أنني لا أدري كيف نشأ بول . هل أحببته عندما كان

زوجي حياً ؟ لا أدري : لقد كان همي كله ، وافكاري كلها تدور حول امر

واحد هو ان اطعم ذلك الوحش الضاري ، ليشعر بالاكفاء والشبع ، وأن أضع

نفسي في خدمته في الوقت المناسب ، كيلا يستشيط غضباً ، ويشبعني ضرباً ؛

أو على الأقل ، لكي يوفّرني من الضرب هذه المرة . ولا أذكر انه فعل ذلك

أبداً . لقد كان يضربني بضراوة ، حتى لأحسب انه كان لا يضربني أنا بالذات ،

بل يضرب في كل اولئك الذين يكرههم . ولقد عشت عشرين عاماً على هذه

الوقيرة ، ولا أعرف شيئاً مما حدث قبل زواجي ، وقد تعاودني الذكرى ؛

ولكنني لا ألبث أن أصبح كالعمياء ، لا أرى شيئاً أبداً .

لقد كان ايفغور ايفانوفيتش ، وهو ابن قريتي ، كان هناك ، وكان يتحدث

عن هذا أو ذاك . أما أنا فأذكر بيوتاً وناساً ... أما كيف كان يعيش هؤلاء

الناس ، وماذا كانوا يقولون ؟ وماذا حل بهم ؟ فذلك ما لا أذكره ، وانما

أذكر بعض الحرائق ، بل اثنتين منها . لقد أفلت مني كل شيء وباتت نفسي

مغلقة كمنزل مهجور . انها عمياء صماء .

وتنفست الصعداء وتنشقت الهواء بنهم كسمكة خرجت من الماء ، وانحنى

ثم تابعت بصوت أشد خفوتاً :

— عندما قضى زوجي نحيبه تعلقت بابني . أما هو فقد أخذ يتم هذه الامور

التي ، تعرفها ، وكنت انظر إلى تصرفه بعين غير راضية ، وكنت في الوقت

نفسه أشفق عليه ؛ وأسائل نفسي : كيف أعيش وحيدة إذا هلك لا سمح الله ؟

أية كآبة كنت استشعرها وأى قلق ؛ لقد كان قلبي يتمزق كلما فكرت بالمصير

الذي ينتظره .

وصمت وهزت رأسها يهدوء ثم أردفت بلهجة متزنة :

— ليس حبنا نحن النساء حباً صافياً، فنحن نحب ما نشعر أننا بحاجة إلى حبه .
خذ على ذلك مثلاً . أنت الذي تعيش معذباً بعيداً عن أمك ما حاجتك إليها ؟
وكل أولئك الذين يتعذبون من أجل الشعب ، والذين يذهبون إلى السجن أو
إلى سيبيريا ، أو يموتون ، وتلك الفتيات اللاتي ينطلقن وحدهن في الليل ، في
الوحل ، وتحت الثلج والمطر ، واللاتي يقطعن سبعة كيلومترات ليأتين إلينا ...
هؤلاء جميعاً من يفهمهم ؟ من يستجيبهم ؟ .. إنهم يحبون فحسب ، وهذا هو الحب
الصافي . إنهم يعتقدون . أنهم يؤمنون يا اندريه .. أما أنا فلا أعرف حباً
كهذا ، إنني أحب ما في ذاتي ، وكل ما يتعلق بي .

وقال البيوروسي الذي كان يفرك كعاده بعصية ، رأسه ووجنتيه وعينه ،
قال لها دون أن يرفع بصره :

— إنك تستطيعين أيضاً . فنحن جميعاً نحب ما هو أقرب إلينا ، ولكن ما هو
بعيد يغدو بالنسبة للقلب الكبير .. قريباً . إنك تستطيعين أن تحي حباً عظيماً
لأن قلبك كأم ..

وقاطعته هامسة : إن شاء الله . أنا أحسن هذا الحب بكل تأكيد ، أحسنه
جيداً ، وإن الحياة الجميلة معه . إسمع . إنني أحبك ، وربما كنت أحبك أكثر مما
أحب بول . إنه منطو على نفسه . تصور أنه يريد أن يتزوج من ساندرين ، وأنه لم
يحدثني عن ذلك أبداً ؛ لم يحدثني أنا .. أمه ..

— ليس هذا صحيحاً . أنا أعلم ذلك . أما الصحيح فهو أنه يحبها وهي تحبه ،
ولكن غاية هذا الحب ليست الزواج ؛ إنها تمنى ذلك ، ولكن بول لا يبغيه .
وقالت الأم بشروء ، وبصرها الحزين يتعلق باندريه :
— إذأ فالأمر هكذا ؟ إن الناس يتذكرون لدواتهم .

وأجاب اندريه بصوت خفيض :

— إن بول رجل قذ .. إنه من حديد .

وتابعت هي بلهجتها الحزينة :

— والآن .. هوذا في السجن . وذلك أمر مريع خيف ، يختلف عن ذي قبل .
إن الحياة لم تعد هي نفسها ، وكذلك الخوف ، وكلاهما يربعانني .

وقلبي ... هو الآن غيره بالأمس . لقد فتحت نفسي عنها وتطلعت ، فإذا
الحزن فيها يمتزج بالغبطة . إني أدرك قليلاً من الأمور ، وأنه لشديدٌ عليّ ألا
تؤمنوا بالله . هذا هو الواقع ، ولست أستطيع حياله أن أفعل شيئاً ، ولكنني ،
مع ذلك أرى انكم قومٌ طيبون .. وانكم نذرتم أنفسكم لحياة قاسية في سبيل
الشعب ، نعم .. لحياة قاسية في سبيل الحقيقة .

لقد أدركت أنا أيضاً تلك الحقيقة التي تشبهونها ، ما دام هناك أغنياء فسيظل
الشعب معدماً لا يعرف العدالة ولا الفرحة ، ولا أي شيء آخر . إني أعيش
بينكم ، وفي كل ليلة أتذكر حياتي الغابرة أكثر من مرة ، وأتذكر قوتي التي
سحقها الأقدام ، وقلبي الفتي الممرغ ، فأشفق على نفسي ، وهذا أمرٌ شديد
المرارة ؛ ومع ذلك فإن الحياة أصبحت بالنسبة لي أفضل من ذي قبل ، وأنا أرى
نفسي بوضوح يوماً عن يوم .

ونفض البيوروسي ، وراح يذرع أرض الغرفة بقامته الفارعة الهزيلة ، جاهدأً
ألا يحرق قدميه جراً :

— إن ما قلته حسن ، حسن .. ولقد كان في « كيرتش » شاب ينظم
الأشعار ، فكتب يوماً هذين البيتين :

... والأبرياء الذين أعدموا ،

ستبعثهم من رموسهم قوة الحقيقة ..

وقته البوليس ، هو نفسه ، في « كيرتش » ، ولكن ذلك لا أهمية له ، بل
المهم أنه كان يعرف الحقيقة ، وأنه بذرها بين الناس ، وانت أيضاً ، كاترين ،
مخلوق بريء حكم بالموت ..

وقناطعته الأم : لقد جاء دوري .. إني اتكلم ، وأصغي ، ولا
أصدق أذني ..

وفي الغد عندما بلغت بيلاجي باب العمل مثقلة بمحملها أوقفها الحرس بخشونة وأمروها بأن تضع طنابها في الأرض ، ثم فقتوها بدقة . واحتجت يهدوء فيما كانوا يتحرون ثوبها دونما خجل :
- سيبرد طعامي بسبيكم .

وأجابها احدهم بصوت كره : اخبرني
وقال لها الآخر بثقة وهو يدفعها بكتفه دفعا رقيقا :
- وإذا لم تصقي فسيلقي طعامك كله في السياج .

وكان أول من اقترب منها سيزوف المجوز . لقد تلفت حواليله بجذر ، وسألهما بصوت خافت :
- هل سمعت ما يقال أيتها الأم ؟
- وماذا يقال ؟

- لقد عادت المناشير الى الظهور . لقد نثرت في كل مكان . نثرت كالمح في الحيز . وبدأت الاعتقالات ، والتحريات . لقد زجوا بحفيدي مازين في السجن ، واعتقلوا ابنك ، ثم ظهر بصورة أكيدة أنها ليساها اللذين يوزعنا .. لقد ظهر ذلك جليا الآن .

وجمع لحيته في قبضته ، ورفا الى بيلاجي وقال وهو ينأى عنها :
- عرجي على بيتنا .. فأنت وحيدة ، وهذا ما يبعث السأم . أليس كذلك؟ وشكرته . وكانت وهي تملن عن بضاعتها ترأب بعين يقظة ، الاضطراب غير العادي الذي يسيطر على العمل . لقد كان العمال جميعا كأنهم في هياج ، يتجمعون في زمر لا تلبث أن تتفرق ، ويتنقلون من ورشة إلى أخرى ، وكنت تنسم في الهواء المثقل بالهباب نفحة استبسال وجرة . وكانت تتصاعد من هنا وهناك صيحات تحريض ، وهنافات ساخرة وكان العمال المتقدمون في السن يكتفون بالابتسام ، والمناظرون بروحون ويحيثون ، والقلق باد في ملائهم ، ورجال البوليس يتراكمون فيتفرق العمال ببطء حين يرونهم ، أو

لم افكر قط في حياتي إلا بأمر واحد هو ان اعبر مع النهار منسية ، لا يراني احد قانعة فقط بالسلامة . أما الآن فأنا أفكر فيكم جميعا . أنا لا أفهم تمام الفهم تصرفاتكم ، ولكنني احسكم جميعا قريبين مني . اشفق على الناس جميعا ، وأتمنى لهم الخير جميعا ، وبصورة خاصة ، لك انت يا عزيزي اندريه .
ودنا منها وقال :

- شكرا .

وأخذ يدها بين يديه ، وشدها بجملة وطواها ثم استدار عنها سريعا . وارهق الانفعال الأم ، فراحت تغسل آنية المطبخ متباطئة . وكانت تلمزم الصمت ، ويدفع قلبها شعور البأس والبسالة .
وقال لها البيورومي :

- اسمعي أيتها الأم الصغيرة . عليك ان تدلي ، في يوم من الأيام ، فيسوشيكوف بعض الدلال ... لأن أباه ، هو ايضا في السجن . وبأله من شيخ قميء مقرف ؛ اذا رآه نيقولا من نافذته شتبه ، وليس هذا باللائق . إن نيقولا وجل طيب ، يحب الكلاب والفئران والمخلوقات كلها ، ولكنه لا يحب الناس .. آه .. لشدها يمكن ان يفسد إنسان .

وقالت بيلاجي وهي مطرقة :
- لقد اختفت امه ، وأباه لص كبير ..
وعندما مضى اندريه لينام باركنه الأم دون أن يلحظ ذلك ، وكان قد مضى عليه وهو في سريره نحو نصف ساعة عندما سأله بركة :

إنك لم تتم بعد يا اندريه .

- لا ... ولماذا ؟

- طابت ليلتك .

وأجابها ممتنا : شكرا أيتها الأم الصغيرة . شكرا .

يكونون عن الحديث دون أن يتحركوا من أماكنهم ، ويرنون إلى وجوههم الكريمة الحائقة بصمت .

وكان المال يبديون كمن استعجم في النظارة ، وكان الشبح الشامخ ، شبح «غوسيف» البكر يظهر هنا وهناك ، يتبعه اخوه الأصغر كظله ، ويقهقه بصوت داور .

ومرّ النجار «فافيوف» والثقّاب ايساي ، بالقرب من الأم على مهل ، وكان ايساي ، وهو رجل صغير هزيل ، شامخ الرأس ، يميل بعنقه إلى اليسار ، ويرنو إلى النجار المنتفخ الوجه ، الذي تبدو عليه اللامبالاة ، ويحدثه بجرارة ولحيته تهتز :

— انظر يا إيفان إيفانوفيتش . انهم يقهقهون . انهم مغتبطون رغم ان تصرفهم كما قال حضرة المدير ، يؤدي إلى خراب الدولة . إنه لا يجب هنا ، يا إيفان إيفانوفيتش تنقية التربة من النباتات الطفيلية فحسب ، بل يجب حرثها .
وكان فافيوف يسير ، ويداه مشبكتان وراء ظهره ، وأصابه تشنّج وكان يقول بصوت مرتفع :

— قل ما شئت يا ابن الكلبة ، ولكن لا تحاول أن تأتي على ذكرى واقترب غوسيف من الأم :

— لقد جئت لأتناول طعامي عندك .. لأن «بضاعتك» جيدة . ثم أضاف وهو يخفض صوته ويفغم بعينه :

— لقد كانت ضربتك محكة أيتها الأم .. هذا عظيم .
وأومات إليه بيلاجي برأسها إيماء ود ، وكان يسره أن يرى ذلك الفتى ، الذي يُعد أكثر شبان الضاحية مزاحاً ، وأن يتحدث إليه سرّاً ، مخاطباً إياه باحترام . وكانت هي سعيدة ، بهذا الهيجان الشامل وتحدث نفسها :
— من الأكيد اني لو لم أكن هناك ..

وتوقف ثلاثة جنود على مقربة منها ، وقال أحدهم بصوت خفيض ولهجة متحسرة !

— لم اعثر على واحد من المنشورات .

— ينبغي أن يقرأ المنشور بصوت عالٍ . صحيح اني لا اعرف القراءة ولكنني أرى جيداً انهم تلقوا ضربة في الضلوع ..

وتلفت الثالث حوالبه واقترح :

— هيا بنا الى غرفة الوقود .

وتتم غوسيف غامزاً :

— لقد بدأت النتائج تظهر ..

.. وعادت بيلاجي الى منزلها شديدة الابتهاج .

وقالت لأندريه : انهم يتحسرون لأنهم لا يعرفون القراءة .. أما انا فقد كنت اعرفها عندما كنت صغيرة .. ولكنني نسيته .

— يجب ان تتعلمها من جديد .

— وفي سن مثل سني ؟ علام تريدني أن أثير ضحك الناس عليّ ؟

ولكن اندريه تناول كتاباً عن الرف ، وأشار الى حرف من حروف الغلاف برأس مكينة وسألها :

— اي حرف هو هذا ؟

فأجابت ضاحكة : انه حرف الراء .

— وهذا ؟

— حرف الألف .

وكانت مضطربة منفعلة . فلقد توهمت ان عيني اندريه تضحكان منها وتسخران ، وكانت تتحاشى نظراتهما ، ولكن صوته كان يرن عذباً صافياً ، ووجهه يبدو مترناً جاداً ، فسألته ببسمة مكبوتة :

— أمن الممكن يا اندريه انك تفكر حقاً في تعليمي ؟

— ولم لا ، ما دمت تعرفين القراءة ، فإنك ستتذكرين بسهولة ؛ ولقد قال

المثل : « اذا لم تكن هناك معجزة فيا للخسارة .. واذا كانت ... فذلك أحسن .. »

كما قال أيضاً : « إنك لا تصبح قديساً بمجرد التطلع الى الايقونات »

ثم أردف وهو يهز رأسه :

— أجل .. إن الأمثال لا تغفل شيئاً ، فلقد قيل : وإذا عرفنا قليلاً غمنا
هنيئاً ، فهل هذا صحيح ؟ إن المعدة هي التي تفكر بالأمثال ؛ إنها تحبك منها
لجأماً للنفس ، لتمسك بزمامها جيداً .. وهذا الحرف ما هو ؟
وكانت الأم تجهد نفسها ، مسترخية النظرة مقطبة الحجاب ، لتذكر
الأحرف المنسية وكانت وقد استغرقتها هذه الغاية ، تنسى الأحرف الباقية .
وبدت عناها منهكتين ، وظهرت فيهما أولاً دموع الإجهاد ، ثم غزرت فيهما
دموع الأسى .

وقالت وهي تنفجر منتحبة :

— أنا أتعلم الأيجدية . أتعلم القراءة في سن الأربعين .

وقال اندريه بصوت خفيض ملاطف :

— يجب ألا تبكي ، فأنت لا تستطيعين العيش إلا كذلك ؛ ومع هذا فأنت
تدركين الآن ان الناس يعيشون حياة منكودة . إن هناك آلافاً منهم
يستطيعون أن يحيوا حياة أفضل من حياتك ، ولكنهم يعيشون كالحوانات ،
وهم مع ذلك ، يعتزون بحياتهم تلك . فأى خير يتحقق في وجود هؤلاء ؟ إنهم
اليوم يعملون ويأكلون ، وسيفعلون ذلك في الغد ، وسيظل الأمر هو نفسه
طوال حياتهم : عمل وأكل . وفي خلال ذلك ينفحون الدنيا أطفالاً يكونون في
باديء الأمر مصدراً لسواهم ، ولكن عندما يبدأ هؤلاء في الأكل كثيراً ،
يحنق الأهل ، ويسئون معاملتهم : « هيا ، أيها الشبهون ، اغوا سريعاً . يجب
أن تشتغلوا » . إنهم يودون أن يجعلوا من صغارهم بقرة حلوبة ، ولكن هؤلاء
يكسحون بدورهم من أجل بطونهم ؛ ويمحون بدورهم ، حياة بائسة ، كحياة
الحكوم بالاعدام وهو في اغلاله . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يحطمون قيسود
العقل البشري ، وأنت الآن ، أيتها الأم تتصدين على قدر طاقتك ، لمثل
هذه المهمة .

وزفرت الأم : لا تحدثني عن نفسي ، فماذا أستطيع أنا أن أفعل ؟

— ولم ذلك ؟ إن كل قطرة من المطر تروي بذرة . إنك عندما تستطيعين

القراءة ..

.. وراح يضحك ، ثم نهض ، واخذ يذرع الغرفة طولاً وعرضاً :

— أجل ستعلمين .. وعندما يعود بول .. أليس كذلك ؟

وردت عليه :

— آه يا اندريه . عندما يكون المرء شاباً يسهل عليه كل شيء .. ولكنه

يفقد كلما تقدم في السن ، غنيماً بالأحزان ، فقيراً بالقوى ، وبالعقل .. ثم لا

يعود يملك شيئاً ..

- ١٨ -

وفي المساء خرج اندريه من المنزل ، واشعلت بيلاجي المصباح ، وجلست

قرب الطاولة تنسج جورباً ؛ ولكنها ما عثمت ان نهضت ، وسارت بضع

خطوات حيرى ، وانطلقت نحو المطبخ ، ثم احكمت اقفال الباب وعادت الى

الغرفة وقد ارتسم على جبينها تغضن قلق .

وأسدلت الستائر ، ثم أخذت كتاباً كان على الرف ، واقتعدت من جديد ،

مكانها من الطاولة ، وسرحت بصرها في ارجاء الغرفة ، وانكبت على الصفحات ،

وراحت شفتاها تتحركان . وكانت عندما تقرا الى سمعها جلبة في الشارع ،

تطبق الكتاب وتضفي بانتباه شديد ؛ ثم لا تلبث ان تعد من جديد ، فتفتح

عينها تارة ، وتغمضها تارة اخرى ، وتغمغم :

« ا... ر... ض... نا »

وطرق الباب فوثبت على عجل ، والقت الكتاب على الرف وسألت محنقة :

— من الطارق ؟

— أنا .

ودخل ريبين ، فسد لحيته بزهو وقال :

— لقد كنت قبلاً تسمحين بالدخول دون أن تسألني من الطارق ؟ هل أنت

وحده؟ لقد كنت اعتقد ان البيورومي هنا، فلقد رأيته اليوم .. ان السجن لا يفسد الرجال .

وجلس ..

- حسناً . لتحدث قليلاً .

وكان على ملامحه مسحة جد ، وسرّ خفي بثما في قلبها رعباً غامضاً .
ورن صوته المتزن :

- كل شيء يكلف مالاً ، فلا شيء يتم بدون بذل ، لا الحياة ولا الهبات ، وهكذا النشرات فانها تكلف مالاً .. فهل تعرفين من أين يأتي المال الذي يغطي نفقاتها ؟

وأجابت بيلاجي بهدوء وهي تتوقع خطراً :

- لا ادري .

- وأنا أيضاً لا أدري شيئاً من ذلك .. أفهل تدرين أيضاً من يكتبها ؟

- انهم فئة من العلماء ...

وقال ريبين ، ووجهه الملتحي يستطيل ويتضج :

- انهم سادة . أجل . انهم سادة اذن اولئك الذين يصوغونها ويوزعونها ، وفي هذه النشرات يهاجم السادة ، فقولي لي الآن .. أية فائدة يجنونها من بذل المال لإثارة الشعب ضد أنفسهم ؟

وارتفعت أجفان الأم ، وصرخت بهلع :

- ماذا تتخيل ؟

وقال ريبين وهو يتململ فوق مقعده يتناقل الدب :

- وأنا أيضاً شعرت بالبرد عندما توصلت الى هذه الفكرة .

- هل توصلت الى معرفة شيء ما ؟

- اسم رائحة الخديعة . انا لا اعرف شيئاً ولكني موثق انها خديعة . اني احتاج الى معرفة الحقيقة ، وقد عرفت اني أحتاج مع هؤلاء السادة فهم اذا ما احتاجوا اليّ دفعوني الى الأمام لتكون عظامي الجسر الذي يعبرونه الى

من ذلك ،

وافقت كلماته القاتمة كأنها انما تنصر قلب الأم ، فصرخت وقد تملكها الضيق :

- يا سيد .. أمن الممكن الا يدرك بول ذلك ؟ واولئك الذين ..

.. وأخذت الوجوه النبيلة الصارمة ، وجوه ايفور ونيقولا ايفانوفيتش وساندرين تنتصب أمامها ، فيتفطر قلبها ، وتتابع وهي تهز رأسها بالنفي :

- كلا ، كلا .. انا لا استطيع ان اصدق . إنهم يعملون بوحى ضمائرهم ؟

- عن تحدثين ؟

- عنهم جميعاً . عن كل اولئك الذين رأيتهم بلا استثناء .

وأطرق ريبين وقال :

- يجب ان ينطلق بصرك الى أبعد ، أيتها الأم ، فقد لا يكون اولئك الذين يترددون الى هنا ، والذين كنا نراهم عن كثب ، قد لا يكونون هم انفسهم على علم بشيء . إن هؤلاء يؤمنون ، وهذا ما يجب ان يكون ، ولكن ربما كان وراءهم آخرون لا يفتشون إلا المصلحة .. إن المرء لا يتدفع ضد مصلحته إلا بشئ .

ثم أضاف بإيمان عنيد ، إيمان قروي :

- لا خير أبداً يرجي من هؤلاء السادة .

وسأله الأم وقد وقعت من جديد فريسة للشك :

- وماذا قررت ؟

وتأملها ، وصمت لحظة ثم قال :

- انا ؟ يجب الا استمر في التعاون مع هؤلاء السادة .. هذا هو ما قررت .

ثم صمت من جديد ، وهو متجهج الأسارير .

- لقد أردت أن اضع نفسي انا وفتيانك ، للعمل معهم ، واني لاصح لهذه

المهمة ، واعرف ماذا يجب أن يقال للناس .. اما الآن فسأرحل . انا لا استطيع

ان اتق بهم ، وعليّ أن اذهب

وطأطأ رأسه ، يفكر :

— سأنتقل وحدي في القرى والساكن ، سأوقظ الشعب ، إذ على الشعب ان يأخذ مكانه في النضال . وإذا أدرك ذلك فإنه لن يضل الطريق أبداً . وسأبذل جهدي لكي يدرك بأنه لا أمل له إلا بنفسه ، والا منطق إلا منطق .. هذا هو الواقع .

وداخل الأم إشفاق عليه وخوف ، ولم تك من قبل تشعر نحوه بأي تعاطف ، ولكنه أصبح فجأة قريباً من نفسها ؛ فقالت له بركة :

— سوف يقبضون عليك .

فرنا إليها وأجاب بهدوء :

— سيقبضون عليّ ثم يطلقون سراحي فأعيد الكرة .

— أن الفلاحين انقسم سيوتقون يديك ، وستخرج في السجن .

— إذا زججت في السجن فاني سأخرج منه ، وسأعود للعمل . اما الفلاحون

فانهم سيوتقون يدي مرة ومرة ، ثم ينتهون الى الاعتقاد بأنه يجب الاصغاء إليّ لا القبض عليّ ، وسأقول لهم : « لا تصدقوني ولكن اصغوا إليّ فقط ... » وإذا أصغوا إليّ فانهم سيصدقوني .

وكان يتكلم ببطء كأنه يتحسس كل كلمة قبل ان يلفظها :

— لقد مررت ، في الزمن الأخير هذا ، بتجارب كثيرة ، وأدركت كثيراً

من الامور ..

وقالت بيلاجي وهي تهز رأسها بأسى :

— سوف نهلك يا ميشال .

فركز عليها عينيه السوداوين العميقتين اللتين كانتا تبدوان كأنها تنتظران

جواباً ، وكان جسمه القوي يميل الى الامام ، ويداه تستندان الى متكأ المقعد ،

ووجه البرونزي يبدو شاحباً في اطار لحيته السوداء .

— انت تعرفين ما قاله يسوع عن حبة القمح . « ينبغي ان تموت لتبث في

سنبلة جديدة ، وما زال لدي متسع من الوقت .. قبل أن اموت .. واني

لامرؤ ذو حيلة ..

وتكمل في مقعده ثم نهض متباطئاً :

— أنا ذاهب الى الفندق ، وسأمكث هناك ، بعض الوقت . يظهر أن

البيوروسي لن يحضر ، فهل تراه انهمك في العمل من جديد ؟

وأجابت الأم بأسمه :

— نعم .

— هذا ما يجب . أعيدي عليه ما قلته لك .

واجتازا المطبخ بتثاقل ، وتبادلا بعض العبارات دون ان ينظر أحدهما الى

الأخر .

— والآن ، وداعاً .

— لقد قضي الأمر .

— ومتى ترحل ؟

— غداً ، في الصباح الباكر . وداعاً .

وسار ريبين بخي الظهر واجتاز الردهة كالمكره ، وظلت الأم على العتبة

لحظة تصيح بسمها الى الخطى الثميلة ، والى الشكوك التي استيقظت في قلبها ؛ ثم

ارتدت دوغماً جلبة الى الغرفة ، ورفعت طرفاً من أطراف الستارة ، وتطلعت من

النافذة . لقد كانت الظلمات الكثيفة وراء الزجاج جامدة لا تتحرك .

وقالت في نفسها :

— إنه الليل .

وكانت تشفق على هذا القروي النير التفكير ، وكان هو . واسع الصدر

شديد البأس .

... وأقبل اندريه بادي النشاط والروح .

وعندما حدثته عن زيارة ريبين صاح :

— حسناً ، لينطلق في القرى ، يبشر بالحقيقة ويوقظ الشعب . إنه لا يشعر

بالراحة معنا ؛ فلقد نبقت في رأسه أفكاره القروية ، ولم يبق في هذا الرأس

مكان لأفكارنا .

وقالت بنبرة :

— إن ما قاله عن السادة يدل على أن هناك أمراً مبيتاً ... فضلاً عن أنهم يخدعوننا .

وصاح البيوروسي ضاحكاً :

— هل يزعجك هذا ؟ آه ... المال ... ليتنا نملك المال أيتها الأم الصغيرة ؛ فنحن ما زلنا نعيش حتى الآن بماك الآخرين : خذي مثلاً نيقولا ايفانوفيتش . إنه يقبض خمسة وسبعين روبلاً في الشهر يدفع لنا منها خمسين . والآخرين كذلك . وهناك طلاب جياع يبعثون إلينا ، أكثر الأحيان ، ببعض المال الذي يجمعونه فلساً فلساً . إن السادة بلا شك أنواع : بعضهم يخدم ، والبعض الآخر في المقدمة ، أما أفضلهم فإنهم معنا .

وفرك يديه وتابع بقوة :

— إن نصرنا ليس للعد ، ولكننا سنعد بانتظار أول أيار ، عيداً « صغيراً » طيباً ، وسيكون هذا العيد بهيجاً .

وطردت حاسته الكتابة التي زرعها ريبين في نفسها ، وكان يختال في الغرفة وهو مسح شعره بيده ، ويقول ، وعيناه مسمرتان في الأرض :

— أني أحس أحياناً تفجر حياة عجيبة في قلبي ، ويخيل إلي أن المرء يلقي أصدقاء أنسى ذهب ، أصدقاء يدفعهم جميعاً نفس اللهب ، أصدقاء طيبين ، مرحين ، يتفاهمون دونما كلام ؛ ويعيشون في انسجام رائع ، ويفني كل قلب انشودته ، وتسيل هذه الأناشيد كلها كالجدول ، وتصب في نهر واحد تندفع عريضاً ، حرّاً ، نحو البحر ، بجر الهناآت الصافية ، هنا أت الحياة الجديدة . وكانت بيلاجي تجهد نفسها في ألا تأتي بأية حركة كيلا تقطم عليه حديثه . لقد كانت تصغي إليه دائماً أكثر مما تصغي للآخرين ، وكان يتحدث ببساطة أكثر ، فتمس كلماته القلب بقوة . كان بول لا يقول أبداً كيف يرى المستقبل ، في حين أن المستقبل كان في نظر اندريه كخطر من قلبه ؛ وكان يخيل إليها وهي تستمع إلى خطبه أنها تصغي إلى حكاية حلوة ، حكاية العيد العظيم الذي

سيشرق على الناس جميعاً ، وكانت هذه الحكاية تلقي الضوء ، بنظرها ، على اتجاه حياة ابنها وعمله ، هو ورفاقه .

وتابع البيوروسي وهو يهز رأسه :

— وعندما نعود إلى الواقع ، عندما نتلفت حولنا نجد كل شيء بارداً موحلاً ، والناس هلكت محتقنين .

ثم تابع بحزن عميق :

إن هذا الملم ؛ ولكن ينبغي أن نحذر الإنسان ، أن نخافه . وحتى أن نكرهه . إن الإنسان موزع . علينا أن نجب فقط ... فهل هذا ممكن ؟ كيف تغفر لمن ينقض عليك كوحش ضار لا يعترف بأن فيك روحاً حياً ؛ ويسدد ضربات قبضته إلى وجهك كإنسان ؟ محال أن تغفر له ذلك ؛ وهذا ليس بالنسبة لي أنا ، فأنا أحمل الإهانات كلها إذا لم يكن سواي ، ولكنني لا أريد أن أخضع أبداً ، لأولئك الذين يستخدمون القوة ولا يريدون أن يتعلموا ضرب الآخرين على حسابي .

وهنا لمعت عيناه بالقي بارد ، فأحنى رأسه بعناد وقال بكثير من الحزم :
— يجب ألا أغتفر أي عمل سيء ؛ حتى ولو لم يكن يمسني شخصياً ؛ فأنا لست وحدي على الأرض . لنفترض أنني استكنت اليوم للإهانة فلم أرد عليها ، وبأني ضحكت منها لأنها لم تجرحني ؛ فإن وجهها الذي اختبر قوته في ، سيعتدي غداً على شخص آخر . من أجل هذا يجب التمييز بين الناس ، ويجب أن يكون المرء ثابت الجنان ، وأن يقول : « هؤلاء اخوتي ، وهؤلاء ليسوا كذلك » ، إن هذا الموقف صحيح ولكنه لا يبعث على السرور .

وانطلق تفكير الأم بصورة لا واعية إلى الضابط وساندرين فزفرت :

— كيف نصنع الحبز من قمح لم يزرع بعد ؟

فصاح اندريه :

— هذه هي المصيبة .

— أجل .

وتراى لها فجأة شيخ زوجها عبوساً ثقيلاً كصخرة ضخمة يغطيها العشب ،
وتحملت البيورومي وقد تزوج نالشا ، وابنها وقد ربط مصيره بساندرين .

وتابع اندريه مستشاطاً :

— وعن أي شيء ينتج هذا ؟ إنه ناتج فقط — وهذا ما يبدو في الوقت نفسه
مضحكاً — ناتج عن أن الناس غير متساوين . لنضع الناس جميعاً في مستوى
واحد ، لنوزع بالتساوي كل ما أبدع العقل وكل ما صنعتته الأيدي ، نتحرر من
عبودية الخوف والحسد واغلال الطمع والعبادة .

هذه هي الأحاديث التي كانت تدور غالباً بين البيورومي والأم .
وكان اندريه الذي عاد الى العمل في المصنع ، يضع أجره كله بين يدي بيلاجي
التي كانت تقبضه — بكل بساطة — كما تقبض أجر بول .

وكان اندريه يقترح أحياناً بعين ضاحكة :
— لم لا نقرأ قليلاً ابنتها الأم الصغيرة ، لم لا نقرأ ؟
وكانت هي ترفض مازحة ، ولكنها ترفض بعناد ، وكانت بسمة اندريه
تربكها وتحنقها فتقول :

— أراك تضحك ، فهل في هذا ما يضحك ؟
وكانت تسأله دائماً عن معنى هذه اللفظة أو تلك ، حين يشكل عليها معناها ،
تسأله دون أن ترفع إليه بصرها ، ويصوت تحاول أن تشحنه باللامبالاة ؛ وقد
استنتج انها كانت تدرس على نفسها في الحفاء ، وأدرك مبلغ ضيقها فلم يعد يقترح
عليها أن تقرأ معه .

وصارحته مرة :

— إن بصري ضعيف يا اندريه . إني بحاجة الى نظارتين .
— ربما كان ذلك . سندهب نهار الأحد الى المدينة ، وسأخذك الى الطبيب ،
وسيكون لك نظارتان .

كانت قد طلبت السماح لها بمقابلة بول ثلاث مرات ، وكانت تتلقى ، في كل
مرة ، رفضاً « شهماً » من قائد الدرك ، وهو عجوز صغير قزمزي الوجنت ،
ضخم الأنف : سزى خلال اسبوع بإسديتي على الأقل ، وليس أقل من ذلك .
أما الآن فستحيل .

وكان مربوع القامة ممتلئاً ، يذكرها بحجة خوخ ناضجة طال عليها الأمد في
الدكان وعلاها زغب التعفن ؛ وكان ينقب دائماً أسنانه النضيدة البيضاء بقطعة
صغيرة من الخشب الأصفر المدبب ، وكانت عيناه الصغيرتان المدورتان والحضراوان
تبتسان بجمرة ، وفي صوته جرس محبب ودود .

وقالت الأم للبيورومي : إنه عالي التهذيب ، ينتمى أبداً .
— أجل . أجل . إنهم في غاية اللطف والبشاشة . يُقال لهم : خذوا . هو ذا
رجل ذكي شريف . إنه خطر علينا فاشنقوه ، فيبتسمون ويشنقون الرجل ثم
يعودون الى الابتسام .

— لقد كان الضابط الذي قام بالتفتيش عندها شديد البساطة ، ثم تبين على الآخر
انه كان سافلاً .

— هؤلاء ليسوا ببشر . إنهم مطارق لسحق الناس وابتلائهم بالصمم . إنهم
آلات تستخدم لتكييفنا نحن أفراد الشعب ، لنفقدوا اداة طيعة ، وهم أنفسهم في
خدمة اليد التي تحركنا . إنهم ينقلون ما يؤمرون به دونما تفكير ، ودون أن
يسألوا عن الغاية .

وأخيراً أعطي الاذن لبيلاجي .

واقبلت يوم الأحد الى نظارة السجن ، وقبعت متواضعة في إحدى الزوايا ،
وكان في الغرفة الضيقة القدرة المنخفضة السقف بصعة أشخاص غيرها ينتظرون
موعد الزيارة ولم تكن هذه ، بلا شك ، هي المرة الأولى التي يأتيون بها الى السجن ،
فلقد كانوا يعرفون بعضهم بعضاً ، وكانوا ، يتجادلون فيما بينهم ، بصوت منخفض
متساحب ، حديثاً لحته الشكوى والهذر ، حديثاً لزجاً كنسيح المنكبوت .

وكانت امرأة بديئة ذاوية الوجه تقول وعلى ركبتيها كيس :
- هل عرفتم ؟ إن كاهن الكنيسة كاد ، هذا الصباح ، وفي القديس الأول ،
أن يقتلع أذن صبي من جوقة التراتيل .
وسعل رجل طاعن في السن يرتدي بزة عسكري متقاعد ، سعل بصوت
سموع وقال :

- يا لهم من متشردين ، صبية الجوقة هؤلاء ...
وكان هناك رجل قصير أصلع ، قصير القامتين ، طويل الذراعين ، تأتي الفك
بذرع أرض الغرفة وهو يادي الانهاك ، ويقول ، بصوت كئيب ، ودون
أن يتوقف :

- إن غلاء المعيشة يزداد أكثر فأكثر ؛ لذلك صار الناس أكثر فساداً من ذي
قبل . إن الليبره من لحم البقر ، الصنف الثاني ، تساوي أربعة عشر « كويكا » ؛
ورغيف الخبز يساوي الآن « كويكين » ونصفاً .

وكان يدخل الغرفة أحياناً سجناء يرتدون اللباس الأشهب الموحد ، ويغطون
أحذيتهم بكواليش ثقيلة من الجلد ؛ وكانت عيونهم تعشى عندما يدخلون الغرفة
المظلمة قليلاً ، وكانت السلاسل تثقل رجلي واحد منهم .

وكان كل شيء هادئاً هدهوءاً عجيباً ، وبسيطاً لدرجة تثير القرف ، حتى
ليحسب المرء أن هؤلاء الناس قد ألفوا هذا الجو منذ أمد بعيد . لقد كان بعضهم
يجلس بهدهوء ، والآخرين يتسلقون السلم بفتور ، وآخرون أيضاً يقبلون لزيارة
السجناء متأنقين مستسلمين . وكان قلب الأم يرتعش ضعيفاً ، وكانت تترنق قلقة إلى
كل ما يحيط بها فتدهشها تلك البساطة الثقيلة الوطأة .

وكانت تجلس إلى جانبها عجوز قصيرة مجمدة الوجه ، إلا أنها ما برحت
شابة النظرة ، وكانت تصغي إلى الحديث ، وهي تمد عنقها الهزيل ، وترنق إلى
الناس ، وفي نظرتها غرابة التحدي .
وسألتها بيلاجي بلطف .

- من لك هنا ؟
فأجابت العجوز بسرعة وبصوت عال : - ابني ، وهو طالب ... وأنت ؟
- ابني أيضاً ، وهو عامل .
- ما اسمه ؟
- فلاسوف .

- لا أعرفه ... أ منذ وقت طويل هو في السجن ؟
- منذ ستة أسابيع .
- أما ابني فهو هنا منذ أكثر من عشرة أشهر .
وخيل لبيلاجي أنها تتميز في صوتها إحساساً لا يوصف ، إحساساً كأنه الزهو .
وكان العجوز الصغير الأصلح يقول بسرعة :
- نعم ، نعم ... لقد نفذ صبر الناس . إنهم جميعاً غاضبون . إنهم يضجون
فلقد ارتفع سعر كل شيء ، وأصبح الناس ، بنتيجة ذلك ، أقل قيمة . إننا لا
نسمع أصوات المصلحين .

- هذا صحيح كل الصحة . يا للفوضى ، يجب أن يرتفع صوت ليأمر بالصمت ،
هذا ما يجب أن يحصل ؛ صوت حازم .

ونشط الحديث واشترك به الحاضرون ، وكان كل واحد منهم يسارع إلى
قول كلمته عن مستوى المعيشة ، ولكنهم كانوا جميعاً يتكلمون بصوت منخفض
وكانت الأم تستشف في حديثهم شيئاً بدا لها غريباً . إن الآخرين يتكلمون في
منزلها بشكل آخر . إنهم يتكلمون لغة أكثر بساطة ، ووضوحاً ، وأدنى
إلى الفهم .

ونادها حارس ضخمة الجثة ، مربع اللحية أشقرها ، وقفحصها من رأسها حتى
أخص قدميها ، ثم راح يحلج أمامها بعد أن قال لها :
- اتبعيني .

وتبعته ، وراودتها رغبة في أن تدفعه من وراء ليسرع خطاه ، وفي غرفة
صغيرة كان بول واقفاً ينتسم ويبسط لها يده . وخضنتها الأم وراحت تضحك .

وكانت أجفانها ترتعش ولسانها يبحث عن الكلمات ؛ وأخيراً قالت برفق :

— صباح الخير ، صباح الخير .

— هديني من روعك يا أماء فليس ما يدعو الى الاضطراب ...

وشد على يدها بقوة .

وقال الحارس متأوها :

— تراجعني الى الورا أيتها الأم ، لا تقتربي منه كثيراً ، ولتبق بينكما فسحة ..

وتشابه بصوت مرتفع .

وسألها بول عن صحتها ، وعن البيت ، وكانت تنتظر أسئلة أخرى ، فراحت

تبحث عنها في عينيه ، ولكنها لم تعثر عليها . لقد كان — كما هو دائماً — هادئاً ،

ولكنه أكثر شحوباً ، وكانت عيناه تبدوان أكبر من ذي قبل .

— ان ساندريين تقرئك السلام .

وارتمشت أجفانه ورقت ملاحه وابتسم ؛ ووخزت قلب الأم مراة شديدة

فتابعت وهي تشعر بالحق والمذلة :

— هل سيطلقون سراحك قريباً ؟ لماذا سجنوك مادامت المشورات قد

عادت الى الظهور ؟

ولمعت عينا بول بألق الغبطة .

— عادت من جديد ؟

وأعلن الحارس بلهجة اللامبالي :

— الحديث عن هذه الامور ممنوع هنا . تحدثوا فقط عن الشؤون العائلية .

وسألته الأم :

— أليس هذا من الشؤون العائلية ؟

فأجابها باستخفاف : لا أدري ... وكل ما أدريه ان هذا ممنوع .

وتدخل بول :

— حدثيني يا أماء عن العائلة .

واجتاحها شعور ببطولة فتية : لقد حملت ذلك كله الى العمل .

ثم توقفت لحظة وتابعت باسمية :

— شوريا ، ومجدرة ، وكل ما تطبخه ماريا ... وما كولات اخرى ...

وفهم بول وعض شفته ليخفق رغبته في القهوة ، ورد الى الورا شعره المنثال

ثم قال بصوت مداعب لم تأنسه من قبل :

— جميل ... لقد وجدت إذن عملاً فلا تضجرين أبداً !

وزدت دونما صلف :

— وعندما عادت هذه المناشير الى الظهور ، عادوا أيضاً الى تقشيشي .

وصاح الحارس غاضباً .

— عدنا الى الحديث في السياسة ؟ لقد قلت ان هذا ممنوع . يحرم المرء من الحرية

لكيلا يعرف شيئاً . انك لا تصغي الى شيء مما أقول . يجب ان تفهمي ان هذا ممنوع .

وقال بول :

— حسناً .. لا تتكلمي في الموضوع يا أماء ... إن ماثيو إيفانوفيتش رجل

طيب ؛ ويجب ألا تثير غضبه . إننا على أتم التفاهم ، وقد جيء به اليوم الى هنا ،

صدقة ، إذ ان نائب المدير هو الذي يشرف عادة على المقابلات .

وأعلن الحارس وهو ينظر الى ساعته :

— لقد انتهت المقابلة .

واحتضنها بول بجمرة وعانقها ؛ وأسعدما هذا التصرف ، واثر فيها فأخذت

تبكي . وصاح ماثيو : هيا افترقا .

وقاد الأم وهو يغتم :

— لا تبكي . سيطلقون سراحه . إنهم سيطلقون سراحهم جميعاً إذ لم يبق

هنا مكان يتسع لهم .

وعندما عادت الى المنزل أخبرت اندريه بحاسة وغبطة :

— لقد حدثته بلباقة ... وفهم هو ...

ثم زفرت : لقد فهم ، وإلا لما كان عانقني . انه لم يفعل ذلك في حياته أبداً .

وقال اندريه ضاحكاً :

- آه ... هذا جميل منك . ان كل انسان في هذه الدنيا ينشد شيئاً ما ،
والأم تنشد المداعبة دائماً .

وصاحت بدهشة مفاجئة :

- عجباً كيف تسيطر العادة على اولئك الذين يترددون على السجن . لقد
انتزع اولادهم منهم ، ووضعوا في السجن ، ولم يؤثر ذلك فيهم شيئاً . إنهم يأتون
فيجلسون وينتظرون ويثرون .. أليس كذلك ؟ فإذا كان المثقفون يتعودون
هذا ... فما هو حال الشعب ؟
وأجاب مبتسماً :

- هذا أمر طبيعي ، ومع ذلك فإن القانون بالنسبة لهم أخف وطأة مما هو
بالنسبة لنا ؛ حتى ولو صفعهم هذا القانون ، فإنهم يسخرون منه ، ولكن ليس الى
حد كبير ؛ لأن الضربة تظل أقل إيلاًماً حين يتلقاها المرء من عصاه .

- ٢٠ -

وفي احدى الأمسيات ، بينما كانت الأم جالسة تحميك الجوارب ، واندرية
يقرأ بصوت عالٍ قصة ثورة العبيد الرومان ، طُرق الباب بشدة ، ففتح اندرية ،
ودخل فيسوشيكوف يتأبط صرة وهو منسرح الشعر على رقبته ، غارق في
الوحد حق ركبتيه ؛ وقال بصوت غريب ، وهو يأخذ يد بيلاجي بيده
ويهزها بعنف :

- كنت ماراً من هنا فأريت نوراً في النافذة ، فدخلت لأحييكم . اني خارج
توأم من السجن . إن بول بيعت إليكم بتخيته .

ثم نهال ذلك متردداً على احد المقاعد ، وأجال في الحجرة بصره المتشكك القاتم .
لم يكن فيسوشيكوف يعجب الأم ، فلقد كان في رأسه الخلق ذي الزوايا ،
وعينيه الصغيرتين ، شيء يثير رعبها ؛ أما الآن ، فإنها تشعر في حضرة بالغبطة ،
لذلك قالت بحماسة وهي تبسم متفلة :

- لشد ما نخلت ... لتعد له الشاي يا اندرية .

وأجاب اندرية الذي كان في المطبخ :

- ها أنذا أعدته .

- وكيف حال بول ؟ هل اطلق سراح آخرين سواك ؟

فطأطأ رأسه وقال :

- بول لا يزال في السجن . إنه يتجلد . ولم يطلق سراح أحد سواي .

ثم رفع رأسه ، ونظر الى الأم ، وتابع ببطء وهو يركز على أسنانه :

- لقد قلت لهم : عندكم ما يكفيكم فاطلقوا سراحى ، وإذا لم تفعلوا فإنني

أقتل شخصاً ، ثم أقتل نفسي ... وكان ان اطلقوا سراحى .

- نعم .

قالت بيلاجي وهي تنأى عنه ، وأحفاها ترف بحركة لا إرادية ، عندما تلقي

عينها بالعينين الصغيرتين ، عيني الرجل ذي الوجه المجدور .

وصاح اندرية من المطبخ :

- وتيو مازين ... أما زال ينظم الأشعار ؟

- نعم ، ولكني لا أفهم شيئاً من هذا .

ثم أردف وهو يهز رأسه :

- أهو هزار ؟ لقد وضع في القفص فراح يغني . انا لا افهم سوى أمر واحد

هو أنه ليست لي اية رغبة في الذهاب الى المنزل .

وقالت الأم بشرود :

- هذا أكيد ، فإذا ستجد في منزلك ؟ انه خاو لا دفع فيه كل شيء فيه

بارد كالجليد .

وصت لحظة مسبل الأحنان ، وأخرج من حبيبه علبة للسجائر فتناول سيجارة

وراح يدخنها ببطء ؛ ويتتبع بصره سحابة الدخان الرمادي التي تتلاشى أمامه ،

ثم لم يلبث ان انفجر ضاحكاً ، فكانت ضحكته أشبه ما تكون بنباح الكلب .

- أوه بارد ؟ يجب ان يكون كذلك . قد تكون الجمelan المتجمدة تتساحب

في أرضه ، كما ان الفيران قد تموت فيه من البرد .

ثم سأل بصوت أصم دون ان يرفع بصره الى الأم :

— اتسمحين لي بأن أقضي الليل عندك ؟ هل تريدن ؟

فقالته بجملة : أجل .

وكانت تشعر بالضيق ، وبأنها في حضرتها ليست على ما يرام .

— إتنا نعيش في زمن ينجل فيه الابناء من ذوبهم .

وسألت الأم وهي ترتعش : ماذا ؟

فرجها بنظرة ، وأغمض عينيها ، وبدأ وجهه المجدور فجأة كوجه اعمى ، ثم

ردد وهو يصعد زفرة :

— لقد قلت ان الابناء بدأوا ينجلون من ذوبهم ، وهذا لا ينطبق عليك ،

فإن بول لن ينجل بك ابداً ؛ ولكنني أنا الذي انجل بأبي ؛ ولن اذهب الى

منزله ابداً . ليس لي أب ولا منزل . وقد وضعت تحت رقابة البوليس ولولا ذلك

لأنطلقت الى سيبيريا . هناك سأحضر المنفيين ، وسأهيء لهم خطة الهرب .

وكانت الأم تدرك بقلها الحساس ان الفتى يتألم ، ولكن ألمه لم يكن يوقظ

فيها الشفقة ، فقالت له كيلا تثقل عليه بصمتها :

— إذا كان الأمر كذلك على وجه أكيد ، فإنه من الأفضل لك ان تذهب

الى سيبيريا .

وخرج اندريه من المطبخ فقال :

— بماذا تكرزين ؟ قولي ؟

فنهضت الأم : يجب ان اعد شيئاً للأكل .

وركز فيسوشيكوف بصره على اندريه وصاح فجأة :

— اعتقد ان هناك فاساً يجب ان يقتلوا .

— أوه ، أوه ... ولماذا ؟

— كيلا يبقى منهم أحد .

وكان يقف في وسط الغرفة ضحماً جافاً يترنح ويتفحص ويقول من عل :

ويداه في جيبه ، وكان فيسوشيكوف يتكلم في مقعده ، تلفه سحابة من دخان ،

وتبدو في وجهه الاغبر بقع حمراء .

— سأنتزع فك إيساي غوربوف ... ستري .

— ولماذا ؟

ورد فيسو شيكوف وهو يرمق اندريه بعين متجهمه شريرة :

— ليستمر في تجسسه ، ليستمر . إنه المسؤول عما آل إليه والذي : فهو

يعتمد عليه في خطواته الاولى كجاسوس .

وصاح به اندريه :

— أتخقت من هذا ؟ ومن الذي جعلك مسؤولاً ؟ يا لهم من اوغاد .

فأجاب بحزم : ان الاوغاد كالاذكياء تماماً . انهم متشابهون ، فأنت مثلاً

فتى ذكي وكذلك بول ، ولكن هل انا في نظرك كشيء مازين او ساموالوف ، او

كواحد منكم بالنسبة للآخر ؟ لا تكذب فلن اصدقك . انكم جميعاً تدفعونني

وتحونني جانباً .

وقال اندريه برقة وعطف وهو يجلس الى جانبه :

— إنك مريض يا عزيزي المسكين .

— مريض ؟ وأنتم ايضاً مرضى . ولكن اوجاعكم تبدو لكم اكثر نبلاً من

اوجاعي . أننا بالنسبة لبعضنا البعض ، قدرون . هذا ما اقوله فبماذا تستطيع

ان تحبيني ؟ قل !

وسدد اندريه نظره الحادة ، وراح ينتظر الجواب ضاحك السن ، وكان

وجهه المجدور لا يحمل اي تعبير ، وشفتاه السيكيتان ترتعشان كما لو احرقهما

سائل مغلي .

وقال اندريه والابتسامة الحزينة الحارة في عينيها ، تداعب نظره

فيسوشيكوف الحقود .

— لن أرد عليك فأنا أعرف جيداً ان الجدل مع امريء دامي القلب ليس

إلا إثارة له . أعرف ذلك يا أخي العجوز .

فغمغم فيقول وهو مطرق :

— يجب ألا تجادلني ، فأنا لا أعرف الجدل .

وتابع اندريه :

— ارى ان كلا منا قد مشى على نثار الثلج عاري القدمين ، وان كل انسان قد نفث في ساعاته الباقية ، النار نفسها التي تنفثها انت الآن .

ورد فيسو شيكوف بتؤدة :

— إنك لا تستطيع ان تقول لي شيئاً . إن نفسي تعوي في داخلي كذئب ..

— وانا لا اريد ان اقول شيئاً ، وكل ما اعرفه هو ان هذا سينجلي ، وبالم يحصل ذلك بكامله ، ولكنه سينجلي على كل حال .

وأخذ يضحك ، ثم ربت على كتف نيقولا :

— هذا هو ، ايها الأخ العجوز مرض من امراض الطفولة .. إنه شيء

كالخصباء . وسعاني منه جميعاً ؛ الاقوياء اقل قليلاً ، والضعفاء اكثر قليلاً . إنه

يصيب الناس امثالنا عندما يكونون قد وجدوا ما يريدون ، ولكنهم قصرُوا

عن فهم الحياة ، ولم يهتموا بعد الى المكان الذي يجب ان يتركزوا فيه . إنهم

يتخيلون انهم الوحيدون من نوعهم كثرة طيبة ، كخيار صغيرة يود الناس

جميعاً ان ينهشوها . وبعد زمن ما تكتشف ان افضل ما عليك هو ايضاً عند

آخرين ليسوا اكثر سوءاً . وهذا ما يعريك . وتشعر بقليل من الحبل لانك

تسلك قبة الجرس لتنهز جلتلك الصغير لدرجة لا تسمع معها صوته عندما

يقرع الجرس الضخم ، جرس الاعمى . وستكتشف بعد ذلك ان جلتلك ليس

سوى جزء من الجوقة الشاملة ، في حين انه لو قرع وحده لشرق في ضجيج

الاجراس الهرمة ، ككتابة في اثناء من زبدة . فهل فهمت ما أود ان اقله ؟

وهز نيقولا رأسه : ربما فهمته جيداً .

وراح يمشي بخطى صاحبة :

— وانا ايضاً لم اك أو من به ابداً ، فأغرب من وجهي ايها الخصبة .

وقال نيقولا ببسمة مفتتحة ، وهو يرنو الى اندريه :

— أنا حطبة ؟ لماذا ؟

— هكذا . إنك تشبهها .

وفجأة خرج فيسو شيكوف وهو يفغر فمه الواسع ويضحك ضحكة داوية .

وسأله اندريه مشدوها وهو ينتصب في وجهه :

— ماذا دهاك ؟

— كنت اقول في نفسي انه سيكون غيباً لعيننا ذاك الذي يشتمك .

— كيف ولماذا يشتمني ؟

وهز اندريه كتفيه بهكم . وقال فيسو شيكوف بسداجية وهو يكشر عن

اسنانه :

— لا أدري ... كنت أود ان أقول ان المرء الذي سيوجه إليك الشتمية

يجب ان يكون فاسد الضمير .

وقال اندريه ضاحكاً :

— آه .. هذا ما كنت تود ان تنتهي إليه . ؟

وصاحب الام من داخل المطبخ :

— يا اندريه .

فخرج ، وبقي فيسو شيكوف وحده . واجال فيسو شيكوف بصره فيما

حوله ، ومد ساقه التي تنتهي بجذاء ثقيل ، فتفحصها ، وتلمس عضلات ساقه

الشخينة ، ثم رفع يده ، واذناها من وجهه ، وتأمل راحتها بدقة ، ثم تأمل ظاهرها ؛

لقد كانت مكتنزة قصيرة الأنامل يغطيها زغب اصفر . وحركها في الهواء ثم نهض .

وعندما اقبل اندريه يحمل الشاي كان هو امام المرأة :

— لم ار شدي منذ امد طويل .

وابتسم ابتسامة ساخرة ثم أضاف :

— إن لي شدة قدرأ ...

وقال اندريه وهو يتأمله بفضول :

— وأي ضرر في هذا ؟

وأجاب نيقولا ببطة :

— تقول ساندريين ان الوجه مرآة النفس :

— ليس هذا صحيحاً . فهي تحمل انفاً اعقف ، ووجنتين كالقص ، ومع ذلك فهي تحمل روحاً كالنجم .

وحقد به فيسوشيكوف وابتم . ثم جلسا لتناول الشاي . وتناول فيسوشيكوف حبة كبيرة من البطاطا ، وذرة بحركة عنيفة قليلاً من الملح على قطعة من الخبز ، وراح يعض يهدوء وببطء كالثور .

وسأل ، والطعام يلاً فمه :

— وكيف تسير الأعمال هنا ؟

وفيا كان اندريه يروي له ببغطة ، كيف تنمو الدعاوة في المعمل ، تجهيم وجه وقال بصوت أصم :

— ذلك أمر يطول ، يطول كثيراً . يجب الانطلاق بسرعة أكثر .

ورمقته الأم وأحست في نظرقه من جديد ظل الضغينة .

وقال اندريه :

— الحياة ليست حصاناً ، ولا يمكن حملها على الجري بالسياط ...

غير ان فيسوشيكوف هز رأسه بعناد :

— ذلك أمر يطول ، ولا جلد عندي على الانتظار في المعمل .

ومد ذراعيه في حركة اهياء ، وتطلع الى اندريه ثم صمت ينتظر جواباً .

وأجاب اندريه مطاطيء الرأس :

— يجب ان تتعلم جميعاً ، وأن نعلم الآخرين . هذا هو واجبنا .

— و الى متى تستمر هذه القوضى ؟

وابتم اندريه وقال :

سنتلقى الضربات . أولاً ، وإني لاعرف ان هذا سيحدث أكثر من مرة ،

ولكننا لن نكون كذلك عندما يتوجب علينا ان نخوض المعركة . يجب ان

نسلح الرأس أولاً... ثم نسلح الأيدي بعد ذلك . هذه هي وجهة نظري .

وشرع نيقولا يأكل ، وكانت الأم تراقب وجهه العريض خلسة محاولة ان

تجد فيه شيئاً يوطد السلام بينها وبينه ؛ بينها وبين هذا الكيان الضخم الذي تحته

ازميل ؛ وكانت كلما التقت نظرتها بتلك النظرة النافذة التي تشع من عينيهِ الصغيرتين ، ترتعش اجفانها رهبة ، وكان اندريه متحمساً ، لذلك اخذ يتكلم ويضحك ، ثم توقف فجأة وراح يصغر .

وكانت الأم تعتقد أنها تعرف سبب قلقه ، الا ان نيقولا لبث في مكانه صامتاً ، فاذا ما وجه اندريه إليه سؤالاً ما ، اجاب عليه باقتضاب ، وينفور ملحوظ .

وشعرت الأم واندريه بضيق ما ، وبأنها ليسا على ما يرام في هذه الغرفة الصغيرة ، فراحا يرمقان ضيفها ، متناولين ، بنظرات غتلسة .

... وأخيراً نهض .

— سأصرف لأنام فلقد طال سجلي ثم اطلق سراحي دفعة واحدة ، فمشيت طويلاً ، لذلك فأنا متعب .

وعندما بلغ المطبخ خفتت حركته ، ثم جد فجأة كتمت ، فمالت الأم التي كانت تتبعه بسمتها ، مالت الى اندريه توشوشه :

— إنه يحمل أفكاراً رهيبة .

فأجاب اندريه ، هازأ رأسه :

— إنه فتى صعب المراس ، ولكنه لن يظل على هذه الحال ، فلقد كنت

مثله . إن الهباب يتكسد في القلب اذا كانت جذوته لا تشتعل بصفاء . ابتها

الأم الصغيرة ، اذهبي الآن وتامي ، اما انا فسأبقى قليلاً لأقرأ .

وتوجهت الى الزاوية حيث كان مبرها الملعق بستارة مطرزة وظل اندريه

وقفاً طويلاً ، يصغي ، وهو امام الطاولة ، الى همسها الدافئ ، همس صلواتها

وزفراتها ؛ وكان ، وهو يقلب صفحات كتابه بسرعة ، يمسح جبهته بحركة محمومة ،

ويقتل شاربيه بأصابعه الدقيقة ويحرك رجله . وكان وقاص الساعة ينبض ،

والريخ تعول في النوافذ .

وكان صوت الأم الحفيض يتناهى اليه :

— يا آلهى . ما أكثر البشر في هذه الدنيا .. ومع ذلك فكلمهم يشكو على

طريقته . فإين هم اذا اولئك الذين يعرفون الغبطة ؟

وردد اندريه كالصدى :

- إنهم موجودون . وعما قريب سيتكاثرون ... اجل سيتكاثرون .

- ٢١ -

... وكانت الحياة تمر سراعاً بوجوه ايامها المتقلبة، المشرقة او المتجمعة، وكان كل يوم يحمل معه حديداً، جديداً لا يقلق الام ابداً؛ وكان يتوافتد الى منزلها عند المساء، مجهولون يتزايد عددهم يوماً بعد يوم؛ فيتحدثون مع اندريه بصوت خفيض والاهتمام باد في ملاحظهم، ثم يخرجون في ساعة متأخرة من الليل، وقد رفعوا قبات معاطفهم، وتهذلت شعورهم فوق عيونهم، يخرجون في الظلمات دونما ضجيج كيلا يثيروا انتباه احد، ان من يراهم يحس ان كلا منهم يكبت حماسه؛ وانهم يشتهون جميعاً ان يغنوا ويضحكوا، ولكنهم، وهم المنهمكون ابداً، لا يجدون لديهم وقتاً لذلك؛ فبعضهم ساخر وقور، وبعضهم مرح يملأه زخم الشباب الفاض؛ وآخرون غيرهم هادئون كثيرو التأمل، ولكنهم كانوا جميعاً، في نظر الأم، متساوين في عنادهم وثقتهم بأنفسهم، ورغم ان لكل منهم ملاحظه الخاصة، فإنهم كانوا، في نظرها، يتصهرون في وجه واحد هزيل يشع منه تصميم هادئ، وجه صاف متهجم العينين، في نظراته عمق ودعاب وقسوة. وكانت الام تعدم، واحداً واحداً، وتتصورهم حشداً يحيط ببول ويتوسطهم فلا تراه أعين اعدائهم .

وفي احدى الالاميات، جاءت من المدينة فتاة شديدة الخسور، مجتذولة الشعر، تحمل الى اندريه رزمة . وفيما كانت تنصرف قالت لبيلاجي وهي ترمقها بنظرة مشرقه مرحة :

- الى اللقاء يا رفيقة .

واجابت الام وهي تكبت بسمتها :

- الى اللقاء :

وبعد ان شيعتها اقتربت من النافذة ضاحكة، لترقب « رفيقتها » وهي تتطلق في الشارع رشيقه الخطو، ريانة كزهرة الربيع، خفيفة كالفراشة؛ وعندما اختفت الزائرة عن عينها همست :

- رفيقة؟ آه يا عزيزتي . ليمنحك الله رفيقاً طيباً، رفيقاً لحياتك كلها . . . وكانت تلاحظ غالباً ان في اولئك الذين يقبلون من المدينة جميعاً، شيئاً صيبانياً، وكانت تبسم لذلك بتسامح، ولكن الشيء الذي كان يؤثر في نفسها، ويبعث فيها دهشة الفرح، هو إيمانهم، هذا الايمان الذي كانت تحس عمقه دائماً، وبكثير من الوضوح . وكانت أحلامهم بانتصار العدالة تحرك مشاعرهما، وتدفيء قلبها، وكانت وهي تصغي اليهم، تتأوه بلا وعي، وتحس انها فريسة حزن غامض، ولكن ما كانت تحسه اشد الاحساس هو بساطتهم وطيبتهم ونسيانهم لذواتهم؛ وهو نسيان مفرط السخاء والطيبة .

وكانت تدرك كثيراً من الاشياء من خلال جدلهم حول الحياة، وتشعر أنهم اكتشفوا ينبوع الحقيقي لشقاء الناس، وقد تعودت ان توافقهم على آرائهم، ولكنها كانت في اعماقها، لا تؤمن بأنهم يستطيعون ان يكتشفوا الحياة وفقاً لما يعتقدون، وبأنهم يملكون من الطاقة ما يكفي لأن يشيع هب نفوسهم في الطبقة الكادحة كلها .

إن كل إنسان يريد ان يشبع اليوم، وليس هناك من يرضى بأن يرجى طعامه حتى ولو الى الغد، إذا كان باستطاعته ان يتناوله الآن . وقليلون هم اولئك الذين يستطيعون سلوك هذا الطريق الشاق الطويل . إن عيونهم لا ترى أنه يفضي الى تلك المملكة الرائعة، ملكة الأخوة الشاملة، ومن اجل ذلك، كان اولئك القوم الطيبون، يبدون لها أطفالاً رغم لحام ووجوههم التعبى .

وكانت ترثي لهم، وتهز رأسها هامسة : يا للصغار المساكين . ولكنهم كانوا جميعاً يحيون حياة طيبة، جادة، ذكية . لقد كانوا يتحدثون عن الخير ويرغبون في ان يلقنوا الآخرين ما كانوا يعرفون، ثم يحققون هذه الرغبة دونما هوادة . وكانت هي تدرك ان وجوداً كهذا يمكن أن يحب رغم

مخاطره، ثم تسترجع ماضيها متأوهة، فيترأى لها كطريق لا هب ضيق كئيب، وكانت تستشعر، دون ان يساورها الشك، أنها شيء مفيد، في هذا الوجود الجديد. لقد كانت تحس من قبل انها ليست شيئاً مفيداً لأي انسان، أما الآن فهي ترى بوضوح ان الكثيرين يحتاجون اليها؛ ولقد كان هذا الشعور بالنسبة لها شعوراً جديداً خلواً، يحملها على ان ترفع رأسها باعتزاز.

وكانت تحمل دائماً وبانتظام، النشرات الى المعمل، يحدوها شعوراً باذاه الواجب، حتى اصبح دخولها الى المعمل امراً معتاداً بالنسبة لرجال البوليس الذين كانوا لا يعيرونها اي اهتمام، ولقد فتشوها في مناسبات عدة إلا أن هذا التفتيش كان يجري في اليوم التالي لظهور النشرات؛ وكانت تعرف كيف تثير الشبهة في نفوس الحراس والجواسيس عندما تكون لا تحمل شيئاً، فيستوقفونها، فتتظاهر بأن كرامتها قد مسّت، وتدخل معهم في جدل عنيف حتى اذا اوقفتمهم في الارتباك، انطلقت فخورة بمحذقها...

وصارت تجد في هذه اللعبة، لذة كبرى.

وكان المعمل قد رفض إعادة فيسوشيكوف الى المعمل فدخل كستخدم عند احد التجار، وكانت مهمته ان ينقل الى الضاحية كميات من الحسور والألواح وخطب التدفئة، وكانت تراه، وهو يمر، كل يوم تقريباً: يسير جواده الاسودان وقد اوتشت قوائمه وتقوست تحت وطأة حملها الثقيل، يسيران عجوزين نافري العظام يترنح رأساهما تعباً وحزنًا، ويبدو الانهاك في عيونها الكدء، ويمتد وراءهما جسر طويل رطب، يتذبذب على إيقاع الجلبة، او طوت كدسة من الاخشاب تتساحب اطرافها على الأرض بضوضاء، في حين يسير نيقولا الى جانبها، وقد أطلق لها الأئنة، رث الثياب، ضلب الملامح، أخرق الخطوة، كجذع ثابت من الارض، يلطخه الوحل، ويتعلل حذاء ثقيلًا، ويمتلئ قبعته في عنقه.

وكان رأسه هو أيضاً يترنح، وعينه منفرزة في التراب، وكان جواده يحتاجان، على غير هدى، العربات والمارة الذين كانوا يقبلون من الاتجاه الماكس،

فتطأير حوله الشتائم القاسية كالزناير وتمزق الفضاء صيحات الغضب، ويظل هو، يدب، دون أن يرفع رأسه او يحجب، وينبعث من بين شفثيه صفير حاد يضم الاسماع، ويقغم بصوت ثقيل مخاطباً جواده :-
خذ هذا ...

وفي كل مرة كان يجتمع فيها رفاق اندريه في بيتها، ليقرأوا بعض المنشورات، او العدد الاخير من مجلة تطبع في الخارج، كان نيقولا يأتي فيجلس في احدى الزوايا، ويصني طوال ساعة او ساعتين دون ان ينبس بحرف. وكان الشبان، اذا ما انتهت قراءتهم يتناقشون طويلاً، ولكن فيسوشيكوف لم يكن ليشارك في النقاش ابداً، الا أنه كان يكث طويلاً، حتى اذا لم يبق غيره مع اندريه سألوه وهو باهت الملامح :-

- ومنذا الذي تعتقده اشد اجراماً من الآخرين ؟

ويحجب اندريه مازحاً، وفي عينيه تعبير قلق :-

- إنه اول من قال « هذا لي »، أرايت ؟ إن هذا الرجل قد انطوى منذ آلاف من السنين، وليس هناك اي جدوى في ان تثور عليه.

- والاغنياء والذين يساندونهم ؟

وكان اندريه ينحني فيأخذ رأسه بين يديه ويمسد شاربه ويتكلم بأسهـاب وببساطة عن حياة الناس، وكان كلامه كله يتلخص بأن العالم بأجمعه آثم، إلا ان ذلك لم يكن ليشبع نهم نيقولا.

لقد كان يمز رأسه بالنفي، وهو يطبق شفثيه الغليظتين بقوة، ويعلن بلهجة مرتابة، ان الامر ليس كما شرحه اندريه، ثم يمضي متجههم الوجه محنقاً.

ولقد صرخ مرة :-

- لا ... يجب ان يكون هناك مسؤولون. صدقتي : انهم موجودون،

ويجب ان يزعهم الحراث أنى كانوا ! وبلا رحمة، كما يمزق حقلًا من الثيل.

وقالت الأم : هذا ما قاله يوماً إيساي الثقباب، وهو يتحدث عنك.

فتساءل فيسوشيكوف بعد صمت :-

- إذا لم يخزم الذباب فلن يرقسوا ، ومع ذلك ، فكل نقطة تسفك من دمهم ستفسلها سلفاً سيول الدموع ، دموع الشعب .
ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
- سيكون ذلك عدلاً ، ولكنه لا يحمل العزاء .

- ٢٢ -

كان ذلك يوم احد ، وكانت الأم عائسة من دكان البقال ، وما كادت تفتح الباب وتقف على العتبة حتى غمرها فجأة طوفان من الفرح ، كقطر حار في صيف :
لقد سمعت في القرقة صوت بول الجمهوري .
وصاح البيوروسي : هي ذي ... لقد جاءت
ولاحظت السرعة التي استدار بها بول نحوها ، ورأت ان وجهه كان يشرق بانفعال واعد بألف فرحة وغمغمت وقد افقدتها المباغثة وعيها :
- ما انت ذا قد عدت الى المنزل .
ثم جلست .
واجنى فوقها ، وكانت شاحبة الوجه تلتصع في ماقيها دموع صغيرة متألثة ، وكانت شفتاها ترتعشان . وامتولى عليه الصمت هنيئة ، وكانت هي تحديق فيه صامتة ايضاً .

ومر البيوروسي امامها وهو يصفر ، مطأطئ الرأس ، ثم خرج .
وقال بول بصوت عميق خفيض :
- شكراً لك يا امه ، شكراً لك يا امي العزيزة .
وشد يدها بأصابعه المرتعشة .
ودغدغت رأسه وقد غمرتها بالنشوة نبرات صوته وملامح وجهه الممسير ،
وقالت همساً وهي تهدى وجيب قلبها :
- ليكن يسوع معك . علام تشكرني ؟
- شكراً لك على العون الذي قدمته لنا في قضيتنا الكبرى إنها لسعادة نادرة

- ايساي ؟
- نعم ، ايساي . الرجل الخبيث . انه يتجسس علينا جميعاً ، ويسأل ، ولقد اخذ يتردد على شارعنا ، ويراقب نوافذ بيتنا .
فردد نيقولا : يراقب ؟
ولكانت الام قد اضطجعت فلم تعد ترى وجهه ، ولكنها ادركت انها اطنبت في الحديث عن ايساي لان اندريه اجاب بسرعة ، وبلهجة مهدئة :
- دعيه يسير ويتطلع . ان لديه فيضاً من الوقت يتنزه خلاله
فقال نيقولا بصوت أصم : رويداً .. انه هو .. هو المسؤول .
فرد اندريه بحدة : مسؤول عن ماذا ؟ مسؤول عن كونه حيواناً ؟
ولم يجب فيسوشيكوف ، ثم خرج .
وظل البيوروسي يذرع ارض الغرفة ببطء ، منهك الخطى ، يجر ساقيه الطويلين الجافين كسيقان المشكيات ، وكان قد خلع حذاءه ، كما تعود ان يعمل دائماً ، كيلا يحدث اية ضجة فيزعج بيلاجي ، ولكنها لم تكن قد نامت بعد .
وقالت بقلق بعد ان انصرف نيقولا : إني اخاف منه .
فرد عليها ، وهو يطمط كلباته :
- أجل .. انه فتى نزق فلا تحدثيه عن ايساي ، فايساي ، ابنتها الأم الصغيرة ، جاسوس حقاً .
- لا غرابة في ذلك فزميله دركي .
واجاب اندريه منزعجاً :
- قد يعتدي نيقولا عليه أرأيت أية مشاعر يولدها السادة ضباط مجتمعنا ، في نفوس الجنود البسطاء ؟ ماذا سيحدث اذا ما استشعر امثال نيقولا مهانتهم وافلت زمام الصبر من ايدهم ؟ ان الدم سيتدفق حتى السحاب ، وسيغطي الارض زبداً احمر كزغوة الصابون .
فقالت الام بهدوء : ان هذا تخيف يا اندريه .
واجاب بعد صمت قصير :

ان يستطيع امرؤ القول ، وبالعقل ايضا ، ان امه غالية عليه .
وكانت ، دون ان تنبس بكلمة ، تتلقف كلماته بنهم ، متفتحة القلب ، وتأمله
مشدوه . إنه هناك ، امامها ؛ إنه واضح كل الوضوح ، قريب كل القرب .
— لقد كنت يا اماه ارى كثيرا من الامور تبعث في قلبك الغم ، وكان ذلك
شاقا عليك . وكنت اعتقد انك لن تهاديننا ابدا ، وانك لن تؤمنني بأفكارنا ،
ولكنك ستتحلنينا بصمت ، كما كانت دائما . . . وكان هذا شديد الايلام . . .
— لقد علمني اندريه كثيرا من الاشياء .

وقال ضاحكا : اجل . . . لقد قصص علي ذلك .
— وايغور ايضا . فنحن من قرية واحدة ؛ اما اندريه فقد كان يود ان يعلمني
حتى القراءة .

— وانت كنت تحبولة بعض الشيء ، فرحت تدرسين على نفسك خفية .

وقالت باضطراب : آه . . . لقد كان يتجسس علي .

ثم اقترحت علي بول ، والانفعال باد في ملاحظها لفرط الغبطة :

— يجب ان نناديه فلقد خرج عمدا كيلا يزعجنا . إنه يعيش دون ام .

وصاح بول وهو يفتح باب المدخل :

— يا اندريه . . . اين انت ؟

— هنا ، اقطع الحطب .

— تمال .

ولم يأت علي الفور ، وعندما دخل المطبخ قال بلهجة رب البيت :

— يجب ان اطلب الي نيقولا ليحضر لنا حطباً ، فلم يعد عندها منه الكثير .

أرأيت ايها الأم الصغيرة كيف هو بول ؟ إن السلطات تسمن المعصاة بدلا من
ان تعاقبهم .

... وأخذت الأم تضحك ، وكانت سكرى بالغبطة ، بلا قلبها اطمئنان
حلو ، ولكن شعورا من الحذر الشحيح كان يحملها على التمني بأن توى ايها هادئا
كما كان من قبل . لقد كانت اوبته بالنسبة لها سعادة غامرة ، وكانت تود ان

تنطوي هذه الفرحة — وهي اولى الفرحات في حياتها واكبرها — في قلبها ابدا ،
وان تظل فيه قوة حية وخشية ان تتضاءل هذه السعادة ، كانت تتعجل إخفاءها
ما امكنتها ذلك كصياد اقتنص صدفة طائرا جيلا .

واقترحت باهتمام :

— هيا الى المائدة يا بول . انك على التأكيد لم تتناول اي طعام حتى الآن ؟

— كلا ، فلقد ابلغني الناظر البارحة انهم قرروا اخلاء سبيلي ، ولم اشعر
اليوم بجوع أو عطش .

وتابع :

— لقد كان اول من التقيت به هنا هو سيزوف المعجوز . انه ما كاد يراني حتى

اجتاز للشارع ليسلم علي . فقلت له : يجب ان تحذرنني منذ الآن ، فأنا رجل خطر ،

يراقبني البوليس ، فأجابني : لا . يعني ذلك . . . أتدريين ماذا سألني بخصوص

خفيده ؟ قل لي هل ساوك ثور في السجن حسن ؟ — ماذا تقصد بحسن السلوك ؟

— اقصد اذا كان لسانه ما يزال يسرف في الاستطالة حين يتحدث عن الرفاق .

وعندما قلت له : ان فيدور فقير شريف وذكي ، داعب لحيته وقال لي بزهو :

— ليس فينا ، نحن آل سيزوف ، رجال اشرار .

وقال اندريه وهو يمز رأسه :

ليس هذا المعجوز بغي . إننا نثرثر معا احيانا فيبدو لي انه رجل طيب .

— هل سيطلقون سراح نيز قريبا ؟

— سيطلقون سراحهم جميعا على ما اعتقد ، فليس لديهم ما يدينهم اللهم إلا

وشايات ايساي ، وأي شيء استطاع هذا ان ينقله لهم ؟

وكانت الأم تروح وتحجي وتأمل ايها ، وكان اندريه ، وهو واقف بالقرب

من النافذة ويدها وراء ظهره ، يصفي الى حديث الفتى الذي كان يذرع ارض

الفرقة طولا وعرضا . وكانت لحيته قد نبتت ، وكان شعرها يتناثر في وجنتيه ،

حلقات سوداء داغمة ، تحففت من سمرة وجهه المسفوح .

وألحت الأم : هيا الى الطعام .

— لقد اكلت حتى كدت تنشق ، ولكنك لم تمضغ طعامك جيداً ، وما زالت قطعة منه عالقة في زلومك ، ففرغ لهاذك .
 فينهض بول : لا تتصنع البله يا اندريه .
 — ولكنني جادٌ كافي في جنازة .
 وتضحك الام يهدوء ، وتهز رأسها .

— ٢٣ —

كان الربيع يقترب ، والثلج يذوب وينحسر عما كدسه تحت جبته البيضاء من وحلٍ وطمي ، وكان الوحل يزداد كل يوم بروزاً حتى بدت الضاحية كلها كأنها إنما ترتدي كل الاسمال القدرة ، وكانت الماء يتساقط من السقوف اثناء النهار ، نقطة نقطة ، واللب يتصاعد من جدران المنازل الدكناء الراشحة التعبى ، في حين تبرز ، عند الغروب ، غائيل الجليد ، منتثرة في كل مكان ، وهي بيضاء كدراء اللون ، وصارت الشمس تظهر أكثر فأكثر ، والسواقي تدندن حيرى في طريقها الى المستنقع .

وكان الناس يستعدون لاستقبال اول ايار .
 وكانت النشرات تلقى في العمل ، وفي الضاحية ؛ لتشرح معنى هذا العيد ، وحتى الفتيان الذين لم تمسهم العناية بعد ، كانوا يقولون وهم يقرأون هذه النشرات :
 — يجب التغلب على المصاعب .
 وكان فيسوشيكوف يصرخ دائماً بشراسة :
 — لقد آن الاوان ، وكفى تضليلاً وتموها .

وكان ثيومازين فرحاً ؛ كثير النحول ، تذكر كلماته والعصية البادية في حركاته بقبرة سجيئة في قفص . وكان يرافقه دائماً جاك سومون وهو فوق صموت يعمل الآن في المدينة ويبدو عليه الجهد اكثر مما يحتمل سنه .
 وكان ساموالف الذي ازداد لونه شقرة اثناء وجوده في السجن ، وباسيل غوسيف ، وبوكين ، وداغونوف ، كان هؤلاء جميعاً وآخرون غيرهم ينادون

— ١٥٥ —

ووقفت هي تشرف بنفسها على المائدة .
 واخذ اندريه يتحدث اثناء الطعام عن ريبين ، وعندما انتهى حديثه صاح بول بأسف :
 — لو كنت موجوداً لما تركته يمضي . ماذا يحمل معه ؟ إنه يحمل شعوراً كبيراً بالتمرد وافكاراً مشوشة ...
 واجاب البيوروسي مبتسماً :

— أجل ... ولكن عندما يكون الرجل في الاربعين من عمره ، وعندما يكون قد قضى وقتاً طويلاً يصارع الدبية فانه لمن الصعب تطويره ..
 واستغرقا في جدل كان الكثير من تصايره يستعصي كالمعتاد على فهم الأم ، وفرغاً من الطعام وكانا ما يزالان يتراشقان بضراوة رشاشاً من الالفاظ الصعبة العصبية ، وكانا احياناً يعبران عن آرائهما بلغة بسيطة سهلة .
 واعلن بول بعزم : يجب علينا ان نتابع طريقنا دون ان نتحرف عنه خطوة واحدة . وان ترتطم في هذه الطريق ، بلالين البشر الذين يستقبلوننا كأعداء ..

... وكانت الأم تصغي وتفهم مما يدور ان بول لا يجب الفلاحين ، في حين كان اندريه يدافع عنهم ، ويحاول ان يؤكد انه من الضروري ان يلتقوا هم ايضاً الافكار الحيرة ، وكانت تفهم ما يقوله اندريه بوضوح اكثر ، ويبدو لها انه محقق فيما يقول ، ولكنها كانت في كل مرة يرد بها على بول فتفتح اذنيها جيداً وتكبت انفاسها ، وتنتظر بفارغ الصبر جواب ابنها ؛ لترى ما اذا كان رد البيوروسي قد أثاره ، إلا انها كانت تلاحظ انها وان تناقشا بجرأة وحماة فان احداً منهما لم يكن يستثير حتى الآخر .

وكانت الأم تسأل ابنها بين الفينة والفينة :
 — هل الأمر هكذا يا بول ؟
 فيجيبها باسم : أجل ... إنه لكذلك .
 ويقول اندريه بحجة وهزه :

— ١٥٤ —

بضرورة التسليح ؟ اما والبيوروسي وسوموف ، وآخرون معهم ، فقد كانوا يخالفونهم في الرأي .

ووصل ايفور منهمكاً لاهناً كالعادة ، ينضح عرقاً ، وقال مازحاً :

— ايها الرفاق . إن تغيير النظام الراهن عمل عظيم ، ولكن ، يجب ان اشتري حذاءً جديداً لكي يتحقق هذا العمل سريعاً .

وأراهم حذاه الممزق المبلل ، وتابع :

— ولقد اصببت جزمي ايضاً بداء عضال لا يرجى البرء منه ، فترضت قدماي بسبب ذلك ، للبلل كل يوم . أنا لا اود أن أرحل الى القبر قبل ان يتوب هذا العالم المعجوز توبة علنية واضحة ؛ ولهذا ارفض اقتراح الرفيق ساموالوف الرامي الى التسليح ، واقترح تسليحي أنا ، بزواج من الاحذية المتينة ؛ لانني مقتنع كل الاقتناع بأن هذا سيكون اكثر جدوى لنصر الاشتراكية من اعظم تحطيم .. للأشداق ..

وراح هذه اللهجة الودود نفسها ، يروي لهم كيف حاول الشعب ، في بلدان مختلفة ، أن يحسن من مستوى حياته . وكانت الأم تحب ان تسمع احاديثه ، اذ تترك في نفسها انطباعاً غريباً ، فأعداء الشعب الأكثر احتيالا ، والذين خدعوه اكثر الاحيان وبقسوة أشد ، كانوا رجالاً صفاراً ، ضخام الكروش ، حمر الجلود ، طباعين ، غتالين ، قساة القلوب لا ضمان لهم ؛ وعندما حوّلت سلطة القياصرة حياتهم الى جحيم انبروا يحرضون الشعب الصغير ضد هذه السلطة ، وعندما ثار الشعب وانتزع السلطة من الامبراطور ، انتزعها الرجال الصفار بالحيلة ، وراحوا يتكلمون بالشغيلة ، فاذا أراد هؤلاء ان يحاجوهم انقضوا عليهم ففتكوا بالملات منهم والالوف .

وتجرات ، في احد الايام ، فقصت عليه ما كانت تكوته في نفسها من اشياء ، خلال اصغائها اليه ، وبآلته وهي تبسم ابتسامة مرتبكة :

— إذن فالامر كذلك يا ايفور لافانوفيتش .

فانفجر ضاحكاً يقلب عينيه الصغيرتين ، وبعد قليل استعاد انقاسه ،

ودعك صدره :

— الحقيقة انه كذلك يا اماء . لقد امسكت ثور القصة بقرنيه ، ونسيت بعض التزيينات ، وبعض الحواشي ، ولكن ذلك لا يغير في الامر شيئاً . إن هؤلاء الصفار البدينين هم حقاً اعظم الخطاة ، وأسم الحشرات التي تلدغ الشعب . ان الفرنسيين يسمونهم بحق برجوازيين .. فاحفظي هذه الكلمة يا اماء : برجوازيين ... انهم يلوكوننا ويمتصون دمنا .

وسألت الأم : الاغنياء ... اليس كذلك ؟

— تماماً . أرايت لو دسنا قليلاً من النحاس كل يوم في طعام طفل ؟ إن ذلك سيعيق نمو عظامه ، فيظل قزماً . وهكذا اذا سمعنا رجلاً بالذهب ، فان نفسه تقدو حقيرة جداً ، وغبراء كدرة ، تماماً ككرة من المطاط تساوي خمسة سحائيت .

وقال بول مرة وهو يتحدث عن ايفور :

— أتدري يا اندريه ؟ ان اكثر الناس مزاحاً هم اشدّهم عذاباً ؟

فصمت البيوروسي فترة ، ثم اجاب :

لو كان هذا صحيحاً ، لماقت روسيا كلها من الضحك .

وظهرت ناتاشا من جديد . لقد دخلت هي ايضاً السجن ، ولكن في مدينة اخرى ؛ ولم يبدل السجن منها شيئاً .

ولاحظت الأم ان البيوروسي يكون في حضرتها اكثر مرحاً ، فلقد كان يمزح ، ويثقل على الناس جميعاً بنجبت لا لؤم فيه ، وذلك لكي يجعلها على الضحك . وعندما تتصرف ، يشرع هو يدندن بكآبة ، أغانيه التي لا تلتهم ، ويلبث وقتاً طويلاً وهو يذرع ارض الغرفة جيئة وذهاباً ، ويجرجر قدميه .

وكانت ساندرين تأتي شكسة الطباع دائماً ، مسرعة ايداً ، وتقنقروا باستمرار اسرع غضباً واعنف طبعاً .

وفي احدى المرات تبعها بول حتى المدخل ليرافقها ، ونسي ان يقفل الباب وراءه ، فسمعت الأم حديثها الخاطف .

هكذا .

وقالت الفتاة : وداعاً .

وادركت الام من وقع خطاها انها انطلقت مسرعة ، حتى لتكاد تعدو عدواً .
وخرج بول في اثرها .

وشد على صدرها رعب خائق ثقيل ، فلقد فاتها ان تلتقط تفاصيل حديثها ،
ولكنها كانت تحس ان هنالك حزناً ما ينتظرها .

— ماذا يريد ان يفعل ؟

وعاد بول يصحبه اندريه ، وقال هذا الاخير وهو يهز رأسه :

— ايساي البؤس هذا ... ماذا سنفعل به ؟

فأجاب بول بحدة :

— يجب ان نسدي اليه النصح ليتخلى عن خططه التجسسية .

وتدخلت الأم وسألت مطرقة :

— ماذا تود ان تفعل يا صغيري بول ؟

— متى ؟ الآن ؟

— في اول ... اول ايار .

فأجاب وهو يخفض من صوته :

— آه . آه . سأحل علمنا واسير به في الطليعة ؛ ومن المحتمل ان يزوجوني في

السجن مجدداً من اجل ذلك .

واشتعلت عينا الام ، واجتاح فيها جفاف مقيت ، فأخذ بول يدها يداعبها :

— هذا ضروري ... اتفهين ؟

فقالت وهي ترفع رأسها ببطء :

— لم اقل شيئاً .

وعندما التقت عيناها النظرة النافذة المصمة في عين بول ، طوت عنقها من

جديد . وأقلت هو يدها ، وزفر ، ثم قال بلهجة تقريع :

— يجب ألا تبتئسي ، بل يجب ان تغتبطي ، متى يكون لنا امهات يرسلن

لقد سألت الفتاة بهمس :

— هل ستحمل العلم ؟

— نعم ..

— هل تقرر ذلك ؟

— نعم وهذا حق لي .

— السجن من جديد ؟

ولزم بول الصمت .

— ألا تستطيع . .. ثم توقفت

— ماذا ؟

— ان تتركه لآخر ...

فقال بصوت مرتفع :

— كلا .

— فكر في الأمر ملياً ، ان تأثيرك كبير ، والجميع يحبونك . انك والودا

قائدا الحركة هنا انكما تستطيعان عمل الكثير وانما طليقان فكرا ملياً ؛

فإنكما ستنفيان ، من اجل ذلك ، الى مكان قصي ، ولأمد طويل .

واعتقدت الأم انها تتميز في صوت الفتاة احاسيس عرقها هي نفسها جيداً !

احاسيس الغم والخوف ، ووقعت كلمات ساندريه على قلبها كنقاط كبيرة من

الماء المثلج .

وقال بول : كلا ، لقد قررت ولا شيء يثني عن قراري .

— حتى ولو توسلت اليك ؟

فأكمل بول على عجل وبصوت فيه قسوة :

— يجب الا تتكلمي هكذا ، بماذا تفكرين ؟ يجب الا تتكلمي هكذا .

فقالت بصوت خافت : — اني كائن بشري .

فرد بول بهدوء ولكن بلهجة خاصة كأنه لا يستطيع امساك انفاسه :

— نعم كائن بشري ، كائن عزيز عليّ ، ومن اجل ذلك ينبغي الا تتكلمي

ابناء من بغبطة حتى الى الموت ؟

وغغم اندريه :

- مهلا ، مهلا .. هوذا سيد ينطلق على جواده العظيمة .

وتساءلت الام :

- هل قلت شيئاً ؟ انال امثلك ، واذا كنت اشقى عليك ، فهذا من عمل قلبي كام .

واستدار ، وسمعت بعض الكلمات القاسية الجارحة .

- هناك عواطف تحرم الانسان من ان يعيش ...

وارتعشت ، وخشية ان يتفوه بما يجرحها صرخت بحدة :

- لا تقبل هذا يا بول . فأنا اعلم انك لا تستطيع ان تتصرف تصرفاً مغايراً .. اكراماً للرفاق .

فأجاب : كلا .. أنا افعل ذلك من اجل نفسي .

ووقف اندريه في العتبة ؛ وكانت قامته اشبح من الباب حيث كان ينتصب كأنه في اطار ، وكان يطوي ركبتيه على نحو غريب ويسند احد كتفيه الى مصراع الباب ، ويقذف يعنقه وكتفه الآخر الى الامام .

وقال وهو متجهماً الوجه ، وعيناه الجاحظتان تتركزان على بول :

- إنكم تحسنون صنعا لو توقفت عن الثرثرة يا سيد .

وكان اشبه ما يكون بحرفون في شق صخرة .

وودت الام ان تبكي ، ولكنها أنفت ان يراها ابنها وهي تفعل ذلك قدندنت :

- آه . يا آلهي لقد نسيت ...

وانطلقت الى الزواق ؛ فأسندت رأسها الى زاوية من زوايا الجدار ، واطلقت العنان لدموعها . لقد كانت تبكي بهدوء ودونما انتحاب ؛ وكانت خائرة القوى كأن الدم يتفجر من قلبها ، في الوقت الذي تتفجر فيه الدموع من عينيها ؛ وكانت تتناهي الى سمعها ، من خلل الباب الذي لم يكن يحكم الاغلاق ، وضوء نقاش حاد .

كان البيو روسي يقول :

- قل لي .. أيلد لك ان تمنيتها ؟

ويصرخ بول : لا يحق لك ان تتكلم مثل هذا الكلام .

- هل اكون رفيقاً صالحاً إذا ما بسكت على حماقاتك البلهاء ؟ لمساذا قلت ذلك ؟ أتدري لماذا ؟

- يجب ان تقول دائماً بحزم كل ما نبغي قوله سواء كان نقياً أم إيجاباً .

- وحتى لأهلك ؟

- لجميع الناس ، فأنا لا اريد حباً او صداقة تربطني وتضع القيد في رجلي .

- يا لك من بطل . امسح غطاء أنفك ، واذهب فقل هذا كله لساندريين قلبا

ينبغي ان يقال .

- لقد قلته .

- بهذه الطريقة ؟ إنك تكذب . لقد قلته لها بلطف ، قلته لها بخنان . لنا لم

اسمك ولكني أعرف ذلك . وأمام أمك تعرض بطولتك . ثق أيها البهم ان

بطولتك لا تساوي فلساً .

وأخذت بيلاجي تمسح دموعها بسرعة ، فلقد كانت تحشى ان يوجه البيوروسي

الإهانة الى ابنتها ، فسارعت الى فتح الباب ، وقالت وهي تدخل المطبخ مرتعشة

من الحزن والخوف :

- آوه ... ما هذا البرد ... رغم اننا في الربيع !

وفيا كانت تتشاغل بنقل الأواني المطبخية من مكان الى آخر ، دون مبرر ،

اردفت ، وهي ترفع من صوتها ليطنى على صوتيها الخافتين :

- لقد تغير كل شيء ؛ فذب الدفء في الناس ، وبرد الجو ، مع انه في مثل هذا

الوقت عادة يكون الطقس حاراً والسماء صافية ، والشمس مشرقة .

وخيم السكون على الحجرة ؛ وتوقفت هي في المطبخ كأنها تنتظر شيئاً ما .

وسأل البيو روسي بصوت خفيض :

- أسمعتم ؟ يجب ان تدرك انها اغنى قلباً منك .

وسألته الأم بصوت مضطرب :

— هل تشربان الشاي ؟

ودون ان تنتظر جواباً ، قالت لتخفي اضطرابها :

— ماذا دهاني ؟ اني أشعر ببرد شديد .

واقترب بول منها ببطء ، ونظر إليها بشرود ، والبسمة الخاطئة تحرك

شفتيه ، وقال بصوت خافت :

— ساحيني يا اماء ... فانا ما زلت غلاماً غيباً .

وصاحت بأسى وهي تدفن رأسه في صدرها :

— لا تبكتني يا بول ؛ ولا تقل شيئاً . اصنع ما شئت فأنت سيد حياتك ،

ولكن لا توجه اليّ كلاماً خبيثاً . أيمكن لأم ان تجرد من الشفقة ؟ كلا ... وإني

لأشفق عليكم جميعاً ، فأنتم ادنى الناس اليّ ، وانكم لجديرون بذلك . وإذا لم

أعاملكم انا باشفاق فمنذا الذي يعاملكم ؟ إنك تسير يا صغيري بول ، ووراءك

آخرون تخلوا عن كل شيء وساروا ...

وكانت تشعر بأن هناك فكرة عظيمة ملتهبة تملأ قلبها ، ونهبها الأجنحة ،

وتلهمها فرحاً يمازجه الغم والمذاب ، ولكنها كانت لا تجد الالفاظ التي تعبرها ،

فراحت في قلق المي تلوح بيدها ، ورفرو الى ابنها ، بعينين تشتعلان بالألم

الفتيع الحاد .

ووشوش بول وهو يطأطيء رأسه :

— هذا صحيح يا اماء .. فساحيني . إني أفهم ..

ورشقها بنظرة خاطفة وهو يتشم ثم استدار وأضاف بارتباك يمازجه فرح :

— اقسم لك بشرفي اني لن انسى هذا ابداً .

وتركته ، وراحت عينها تبحثان عن اندريه لتقول له بصوت متوسل ودود ،

— لا تؤنبه يا صغيري اندريه ، فأنت بلا شك ولدي البكر ..

ولم يتحرك البيو روسي الذي كان يدير ظهره إليها ، بل زجج بصوت

مثير للضحك :

— هو هو هو ... سأنتق وراءه ، ولن أترع عن ضربه بشدة .

فالتجته اليه بخطى وثيدة ممدودة اليد :

— يا بني الطيب ، يا ولدي العزيز .

فاستدار اندريه وطأطأ هامته كالثور ، ومر يحانها متجهاً الى المطبخ ويده

مشبكتان وراء ظهره ومن المطبخ تعالي صوته بسخرية كثيفة :

— أغرب من وجهي يا بول إذا كنت تؤذ ألا أعض رأسك . لا تصدقيني

أيتها الأم الصغيرة فانا أنزع .. سأعد الشاي .. نعم .. ما أوسخ الفم الذي

عندنا .. يا للقذارة ..

وصحت . وعندما دخلت الأم الى المطبخ كان يجلس على الارض ليشمل الموقد ،

ولم يبصرها وهي تدخل ، بل تابع :

— لا تخافي ، لن أمسه أبداً فانا وديع ناعم كرأس لفت مسلوقة . وأنت لا

تصفي الى « البطل » فانا احبه خباً جداً ، ولكني أكره صدرته .. إنسه يرتدي

صدرية جديدة أرايت ؟ وهو معجب بها كل الاعجاب .. هو ذابشي ، وقد

سبقه كرشه ، انه يدفع الناس في طريقه : « انظروا الصدرية الجميلة التي ألبس .. »

إنها جميلة حقاً ولكن .. لم يضعض الناس ؟ فهم مكتظون مزدحمون بدون هذا ..

وابتسم بول :

— اتركك متظل تدمدم هكذا طويلاً ؟ ان شئمة واحدة يجب ان تكفيك .

وكان البيو روسي ما زال جالساً على الارض ، يضع ابريق الشاي بين رجليه

ريثامه . وكانت الأم واقفة يقرب الباب تستمر عينها الحزبتين الودودتين على

العنق الطويل المستدير ، عنق اندريه المحني .

وقلب رأسه الى الوراء ، واستند يديه الى الخشب ، وحدق في الأم وابنها

وهو يغمز بعينيه المحمورتين قليلاً :

— انكم قوم طيبون .. نعم ..

فالتحنى بول وأمسك بقرعاه :

— لا تشد ، فأني ساسقط الى الارض إذا ما فعلت .

وقالت الأم بحزن :

— لم أنتم متضايقان ؟ هيا تعانقا عنقاً حاراً ، حاراً جداً .

فسأل بول : أتريد ذلك ؟

واجاب اندريه وهو ينهض : ولم لا ؟

وتعانقا طويلاً ، وظلا بلا حراك فترة ، بدا فيها كأن روحاً واحدة تملأ

أما بينهما ، روحاً تلهبها صداقة حارة حميمة .

وكانت الدموع تنهمر على وجنتي الأم ، ولكنها لم تكن تمسح المراتة

فمسحتها بارتباك قائلة :

— ان النساء يحبن البكاء ، فهن يبكين من الفرح كما يبكين من الحزن .

ودفع البيوروسي بول دفعة صغيرة وقال وهو يمسح أيضاً عينيه :

— هذا يكفي ... عندما تط العجول يُعد منها الشواء . آه يا الفهم اللعين .

لقد نفخت طويلاً لأشعله حتى امتلأت به عيني .

وجلس بول بالقرب من النافذة مطرقاً ، وقال بهدوء :

— إن دموعاً كهذه لا تبعث الحجل .

وأقبلت الأم فجعلت الى جانبه ، يصر قلبها شعوراً بالزهو دافئ عذب ،

وكانت تستشعر شيئاً من الحزن إلا أنها كانت سعيدة هادئة البسال .

وقال اندريه وهو يلج الغرفة :

— سأرتب الأواني ، فظلي مرحة أيتها الأم الصغيرة ، ارتاحي ، فلقد

عُذبت كثيراً .

وعلا رنين صوته الطروب عندما غاب عن انظارهما :

— جبيل جداً أن يشعر المرء أنه يعيش حياة خيرة هكذا ، كما يعيش البشر .

وقال بول وهو يرمق امه بنظرة خاطفة :

— أجل .

فقال : لقد تبدلت الأمور ، فالحزن شيء والبهجة شيء آخر ،

وأجاب البيوروسي :

— هذا ما يجب ان يكون ، فكل قلب جديد ينمو ، أيتها الأم الصغيرة

اللطيفة ، إنما ينمو في الحياة ، ثم يأتي انسان فيوقد فيه نار العقل ، ويصرخ وينادي :

« يا هؤلاء .. أيتها البشر في كل الأوطان ، اتحدوا في عائلة واحدة ، وبتأثير هذا

النداء تتحد القلوب كلها بأفضل ما فيها ، تتحد في قلب واحد كبير قوي ، رنان

كجرس من فضة .

وضغطت الأم على شفتيها بقوة كي لا ترتعش ، وأغضت عينيها لتمسك دمعها

فلا ينسكب .

ورفع بول يده يريد ان يقول شيئاً ، ولكن الأم أزلت يده هامة :

— دعه يتكلم .

وتابع اندريه وهو واقف في الباب :

— اتعلمون إن هناك كثيراً من الأحزان تنتظر البشر ؟ ان دمعهم ما زال

يمتص . ولكن ذلك كله ، لكن حزني كله ودمي ليس إلا فدية تافهة لبعض

ما أحمل في صدري ورأسي . إني غني بالشعاع كنجم ، وسأتحمل كل شيء .

سأتجد ، لأن في داخلي فرحاً لا يقوى انسان ما أو شيء ما على خنقه أبداً ..

وفي هذا الفرح تكن القوة .

... وشربوا الشاي ، ولبثوا حول المائدة حتى انتصف الليل ، وهم يثرثرون

ثرثرتهم الحبيبة ، عن الحياة والناس والمستقبل :

وكانت كلما توضحت فكرة في رأس بيلاجي تختيرت من ماضيها ذكرى ،

ذكرى ثقيلة أبداً خشنة أبداً ، واتخذتها مرتكزاً لهذه الفكرة .

وكان خوفها يتلاشى ويدوب في سيل حديثهم الحار ، وإنها الآن لتشعر

نفس الشعور الذي خامرها يوم قال لها والدها بقسوة :

— عبثاً تكشرين ... ثمة سخييف يود ان يتزوجك فتزوجيه ؛ لان الزواج

مصير كل فتاة . إن النساء كلهن يضعن للأطفال ، والاطفال شقاء بالنسبة

لذويهم .. وأنت .. أأنت .. أأنت كائناتاً بشرياً ؟

وكانت ترى أمامها عندئذ الطريق الذي لا يمكنها ان تتكبه ، والذي يدور

دوئنا افق حول مكان مقفر قائم ، وكانت الضرورة المحتومة لسلوك هذا الطريق تلاً قلبها بصدعة مستسلمة عياء ، وانها تشعر الآن بمثل تلك الدعة ، ولكنها كانت ، وهي تتوقع شقاءً جديداً ، تقول في نفسها كأنها تحدث شخصاً ما : خذوا .. وكان هذا يخفف من ألمها الخفي الذي يشد في صدرها راعشاً كوتر مشدود . وفي أعماق نفسها التي يخضها الترقب والقلق ، كان هب الأمل يتصاعد ، خافتاً ، إنه أمل حي ، أمل لا يستطيع أحد أن يسلبه أو ينتزعه كله منها .

— ٢٤ —

وفي الصباح الباكر ، وبعد خروج اندريه وبول بفترة قصيرة جداً ، طرقت ماريا كورسونوف النافذة برعب ، وصاحت على عجل :

— لقد قُتل إيساي . فيها بنا نر .

وارتمشت الأم ولم اسم القاتل في ذهنها كالبرق ، وسألت بإيجاز وهي تطرح شألاً على كنفها :

— ومن الذي قتله ؟

فأجابت ماريا : لم يقف لأتبينه .. فلقد ضرب ضريته وولى الأدبار .

وتابعت وهما في الطريق :

— سوف يباشرون البحث والتفتيش عن المجرم ، ومن حسن الحظ ان رجليك كانا في المنزل هذه الليلة . اني أستطيع ان اشهد على ذلك ، فلقد مررت امام بيتكم بعد منتصف الليل ، وألقيت نظرة خاطفة من خلال النافذة ، فرأيتم جميعاً تجلسون حول المائدة .

وصاحت الأم بذعر :

— ماذا تقولين يا ماريا ؟ أيمن ان يتهموها ؟

وأجابت ماريا بيقين :

— ومنذا الذي يقتله ؟ إنهم جماعتك بكل تأكيد ، فالناس جميعاً يعرفون انه كان يتجسس عليهم .

وتوقفت الأم مبهورة الأنفاس ووضعت يدها على صدرها .

— ما بك ؟ لا تخافي ... لنسرع قبل ان ينقلوه .

وكانت الذكرى الثقيلة ذكرى فيسو شيكوف تتمتع بيلاجي فككرت كالحبولة :

— هو ذا ... وقد انتهى الى تنفيذ ما يريد .

وفي مكان غير بعيد عن جدران المعمل ، وفوق انقاض منزل التهمة النار منذ أمد قريب ، كان حشد من الناس يضحجون كخلية من زناير ، ويدوسون بقايا الكس والرماد الذي كان يتطاير . وكان هناك كثير من النسوة ، والاطفال ، وأصحاب الحوانيت ، وخدام الفندق والشرطة ؛ وكان هناك أيضاً الدركي « بيتلين » وهو عجوز ضخم الجنة ، قضى اللحية ، يحمل فوق صدره عدداً من الأوسمة .

وكان إيساي نصف ممدد على الأرض وقد اسند ظهره الى جسر سودته النار . وكان رأسه الحاسر يتهدل على كتفه الأيمن ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ، في حين كانت اصابع يده اليسرى تتشبث بالأرض الرخوة .

ورنت الأم الى وجهه . لقد كانت عينه الكداء تركز على القبة المطروحة بين ساقيه الممدودتين بإرتخاء واعياء ، وكان فيه مفتوحاً بشكل يعبر عن الدهشة ، وكانت لحيته الصهباء منقوشة الجانب ، وكان الجسم الضئيل ، برأسه الدقيق ووجهه العظمي الذي يغطيه نثار التخالة ، كان هذا الجسم قد تضائل وضغطته به الموت .

ورسمت الأم إشارة الصليب وهي تزفر : لقد كان يثير قرفها وهو حي ، أما الآن فإنه يثير فيها احساساً خفيفاً من الرحمة .

ولاحظ أحد الحضور بصمت خافت :

— ليس هناك دم . لقد ضربه القاتل بقبضته دون شك .

وتعالى صوت كره :

— لقد أقفل في خائ .

وتناول الدركي ونحى بيده حشد النساء وسأل بلهجة تهديد :
— من ذا الذي يفكر بمثل هذا التفكير ؟

وكان الناس يبتعدون من طريقه ، حتى ان بعضهم ولتى الأدبار .
وسمع الحضور ضحكة تترجأ بسوء النية .

وعادت الأم الى منزلها وهمست : لم يحزن عليه احد .
وكان شبح نيقولا الضخم ينتصب أمامها كالطفل ، وفي عينيه الضيقتين لمعة
باردة قاسية ، ويده اليمنى تتدلى متأرجحة كأنه إنما سحقها بقدميه .
وعندما عاد اندريه وبول للغداء استقبلتهما سائلة :

— قولاً ... هل اوقف احد بسبب إيساي ؟

فأجاب البيوروسي : لم نسمع شيئاً .
ولاحظت انها كانا مرهقين ، فاستفسرت بصوت خفيض :

— الا يقال شيء عن نيقولا ؟
فرمقها ابنها بنظرة قاسية وأجاب وهو يقطع كلماته تقطيعاً :

— ابداً ... حتى انهم لا يفكرون به ، ثم إنه ليس هنا ، فلقد ذهب يوم
امس عند الظهيرة ، الى التهر ، ولما يعد . لقد تقصيت اخباره .

وقالت وهي تطلق زفرة عزاء :

— حسناً ، شكر الله ، شكر الله .

ورشقها البيوروسي بنظرة عجيلى ثم اطرق .

واستأنفت الأم مضطربة البال :

— إنه ممد ، ووجهه يعبر عن الذهول . إن أحداً ما لم يتحسر عليه ، ولم
يقل عنه كلمة طيبة . إنه متضائل لدرجة هائلة ، يبدو معها كنفاية انفصلت عن
شيء ما وسقطت هناك على الارض .

وأثناء تناول الطعام ألقى بول ملعقته فجأة وصاح :

— أنا لا أفهم هذا ..

فسأله اندريه : ماذا ؟

— ان يقتل المرء حيواناً لكي يأكل فقط أمر غير مستحب ، وان يقتل
وحشاً ضارباً أو طيراً جارحاً ، أمر يمكن فهمه ، وأنا نفسي أستطيع ان اقتل
وجلاً تحول الى وحش كاسر بالنسبة للآخرين ... أما قتل مخلوق بائس ، فلا
أدري كيف يستطيع الجاني ان يرفع يده لمثل هذا ؟
وهز اندريه كتفيه وقال :

— إنه لم يكن أقل أذى من وحش مفترس . ثم إننا نقتل البعوضة لإنها
تمتص قليلاً من دمنا .

— نعم ، هذا صحيح ، ولكن ليس هذا ما اريد ان اقول . إنني أقول ان
عملاً كهذا تتقزز منه نفسي .

وأجاب اندريه وهو يهز كتفيه ثانية :

— وما العمل ؟

وتخيم صوت طويل .

ثم قطع بول هذا الصمت وسأل بقلق :

— أأستطيع ان تقتل مخلوقاً من هذا النوع ؟

فرمقه البيوروسي بعينيه المدورتين ثم ألقى نظرة عجيلى على الأم وأجاب بأسى
يمازجه الحزيم :

— من أجل الرفاق ، من أجل قضيتنا ، أقترف كل شيء ، وأقتل حتى ابني .

وصرخت الأم بغتور :

— أوه يا اندريه .

فابتسم لها : محال أن تتصرف تصرفاً غير هذا ، فالحياة هي التي تفرض ذلك ..
وردد بول ببطء : أجل ، أجل ، إنها الحياة .

وعصف التأثر ببول فجأة ، فنهض مدفوعاً بمامل مخفي وحرك ذراعيه :

— ما العمل ؟ إننا مرغمون على كره الانسان لكي نستعجل اليوم الذي

نستطيع فيه ان نقدره دونما تحفظ . يجب ان ندمر من يعرقل سير الحياة ، من

يبيع الآخرين بالمال ليضمن لنفسه الراحة والامجاد . وإذا ما اعترض طريق العادلين يوحس يتربص بهم ليخونهم فإني اكون انا نفسي نوحاساً إذا لم ادمره . أليس ذلك من حقي ؟ .. وأسيادنا أولئك أمن حقهم ان يسخروا الجند والجلادين والمؤسسات العامة والسجون والمنفى ، وكل ما هو شين وعار ليضمنوا سلامتهم وسعادتهم ؟ ما العمل إذن إذا كنت مرغماً أحياناً على ان امسك الهراوة بكلتا يدي ؟ لن ارفض ذلك ، وسأخذها بيدي . إنهم يصرعوننا بالعشرات ، يصرعوننا بالآلاف ، وهذا ما يعطيني الحق بان ارفع يدي وأهوي بها على رأس عدو ، على رأس اقربهم إلي وأشداهم إيذاءً لجهدي حياتي كلها . هكذا صنعت الحياة ، وأنا أناضل ضدها ، ولا اريدها . انا اعلم ان دم الاعداء لا يبدع شيئاً إنه دم عاقر إن الحقيقة تنمو عندما يروي الدم الأرض كطمر غزير ، في حين ان دمهم فاسد يتخمر دون ان يترك آثاراً .. ولكني سأتحمل وزر الجريمة ، سأقتل إذا وجدت ذلك ضرورياً ، وبما انني اتكلم عن نفسي ، فإن الجريمة ستوت معي ، انها لن تطلع وجه الغد ولن تدنس أحداً سواي .

وكان يروح ويحيي ويده تتحرك امام وجهه كأنه يقطع شيئاً ما ويقذفه بعيداً عنه . وكانت الأم تراقبه يلاًها الأسى والغم . لقد كانت تشعر بأن جزءاً منها قد تحطم ، وإنها من أجل ذلك تتألم أشد الألم .

وبارحتها الأفكار السوداء الرعيدة التي تساورها عندما تذكر القاتل وكانت تقول في نفسها : « إذا لم يكن فيسو شيكوف هو الجاني ، فإن واحداً من رفاق بول لا يمكن ان يكونه » . وكان بول يصفى الى البيورومي مطرقاً فيما يتابع هذا حديثه بقوة وعناد :

— عندما تسير في الطليعة يجب ان تقاوم حتى نفسك . يجب ان تعرف كيف تضحي بكل شيء ، ان تضحي بكل قلبك ، وليس بالأمر العسير ان يكرس المرء حياته لقضيته ، ان يموت من أجلها . إنذل ما استطعت البذل ، ضح بما هو اعلى من الحياة ، يتنام بقوة اعز ما فيك ، تتنامى حقيقتك .

وتوقف في وسط الحجرة ، وكان وجهه قد غدا أشد شحوباً وعيناه نصف

مغمضتين ثم استأنف كلامه وهو يرفع يده كما لو كان يؤدي قسماً عظيماً .
— أنا أعلم أنه سيأتي زمن يتبادل الناس فيه الاحترام والتقدير ، زمن سيكون كل امرئ فيه كالنجم في عين الآخرين . سيكون ثمة على الأرض رجال أحرار عظماء بحريتهم ، وسيسير كل انسان مفتوح القلب طاهراً من كل حقد ، وسيعيش الناس جميعاً دونما خبت ، ولن تكون الحياة عندئذ هي الحياة ، بل عبادة للانسان ، وستسمو صورته عالياً ، وقذل الذرى السامقة كلها متونها للاحرار . عند ذاك نعيش في الحقيقة والحرية ، نعيش من أجل الجمال . عند ذاك يعتبر الناس ان أفضلهم هم الذين يعرفون جيداً كيف يملأون بالوجود قلوبهم ، والذين يحبون هذا الوجود أعظم الحب ، ويصبح اشد الناس تعلقاً بالحرية ، أفضلهم ، ففي نفوسهم يكن أعظم قدر من الجمال ، وسيكونون من العظماء أولئك الذين سينعمون بهذه الحياة .

وصمت قليلاً ثم انتصب وقال بصوت كأنه يأتي من أعماق أعماقه :

— ومن أجل هذه الحياة أنا مستعد لكل شيء .

وارتفع وجهه ، وتساقطت من عينيه ، واحدة بعد أخرى ، دموع كبيرة ثقيلة .

ورفع بول رأسه ونظر إليه . لقد كان هو أيضاً شاحب الوجه ، متمدد الاحداق ، ونهضت الأم من مقعدها ، وكانت تحس ان الأسى القاتم يقترب منها ويزداد تمراً :

وسأل بول بصوت خافت :

— ما بك يا اندريه ؟

وعصفت برأس البيورومي وعدة مفاجأة ، وتشنج كوتر مشدود ، وقال وهو يرنو الى الأم :

— لقد رأيت ... وأعرف ...

فنهضت الأم واقتربت منه بسرعة وأمسكت بكلتا يديه فحاول ان يسحب يمينه ، ولكنها شدتها بقوة ، وهمست بحرارة :

واقفاً أمامها يشد لحيته بانفعال .

— وقال لي أنهم يعرفوننا جميعاً ، وأن رجال الدرك يراقبونا ، وسيزجوننا في السجن ، في أول أيار . ولم أجبهُ ، بل ضحكت ولكن الغليان كان قد بدأ في داخلي . وقال لي بعد ذلك : اني كنت فتي فطناً وأنه كان يجب عليّ ألا أسلك هذا الطريق بل كان يجب عليّ ...

وتوقف عن الكلام . ومسح وجهه والتمعت عيناه ببريق بارد فقال بول : فهمت . — كان يجب عليّ ان أضع نفسي في خدمة القانون .

ومد ذراعه وحرك قبضته المشدودة ، وقال ، وهو يخرج الكلمات من بين أسنانه : — في خدمة القانون ؟ اللعنة لروحه ، فلقد كان يحسن صنماً لو صفع وجهي ؟ لأن ذلك سيكون أقل ايلاًماً لي ، وربما له أيضاً ... ولكنه عندما بصق في قلبي بصاقه النتن ، فقدت صبري ..

وسحب يده من يد بول بعنف ، وقال بإشمئزاز وبصوت أكثر هدوءاً : — لقد صفعته ومشيت ، ولكنني سمعت دراغونوف من ورائي يقول بكل هدوء : — هل وقعت في الفخ ؟ ...

لقد كان مختبئاً في زاوية من زوايا الشارع بلا شك . وبعد فترة من الصمت استأنف كلامه :

— ولم أرجع ، ولكنني شعرت بأني سمعت طلقة . ومضيت هادياً النفس كأنني قد ركلت بقدمي ضفدعة . وكنت في العمل عندما تعالى الصراخ : «لقد قُتل إيساي» . لم اصدق ذلك ، ولكن يدي كانت تؤلمني ، ولم أك أستطيع تحريكها لأنها تؤلمني فحسب ، بل لأنها كانت كأنها انكشت وتقاصرت . ورمق يده بنظرة شذراء :

— من المؤكد إنني لن أستطيع ، طوال حياتي ، ان اغسل هذه اللطخة النتنية . وقالت الأم :

— يكفي ان يكون قلبك نقياً يا صغيري .
فأكد البيو روسي :

— هديء من روعك يا عزيزي .

فقال هدهوء : مهلاً ، سأروي لكم كيف حدث ذلك .

فتمتمت وهي تمدق به والمعبرات تملأ عينيها .

— لا حاجة لذلك ، لا حاجة لذلك يا اندريه .

واقترب بول ببطء وقد رطبت عينيه الدموع ، وكان صاحب الوجه يبتسم :

— لقد خشيت الأم ان تكون أنت

— لست بخائفة . إنني لا اصدق ذلك . وحق لو رأيته بعيني ، فلن اصدق أبداً .

وقال البيو روسي دون ان يلتفت إليها :

— مهلاً .

وكان يمز رأسه ويحاول بلا انقطاع سحب يده :

— لست أنا القاتل ، ولكن كان عليّ ان أحول دون القتل .

وصاح بول : إخرس يا اندريه .

واحتضنت إحدى يديه يد اندريه وألقى بالثانية على كتفه ، كأنه يريد ان يهديء ارتعاش قامته الفارغة ، وحول اندريه وجهه نحو بول ، وتابع بصوت خفيض متقطع :

— كنت لا اريد ذلك أبداً . وانك لتعرف هذا جيداً يا بول ... ولكن

إليك ما حصل :

لقد سبقتني أنت ، ومكثت أنا في زاوية الشارع مع دراغونوف ، وكان إيساي قد برز من الشارع الآخر ، وتوقف على مسافة منا ، يدمدم وينظر إلينا ، فقال لي دراغونوف : رأييت ؟ إنه يتجسس عليّ وهذا شأنه في كل ليلة ، سأقضي عليه . وانطلق الى منزله على ما اعتقد ، واقترب إيساي مني .

وأطلق اندريه زفرة ..

— لم يشعرني أحدٌ بالمهانة والضعفة كهذا الكلب .

ودون ان تنبس الأم بكلمة ، شدت اندريه من ذراعه ، وجرتة نحو الطاولة ، ونجحت أخيراً في اجلاسه على مقعد ، وجلست هي نفسها الى جانبه وظل بول

- انا لا اتظلم ، ولكن هذا يثير في نفسي التقزز ، لأنني لم أكن بحاجة الى ذلك .
وقال بول وهو يهز كتفيه :

- إني اسمي فهمك ، لست انت الذي قتلته ... ولكنك لو ...

- ان مجرد العلم بالقتل دون منع وقوعه ...

وقال بول بحزم .

- انا لم افهم شيئاً من هذا كله ...

ثم أضاف بعد فترة قصيرة من التفكير :

- اي انني استطيع فهمه ... اما ان احسه فلا ...

وعوت صافرة المعمل ، ومال البيوروسي برأسه يصغي الى زئيرها الصلف

الآمر ، ثم قال منتفضاً : لن اذهب اليوم الى المعمل .

وقال بول : وأنا أيضاً لن اذهب .

وأعلن اندريه باسمناً :

- أما أنا فساذهب لأستحم .

وتهاى بسرعة دون ان يتلفظ بكلمة ، ثم خرج متثاقلاً ؛ وتبعته الام بنظرة
اشفاق :

- قل ما تشاء يا بول ، فأنا اعلم أن قتل امريء خطيئة ، ومع ذلك فاني لا
اجد في هذه القضية مجزماً . لقد كنت اشفق على ايساي ، فهو صغير جداً كالحشرة ،
وعندما رأيته تذكرت أنه هددك يوماً بالشنق . ولم أكن اشعر بالحقد عليه ابداً
كما ان موته لم يفرحني . لقد اشفتك عليه من قبل لطيفتي ، اما الآن ... فاني لا
احس نحوه حتى بالشفقة .

وصمت ، وفكرت لحظة ثم اضافت وهي تبسم مندهشة :

- يا يسوع ... هل تسمع يا بول ما اقول ؟

ولم يكن بول يصغي اليها بلا ريب ، بل كان يزرع ارض الغرفة ببطء وهو
مطأطيء الرأس ، متجهج الأساريين :

- هذه هي الحياة .. ارايت كيف ان الناس مهياون ليقف بعضهم في وجه

البعض الاخر ؟ وسواء كان ذلك باختيارهم أو على كره منهم ، فإنهم مجبرون على
ان يضرروا . ومن ؟ رجلاً مغتصب الحقوق مثلهم ، وأشد شقاء منهم لانه حيوان .
ان رجال البوليس والدرك والجواسيس هم جميعاً أعداء لنا ، ومع ذلك فهم بشر
مثلنا . إنهم يرهقون لدرجة ينضحون معها دماً وعرقاً ، ولا يعاملوننا كبشر .
وهكذا يستعدى الناس بعضهم على بعض وتُسمل أعينهم بالغبابة والخوف ،
وتوثق أيديهم وأرجلهم ، ويضطهدون ويستغلون ، ويُسحقون ، ويضرب
بعضهم بيد البعض الاخر . لقد مُسَخُوا بنادق ومطارق وبلاطاً . ثم قيل : هذه
هي الدولة !

واقترب من امه :

- إنها الجريمة يا اماء . القتل الفظيع ، قتل الملايين من الكائنات البشرية ، قتل
الأرواح . أتدركين ؟ إنهم يقتلون الروح . أرايت الفرق بيننا وبينهم ؟ عندما
يضرب واحد منا إنساناً يشعر بالحجل . يشعر بالتقريع ، فيتعذب ويشتمز ،
ولكن الاخرين يقتلون الناس بالآلوف ، يقتلونهم ببطء ودون رحمة ، يقتلونهم
دون ان يرتعشوا . إنهم يقتلون بلذة ، يذبحون الآلاف لا غاية إلا ليختزنوا الذهب
والفضة وورقيات لا قيمة لها ، ليختزنوا كل هذه الثغامات الحقيرة التي تمنحهم
السلطان على الناس . تأملي : إنهم لا يبطشون بالشعب ولا يثقلون به لحماية انفسهم
او للدفاع عن ذواتهم ، إنهم لا يفعلون ذلك من أجل انفسهم بل من أجل ثرواتهم .
إنهم لا يحمون انفسهم من الداخل ، وإنما يحمونهم من الخارج .

وأخذ يدي امه بين يديه وانحنى يشدها :

- إذا استطعت ان تحسي كل هذا المقت ، وكل ذلك التعفن القذر ، فستدركين
حقيقتنا ، وسترين كم هي عظيمة ورائعة .

ونفضت الأم شديدة التأثر ، تملأها الرغبة في ان تصبر قلبها وقلب ابنها في
قلب واحد ، وممست وهي تلهث :

- رويداً يا بول رويداً . إني أحس ذلك .

وسُمع في المدخل وقع خطي ، فارتعشا كلاهما وتبادلا النظرات .
وفُتح الباب ببطء ودخل ريبن بخطوه المتثاقل ، وقال باسمًا شامخ الرأس :
- هو ذا انا ، فحيّوني ، وليكن لي شرف الجلوس الى مائدتك .
وكان يرتدي فروة خروف قصيرة ، يلطخها القار ، ويتنمل حذاء من التيل
ويتدلى من وسطه عدد من الخطاطيف ، ويعتمر قبعة من الوبر .
- كيف الصحة ؟ هل اطلقوا سراحك يا بول ؟ حسنًا ... كيف الحال
يا بيلاجي ؟
وكانت بسمته عريضة تكشف عن اسنانه البيضاء ، وفي صوته جرس شديد
الحلاوة ، وكانت لحيته تشغل قطاعًا واسعًا من وجهه .
ودنت الأم منه وهي سعيدة بلغائه ، وشدت على يده السوداء الضخمة وقالت
وهي تتنشق رائحة القار القوية الطيبة التي كانت تقوح منه :
- أهذا أنت ؟ إني لجد مسرورة .
وتفحص بول ريبن باسمًا :
- انك تبدو كفلاح وسم .
ونزع ريبن فروته ببطء :
- أجل . لقد عدت فلاحًا ، اما انتم فإن بعض مظاهر السادة تبدو عليكم ،
... إني أعود الى الورا .. فتأملوا .
ودخل وهو يسوي دراغته المصنوعة من الكتان ، ويلقي على الحجرة
نظرة شاملة .
- الأثاث ، لم يزد عليه شيء على ما أرى .. أما الشيء الذي ازداد فهو عدد
الكتب . الخلاصة .. كيف سير الأعمال ؟
وجلس وهو يباعد بين ساقيه ، ويضع باطن كفه على ركبته ، ويتأمل بول
بنظرة فاحصة من عينيه السوداء ، وينتظر الجواب باسمًا وبكثير من السداحة :
وقال بول :

- ليست الأعمال سيئة على كل حال .

وثرثر ريبن :

- انهم يحرقون ويذرعون دون قباء ، وسيعنون مازرعوا ، وسيطبخون
الجثالة ، ويقطرون ، ويدخرون مبلغًا طيبًا . أليس هذا صحيحًا ؟
وسأله بول وهو يجلس قبالة ؟
- وانت كيف حالك يا ميشيل ؟
- لا بأس . فالأمور على ما يرام . لقد توقفت قليلًا في اغيد بيغو ..
أتعرفون اغيد بيغو ؟ انها قرية جميلة يُقام فيها معرضان في السنة ، ويزيد تعدادها
على ألفي نسمة من الناس الاشرار ، وليس فيها أراضٍ ، وإنما يستأجر أهلها
الاراضي ، لأن تربتها لا تصلح أبدًا . لقد عملت فيها عند أحد مصاصي الدماء ،
وهم كثيرون هناك ، كثرة الذباب على جيفة . إنهم يستخرجون الزيت ، ويصنعون
الفحم ، وكنت أقض أقل من الاجر العادي بأربع مرات ، وأبذل ضعفي ما
أبذله من جهد هنا . لقد كنا سبعة عمال في خدمة هذا النهم ، وكلهم من شبان
المنطقة ما عداي . جميعهم يعرفون القراءة ، وبينهم فتى يسم بها اسمه « ايفم » .
وسأله بول بحماسة : حسنًا .. وهل كنت تتحدث معهم ؟
- كنت لا أصمت أبدًا . لقد اصطحبت معي « وريقاتكم » . كنت احمل منها
اربعا وثلاثين ، غير انني كنت افضل استعمال الجيلي ، .. فقيه يحدد المرء كل
ما يريد وهو كتاب ضخيم غير ممنوع . ان الكنيسة هي التي طبعته .. لذلك
يستطيع المرء ان يصدقه .
وتطلع الى بول وغمره ثم ابتسم :
- ولكن ذلك لا يكفي ، فلقد أتيناك باحثين عن « منشورات » ، ونحن
هنا اثنان : ايفم وأنا . لقد كنا ننقل كمية من الزيت ، واغتنقنا الفرصة لئلا
انك ستزودني ، بلا شك ، بمؤونة .. قبل ان يصل ايفم .. فهو ليس بحاجة لأن
يعرف الكثير .
وكانت الام تنو الى ريبن ، وخيل اليها حين نزع سترته انه تعرى من شيء

آخر ؛ لقد فقد شيئاً من وقاره ، وغدت نظراته اكثر خشياً ، وأقل صراحة .
وقال بول :

— احضري لنا قليلاً من الكتب يا أماء . انهم يعرفون ماذا يجب ان يعطوه ،
قولي لهم ان هذه الكية سترسل الى الريف .
وأجابت الام :

— حسناً ، لكن الشاي يوشك ان يكون جاهزاً ؛ وسأذهب بعد ذلك .
وسأل ريبيّن ضاحكاً :

— وأنت ايضاً يا بيلاجي تهتمين بهذه الامور ؟ إن في قريتنا كثيراً من
عشاق الكتب ، والمعلم نفسه يرغب بها ويتذوقها . يقال انه فتى طيب رغم انه
تربى في مدرسة اكبر كية . وهناك ايضاً معلمة مدرسة على بعد سبعة او ثمانية
كيلو مترات .. ولكنهم جميعاً لا يريدون ان يقرأوا كتباً ممنوعة ؛ فالدولة هي
التي تدفع لهم رواتبهم .. وهم يخافون . يلزموني كتاب واحد من هذه الكتب
الممنوعة ؛ كتاب "لاذع جداً ، لأهربه لهم في الخفاء .. وسيعتقد رجال البوليس
أو الكاهن اذا ما رأوا هذا الكتاب الممنوع ان معلمي المدرسة هم الذين يقومون
بالدعاية .. فلا يتاح لهم ان يعرفوني . لاني بعيد عن اللعبة .
وقهقه فخوراً بدهائه وخبثه ، قهقه حتى بدت نواجذه .
وحدثت الام نفسها :

— ارأيت ؟ له مظهر الدب .. ولكنه ثعلب .

وسأل بول : أعتقد انهم يزجون بالمعلمين في السجن اذا ما ارتابوا بأنهم
هم الذين يوزعون الكتب الممنوعة ؟

— نعم ... وماذا يعني ذلك ؟

— انكم انتم الذين توزعونها . وليسوا هم ، فالعدل يقضي بان تزجوا
انتم في السجن .

وصاح ريبيّن ضاحكاً وهو يضرب ركبته بكفه :

— أيها الخبيث اللعين . من سيفكر بأنّي انا ، انا الفلاح البسيط اهتم بامور

كهنه ؟ هل سبق لهم ان رأوا من قبل مثل ذلك ؟ .. ان الكتب من عمل
« السادة » وعليهم وحدهم ان يتحملوا المسؤولية .

وشعرت الام ان بول لا يدرك ما يقوله ريبيّن ، وانه مقطب الجبين ، غاضب ،
فتدخلت في الحديث وقالت بصوت عذب مسالم :

— يريد ميشيل ايفانوفيتش ان يهتم بهذه الامور ، على ان ينال الآخرون العقاب
نيابة عنه ...

فوافق ريبيّن على قولها وهو يداعب لحيته :

— بالضبط ... ولكن هذا سيكون بصورة مؤقتة .

ورده بول بحفاف :

— لو قام واحد من بيتنا يا أماء ، اندريه مثلاً ، بعمل ما ، وانتحل اسمي
فزججت في السجن عقاباً على ذلك العمل .. فماذا يكون شعورك ؟

فارتعشت الأم ورنّت الى ابنتها يدهشة ، وأجابت وهي تهز رأسها مستنكرة :
— كيف يمكن ان يتصرف امرؤ مثل هذا التصرف بحق رفيق ؟

فقال ريبيّن بصوت متساحب :

— آه ... آه ... لقد أدركت الآن قصدك يا بول .

وعزّز بجثث وخاطب بيلاجي :

— عفا ، أيتها الأم ، عمل لطيف .

ثم استدار نحو بول ، وقال بلهجة الحكيم :

— إنك ما زلت غريباً قتي الصغير . فلا مكان للشرف في الامور الخارجة
على القانون . ففكر قليلاً : انهم أولاً يزجون في السجن من يعثرون على الكتاب
في حوزته وليس معلمي المدرسة . هذه واحدة . ثانياً : ان الكتب المسموح بها
والتي يوزعها هؤلاء المعلمون تتضمن ما تتضمنه الكتب الممنوعة ، ولكن بكلمات
مختلفة ، ونسبة من الحقيقة أقل . هذه ثانية . وهذا يعني انهم يريدون الوصول
الى نفس الغاية التي استهدفها انا ... ولكنهم يسلكون من اجل ذلك طريقاً
ضييقاً . كثير المنعطقات ، في حين اسلك الطريق المستقيم .. اما جريمتنا في

نظر السلطة فهي واحدة... اليس هذا صحيحاً؟ وثالثاً: يا بني.. لا شأن لي أنا معهم... لأن الرجل لا يكون رفيقاً للفارس. ومن المؤكد أنه لا يمكن أن أزوج فلاحاً في مثل هذا العمل، أما ما فأحدهما ابن كاهن، والثاني، وهو الفتاة، ابنة ملاك كبير. فأية مصلحة إذن لهما في إثارة الشعب؟... لا أدري... أنا فلاح بسيط لا أدرك أفكار المثقفين، ولا أعرف ما عمله أنا نفسي. أما ما يريدونه هم... فاني لا أريد أن أعرفه.. لقد ظل الكبار يمثلون بدقة دورهم كأسياد طوال ألف عام؛ لقد سلخوا جلد الفلاح.. وهام يستعظون فجأة... وما أنذا افتح عيون الفلاح الرومي. أنا لا أؤمن يا بني بحكايات الجن. ولكن هذا، كما ترى، يشبه تلك الحكايات أن أولئك السادة، من أي صنف كانوا، بعيدون كل البعد عني، فلو كنت أسير في الحقول شتاءً وتحرك أمامي كائن حي، فهاذا عساه يكون هذا الكائن؟ قد يكون ذئباً أو ثعلباً، وقد يكون بكل بساطة كلباً، ولكني، على كل حال، لا أستطيع أن أميزه لأنه بعيد عني كل البعد.

...وألقت الأم نظرة عجيلى على ابنها فإذا ملاحه تم عن أمه.

وكانت عينا ريبين تلتصمان ببريق قائم، وكان ينظر إلى بول بأدي الرضى، ويمرر، يدعة، أصابعه على لحيته:

— ليس لدي الوقت الكافي لأتصرف. فإن الحياة نفسها لا تمزج أبداً؛ والكلب في الوجار الحقيق ليس كالكلب في الحظيرة... ولكل سرب من الكلاب طريقته في النباح.

وقالت الأم وهي تفكر في بعض الوجوه التي تعرفها:

— هناك سادة يضحون بأنفسهم من أجل الشعب ويتمددون طوال حياتهم في السجون.

— هؤلاء يختلف أمرهم عن الآخرين، فعندما يثري الفلاح يتحسس بالسيد، وعندما يفتقر السيد يلجأ إلى الفلاح، وتظل النفس حتماً طاهرة صافية ما دامت المحفظة خاوية... اتذكر يا بول!

لقد شرحت لي مرة أننا نفكر على نسق الحياة التي نحياها؛ فإذا قال العامل «نعم» وجب على السيد أن يقول «لا»؛ وإذا قال لا، فإن السيد بطبيعته كسيد يصرخ بضراوة: «نعم»، وهكذا فإن الفلاح والسيد يختلفان في طبيعتهما، فعندما يأكل الأول تكافئه لا ينام الثاني ليله من التخمّة. مما لا شك فيه أن في كل طبقة فئة سافلة... فأنا شخصياً لا أوافق على الدفاع عن الفلاحين جميعاً. وانتصب أسود اللون قوياً، وكان وجهه يتجهم ولحيته ترتعش، كأنما تصطبك أسنانه، ثم تابع وهو يخفض من صوته:

— لقد همت على وجهي من معمل إلى معمل، طوال سنوات خمس، حتى نسيت الريف. وما أنذا أعود إليه. لقد شاهدت ما يحدث هناك فقلت لنفسي:

أنا لا أستطيع أن أعيش هكذا. أتقهمين؟ لا أستطيع. أما أنتم الذين تعيشون هنا، فإنكم لا تعرفون شيئاً من تلك المحازي. هناك، في القرية، يلاحق الجوع الإنسان كظله؛ ولا أمل مطلقاً في أن تتوفر له الكفاية من الخبز. لقد افترس الجوع النفوس، وصنع مخلوقات ليس لها وجه الإنسان. انهم هناك لا يعيشون. انهم يتغفنون في حزن يؤس. لا نستطيع أن نتصوره، وتقيم السلطات حولهم نطاقاً من الحراسة البقطة. وتتربص بهم كالفرسان لتروى ما إذا كنت تملك كسرة زائدة، فإذا رأت تلك الكسرة انتزعتها منك، ولطمتك، فوق ذلك، على فمك. وأجال ريبين بصره فيما حوله، ومال نحو بول وهو يسند يديه إلى الطاولة:

— لقد اجتاحتني الرغبة حتى في التقية عندما شاهدت هذه الحياة عن كثب؛ وكنت أفكر أني لا أستطيع تحملها، ولكني، مع ذلك، قالمكت نفسي، وقلت في سري: لا، لا تكن غراً، سألقي هنا. إني لن امنحهم الخبز، ولكنني سأثير المشكلة، أجل يا بني، سأثيرها، إني أحمل الضغينة لأولئك الذين يصنعون الشر للناس، فلقد انغرزت المهانة في قلبي كسكين.. ومن أجل ذلك... يرتعش قلبي.

وكان العرق يغطي جبهته. واقترب من بول ببطء، ووضع على كتفه يداً مضطربة:

— ساعدني . أعطني نوعاً من الكتب لا يعرف أي إنسان طعم الراحة بعد ان يقرأها . يجب ان نضع قنفذاً تحت كل جمجمة ؛ قنفذاً يحسن الوخز . وقل لجماعتك في المدينة ، أولئك الذين يكتبون لك ، قل لهم ان عليهم ان يكتبوا أيضاً لناس الريف . ليطبخوا لنا ، على مهل ، مرققة كثيرة الافاوية ؛ وليوزعوها على القرى ، فان فلاحينا سيقتلون من اجلها حتى الموت .

ورفع ذراعه ، ثم اضاف بصوت هادي ، وهو ينثر مقاطع كل كلمة :

— لننداء الموت بالموت . هذا ما نريده . ومعنى ذلك انه يجب ان نموت ليعت العالم ، ان نموت الألوف لنحييا الملايين في الأرض كلها . اجل هذا ما نريده ، وإنه ليسير ان يموت الناس ، اذا كانوا سيبعثون ، اذا كانوا سينتفضون من قبورهم . وحلت الأم ابريق الشاي وهي ترمق ريبين بنظراتها الشرراء . لقد كانت كلماته العنيفة القاسية تزهقها أشد الإروهاق ، وكان فيه شيء ما يذكرها بزوجها : فرجة فمه ، وحركات يده حين يشمر اكمامه . ولقد كان مثله أيضاً ، يتأجج بسعار لا يعرف الصبر ، ولكنه سمار صامت .

أما ريبين فكان لا يزال يتكلم ، ولكنه كان يبدو أقل رهبة من ذي قبل . وقال بول وهو يهز رأسه .

— اجل ان هذا ضروري . اعطونا وقائع نطبع لكم جريدة .

ونظرت الأم الى ابنها باسمة ، ثم ارتدت ثيابها دون ان تثبس بكلمة ، وخرجت .

وصاح ريبين :

— افعلوا ذلك وستقدم لكم كل ما يازم ... ولا تكتبوا أشياء معقدة ،

لكي تستطيع حتى المجول نفسها ان تفهم

وفتح باب الرواق ودخل احدهم .

قال ريبين وهو ينطلق نحو المطبخ ليرى من القادم :

— انه ايفيم . تعال الى هنا يا ايفيم ... هذا الفتى هو بول الذي حدثتك عنه وانتصب امام بول فتى صلب العود ، عريض الوجه ، اصهب الشعر ، ومادي

العينين ، يرتدي فروة خروف نصفية ، ونظر اليه من اسفل ، وقال بصوت مبحوح :

— تحية .

ثم شد يد بول ، ورد الى الراء شعره العصي ، واجال طرفه في الفرقة ثم اتجه بخطى ثابتة وثيدة نحو الرف المثقل بالكتب .

وقال ريبين وهو يغمز بول :

— لقد رأها .

واستدار ايفيم ، ونظر الى بول ثم راح يتفحص الكتب قاتلاً :

— حسناً إن عندكم ما تقرأونه .. ولكن ، من المؤكد ، انك ليس لديك

متسع من الوقت للقراءة . اما عندنا في الريف فالوقت يتسع لذلك .

وقال بول :

— لكن الرغبة في القراءة أقل .

واجاب الفتى وهو يحك ذقنه :

— لماذا ؟ بالعكس . إن الناس عندنا بدأوا يحركون عقولهم قليلاً

وتابع وهو يحدد في احد الكتب :

— علم طبقات الارض ؟ ماذا يعني ذلك ؟

وأخذ بول يشرح له . وقال ايفيم وهو يعيد الكتاب الى مكانه :

— لا حاجة لنا به . إن الفلاح لا يهتم ان يعرف من اين جاءت الارض ، بل

يهمه أن يعرف كيف توزعت . وكيف انتزعها الكيثار من تحت اقدام الشعب ،

وسواء كانت هذه الارض تدور او لا تدور ، فلا اهمية لذلك ، لانك تستطيع

ان تعقلها بحبل ، أما المهم فهو أن تعطي ما يؤكل ، ان تغذي البشر الذين

يعيشون عليها .

وقرأ ايفيم اسم كتاب آخر : « تاريخ الرق » فسأل :

— هل تتحدثون فيه عنا ؟

فقال بول وهو يناوله كتاباً آخر :

— هو ذا كتاب يبحث في القنانة .

فأخذه وقلبه بين يديه ، ثم أعاده الى مكانه ، وقال يهدوء :

— هذا يتحدث عن الماضي .

— هل لديكم ارض مأجورة ؟

— نحن ؟ نعم ... لدينا . ونحن ثلاثة اخوة ، تلك اربعة مكتسارات من الأراضي الرملية . إنها صالحة لتنظيف النحاس ولكنها لا تصلح ابدأ لإنبات القمح وهي لا تساوي شيئاً .

وتابع بعد ان صمت قليلاً :

— لقد تحررت من الارض ، فأني نفع فيها ؟ انها لا تطعم صاحبها بل تغل يديه . وما قد مرت سنوات اربع وأنا اعمل كأجير زراعي . وفي الخريف سأعذر جندياً . لقد قال لي الاب ميشال : « لا تذهب ، فهم يرسلون الآت الجنود لقتال الشعب » .

ومع ذلك فسأذهب . إن الجيش يحارب الشعب منسدة « ستيان وازين » و « بوجاتشيف »^(١) وقد آن الاوان لأن يوضع حد لذلك .

وركز بصره على بول وسأله :

— ماذا تقول ؟

فأجاب بول وهو يبتسم : أجل لقد آن الاوان ، ولكن الأمر صعب ... يجب ان نعرف ماذا نقول للجنود ، وكيف نخاطبهم .

فقال ايقيم :

— سنتعلم ، وسنحسن ذلك جيداً .

فرد بول وهو يرمق ايقيم بفضول :

— يمكن ان يعدموك رمياً بالرصاص اذا قبضوا عليك .

ومهم الفتى : انهم لن يمنحونا الغفران .

وعاد الى تفحص الكتب وقال ريبين :

(١) زعيان من زعماء قووات الفلاحين في القرنين السابع عشر والثامن عشر لا تزال ذكراهما حية .

— اشرب شايلك يا ايقيم ، فينبغي ان ترحل سريعاً .

— ها انذا آت .

ووقعت عينه على كتاب يحمل اسم « الثورة » فصاح :

— الثورة ؟ هل يعني هذا « التمرد » ؟

وتقدم اندريه مضرباً الوجه منفعل ، فشد على يد ايقيم دون أن يتفوه بكلمة ثم جلس الى جانب ريبين وراح يضحك وهو يتأمل .

وسأله ريبين ، وهو يضربه بيده على فخذه :

— انك لست منشرجاً .

فأجاب البيوروسي : هذا صحيح .

وسأل ايقيم وهو يشير الى اندريه بإيمانه من رأسه :

— هل هو ايضاً عامل ؟

فأجاب اندريه : نعم ... فماذا تقصد ؟

فشرح ريبين : هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها عامل مصنع ... ان

هؤلاء كما يقول .. يتميزون عن الآخرين .

فسأل بول : بماذا ؟

وتفحص ايقيم اندريه بدقة ثم قال :

— ان عظامكم مدققة ، أما الفلاح فعظامه أكثر استدارة .

وأكمل ريبين : ان الفلاح يقف على رجليه بثبات أكثر . انه يشعر أن الارض

تحت قدميه . ورغم انها ليست له . انه يحسها . انها الارض . ولكن عامل

المصنع كالطائر لا وطن له ولا منزل ، انه اليوم هنا ، وغداً هناك . حتى المرأة

لا تستطيع أن تربطه بمكان ، فلا يكاد يتشبث بينها جذال حتى يقول لها : « وداعاً

يا حلوتي » ثم ينطلق ياجئاً عن حياة أفضل ، في مكان آخر . أما الفلاح فيفضل

ان يعمل في بيته دون أن ينتقل ... آه .. هي ذي الأم قد عادت .

ودنا ايقيم من بول وسأله :

— لعلك ستقدم إلي كتاباً ؟

- بكل مرور

وبرقت عينا الفتى بشماغ النهم ، وقال بجرارة :

- سأعيده ، ان فتياتنا يتقلون الوقت الى مكان ليس يبعيد ؟ وسأكلهم

بإعاقته اليك .

وكان ريبين قد ارتدى معطفه وشده حزامه :

- هيا بنا ... لقد دهمنا الوقت .

وقال أيفيم وهو يريه الكتب ، وترسم على شفتيه بسمة عريضة :

- لقد حصلت على شيء أقرؤه .

وعندما انطلقا ، صاح بول مخاطباً أندريه :

- أرايت الى هؤلاء الشياطين ؟

فرد البيوروسي ببطء : نعم .. انهم كالسحابة ..

وقاطعته الأم : هل تتحدثان عن ريبين ؟ لكانه لم يكن ابداً في المعمل ؟

فلقد غدا فلاحاً مجتاً ، لكم هو رهيب .

وقال بول لأندريه الذي كان يجلس قريب النافذة يتأمل قذح الشاي وهو

متجهم الأسارى .

- لم تكن هنا ، فيا للخسارة . ولو كنت لاستظمت ان تشهد قورة قلب ،

انت الذي تتحدث دائماً عن القلب . لقد عرض ريبين آراء مثيرة هزني ..

وكادت تخنقي ، ولم استطع حتى الرد عليه . لكم هو وحذر من الناس ، ولشدهما

يحتقرهم . لقد صدقت الأم ، فهذا الرجل يحمل في نفسه قوة وهيبة .

وقال أندريه محتفظاً بتجهمه :

- رأيت ذلك . لقد سمعوا الناس ، وسيحتاج هؤلاء ، عندما يشعرون ،

العقبات كلها ، واحدة بعد أخرى . انهم يريدون الأرض خالصة لهم ، وسيخطئون

كل ما يحول بينهم وبين هذه الغاية .

وكان يتكلم بأناة ، ويبدو على ملامحه انه يفكر بأمر آخر . وقالت له الأم

تدريه :

- يجب ان تتحرك يا عزيزي أندريه .

فاجاب بهدوء ورقة :

- انتظري ايها الام الصغيرة .. انتظري

ثم اردف وقد انفعل فجأة ، ضارباً على الطاولة بقبضة يده :

- نعم يا بول . سيأتي الفلاح على كل ما تحمل الأرض عندما يفتق من كبوته ،

وكما تحرق آثار الطاعون سيحرق هو كل شيء ، ليدفن في الرماد كل آثار مهاتته .

وزاد بول بتؤدة :

- وسينتصب بعد ذلك في طريقنا

- ان مهمتنا يا بول تنحصر في ألا نسمح له بذلك . مهمتنا ان نردعه ، فنحن

أقرب الناس اليه ، وسيصدقنا ، ويسير وراءنا .

- اتعرف ان ريبين يقترح علينا اصدار جريدة خاصة للريف ؟

- هذا ما ينبغي عمله .

وقال بول ضاحكاً : يخجلني انني لم أبحث الأمر معه .

ولاحظ أندريه بهدوء :

- ستسمح الفرصة المناسبة لذلك ، ويكفي ان تنفخ مزمارك ليرقص على

صوته اولئك الذين لا تنغرس ارجلهم في الأرض لقد صدق ريبين فنحن لا

نحس الأرض تحت اقدامنا ، ويجب الانحسها ، لاننا نحن المهيأون لدفعها الى

الحركة ، سنهزها مرة واحدة فينقلع الناس منها ، ثم نهزها ثانية فينقلعون منها ايضاً

وابتسمت الام :

- في نظرك كل شيء بسيط يا أندريه

- نعم ... بسيط كالحياة

وبعد لحظات اردف : سأنطلق الى الحقول في جولة ...

فاعترضت الام : بعد ان استحممت ؟ ان الهواء ينفخ في الخارج وهذا ما يؤذيكم

- وهذا بالضبط ما احتاج اليه . .

وقال بول بركة :

— ألم تعرف من هو الذي قتل ذلك الوغد إيساي ؟

فرد بول بإيجاز : كلا .

— هناك شخص لم يثر ذلك اشمئزازه . وانا الذي كنت أعد نفسي دائماً

لحقته . وهذا ما كان يجدر بي .

وقال له بول بلهجة حميمة :

— لا تقل مثل هذه الأشياء يا نيقولا .

وتدخلت الأم وقالت بود : هذا صحيح . إنك طيب القلب ومع ذلك

لا تفتر عن الزئير ، فعلام ذلك ؟

وكانت ، في هذه اللحظة ، تحس بشيء من الرضى لرؤيته ، حتى ان وجهه

المجدور بدا لها جيلاً . وقال ، وهو يهز كتفيه :

— انا لا أصلح إلا لمثل هذه الأشياء . إني أفكر وأفكر ... أين هو مكاني ؟

فلا أرى لي مكاناً . يجب ان أتحدث الى الناس ولكنني لا أعرف كيف أتحدث .

إني أرى كل شيء ، أرى المآسي التي يصنعونها للناس ، وأحس هذه المآسي

ولكنني لا أستطيع أن أروها ... ان روحي خرساء .

ودنا من بول مطأطئ الرأس يحك الطاولة بأصبعه ، وقال بصوتٍ شاك

كصوت طفلٍ ، بصوت كأنه يصدر عن سواه :

— يا شباب ... كلفوني بعمل شاق ، أي عمل ، فأنا لا أستطيع ان أعيش

هكذا دون ان أعمل شيئاً . إنكم جميعاً في صميم المعركة . والأمور تسير بالنسبة

لكم سيراً حسناً ، أما انا فأقف بعيداً ... انقل الجسور والأخشاب . إني لا

أستطيع أن أعيش من أجل هذا ، فكلفوني بعمل شاق .

وأخذه بول من يده وجذبه إليه :

— سنكلفك .

ولعل صوت اندريه من وراء الحاجز :

— سأعلمك يا نيقولا أحرف الطباعة ، وستصبح أحد منضدي الأحرف

عندنا فهل توافق ؟

— حذار ، قد يصيبك برد ، ومن الأفضل ان تنام .

— كلا ... أريد أن أخرج .

وارتدى ثيابه ثم مضى دون ان يتفوه بكلمة .

وعلفت الأم وهي تطلق زفرة :

— انه متعب .

فقال لها بول : لقد أحسنت صنعاً إذ خاطبته بعد هذه القصة بصيغة المفرد .

فرشقة بنظرة اندهاش :

— ولكنني لم انتبه لذلك . فلقد أمسى قريباً إليّ جداً و ... لا أدري كيف

أقول لك !

فقال بول بهمس : ما أطيب قلبك يا أماء .

— ليتني أستطيع ان أقدم لك بعض المساعدة ، لكم جميعاً . لو كنت اعرف ...

— لا تخافي فسوف تعرفين .

وشرعت تفحك بهدوء :

— وهذا أيضاً ما لا أعرفه : « ألا أخاف » .

— حسناً يا أماء ، لنضع الكلام في هذا الموضوع ، وتأكدني اني معترف

لك بالجميل كل الاعتراف .

وهولت الى المطبخ كيلا يرى دموعها .

وعاد اندريه في ساعة متأخرة من المساء منهكاً ، وذهب الى فراشه على التو

وهو يقول :

— أعتقد أنني اجتزت عشرة كيلومترات على الأقل ..

فسأله بول : هل في ذلك فائدة لك ؟

— انا ذاهب لأنام فلا ترعجني .

وصمت ، ثم غفا ، كجذع شجرة .

وبعد قليل أقبل فيسوشيكوف رث الثياب ، قدراً ، ناقماً كعادته ، وسأل

وهو يضرب برجليه :

واقترب فيسوشيكوف من الحاجز وقال :
« اسمع ! إذا علمتني ، فسأقدم لك سكيناً كهنية .
فصاح به اندريه : اذهب إلى الشيطان بسكينك .
ثم انفجر ضاحكاً .

والجواب يقول : إنها سكين عظيمة .
وأخذ بول أيضاً يضحك : فتوقف فيسوشيكوف وسأل :

— هل تضحكان مني ؟

فأجاب اندريه وهو يثب من سريره :

— نعم ... ولكن اسمع : تقالوا أنهم في الحقول فإن ضوء القمر جميل
هل تذهبون ؟

فقال بول : حسناً .

وأعلن ويقول : وأنا معكم أيضاً ، فإني أحبك أيها البيوروسي وأنت تضحك .

— وأنا أحبك أيضاً حين تعد بالهدايا !

وحين كان يرتدي ثيابه في المطبخ قالت له الأم بلهجة مؤنية :

— أسرع في ارتداء ثيابك ... أسرع .

وعندما خرجوا ، وثبت إلى النافذة تلاخضم ببصرها ، ثم ألقت نظرة على

صورة القديسين ، وقالت بصوت خافت :

— يا آلهي .. كن في عونهم .

— ٢٦ —

كانت الأيام تمر سراعاً ، فلا تدع للأم متسعاً من الوقت للتفكير في أول
أيام ، ولكنها كانت حين تأري ، في الليل ، إلى فراشها ، تعيي من انفعالات
النهار وعمل الصاحب ، يشعر بقلبها ينقبض بهدوء :

— عجل بالأطلال يا أول أيام .

وكانت صافرة العمل تعوي عند الفجر ، فيشرب بول واندريه شايهما على

— ١٩٠ —

عجل ويتناولان طعاماً خفيفاً ثم يمضيان ، تاركين على عاتق الأم كثيراً من المهام .
وتظل هي ، طوال النهار ، تدور كالسحباب السجين ، تهيب الطعام ، وتحضر
مادة بنفسجية لطبع النداءات ، وصحفاً للإعلانات ، وكان يأتي إليها مجهولون
فيسلمونها بطاقات مرسلة إلى بول ، ثم ينسحبون بعد أن يقدموا لها احترامهم .
وكانت النداءات التي تدعو العمال إلى التعطيل في أول أيار تلتصق على الجدران
كل ليلة تقريباً ، وكانت هذه النداءات تظهر حتى على أبواب مخفر الدرك ، كما عثر
عليها كل يوم في العمل .

وفي الصباح كان رجال البوليس يروحون ويحيثون في الضاحية ، فيزعون
ويزقون الأوراق البنفسجية شاتين ، ولكن هذه الأوراق كانت تعود عند
الظهيرة فتتطاير في الشارع في جديد ، وتتساقط تحت أرجل المارة . وجيء من
المدينة بعدد من رجال الأمن المدنيين ، فتمركزوا في منعطفات الشوارع ،
يلاحقون بأبصارهم العمال الذين كانوا ينطلقون إلى الغداء مرحين نشيطين ، أو
الذين كانوا يعودون بعده إلى العمل وقد أسعدهم جميعاً أن يروا البوليس عاجزاً ،
حتى أن الطابعين منهم كانوا يتهايمسون ، والبسمة تختال على شفاههم :

— ماذا يفعلون ؟ ها ؟

وكانت الحلقات الصغيرة تنعقد في كل مكان ، فيدور الجدل بجملة حول
النداءات التي تقض المضاجع ، وكانت الحياة تغلي ، فلقد أثارت ، في فصل الربيع
هذا ، اهتمام الجميع ، وكانت تحمل لكل فرد شيئاً جديداً . تحمل للبعض سبباً
جديداً للحقد على المحرّبين ، ولإغراقهم بالشتائم ؛ وللآخرين قلقاً مزعجاً وأملاً ؛
ولآخرين غيرهم — وهم الأقلية — فرحاً غاموياً ، وشعوراً بأنهم هم القوة التي
توقظ الناس .

وكان بول واندريه لا ينامان إلا ليلتين ، وكانا يصلان ، قبل أن ترسل
الصافرة نداءها ، بقليل ، يصلان متعبين ، شاحبي الوجه ، مبجوح الصوت .
وكانت الأم تعرف أنها كانت ينظمان الاجتماعات في الغاب ، وفي المستقع ، ولم
تكن تجهل أن فضائل من الشرطة كانت تقوم ، خلال الليل ، بدوريات حول

— ١٩١ —

الضاحية ، وكان الجواسيس يطوفون فيفتشون العمال الذين يسرون منفردين ،
ويفترقون الجماعات ، ويقفون بعضهم أحياناً . لقد كانت قدرك ان ابنها
واندريه مريضاً للتوقيف ، كل ليلة ، وتكاد تتمنى ذلك ففي التوقيف ، كما
كان يبدو لها ، خيرٌ لها .

وأسدل ظلّ غريب من الصمت على مقتل إيساي ؛ وكان البوليس المحلي قد
استجوب بعض الناس حول هذا الموضوع ، بضعة عشر رجلاً على الأخص ، ثم
أسدل ستار الإهمال على القضية . وروت ماريا كورسونوف للأم ، في حديث لها
معهما ، ما قيل للبوليس الذي خاطبته هي أيضاً كالأخرين بمبارات رائعة :
— كيف يمكن العثور على الجاني ؟ فان نحواً من مئة شخص ربما كانوا قد رأوا
إيساي هذا الصباح ؛ وتسعين منهم على الأقل ودوا لو يصفعونه . لقد أمعن في
مضايقة مواطنيه خلال سبع سنوات .

وكان التغير يبدو في ملامح البيوروسي ؛ فلقد غارت وجنتاه ، وانسدلت
أجفانه المتشاقلة على عينيه الجاحظتين فأطبقتها نصف اطباقة ، وانحدرت تجعدة خفيفة
من فتحتي أنفه حتى زوايا شفتيه ، وقل للامه عن الأشياء والأعمال والحوادث
اليومية ، ولكنه كان يزداد انفعالاً ويفقد فريسة حماس يستبد بسمعیه ، فيمجد
الغد ، ذلك العيد الرائع المشرق ، عيد انقصار العقول والحريه .
وعندما ضاع مقتل إيساي في لجة النسيان ، قال البيوروسي يوماً بلمهجة ازدراء
وهو يتسم انتسامة حزينة :

— إن أعداءنا لا يكرهون الشعب فحسب بل انهم أيضاً لا يحبون أولئك
الذين يستخدمونهم كالكلاب ليطاردتنا ؛ وإذا أسفوا عليهم ، فانهم لا يأسفون على
« يوصاسهم » المخلص . وإنما يأسفون على أموالهم .

وقال بول بحزم : كفى يا اندريه .

وأضافت الأم بصوت خافت :

— لقد تعثرنا بجذع حجر ، فتهاوى وتناثر كالغبار .

وأجاب اندريه بضيق : « هذا صحيح ، ولكنه لا يبعث في النفس العزاء »

وكان يردد في اغلب الاحيان هذه الكلمات التي تكتسب بين شفتيه معنى خاصاً ،
يحيط بالاشياء كلها ، معنىً لازعاً شديد المرارة ..
.. وأقبل اليوم المنتظر ؛ يوم اول ايار .

.. وعوت صافرة العمل كمادتها أمارة قهارة ، وقفزت الأم التي لم تستطع
ان تغمض أجفانها طوال الليل ، قفزت من سريرها ، وهيات الشاي المعد منذ
العشية ، ثم انطلقت ، كالعادة ، تطرق باب الغرفة التي ينام فيها اندريه ، وبول ،
ولكنها توقفت فجأة ، وانزلت يدها ، وجلست قرب النافذة ، واستندت خدها
الى راحتها كالو كانت تشكو ألماً في أسنانها .

وكان قطيع من الغيوم الخفيفة البيضاء والوردية يهيم على وجهه مسرعاً في
السما الباهتة الزرقاء ، كسرب من الطيور الكبيرة ، تغرّها هدير البخار ففرت
مدعورة . وكانت الأم تنزل الى هذه الغيوم ، وتصيح بسمعها الى وجيب قلبها .
لقد كان رأسها مثقلاً ، وعيناها جافتين يعكرهما احمرار الأرق ، وفي صدرها يحيم
هدوء غريب ، وخفقات قلبها تتوالى بانتظام ، وكانت تفكر بأمر عادية :
— لقد اشعلت الموقد قبل الاوان ، ويكاد الماء أن يتبخّر ، لأدعها اليوم
ينامان وقتاً أطول قليلاً ، فكلأهما مرهق .

وقفز من النافذة خيط طفل من شعاع الشمس ، خيط مرج لعوب افحملت
اليه الأم يدها ، حتى اذا ما استقر صافياً فوق أمانها ، راحت يدها الاخرى
تداعبه برفق باشة مطرقة . ثم نهضت وانتزعت انبوب الابريق ، جاهدة الا
تحدث اية جلية ؛ وشرعت تصلي فترسم إشارة الصليب بحرارة ، وتحرك شفتيها
بصمت .

وكان وجهها يتألق في حين يرتفع حاجبها ببطء تحت بقايا جرحها ، ثم
ينخفض فجأة .

ودوي صوت الصافرة ثانية أقل عنفاً ، وأقل اطمئناناً ، وكان صوتها مرتعشاً
ندياً ، فأحست الأم انه اكثر امتداداً من ذي قبل .

وتعالى صوت البيوروسي صافياً :

- اتسمع يا بول ؟

وجرجر احدهما قدميه الحافيتين فوق ارض الغرفة ؛ وتثاءب آخر بنشوة ،
فصاحت الأم : الشاي جاهز .

وأجاب بول بمرح : ها نحن نهض .

وقال اندريه : لقد اشرفت الشمس والغيوم تتراكم .. انها كثيرة
اليوم هذه الغيوم .

ودخل المطبخ اشعث الشعر يتبعته النعاس ، ولكنه كان مشرق الأسارير .

- صباح الخير ايتها الأم الصغيرة ، كيف قضيت ليلتك ؟

فاقتربت منه وقالت بصوت خفيض :

- ستظل الى جانبه يا صغيري اندريه أليس كذلك ؟

فغمغم اندريه :

- هذا اكيد . اتنا نعيش معاً ، فاطمئي .

وسأل بول : هل هناك من مؤامرة تحببناها ؟

- لا شيء أبداً يا بول .

وأجاب اندريه وهو يخرج من المدخل ليمشط شعره :

- انها تقول لي بأن استحم جيداً ، فستعلق بنا أبصار الغواني .

ودندن بول : يا معذبي الارض انهضوا .

وصفا النهار شيئاً فشيئاً ، ويددت الريح السحب ، ووضعت الأم المائدة ،
وكانت تهز رأسها وهي تفكر بأن كل شيء كان اليوم شديد الغرابة . لقد كان
الصديقان يتأخران هذا الصباح ويتسلمان ، ولكن من يعلم ماذا ينتظرهما عند
الظهيرة ؟

... أما هي فكانت تشعر بالاطمئنان ، بل انها تكاد ان تكون فرحة .

وأطالوا الجلوس الى المائدة محاولين ان يبددوا ضجر الانتظار ، وكان بول
كعادته ، يحرك ببطء وأناة ملعقته ليذيب سكر فجاجه ، ويذر الملح بعناية على
قطعة الخبز المحمص المفضلة لديه . وكان البيوروسي يحرك قدميه تحت الطاولة فلا

تستقران للوهلة الأولى ، وكان يقص ، وهو يتسع خيطاً من شعاع الشمس يعدو
في السقف وعلى الجدار :

- عندما كنت غلاماً في العاشرة راودتني رغبة في ان اصطاد شعاع الشمس
في كأس ؛ فاخذت واحدة ، واقتربت من الجدار بخطي الدئب ، ثم صربت
ضربتي فجرحت يدي ، وعوقبت بالضرب . وخرجت بعد ذلك الى الساحة ،
قرأيت الشمس في مستنقع ، فصرخت بها : « اغربي من وحيي والا سحقتك
بقدمي » وكان ان غرقت في الوحل ، وعوقبت أيضاً بالضرب ، وإذا بي ، أخيراً
اصرخ في وجهها : « لن يضرني هذا ايها الشيطان الاشر ، لن يضرني » . ثم
امد لها لساني ساخراً .. وهذا ما كان يبعث في نفسي الغراء .
وسأله بول ضاحكاً :

- لم تثلث لك الشمس شقراء ؟

- لأنه كان قبالتنا حداد قرمزي الوجه اشقر اللحية ، وكان فلاحاً طيباً
مرحاً ، وكنت أرى ان الشمس تشبهه .

وقالت الأم مقاطعة :

- إنك يا تحسنان صنعا لو تحدثتما عما ستفعلانه

فرد اندريه برقة :

- إن الحديث عن الامور المقررة يؤدي الى افسادها ؛ يجب ان يقولوا أيتها
الأم الصغيرة ، عندما يحمسوننا ليقول لك ما يجب عمله .

وزفرت الأم : حسناً .

وقال بول وهو مطرق : يجب ان نخرج الى الشارع .

فنصحه اندريه : كلا ، من الافضل ان تبقى في البيت تنتظر ؛ إذا
يحدي شيئاً ان تجعل من نفسك هدفاً للبوليس ، فالبوليس يعرفك جيداً .

وأقبل عليهم ثيومازين متألق الوجه متورد الوجنت ، ويدد الانفعال والفرح
الدان يلائه ، ما كانا يعانيان من ضجر الانتظار .

- لقد بدأت ... ان الجماهير تتحرك . انهم ينزلون الى الشارع واشداقهم

كالقؤوس . ان فيسوشيكوف ، وباريل غوسيف وسمالوف يرابطون عند باب العمل منذ الصباح يحرضون العمال على العودة الى منازلهم ، وقد عاد عدد كبير منهم . هيا بنا ، فلقد أُرِفَت الساعة ، انها العاشرة .

وقال بول بلهجة حازمة : ها أنذا ذاهب الى هناك .
وأكد ثيو : سترون ، بعد قليل سيتوقف العمل كله . ثم انطلق راكضاً .
وقالت الأم يهدوء : انه يلتهب كشمعة في مهب الريح .

- الى اين ابنتها الام الصغيرة ؟

- اني ذاهبة معكم .

ورنا اندريه الى بول وهو يمسد شاربه ، ورد بول شعره المتهدل الى الوراء بحركة خاطفة ثم لحق بأمه الى المطبخ :

- لن اقول لك شيئاً يا اماء ، وانت كذلك .. مفهوم
فغمضت أمه : اجل ، اجل .. ليكن يسوع معكم .

- ٢٧ -

وعندما خرجت سمعت صخب الاصوات فاعتراها اكتئاب ورعدة ، وما كادت ترى جموع الناس مزدحمة في النوافذ والابواب ، تتبع اندريه وبول بنظرات الفضول ، حتى غامت عينها ببقعة ضبابية تتعرج متلونة ، فهي تارة خضراء شفافه ، وتارة اخرى رمادية كدراء .

وكانت التحايا تهمر على الشابين ، وفي هذه التحايا شيء من التخصيص ، وكان سمع الام يتلطف شظايا الاحاديث المهمة :

- هاهما القائدان .

- كلا .. لا يعرف احد من هم القادة .

- حسناً .. فانا لم اقل سوءاً .

وتعالى صوت مهتاج : اذا قبض عليها البوليس فانها هالكان لا محالة

- سيزيد ذلك الامور تعقيداً .

- ١٩٦ -

ونددت عن احدي النسوة صرخة حائقة هلوع ، قفزت من النافذة الى الشارع :
انك تفقد اترانك . هل تحسب انك ما زلت صبياً ؟ كلا ؟

وفيا كانا يعبران امام منزل رجل يدعى «زوسيموف» وهو عامل بترت ساقه في العمل ، ويتقاضى من اجل ذلك راتباً تقاعدياً - أطل هذا برأسه من النافذة وصاح :

- هيه يا بول ، ان مشاكلك ستجر عنقك الى النطع . فانتظر ايها الجرو .
وارتعدت الأم ثم توقفت . لقد أثارت فيها هذه الصرخة سخطاً شديداً فرمقت الوجه المنتفخ ، وجه الرجل المقعد الذي انكفاً الى الداخل لاغناً ، ثم اسرعت لتتصم الى ابنتها وسارت في أثره جاهدة الا تظل في مؤخرة الموكب ..
وكان يبدو على بول واندريه كأنهما لا يلاحظان شيئاً مما حولهما ، ولا يسمعان الهتافات التي تواكبهما ، وكانا يسيران على مهل دون ان يغذا الخطي ، فاستوقفها ميرونوف ، وهو رجل فاضح متواضع ، يحترمه الناس جميعاً لأنه يحيا حياة صابرة طاهرة ، وبادره بول :

- انك لا تعمل اليوم يا دانيلا ايفانوفيتش ؟

فرد ميرونوف وهو يحجج الرقيقين متفحصاً :

- ان زوجتي قوشك ان تضع حملها ، ثم ان الجو مضطرب اليوم ، ويقال انكم ، انتم الشبان ، تودون خلق المتاعب للادارة ، وتحطيم الزجاج ؟

فأجابه بول : او تحسبنا مخمورين لتفعل ذلك ؟

وتدخل اندريه : سنسير بكل بساطة مع اعلامنا في الشارع ، وسننشد الاناشيد فأصغ اليها . انها تعبر عن عقيدتنا .

وأجاب ميرونوف بلهجة المفكر : اني اعرفها ، فلقد قرأت نشراتكم .

والتفت الى الأم وقال لها وبسمة الطيبة تلعب في عينيه الذكيتين :

- وانت ايضاً يا بيلاجي تسيرين مع المتمردين ؟

- يجب ان يسير المرء مع الحقيقة حتى ولو كان على حافة قبره .

- أرايت ؟ ان الناس لصادقون اذن حين يقولون بأنك تحملين النشرات

المنوعة الى العمل . ؟

وسأله بول : من يقول ذلك ؟

هكذا يقولون ... حسناً .. الى اللقاء .. وإياكم المحابقات .

وراحت الأم تضحك بهدوء فلقد كان يملأها زهواً أن يتحدث عنها الناس هكذا .

وقال لها بول باسمياً :

- ستدخلين السجن يا أماء .

وكانت الشمس ترتفع باستمرار فتبعث حرارتها في الطراوة المنعشة ، طراوة النهار الربيعي ، وكانت السحب بهم بطيئة ، فتغدو ظلها أكثر نحافة وشفافية ، وتتساحب هذه الظلال لينة لدنة فوق أرض الشارع ، وعلى سطوح المنازل ، فتلف الناس بغلالاتها ، وتبدو كأنها تقوم بتطهير الضاحية فتسمح الوحل والغبار عن السطوح والجدران ، والضجر عن وجوه الناس . وكانت البهجة تنتشر ، والاصوات تغدو اشد رنيناً ، فتلقف الصدى البعيد ، صدى الضجيج المتصاعد من آلات العمل .

ومن جديد ، كانت الاقاول تتطايروتنثال في سمع الأم ، تتطايروتنوافذ والساحات كثيفة او سريرة ، جازمة او مرحة ، وودت بيلاجي لو تستطيع ان تجيب عليها ، فتشكر او تشرح ، وان تندمج في حياة هذا النهار الغنية بالالوان . وفي زاوية من الشارع الكبير ، وفي زقاق ضيق ، كان نحو من مئة شخص يتجمهرون ، وكان صوت فيسوشيكوف يدوي بينهم :

- انهم يعتصرون دمكم كما يعتصر العنب .

وكانت تعابيره التي لا براعة فيها تنهر فوق رؤوسهم ، فتتعالى ، وفي وقت واحد ، بعض الاصوات :

- هذا صحيح ، هذا صحيح .

ثم تذوب هذه الاصوات في خضم الضجيج .

وقال البيورومي :

- لقد سد الفتي ضربة ، فلنذهب اليه ، ولنساعده .

وانحنى ، وقبل ان يتمكن بول من الامساك به ، اخترق الجمع كالثقب ، وتعالى صوته الجهور :

- ايها الرفاق . يُقال ان الارض تحمل على ظهرها كل انواع الشعوب ، اليهود والالمان والانكليز والتتار ، ولكني انا لا اصدق ذلك ، فليس على ظهر الارض سوى شعبين ، سوى عرقين لا انسجام بينهما أبداً ، هما : الاغنياء والفقراء . ان ازياء الناس لتختلف ، وكذلك لغاتهم ، ولكننا عندما نرى كيف يعامل الاثرياء الفرنسيون والالمان والانكليز عاملهم ، ندرك انهم جميعاً بالنسبة للعامل طغاة . طعامهم ، ليت الحسكة تعلق في حناجرهم .

ودوت من بين الجميع ضحكة ، وتابع اندريه :

- وعندما ننظر الى الامر من الناحية الاخرى ، ترى ان العامل الفرنسي ايضاً ، ومثله التتري والتركي يحيون حياة الكلاب ، مثلنا نحن العمال الروس . وكان الحشد يتضخم حوله بلا انقطاع ، ويتسلل الناس يجهد الى الطريق الضيق ، يتسللون واحداً بعد واحد ، ثم يقتربون بصمت ، فيمدون اعناقهم ويتطاولون على رؤوس اقدامهم . ويرفع اندريه صوته :

- لقد أدرك العمال في الخارج هذه الحقيقة البسيطة ، واليوم ، في هذا اليوم المشرق ، يوم اول ايار ..

وصرخ احد الحضور : البوليس ، البوليس .

وكان اربعة من رجال البوليس الغربان يدورون نحو زاوية الزقاق ، ويتوجهون مباشرة نحو الجهور وهم يهزون كرابيجهم صائحين :

- هيا تفرقوا ..

فتكفهر الوجوه ، ويتفرق الناس مرغمين امام الخيول المقتحمة ، ويتسلق

بعضهم الاسوار ، ويرتفع صوت جهور يتحدى :

- لقد أركبوا الخنازير ظهور الخيل وهاهي ذي تندم : ونحن ايضاً لنا

قادة كبار .

وظل البيوروسي وحده في وسط الزقاق ، واندفع نحوه جوادان يسترنج
رأسهما ، فابتعد من طريقهما ، في حين أمسكته الأم من ذراعه وجرفته مغفمة :
- وعدتني ان تبقى مع بول ، وها انذا اراك تعرض نفسك لألسنة السياط .
فأجابها باسم المعدرة .

وتلك بيلاجي إعياء يختلط فيه الغم بالخور ، إعياء كانت تحسه يترابديماً
رأسها بما يشبه الدوار ؛ وكان الحزن والفرح يتعاوران على قلبها بشكل غريب .
وكانت تمنى لو تسرع صافرة العمل ، فتعلن حلول الظهيرة .

ولمعا الساحة قرب الكنيسة حيث احتشد فوق فسحتها - وقوفاً وقعوداً -
نحو خمسة شاب و غلام متحمسين جذلين ، وكان الحشد يتموج ، والمتشبهون
يتلعون اعناقهم ويرنون الى البعيد ، الى كل جهة ، بصبر نافذ ، وكانوا يستشعرون
شيئاً من رهبة القداسة ، ويبدو البعض كأنه أضاع اتجاهه ، في حين يبدو البعض
الآخر كمن اصعب بالصرع ، وكانت تسمع أحياناً اصوات ضعيفة مكبوتة ، تند
عن بعض النسوة ، فيستدبرهن الرجال مكرهين ، وأحياناً أخرى تنفجر شتمة
بصوت خفيض ، وكان ضجيج أصم من الأحاديث الحاقدة يلف الحشد كله ،
وصوت امرأة يتهدج :

- كن حذراً يا متري .

وكان صوت سيزوف الوقور يُسمع راعداً مقنعا :

- كلا .. يجب ألا نتخلى عن الشبان ، فلقد أصبحوا أكثر تعقلاً منا وأوفر
جراً من ؛ الذي صنع كل شيء في قصة «فلس المستنقع» ؟ إنهم هم . يجب ألا
ننسى ذلك . لقد دخلوا السجن لهذا السبب ، اما الغنم فكان لنا جميعاً .
ولقف زئير الصافرة القاتم ضجيج الاحاديث ، ثم سرت في الجمع رعشة ،
فاذا الجالسون ينتصبون ، وفي لحظة يتسمر كل شيء في وقفة انتظار متحفز ،
كثير من الوجوه يكسوها الشخوب .

- ايها الرفاق ..

وكان ذلك هو صوت بول ، صوته الرنان الواثق .. ولفحت عيني الأم غمامة

جافة ، واستشعرت انها قد استردت ، دفعة واحدة ، كل حيويتها ، فاتخذت
مكانها بالقرب من ابنتها ؛ وتلفت الجميع الى بول ، والتفوا حوله كنشأ الحديد حين
يحتنق جسم ممغنط ، وكانت الأم تنو اليه فلا ترى إلا عينيه ، عينيه المزهوطين ،
عينيه الجسوريتين المشتعلتين .
- ايها الرفاق :

لقد قررنا ان نعلن بوضوح وصراحة من نحن ؛ فرفعنا اليوم علمنا ، علم «الفكر
والحقيقة والحرية» .

وارتفعت في الفضاء سارية بيضاء طويلة ثم انخفضت ، فشطرت الحشد ، ثم
توارت . وبعد لحظة ، ارتفع العلم العريض ، علم الشعب العامل الكادح ، ارتفع
خفافاً كطائر قرمزي اللون .

ورفع بول ذراعه ، فرفرف العلم ، وحضنت السارية البيضاء الملساء أيدي
كثيرة كانت احداها يد الام :

وهتف بول : «عاش الشعب الكادح» .

ورددت وراءه مئات الاصوات في هتاف مدوي :

- عاش حزب العمال الاشتراكي الديوقراطي . عاش حزبنا ، عاش رفاقنا ،

عاش ..

وسرى الغليان في الحشد ، وشق الطريق الى العلم اولئك الذين كانوا يدركون
اي معنى يرمز اليه ، وكان مازين وسامو الوف والاخوان غوسيف قد اخذوا
مكانهم الى جانب بول ، اما نيقولا فيسوشيكوف فقد كان يعمل على إقصاء الناس
عنه ، وكان آخرون غيرهم يدفعون الأم التي لا تعرفهم ، يدفعونها في نزاحهم
وهم محموو النظرات .

وصاح بول : عاش العمال في كل وطن .

وبقوة وفرح دائم التنامي ردد اهتاف الف صوت ، وكان صدى هذه
الاصوات يهز كل نفس .

وأمسكت الأم بيد نيقولا ، وأخذت يد شخص آخر ، وكانت الدهموع
تحنقها ولكنها لم تكن تبكي ، وانما كان ساقاها يرتعشان : فتقول متلجلجة :

-- ابنائي .

وتلألأت في وجهه نيقولا المجدور بسمه عريضة ، ورنا الى العلم هاتفاً بكلام لا يفهم ، باسطاً ذراعه نحوه ، ثم لم يلبث أن ارخى يده فجأة ، وأمسك بعنق الام واحتضنها ثم راح يقبلها .

وطغى على ضجيج الحشد صوت البيوروسي ، الهادي العذب :
- ايها الرفاق !

باسم إله جديد يسير الآن موكبنا ، باسم إله النور والحقيقة ، إله العقل والخير . إن هدفنا ناء عنا ، ولكن تيجان الشوك قريبة دانية ، فليتمد عنا أولئك الذين لا يثقون بذواتهم ، والذين يخافون العذاب ، نحن ندعو إلتنا أولئك الذين يؤمنون بانتصارنا ، اما الذين لا يبصرون هدفنا ، فليتمدوا لان الشقاء وحده هو الذي ينتظرهم . ايها الرفاق . رصوا صفوفكم . عاش عيد الاحرار ، عاش اول ايار .

وازداد ازدحام الجمهور ولوح بول بالعلم الذي انتشر وخفق متألقاً تحت الشمس في بسمه عريضة حمراء .

رجلجل صوت ثيومازين واعداء :

- ايها المذبذبون في الارض هبوا .

ورددت عشرات الاصوات في موجة عذبة عارمة :

- يا ضحايا الجوع هبوا .

وكانت على الشفاء بسمه تحرقها ، وكانت الام تسير وراء مازين ، وترنو الى ابنا ، والعلم الذي يحمل ، وحولها تراقص وجوه مستبشرة ، وعيون من كل لوث .

وكان ابنا واندرية في الصف الاول . إنها تسمع صوتيهما : لقد كان صوت لندريه العذب الخافت ، يمتزج ودوداً بصوت بول المثلث الاكثر خفوتاً :
«إنها المعركة الفاصلة ...

فلنوح صفوفنا ، لنوحدها فغداً ...»

وكان الناس يتراكمون لاستقبال العلم الأحمر صائحين ، فيختلطون بالجمع ، وينطلقون معه ، وكانت الصيحات تذوب في أنغام النشيد ، هذا النشيد الذي كان ينخفض به الصوت في المنزل ، فاذا به ينحدر في الشارع كنهز هائل القوة ، سوي لا التواء فيه ولا عوج . إنه يهدير بصوت البسالة ، فاذا كان هذا الصوت يهب بالقوم ان يسلكوا الطريق الطويل الذي يقضي بهم الى الغد ، فانه ليحدثهم في الوقت نفسه ، وبصراحة ، عن تجارب هذا الطريق .. تجاربه الرهيبة . وفي اللهب الهادي الكبير ، كانت تذوب رواسب الماضي السوداء ، والكتلة الثقيلة ، كتلة العواطف المعتادة ، ويتحول الخوف اللعين الى رماد .
وكان الى جانب الأم وجه مجهول ، يختلط في ملاحه الذعر والبشر معاً ، ويترنح على أنغام النشيد ، وصوت تهزه الزفرات يرتفع صائحاً :

- متري .. الى اين ؟

وأجابتها الأم دون أن تتوقف :

- دعيه . لا تقلقي عليه . لقد كنت مثلك ايضاً كثيرة الخوف ، ولكن ابني الآن في الطبيعة . إنه ذاك الذي يحمل العلم .

- الجنود هناك .. قلى أين تذهبون ايها اللصوص .

وصرخت السيدة الفارعة التحيلة فجأة ، وتشبنت يدها الهزيلة بذراع بيلاجي :

- إنهم ينشدون .. ومتري ايضاً ينشد معهم .

فغمضت الأم : لا تقلقي ، هذا شيء مقدس ، واذكري ان المسيح ما كان ليكون لولا ان وجدت هناك فئة تموت من اجله .

لمعت هذه الفكرة فجأة في ذهنها ، فاذملت بها فيها من حقيقة بسيطة متألفة ، فرمقت السيدة التي كانت تشد على ذراعها ، ورددت بإبتسامة ذاهلة :

- ما كان المسيح ليكون لولا ان كانت هناك فئة ماتت من اجله ، من أجل سيدنا ..

وظهر سيزوف يجانباها ورفع قبعته ولوح بها على أنغام الاغنية :

- إنهم يسرون بحرية يا امه أليس كذلك ؟ لقد اخترعوا نشيداً ، وباله

النشيد الذي يبدو كأن نبراته القوية تكتسح كل شيء ، وتكنس كل ما تصادفه في طريقها .

وكانت الأم ترى في البعيد ، العلم الآخر ، ولا ترى ابنها ، بل تتخيل وجهه يحينه البروزي ، ونظرته المتأججه بلهب الايمان .
وما هي ذي في الصفوف الاخيرة من الحشد ، بين اولئك الذين كلوا يسرون دونما تراحم ، ويتطلعون الى الامام بلا مبالاة ، يتطلعون بفصول باهت بارد كفضول ذلك المتفرج الذي لم تعد عقدة المسرحية مرآ مغلقة عنده ؛ ويسرون ويتحدثون بصوت منخفض وبكثير من الوثوق :

- يوجد قرب المدرسة فرقة اخرى في العمل .

- لقد وصل الحاكم .

- أصحيح ذلك ؟

- لقد رأيته بأمر عيني .

واطلق احدهم بعض الشتائم بمرح ، وقال :

- ومع ذلك فقد بدأوا يخشوننا ، نحن الآخرين . انهم يرسلون إلينا الجند والحاكم ..

وكانت هذه الكلمات تحفز في صدر الام : إيه يا صفاري الاعزاء .

غير ان اولئك الذين يضطربون حولها كانوا فاقدي الحيوية بارهوي الاعصاب ، فغذت من خطاها ، لتبتعد عنهم ، عن رفاق الصدقة ، ولم تجد أي عشاء ؛ في تحطبي زحفهم البطيء الكسول .

وفجأة بدت طلعة الموكب كأنها تصطدم بعقبة ما ، فتردد الحشد الطويل في سيرة دون ان يتوقف ، وانتظمه صخب قلبي ، واضطرب النشيد قليلاً ، ولكنه لم يلبث ان انطلق أقوى من ذي قبل واسرع تنمناً ، ومن جديد ، انخفضت موجة الاصداء الكثيفة ، وانكفأت الى الوراء ، ثم خرست الاصوات واحداً بعد آخر ، وتعالَت هتافات من هنا وهناك لتعيد الى الجوقة كمال روعتها ، ولتندفعها الى الامام :

من نشيد .. أليس كذلك يا أماء ؟

ثم أضاف : إنهم لا يرهبون شيئاً ... ولكن واحسرتاه ... ان ابني في لحده ..

وأخذ قلب الأم يخفق بعنف ، فتباطأت في المسير ، ثم لفظها التيار جانباً فإذا بها تجد نفسها منزوية امام احد الاسوار ، في حين كانت الموجة البشرية العارمة تندفع أمامها ، فتدرك معها أن الحشد كان هائلاً ، وهذا ما يدخل السرور الى قلبها :

- ايها المذبذبون في الارض ، هبوا .

لكن تغيراً ضخماً كان يدوي في الفضاء ، يدوي فيلهب الناس ويوقظ في البعض الميل للصراع ، ويوقظ في الآخرين فرحاً غامضاً وتطلعا حاراً ، واحساساً مسبقاً بحدث جديد . إنه بيعت هنا قلبي الأمل ، ويطلق هناك سيل الحقد المر ، الحقد المتراكم عبر السنين .

وكان الناس جميعاً يرتبون بأبصارهم الى الامام ، الى حيث كان العلم الآخر يتأيل ويخفق . وزجر صوت متحمس :

- ها هم أولاء قد انطلقوا ، برافو ايها الصغار .

وكان صاحبه يعاني بلا شك إحساساً اكبر من ان تستطيع الكلمات العادية التعبير عنه ، فراح يشتم باندفاع ، ولكن الحقد القاتم الأعمر ، حقد العبد ، كان يعج كالأفمى ، ويتلوى في كلمات مسعورة ، ثم يزيده استماراً ، ذلك التور الذي كان يكشفه للابصار .

وهتف احدهم بصوتٍ عظيم وهو يلوّح من إحدى النوافذ ، بقبضته مهدداً - أيها الهراطقة .

وانطلق عواء مزعج مقذع اخترق سمع الام :

- أصد الامبراطور ؟ أصد جلاله القيص هذه الثورة ؟

وكانت الوجوه المذعورة تعبر سراعاً بقرعها ، إنهم رجال ونساء يقفزون ويتراكضون ، وكان الحشد يندفع كسيل بركاني قاتم ، يقوده النشيد ، هذا

« أيها المذبذبون في الأرض هبوا ،

« يا ضحايا الجوع هبوا .. »

ولم يكن في هذا النداء ، ذلك الجرس نفسه المليء باعتداده الرجولة ، بل لقد بدأت تحس فيه ، على كل حال ، ارتعاشة القلق .

وكانت الأم لا ترى شيئاً ولا تعرف ماذا يجري في الطليعة ، لذلك راحت تخترق الجموع ، وتشق بسرعة لنفسها طريقاً ، وكان الناس ينكشفون عنها ، فتحنى وؤوس ، وتعبس وجوه ، ويبتسم البعض بارتباك ، ويصفر آخرون ساخرين ، وكانت هي تتفحص الوجوه مغمومة ؛ وفي عينيها سؤال وتوسل ونداء ..

وتعالى صوت بول :

— أيها الرفاق . ان الجنود بشر مثلنا . انهم لن يعتدوا علينا بالضرب . علام يفعلو ذلك ؟ ألا نننا نحمل الحقيقة التي يحتاجها كل الناس ؟ والتي يحتاجونها هم أنفسهم ؟ انهم لم يدركوها حتى الآن ، ولكنه لم يعد بعيداً ذلك اليوم الذي يقفون فيه ، هم ايضاً الى جانبنا ، ويسيطرون ، لا تحت راية النهب والقتل ، بل تحت رايتنا نحن ، راية الحرية . ولكي يدركوا سريعاً حقيقةنا ، ينبغي ان نكون في الطليعة .. فإلى الأمام يا رفاقنا .. الى الامام دوماً .

وكان صوت بول حازماً ، وكانت كلماته تدوي في الفضاء واضحة جلية ، ولكن الحشد كان يتفرق ويتبدد ذات اليمين وذات الشمال ، وكان افراده يعدون جماعة بعد اخرى ، نحو المنازل ؛ وهم يحتمون بظل الاسوار .

ولم يبق من المركب الا شكل زاوية كان بول طرفها ، وكان علم الطبقة الكادحة يرف فوق رأسه احمر قانياً ، وكان الحشد كطائر أسود ينشر جناحيه واسمين ويقف متربصاً متأهباً للارتفاع والتحليق ؛ وكان بول هو منقر ذلك الطائر .

ووقع بصر الام في طرف الشارع ، على جدار يكفكف من طول الساحة ، جدار اغبر من رجال لا وجوه لهم ، رجال موحدى الزي تلمع فوق منكب كل منهم شفاير حربية ماضية الحد . ومن هذا الجدار الصامت الجامد خيل للأم ان ريحاً صرصراً كانت تهب على العمال ، وتجتاح قلبها .

وتغلغل في الصفوف لتنضم الى اولئك الذين كانت تعرفهم : لقد كانوا في المقدمة بالقرب من العلم ، ينصرون في الجمع الذي تجهل ناسه ، كأنهم إنما يلتصقون في هؤلاء المجهولين سنداً لهم ، والقت نفسها امام رجل ارد فارع القامة ، راحت ترحه ، وكان صاحبنا اعوراً ، فأدار رأسه بحركة سريعة ليحدق فيها ويسألها :

— ماذا تريدين ؟ ومن أنت ؟

وأجابت : «اني والدة بول فلاسوف» . واحست بساقيها ترتعشان وبشفتها تتدلى بحركة لا ارادية .

وقال الاجور : حسناً .. ولم يزد .

واستأنف بول كلامه : ان الحياة ايها الرفاق ، الحياة كلها أمامكم ، وليس لنا من طريق سوى هذا الطريق ..

.. وخيم صمت متربص ، ثم ارتفع العلم ورفرف ، وخفق يهدوء فسوق الرؤوس ، ومضى دون تلكؤ نحو الجدار الأعبر ، جدار الجند .

وعرت الأم رجفة فأغمضت عينيها ، واطلقت زفرة ، وكان بول واندرية وسامو الوف ومازين وحدهم ينفصلون عن الحشد .

وتعالى صوت مازين صافياً هادئاً : «لقد كنتم الضحايا» ..

وردد وراءه صوتان خفيضان ، اسمان كزفرتين عميقتين :

«الضحايا لعراك مشؤوم ..»

واستأنفت الجموع سيرها وهي تركل الأرض بخطى موزونة ، وارتفع ثانية نشيد جديد حازم النبرات ساحر ، ورنم ثيو بصوته العذب المدوي :

— «ولقد وهبتمونا كل شيء» .

وردد الرفاق وراءه في جوقة : وهبتمونا الحرية .

وصرخ احدهم بجث : اوه ، اوه ، لقد بدأتم تنشدون نشيد الموتى يا ابناء الكلاب ؟

ودوت صيحة مسعورة : اقتلوه ، اقتلوه ..

وشدت الأم بيديها على صدرها ، وتلفتت فيما حولها ، فرأت الحشد الذي كان يلا الشارع بكتلته المتراسة ، يستمر في مكانه حائراً ، ويتطلع الى حمة العلم الذين انفصلوا عنه .

وكانت بضع عشرات من الرجال فقط تسير وراء هؤلاء ، وعند كل خطوة يخطونها الى الامام ينفصل عنهم واحد ، فيقفز الى الرصيف كما لو كان بلاط الشارع يتأجج ناراً يحرق لظاها النعال .

وبشر التشديد على شقي ثيو :

— والطفيان سينهار .

ورددت وراءه جوقة الاصوات القوية الواثقة المتوعدة :

— وسينهب الشعب .

ومن خلال أنغام النشيد ارتفعت كلمات باردة :

— تحت إمركي .

ثم جلجلت صيحة وحشية : شرعوا الحراب .

ورسمت الحراب في الفضاء خطاً محدودياً ، ثم تكفت ، وامتدت بانجهاه البلم هازئة متعدي .

— الى الامام سر .

وقال الرجل الاعور وهو يديس يديه في جيوبه :

— ها هم الأولاد قد زحفوا .

ثم ابتعد بخطى سريعة ، وكانت الأم ترو جامدة العينين .

وثارت الموجة الغبراء ، موجة الجند قلاً عرض الشارع ، واندفعت الى الامام بحركة آلية رتيبة ، وهي تدفع امامها مشطاً تتناثر فيه اسنان الفولاذ اللامعة .

ويخطى سريعة اقتربت الأم من ابنها ، فرأت اندريه يتقدم ليقف امامه ويحميه بقامته المديدة .

وصاح بول بصوت خشن النبرة :

— عد الى جانبي يا رفيق .

وكان اندريه ينشد شامخ الرأس ، وهو يشبك يديه وراء ظهره ، ولكن بول دفعه من كتفه وصاح به ثانية :

— عد الى جانبي فلا يجوز ان تتقدمني ، لأن العلم يجب ان يكون في الطليعة .

وبصوت شرس صرخ ضابط صغير فافه ، وهو يهز سيفه المسلول ..

— تق... تق... ق... وا .

وكان يشي رافعاً رجله الى اعلى ، ودون ان يثني ركبتيه ، ويخطو فيمس الأرض بشكل مستقر . واستلفت بريق جزمته نظر الأم .

والى جانبه كان يدب بثقل رجل حليق الوجه ، مديد القامة ، كفيف الشاوبين اغبرهما ، يرتدي مطفأ رمادي اللون ، يبطنه قماش أحمر ، وتزين بظلاله اللواسع الرجلين شرائط صفراء ، وكانت يدها ، كالبيوروسي ، وراء ظهره ، وحليباه الكشيفان الاغبران مرتفعين ، وكان يرفو الى يول .

وكان بصير الأم يتد ، وفي صدرها تتجمد صرخة ، تظل على وشك الانفجار والانتقالات مع كل زفرة ، وكانت هذه الصرخة تخنقها ، ولكنها كانت تنسكها فتشد صدرها بكتلتها يديها : وكانت تترنح وهي تدفع من كل جانب ، فلا تقف بل تستمر في تقدمها دونما تفكير أو وعي ، وكانت تشعر ان عده الناس وراءها يتضاءل بلا انقطاع ، وان الموجة الجليدية تتقدم للقائهم وبمئة صفوفهم .

وكان الشبان حمة العلم الاحمر ، والسلسلة الكشيفة من الرجال الغبر يتدانون باستمرار ، وكان من الممكن تبين وجوه الجند بوضوح ، هذه الوجوه التي كانت كأنها تتسع فتسد الشارع كله ، وتنبسط مسوخة على شكل شريط ضيق من الصفرة القدرة ، ثبتت فيه ، ودونما ترتيب ، عيون مختلفة الالوان ، والتمعت من خلاله رؤوس الحراب الدقيقة بالقر وحشي .

وكانت هذه الحراب المسددة الى الصدور تبعثر الحشد قبل ان تمسه وتفتته
واحداً بعد واحد ..

وسمعت الأم وراءها خطى أولئك الذين كانوا يولون الادبار هارين ، وتعال
اصوات كثيفة مخنوقة :

— ايها الشباب تفرقوا .

— انج بنفسك يا فلاسوف .

— الى الورا يا بول .

وقال فيسوشي كوف متجهماً الاساير :

— ألق اليّ بالعلم يا بول ، اعطنيهِ لأخبئه .

وامسك بالسارية وشد العلم الى الورا ؛ ولكن بول صاح به :

— دعه .

وسحب نيقولا يده كأن جرة لذعتها ، وكان النشيد قد خفت وانطفأ ،
فتوقف الشبان واحاطوا ببول كسلسلة كثيفة ، ولكنه استطاع ان يخرق الحصار .

وفجأة ، خيم الصمت ، كأن سحابة شفاقة لا منظورة هبطت فغطت المتظاهرين .

وتحت العلم كان يقف بصمود نحو من عشرين رجلاً لا اكثر ، وقد تاور

الأم الجزع عليهم واحست برغبة غامضة في ان تقول لهم شيئاً ما .

وارتفع صوت رتيب هو صوت المعجوز الفارع القامة :

— يا ملازم . آتني به .. هذا الشيء .

ومد يده يستير الى العلم .

وهرول الضابط الصغير نحو بول ، وأمسك بسارية العلم وصاح بصوت نفّاذ :

— اتركه .

واجابه بول بصوت قوي : انزل يديك .

ورف العلم في الفضاء أحمر قانياً ، وخرجت ذات اليمين وذات الشمال ثم لم يلبث

ان انتصب شاخاً من جديد ، وارتد الضابط الصغير الى الورا ، ووقع أرضاً .

ومر فيسوشي كوف أمام الأم بسرعة لم تستطع معها أن تميزه ، مر ممدود

الساعد ، مشدود القبضة .

وزجر المعجوز وهو يرفس الأرض بقدميه :

— أوقفوهم .

واندفع بعض الجنود ، وهز أحدهم عقب بندقيته ، فخفق العلم مرتعشاً ، ثم

نكس ، واختفى في زحمة الحشد الأخير ، حشد الجنود .

وتعال صيحة أمي وأطلقت الأم صرخة بل زارة ، ولكن صوت بول

الداوي ارتفع من بين الجند : الى اللقاء يا اماء ، الى اللقاء ايها الأم الغالية .

وملأت هاتان الفكرتان قلبها : إنه ما زال حياً .. إنه يفكر بي .

وتناولت على رؤوس قدميها ملوحة بيديها ، جاهدة في ان تراهما ، غير انها

لم تح ، فوق رؤوس الجند ، إلا وجه أندريه المستدير ، فأبتسمت له وحيته

وصاحت :

— يا ولدي الحبيبين ، أندريه ، بول .

— الى اللقاء ايها الرقاق .

وردت عليها اصدااء متعددة ممزقة ... كانت تنتهي الى ممعها من النوافذ

وسطوح المنازل .

— ٢٩ —

وارتطم احداهم بصدرها ؛ ومن خلال الضباب الذي كان يغشي عينيها ، رأت

الضابط الصغير ينتصب أمامها محتقن الوجه ، ويصرخ في وجهها :

— تنحني أيها الشمطاء .

وانزلق بصرها نحوه ، فأبصرت سارية العلم محطمة ، عند قدميه ، ومزقة من

القماش الاحمر ما تزال معلقة بأحد جزئها ، فأحنحت والتقطتها ، ولكن الضابط

الصغير ، انتزعها من يدها ، ورمى بها جانباً ، وهو يرفس الأرض بقدمه صائحاً :

— قلت لك ، أغربي من وجهي .

ومن بين الجنود تقجر النشيد ، وهمت نبراته :

— ٢١١ —

— ٢١٠ —

— أيها المذبذبون في الأرض هبوا .
واضطرب كل شيء كأنما لفته رعدة ودوار ، وملاً الفضاء طنين كطين
اسلاك البرق ، فقفر الضابط ونبح بضراوة :

— اسكتهم يا رقيب كرينوف .
واقتربت الأم وهي تترنح ، فالتقطت ثانية ، حطام السارية التي قدفها الضابط :
— أخرسهم يا كرينوف .

وعام الفئيد ، واخذ يتناهى الى الامام متقطعاً ، ممزقاً ... ثم انطلقاً .
وأمسك احد الجنود بكففي الأم ، وشدها فاستدارت نصف استدارة ، ثم
دفعها من خلف صائحاً : أغربي ، أغربي .

وصاح الضابط يحنوده : هيا ، نظفوا الشارع .
وأبصرت الأم على بعد خطوات منها ، حشداً يتكثف من جديد ، وسمعت
الناس يهيمون ويصفرون ، وكانوا ، وهم ينكفئون ببطء نحو آخر
الشارع ، ينتشرون في الساحات المجاورة .
وصرخ في افئها جندي شاب ذو شارين ، وهفها الى الرصيف عندما
حاذاها قائلاً :

— أغربي أيها الشيطان .
وانطلقت مقوسة الساقين تتوكأ على بقايا السارية ، وتستند بيدها الاخرى ،
كيلا تسقط ، الى الجدران والاسوار .
وكان الناس أمامها يتراكمون ، ووراءها وحولها يندفع الجند صائحين :
— تفرقوا ، تفرقوا .

وتخطاها الجند ، فتوقفت حدير بصرها فيما حولها :
كان عدد من الجنود يتركزون في طرف الشارع على شكل سلسلة متباعدة
الحلقات فيعزلون بذلك قسماً من الساحة كان مقفراً . وفي الأمام ... كانت
الاشباح الرمادية الغبراء تتجه ببطء نحو الجماهير .
وأرادت ان تنكص على عقبيها ، ولكنها ، كانت ، دوناً وعي منها ، تتقدم

باستمرار حتى اذا بلغت زقاقاً ضيقاً ، اقفر من الناس ، اندفعت فيه .
وتوقفت ثانية ، وزفرت بعمق ، ثم أصاحت بسمعها قليلاً ، فتناهت اليها
اصوات تدندن في زاوية من زوايا الزقاق .

وكانت ما تزال تتوكأ على بقايا السارية ، فعادت الى السير وهي تحرك
حاجبيها . وفجأة تندى جبينها ، وارتعشت شفتاها ، وتحركت يدها ، وتفجر
في قلبها لهيب من الكلمات ، تجتمع ، فأجج فيها الرغبة الحارة الطاغية ، في ان تصرخ
بهذه الكلمات عالياً .

وكان الزقاق ينعطف الى اليسار ، حيث ابصرت جماعة تستلفت النظر ،
وكان صوت قوي النبرة يتعالى :

— أيها الفتيان لن نستطيع ان نتحدى الحراب بالطيش !
— رأيتم ؟ لقد مشى الجند فوقهم ، مشوا فوقهم وهم لا يتحركون . ان
فتياتنا الاغرار هؤلاء لا يعرفون الحشية !
— يا له من فتى ... بول فلا سوف ؟
— والبيوروسي ؟

— يدها وراء ظهره ، والبسمة على ثغره . لقد كان البهم ..
وصاحت الأم وهي تشق طريقها بينهم ؟
— يا اصدقائي . ايها القوم الطيبون ...
وأفسحوا لها طريقاً ، ولكن واحداً من بينهم اخذ يضحك :
— انظروا ... إنها تحمل العلم . إنه في يدها .

وارتفع صوت فيه قسوة : إخرس .
وفتحت الأم ذراعيها واسعين :

— بحق يسوع اصفوا الي . إنكم جميعاً منا ، وكلكم من ذوي القلوب الطيبة ،
افتحوا عيونكم وحدقوا دونما خوف فماذا ترون ؟ إن ابتداءنا ، بل دمنا ، يهتزون
في كل مكان من اجل الحقيقة ، من اجل الجميع . إنهم يسرون في طريق الجلجلة
من اجلكم جميعاً ، من اجل صغاركم . إنهم ينشدون النور ، ويهدفون الى حياة

اخرى في ظلال الحقيقة والعدالة . إنهم يبقون الخير للجميع .

وكان قلبها يتمزق وصدرها يضيق ، وحنجرتها جافة عمومة ؛ وفي اعماق اعماقها كانت تولد كلمات حب شامل ، يسع الاشياء كلها والكائنات كلها ، كلمات تحرق فيها وتزدحم على شفتيها وهي تتنامى قوة وسهولة .

وكانت ترى أنهم يصغون اليها جميعاً صامتين ، وتذكر أنهم كانوا يفكرون وهم يتألبون حولها ؛ وكانت تنمو فيها رغبة ، توضحت الآن جيداً في وعيها ، رغبة في ان تدفعهم الى هناك ، نحو ابنها ، نحو اندريه ، نحو اولئك الذين تركوا في ايد الجند ، وخلقوا وحدهم .

واستأنفت كلامها بهدوء وقوة ، وهي تنقل بصرها فوق الوجوه المتجهمة المتربصة :

لقد انطلق ابناؤنا بالعالم نحو الفرحة ، يحسدهم الحب للجميع ، الحب للحقيقة ، حقيقة يسوع . إنهم يحاربون كل ما يستخدمه الاشرار فينا والخذاعون والشرهون من وسائل ليقنوا سجناء ، لينقلوا بالاغلال ، ليسحقوا . من اجل الشعب كله يا اصدقائي يثور شبابنا ، بل دمنا . من اجل العالم بأجمعه ، من اجل العمال جميعاً ينطلقون ، فلا تتخلوا عنهم ولا تنكروا لهم . لا تدعوا ابناءكم يسرون في طريقهم وحدهم . إرأفوا بأنفسكم . ثقوا بقلوب ابنائكم ، فهم يصنعون الحقيقة ، ومن أجلها يموتون . ثقوا بهم .

وخفت صوتها وترنحت خائفة القوى ، وامتدت يدها الى خصرها تسندها . وصاح واحد من بين الجمع ، مقتنع النبرة منفعلاً :

ان صوت الله هو الذي يتكلم ، صوت الله ايها القوم ، فأصغوا اليه .

وصاح آخر مشفقاً : لقد صمتت المسكينة .

انها لم تصمت ... ولكنها تصفنا نحن ، فيا لنا من سفة ... أفهمت ؟

وتهادى فوق الجمع صوت مرتعش حاد النبرة .

أيها المؤمنون .. ماذا فعل ابني متري ... هذه الروح النقية ؟ ... إنه

تبع رفاقه ، رفاقه الاعزاء ...

انها تقول الحق ، فلم نتخلي عن ابنائنا ؟ وأي اذى الحقوه بنا ؟

وقال سيزوف : عودي الى منزلك يا بيلاجي . اذهبي فأنت مرهقة .

وكانت شاحبة الوجه .

وكان هو ايضاً شاحب الوجه ، ترتعش لحيته المشعثة ، وفجأة ، قطب حاجبيه ، وحج الجميع بنظرة قاسية ، ثم انتصب ، وقال بنبرة واضحة :

لقد سحقت إحدى الآلات في المعمل ولدي ماثيو ، انتم تعلمون ذلك ، ولكنه لو كان على قيد الحياة ، لدفعته بنفسه الى صفوفهم ، ولأرسلته ليكون معهم ، ولكنك قلت له :

انطلق انت ايضاً يا ماثيو ، إنها قضية عادلة . انطلق وأد واجبك .

وتوقف عن الكلام ، أما مستمعوه فقد كانوا صامتين متجهمي الملامح ، يسيطر عليهم إحساس عظيم جديد ، لم يعد يرهبهم . ورفع سيزوف ذراعه ، ولوح به ثم أردف :

إن من يخاطبكم رجل مسن . إنكم تعرفوني ، فأنا أعمل هنا منذ تسع وثلاثين عاماً ، وقد انسلخ من عمري في هذا العالم الدنيء ثلاث وخمسون . لقد قبضوا اليوم من جديد على حفيدي ، وهو فتى ذكي انيق كان يسير في الطليعة ، بجانب فلاسوف وراء العلم مباشرة .

ولوح بذراعه ثم انحنى فأمسك بيد الأم :

هذه السيدة قالت الحقيقة .. إن أينساءنا ينشدون العيش الشريف الذي يرتضيه العقل . ولقد تخيلنا نحن عنهم ، أجل ... لقد هربنا ... اذهبي يا بيلاجي .

وقالت بيلاجي وهي تترن الى الجمع بعينها اللغائتين بالدمع :

يا اصدقائي الطيبين . لقد أوجدت الحياة من أجل الأبناء ، والأرض من أجلهم صنعت .

فقاطعها سيزوف وهو يناولها حطام السارية :

خذي هذه العصا يا بيلاجي ، وهيا .

وكانوا يرمقون الأم بألم يمازجه الاحترام ، وتسير هي وقد أحيطت بجو من

التعاطف ، ووشق لها سيزوف - وهو صامت - طريقاً بينهم ، فيفسحون الطريق دون ان تشد عنهم كلمة ، ثم يسرون وراءها على مهل تدفعهم قوة سحرية ، ويتبادلون العبارات القصيرة بهمس .

وعند باب منزلها استدارت نحوهم وهي تنوَّكاً على جذع السارية ، فعينهم وقالت لهم مبتنة : شكراً لكم .

ولتذكرت الفكرة ، الفكرة الجديدة الحبيسة في صدرها فقالت :

- ما كان سيدنا المسيح ليكون لو لم يت الناس في سبيل مجده .

وكان مشيعوها يجدون بها صامتين ، فأنجحت لهم ثانية ، ودخلت منزلها ، ودخل وراءها سيزوف بحني القامة ، وظلوا في مكانهم يتبادلون الرأي ، ثم لم يلبثوا ان تفرقوا ببطء .

القسم الثاني

وعامت ، بقية نهارها ، في ضباب أرقط من الذكريات ، في خضم من الاعياء الثقيل يرهق الجسد والروح معاً ، وكان الظل الأغبر ، ظل الضابط الصغير ، يتراقص أمام عينيها ، ووجه بول البرونزي يتألق ، وعينا أندريه تبتسمان . وكانت تذرع الفرقة بخطاها ، ثم تجلس قرب النافذة ترفو الى الشارع ، ثم تعود الى المشي مقطبة الجبين ، وتطرح عينيها ، على ما حولها مضطربة كأنها تبحث ، وهي فارغة الرأس ، عن شيء لا تدري ما هو .

وشريت ... ولكن الماء لم يطفئ غلتها ، فهي لا تستطيع ان تخمد في صدرها تلك الجذوة المتأججة التي تذيبها ، جذوة القلق والشعور بالمهانة .

لقد انشطر نهارها الى شطرين ، كان للأول منها معنى ومحتوى ، اما الثاني فقد جرد من كل معنى ... فالقراغ البائس يتناهب في وجهها ، والسؤال الذي لا جواب له ينخرها : ماذا ستفعلين الآن ؟

وأقبلت عليها ماريا كورسونوف فتحدثت بانفعال ، وصرخت وبكت ، وهاجت ضاربة الأرض بقدميها ، واقترحت ، وعاهدت على ما لا تدري وهددت من لا تدري ، ولكن الأم ظلت ، رغم ذلك كله ، جامدة . وتعالى صوت ماريا صخاباً :

- أرايت ... ؟ لقد أقلقهم هذا ... لقد ثار العمل ... ثار بكامله . وكانت بيلاجي ترد عليها بهدوء وهي تهز رأسها : « أجل ، أجل ، ويصرفها الجامد يستعيد ما استحال اليه الماضي ، وما انشطر منها ومضى مع بول واندرية . وكانت لا تقوى على البكاء قلبها مهوور لا دمع فيه ، وشقتها أيضاً بإستان ، وقها جاف من اللعاب ... وكانت يدها ترتجفان ، وورعشات خفيفة تجعد ظهرها .

وفي المساء جاء الجند ؟ فاستقبلتهم دونما دهشة او خوف ، دخلوا بضوضاء وملاعهم تنطق بالبهجة والاكتفاء ، وقال لها الضابط الشاحب الوجه مدندناً : - كيف حالك ؟ هذه هي المرة الثالثة التي نلتقي بها ، أليس كذلك ؟ ولاذت بالصمت وهي تسمح بلسانها الجاف شفتيها .

وثرثر الضابط كثيراً بلهجة اعتداد ، وشعرت انه كان يحث لذة كبرى في ان يصغي الى ما يقول ، ولم تكن كلماته تبليغ اذنها ، او تثير فيها الاضطراب ، ولكنها جمدت عند الباب حينما قال لها :

- إنك مجرمة ايته الأم لأنك لم تعلمي ابنك احترام الله ... والقيصر . - أجل ... ان ابناءنا هم قضائنا ، وسيحاكموننا بعدل ، لأننا تخلينا عنهم في هذه الطريق ...

وضرخ الضابط : ماذا تقولين ؟ ارفعي صوتك قليلاً . فرددت الام وهي تزفر : اقول ان قضائنا هم ابناؤنا . وراح الضابط يعظ بصوت سريع حائق ، ولكن إعصار كلامه لم يكن يلامس سمع الأم .

وكانت ماريا كورسونوف قد دُعيت كشاهدة . وكانت تقف الى جانب الأم دون ان تنظر اليها ؛ وكانت اذا ما وجه الضابط اليها سؤالاً انحنت بأفراط واجابت بصوت رتيب :

- لا ادري يا صاحب السعادة . انني امرأة جاهلة اهتم بتجارتي بالقدر الذي يسمح به غيائي . إني لا اعرف شيئاً ابداً .

وينهر الضابط وهو يحرك شاربه : - حسناً ... اخبرني .

فتتحني وتوشوش في اذن بيلاجي وهي تهز انفها له . وأمرها بتفتيش الأم فحملت به يمينين زائغتين وقالت بلهجة مذعورة : - لا اعرف كيف افتشها يا صاحب السعادة .

فركل الضابط الأرض بقدمه وراح يصرخ ، فأطرقت هي برأسها وقالت

ويشاركه في الانشاد صوت اندريه :

- أيها المعذبون في الارض هبوا .

وكانت تعبر امام الائمة ، وتروى الى ابنها ، ويدها فوق جبهتها . وكان ظل الفقي يتراءى واضحاً في زرقة السماء الغامقة ، فتعجب لاهل القريته منه ، لأنها كانت حاملاً ، وعلى ذراعيها طفل آخر .

وتابعت طريقها فرأت في الحقول اولاداً يلعبون الكرة . لقد كانوا كثيراً وكانت كرتهم حمراء ، ومد الطفل الذي كانت تحمله ذراعيه نحوهم ، وراح يبكي بعنف ، فألقته ثديها ، ونكصت على عقبيها ، فاذا الهضبة تمور بالجند وقد شرعوا حرايهم في وجهها ، فامرعت تعدو نحو كنيسة تقوم في وسط الحقول ، كنيسة بيضاء خفيفة كأنها إنما صنعت من غمام ، سامقة بلا تساق . وكان هناك مأتم ، والنش أسود كبير مسمر الغطاء ، وكان الكاهن وشماسه يطوفان بالكنيسة وهما يرتديان الملابس البيضاء ويرتقلان :

« وُبعت يسوع من بين الاموات »

وهو الشماس بالمبخرة وحياتها ثم خرج . لقد كان ذا شعر أشقر متألق ، ووجهه طلق الحيا كوجه سامو الوف . ومن أعلى القبة كانت أشعة الشمس تنهمر عريضة كالمناديل ، واطفال على جانبي الجوقة يرتلون بعدوبة :

« وُبعت يسوع من بين الاموات »

وفجأة صاح الكاهن وهو يتوقف في وسط الكنيسة :

- اقبضوا عليهم .

واختفى وجه الكهنوتي ، ونبت في وجهه شاربان رهيبان وخطهما الشيب ، فولى الجميع الادبار ، حتى الشماس الذي رعى المبخرة في احدى الزوايا واحتضن رأسه بيديه كما يفعل البيورومي ، وألقت الأم طفلها تحت اقدام المؤمنين ، ولكنهم كانوا يتحاشون ان يطاؤوه وهم يتراكمون ، وكانوا يلقون على الجسد الصغير العاري نظرات مذعورة ، في حين كانت تركع وتتوسل اليهم :

- لا تتركوا الطفل ... خذوه معكم .

للأم بهدوء :

- إذا فكي ازرارك يا بيلاجي .

وقفتها ، وتحسست ثيابها ، وتساعد الدم الى وجهها فهمست :

- يا لهم من كلاب .. اليس كذلك ؟!

وصاح الضابط بمجدة ، وهو يحدق حيث كانت يدها :

- بماذا تهسين ؟

فصغمت يجزع : إنها قضية نسائية يا صاحب السعادة .

وعندما امر الأم بتوقيع الحضر رسمت بيد غير حاذقة ، وبخط مطبعي

أحرفاً ضخمة واضحة : « بيلاجي فلاسوف ، ارملة عامل . »

فصاح بها ، وعلى فمه ملامح الازدراء :

- ماذا كتبت ؟ ولماذا ؟

ثم غغم : وحوش .

وانصرف الجند ، فجلست امام النافذة ويدها فوق صدرها ، وعيناها مسمرتان على الاشياء ، ولبثت في مكانها هذا زمناً طويلاً وقد شال حاجبها وانطبقت شفتاها . لقد كانت تشد فكها كما لو كانت تشكو ألماً شديداً في أسنانها ، ولم يكن في المصباح زيت ، فراح يجبو محسراً ، فنهضت اليه ونفخت ذبالته ، وغرقت في الظلام .

وملاً صدرها ، كالسحابة القائمة ، تلبد مغموماً ضيق عليها انفاسها ، وظلت على هذه الحال ، حتى دب الأعياء في ساقها وعينها .

وسمعت مارياً تنادها وهي تحت النافذة بصوت مخمور :

- اتنامين يا بيلاجي ؟ نامي يا شهيدتي المسكينة .

وتمددت فوق سريرها دون ان تنفض عنها ثيابها ، وسرعان ما غرقت في سبات عميق كأنما قد لفها أعصار .

ورأت في المنام هضبة للرمل الصفراء ، على طريق المدينة ، عبر المستنقع ، وفي اعلى المنحدر الذي يؤدي الى حقائر الرمل كان يقف بول ، وينشد بتؤدة ،

وينشد البيورومي باسماء ويداه وراء ظهره :

« وبعث يسوع من بين الاموات »

وتنحي هي فتلتقط الطفل ، وتضعه في عربة من خشب ، ويسير نيقولا الى جانبها ببطء ويقول ضاحكاً :

— لقد كنتُ بعمل شاق .

وكان الشارع موحلاً ، والناس يطلون من النوافذ فيصفرون ويصرخون ويؤشرون ، والنهار يبدو صافياً ، وشمس ملتبهية تتأرجح في السماء ، ولم يكن هناك اي ظل ... وكان البيورومي يقول :

— غنيّ أيتها الأم الصغيرة ، فهذه هي الحياة .

وكان هو يغني فيطفي صوته على كل ضجيج ، وكانت هي تسير في اثره ، فزلت بها القدم ، فجأة ، وهوت إلى حفرة لا قرار لها ؛ وكانت هذه الهوة تعوي كلما اقتربت منها .

وأفاقت من حلمها تزلزلها رجفة ، كأن يداً ثقيلة غليظة قد اطبقت على قلبها فعصرته بتؤدة في لعبة قاسية . وكانت صافرة العمل تزعق باصرار ، فعرفت انها كانت تزعق زعقتها الثانية . وكانت الكتب في غرفتها تتوي متناثرة بشكل فوضوي ؛ وكل شيء مبعثراً مكدياً ، وارض الغرفة متسخة من اقدام الجنود .

ونفضت تعيد الى الغرفة نظامها دون ان تستحم او تؤذي صلاتها ، فوقعت عينها في المطبخ على سارية العلم والمزقة الحمراء من القماش القطني ، فتناولتها بحنق ، وهمت بأن تطرحها تحت الموقد ، ولكنها انتزعت المزقة الباقية من العلم ، وانتزعها زافرة وطوتها بعناية ، ثم دسها في جيبها ؛ وحطمت بقايا السارية على ركبتها ، والقت نثارها في صندوق الخطب ؛ وغسلت بعد ذلك النافذة وارض الغرفة بماء دافق ، واشعلت النار لاعداد الشاي ، ثم ارتدت ثيابها وجلست في المطبخ امام النافذة ، ومثل امامها من جديد ، سؤال السهرة بالامس :

— والآن ... ماذا افعل ؟

وتذكرت انها لم تصلي بعد ، فلبثت منتصبه امام الايقونات بضع لحظات ثم

جلست وقلبها مليء بالفراغ .

وفي الخارج كان يخيم هدوء غريب كأن الناس الذين امرفوا عند العشية في الصراخ بالشوارع يحتشون الآن في منازلهم ، ويفكرون بصمت في نهارهم العجيب . وتذكرت فجأة منظرأ كانت قد شاهدته في أحد أيام طفولتها :

ففي الحديقة القديمة التي يملكها آل زاوو سايلوف كانت تمتد بحيرة تقطعها أزهار النيوافر . وصدف ان مرت هي من هناك في يوم ربيعي أغبش ، فأبصرت في وسط البحيرة زورقاً . وكانت البحيرة هادئة الصفحة مريدة ؛ تشد الزورق الى ماها الأسود بزيئته الكثيرة من الاوراق المصفرة . وكانت دفقة من أسى عميق وحزن مجبول تثال منه ، من هذا الزورق الذي لا مجاديف له ولا مجدف ، والذي تسمّر فوق الماء الكثيف بين الاوراق الميتة .

واطالت بيلاجي الوقوف هنا ، وكانت تتساءل عن استطاع ان يقذف الزورق بعيداً عن الضفة ، وعن الغاية من ذلك .

وفي مساء ذلك اليوم شاع بأن زوجة وكيل القصر قد غرقت في البحيرة وهي سيدة صغيرة ذات مشية متمجلة وشعر فاحم دائم التشمع .

... وفركت الأم عينها ؛ وانزلت الى ذهنها ذكرى احداث العشية واجتاحت هذه الاحداث تفكيرها ، فجمدت طويلاً في مقعدها ، وعيناها مثبتتان على قذح الشاي الذي كان قد برد ، وفي داخلها تضطرم الرغبة في ان ترى انساناً ساذجاً وذكياً ، وان تسأله كثيراً من الأمور .

وكان نيقولا ايفانوفيتش الذي جاء بعد الظهيرة ، إنما جاء ليحقق لها أمنيتها . ولكنها ما كادت تراه حتى قلقت الكأبة بفتة ، ودون ان ترد تحيته قالت له بصوت خفيض :

— لقد اخطأت يا عزيزي بمجيئك الى هنا . إنه تهور منك ، فسيتقلونك حتماً إذا ما رأوك .

وشد على يدها بقوة ، وركز نظارتيه جيداً ثم قال لها بكلمات قليلة عجلية وهو يذني وجهه من وجهها :

- لقد اتفقنا ، بول واندريه وأنا ، ان آتي في الغد ، إذا ما أوقفنا ، لأهيم
لك الإقامة في المدينة .

وكان يتكلم بصوت وهود مشتت ، ولكنه لم يلبث ان عاد فساء لها :

- هل جاؤوا للتفتيش ؟

- اجل ، وبجثوا في كل مكان وفتشوني . هؤلاء القوم لا حياء عندم
ولا ضمير .

وقال نيقولا وهو يهز كتفيه :

- ولماذا يكون عندم حياء او ضمير ؟

ثم اخذ يشرح لها الاسباب التي لمن اجلها يجب ان تنتقل الى المدينة . وكانت
هي تصغي بمودة الى صوته المغمم بالتوسل ، وترنو اليه وعلى ثغرها ابتسامة باهتة .
صحيح . إنها لم تكن تفهم جيداً حاجته ، ولكن ما كان يدهشها هو تلك الثقة
التي يوحى بها الى نفسها .

- عندما يريد بول ، وإذا لم يكن في ذلك إزعاج لك .

- لا تقلقي لذلك ، فأنا أعيش وحدي ، وليس هناك إلا شقيقي التي لا تأتي
إلا لماماً .

- ولكنني أريد ان اكسب عيشي ؟

- سيها لك عمل إذا شئت .

وكانت فكرة العمل ، مرتبطة بالنسبة لها ، ارتباطاً وثيقاً لا انفصام له بنوع
النشاط الذي يبيده ابنها واندريه ورفاقها ، فاقتربت من نيقولا وسألته وهي
تحقق في عينيه .

- هل سيها لي عمل ؟

- ان مشاغلي المنزلية ضئيلة فهي مشاغل أعزب .

- لست اقصد هذا النوع من العمل .

ثم أطلقت زفرة تأثر لأنه لم يفهمها ، أما هو فقد ابتسمت عيناه الحسرتان
وقال حالماً :

- حبذا لو استطعت ان تحصلي من بول ، عندما تقابلينه ، على عنوان اولئك
المزارعين الذين طلبوا جريدة .

وصاحت بفرح :

- إني اعرفهم ، وسأعثر عليهم ، وسأعمل كل ما تكلفوني به . من سيفكر

أني أنقل تشرات ممنوعة ؟ ... الله وحده يعلم كم حلت منها الى العمل .

واشتهت ان تنطلق ، لا تدري الى أين ، عبر المسالك الواسعة والغابات

والقرى ، وجراها في كتفها ، وعصاها في يمينها ، ثم قالت .

- أوتسل إليك أيها الصديق العزيز ان تكلفوني بهذه المهمة ، فسأنتقل أنتي

تشارون ، وسأهتدي الى الطريق في المقاطعات كلها . سأمشي دون ملل صيفاً

وشتاءً الى ان الاقي حتفي كحاج في طريقه الى كعبته . أليس مثل هذا المصير

شيئاً احسد عليه ؟

... ولفتها سحابة من الغم عندما تخيلت نفسها دون منزل ، شريدة تطلب

الصدقة باسم يسوع تحت نوافذ الأكواخ الخشبية .

وتناول نيقولا يدها بلطف وداعبها بأامله الحارة ثم قال وهو يتطلع

الى ساعته :

- سنتحدث عن هذا فيما بعد ،

- يا صديقي الطيب إن أبناءنا الذين يحتلون في قلوبنا المقام الأعلى يضحون

بحريتهم وحياتهم : إنهم يقضون محبهم دون ان يتحسروا على أنفسهم فهل

أقواني أنا كأهم ، هل أقواني عن عمل مها كان ؟

وشحب وجه نيقولا ، وقال همساً وهو يرنو إليها باهتمام وملاطفة :

- هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلاماً من هذا النوع .

ورددت وهي تهز رأسها بأسى :

- ماذا أستطيع أن أقول ؟

ثم أرخت ذراعها في حركة إعياء وأردفت :

- ليت لي الألفاظ التي أستطيع ان اعبر بها عما في قلبي كأهم .

ونهضت مدفوعة بقوة كانت تتنامى في صدرها ، وتسكرها بفيض من القول الخائق :

- هناك كثير من الناس سييكون ؛ حتى اللثام ، حتى الكائنات التي لا ضمير لها .
ونهض نيقولا بدوره ، ونظر الى ساعته ثانية :
- لقد قضي الأمر ... ستأتين للإقامة معي .
وهزت رأسها بسكون .

- متى ؟ في اقرب وقت ممكن .
ثم أضاف برقة : في الحقيقة ، سأكون قلقاً من اجلك .

ورمقته بدهشة وتساءلت : اية خدمة يطمع في ان تؤديها له ؟ .. وكان هو يقف امامها مطأطئ الرأس محدودباً حاسر البصر ، وعلى شفثيه بسمه ارتباك ؛ وكان يرتدي سترة سوداء متواضعة ، ويبدو كل ما يرتديه مستعاراً .
وسألها بحين :

- هل معك دراهم ؟
- كلا .

وأخرج محفظته من جيبه بسرعة ، وفتحتها ثم قدمها إليها :

- خذي ، إذا شئت .
وارتسمت على شفثيها ابتسامة طاغية وقالت :

- لقد تغير كل شيء ولم يعد للمال قيمة في نظركم . إن الكثيرين يزهقون ارواحهم في سبيله اما انتم فأنتم فأنتم بالنسبة لكم شيء غير ذي بال ، ويقال انكم لا تحتفظون به إلا لتساعدوا الآخرين ...
وضحك نيقولا بهدوء :

- ياله من هنة كثيرة الإزعاج ، مثيرة للاشمئزاز ، احتواؤها بضايقتي ، وبذلها كذلك .

ثم اخذ يدها وضغطها بقسوة وردد :
- ستأتين في اقرب وقت ممكن .. أليس كذلك ؟

ومضى يهدوء كمادته ، وفكرت وهي تشيعه :

- إنه رجل شديد الطيبة ... ولكنه لم يشفق علينا .

ولم تستطع ان تميز ما إذا كان ذلك باعثاً على اشمئزازها ... ام انها لم تحس به إلا لفرط دهشتها ؟

- ٢ -

.. ورحلت في اليوم الرابع بعد زيارة نيقولا ، وعندما خرجت العربة التي كانت تحملها وحقيبتها ، عندما خرجت من الضاحية الى رحابة الريف ، تلفتت ، وأحست فجأة انها كانت تهجر الى الأبد هذه الربوع حيث تصرمت أقتم فترة من حياتها وأحفلها بالألم ، وأن حياة اخرى قد بدأت ، وعهداً مليئاً بأحزان جديدة قد بدأ يلتهم الأيام بسرعة .

وكمئكبوت ضخم غامق الحمرة كان العمل ينشلق على الأرض التي سودها الهباب ، شاعخاً بمداخنه نحو السماء ، ومن حوله كانت تزدهم المنازل العمالية الصغيرة ذات الطبقة الواحدة .

لقد كانت هذه المنازل كمداء مستطيلة ، تنتشر متكاثفة على ضفة المستنقع ، ويرنو بعضها الى بعض بأشفاق عبر النوافذ الصغيرة الباهتة : وفوقها كانت تنتصب الكنيسة حمراء غامقة اللون كالعمل تماماً ، إلا ان قبة جرسها كانت دون مداخنه علواً .

وزفرت الأم ، وحلت قبة قميصها التي كانت تضغط على عنقها ، ودندن سائق العربة وهو يلسع بالأعنة ظهر الجواد :

- هيا ... تقدم .

وكان هذا السائق أعوج الساقين نادر الشعر ناصله ، لا يمكن تحديد عمره ، وليس لمعنيه أي لون ؛ وكان يسير وهو يلحج الى جانب العربة ، فيخيل لمن يراه ان هدف الرحلة لم يكن ليعنيه في شيء أبداً .

- هيا .

وكان يلفظها بصوت ابيض ، وهو يطم ، بشكل مضحك ، ساقيه المعقوفين اللذين ينتعلان حذاءين ثقلين تغطيها طبقة من الوحل الجاف . . ألفت الأم نظرة خاطفة على ما حولها ، فإذا الحقول خاوية كنفسها .

وكان الجواد يحرك رأسه بشكل محزن ، وهو يغرز حوافره بتناقل في الرمل الكثيف الذي ألهبته الشمس والذي كان يصرخ ، وكانت العربية المخلمة السيئة التشجيم تصر ، وكانت هذه الضوضاء كلها تثور مع الغبار وراء السيدة المسافرة . وفي طرف المدينة ، في شارع مقفر بالقرب من سرداق اخضر كان يقولان ايضا نوفيثس يقيم في منزل مؤلف من طابقين : منزل كالح عتيق مشرف على الأنهار . وكانت تنبسط امام هذا المنزل حديقة صغيرة ظليلة ، وكانت اغصان الليلك والطلح وأوراق الحور الطرية الفضية ، تلقي نظراتها الخنون من نوافذ الحجرات الثلاث لهذا المسكن .

وكانت الحجرات صامتة نظيفة ، والظلال المسننة تتراقص خرساء على الأرض ، وعلى الجدران كانت تمتد رفوف مثقلة بالكتب ، تحت صور لشخصيات قانية الملامح .

وسأل نيقولا الأم : أيطيب لك المقام هنا ؟

سألتها ذلك ، وهو يقودها الى غرفة صغيرة ، تطل إحدى نوافذها على الحديقة وتطل للثانية على الساحة حيث يتنامى العشب خصباً ، وكانت جدران هذه الغرفة ايضاً مليئة بالمرايا والرفوف المثقلة بالكتب .

وقالت الأم : يعجبني المطبخ اكثر فهو نظيف ومشرق !

وبدأ لها كأن نيقولا يتخوف من شيء ما ، ولكنه عندما حاول ، بإرتباك ، ان يصرف اهتمامها عن المطبخ ونجح في ذلك ، استعاد مزجه فجأة . وكان يشيع في الحجرات الثلاث جو خاص يشعر المرء معه بأنه يستنشق هواء خفيفاً عذبا ، ولكن الصوت فيه يتضاءل ويخفت بصورة لا إرادية ، فلا تراودك الرغبة في ان تتحدث عالياً ، أو ان تعكر صفو التأمل . تأمل الشخصيات التي ترمقك من اعلى الجدران وهي منقبضة الملامح . وقالت الأم بعد أن نجست تراب الأصص في النوافذ :

— يجب ان تسقى هذه الأزهار .

ورد رب المنزل ، وفي ملاحه سياء المذنب :

— أجل ، أجل . أنت تعلمين إني احب الأزهار ، ولكن ليس لدي متسع

من الوقت للاهتمام بها .

ولاحظت بيلاجي ان نيقولا كان يسير حتى في منزله الرغيد ، بجذرو شرود ، كأنه غريب عن كل ما يحيط به ، وكان وهو يركز نظارتيه بأنامل يده اليمنى الدقيقة ، يدي وجهه من الأشياء التي يراها ، ويرنو اليها بطرف عينه ، ثم يحمد بصره ، في استنطاق اخرس ، على ما كان يثير اهتمامه منها .

وكان أحياناً يأخذ هذا الشيء بين يديه ويدنيه من وجهه ويتحسس بعينيه في عناية ، حتى ليخيل لمن يراه انه يدخل منزله لأول مرة كالألم ؛ وأن كل ما في الحجرة غريب عنه ؛ وأنه مثلها ، لم يتعوده من قبل ، وكانت هي تسير وراءه محاولة ان تحدد في ذهنها مكان كل شيء ؛ وتسأله عن اسلوب حياته فيجيبها بلهجة رجل لن يلتصم الغفران لأنه لم يتصرف كما يجب ان يتصرف ، بل لأنه لا يعرف ان يتصرف خلاف ذلك .

وسقت الأزاهير وجعت دفاتر الموسيقى التي كانت مبعثرة على البانفو ، جمعتها في ترتيب بديع ، ثم تطلعت الى ابريق الشاي وقالت :

— ينبغي ان انظفه .

ومسح بيده المعدن الباهت ، ثم تفحصه بتعال وهو يدنيه من انفه ، أما الأم فقد كانت تبتسم ابتسامة سماح .

وعندما اضطجعت واستعرضت نهارها رفعت رأسها عن الوسادة مدعورة . لقد كانت تجد نفسها للمرة الأولى في حياتها تحت سقفاً أجنبي دون ان يضايقها ذلك .

وفكرت في نيقولا بكثير من الاهتمام ، وسيطرت عليها رغبة في ان تفعل كل ما تستطيع لتساعده ، ولتدخل الى حياته قليلاً من دفء العاطفة . وكانت شديدة التأثر ببساطة مضيفها ، وسوء تديره المضحك ، وبعده عن كل ما هو تنظيم

علي ، كما كانت شديدة التأثر بعينيه الصافيتين المعبرتين اللتين تترج فيها الطفولة والأثران معاً ، ثم وثب تفكيرها الى ابنها ، واستعادت من جديد يوم أول أيار الذي بدا لها ملفعاً بأصداء جديدة ، ومعنى جديد . وكان أسمى هذا النهار ، بنوع خاص كالنهار ذاته لا يحني الهام نحو الأرض كالصفعة التي تنهك المصفوع وترميه بالبله ، بل كان يشحن القلب بألف وخزة ، ويشير فيه غضباً هادئاً يقوم الظهر المقوس .

— لقد خرج أناؤنا الى العالم .

هكذا كانت تفكر ، وهي تصغي الى ضوضاء الحياة الليلية في المدينة ، تلك الضوضاء المختلطة التي تنزل من نافذتها المشرقة ، متلاعبة بأوراق الأشجار في الحديقة . لقد كانت تأتي من بعيد منهكة ضعيفة ، لتموت بهدوء في احضان الحجرة . وفي الغد نهضت مبكرة فنظفت ابريق الشاي ، وأشعلت النار وربت أواني المطبخ دونما ضجيج ، ثم جلست في المطبخ تنتظر ان يستيقظ نيقولا ؛ وسمعت سعاله ، ثم خرج بعد قليل وهو يحمل نظارتيه بأحدى يديه ، ويقف بالثانية خنجرته . وبعد ان رد على تحية الصباح حملت الشاي الى غرفته ، في حين كان هو يغسل وجهه ، فينظاير رذاذ الماء على الارض ، وتندرج صابونته وفرشاة أسنانه وهو يمدم ساطعاً على نفسه .

وخلال الفطور راح نيقولا يقص عليها :

— لقد كنت امارس عملاً حزيناً في المديرية الاقليمية ، فأراقب كيف يسير مزارعوننا الى الدمار .

وابتسم ابتسامة المذنب ثم اودف :

— هؤلاء المساكين الذين انهكهم جوع مزمن ، يحصرهم الموت قبل الأوان . إن اطفالهم يولدون ضعاف البنية ، ويموتون كما يموت البعوض في الحريف . لقد كنا نعرف ذلك ، ونعرف أسباب هذه الكارثة ، ولكن كل ماكنا نفعله ، في الحقيقة ، عندما نتفحص جيداً هذه الأسباب ... ان تقبض رواتبنا . وسألته مقاطعة :

— وما هي مهنتك ؟ هل انت طالب ؟

— كلا .. فأنا معلم مدرسة . ان والدي مدير مصنع في « فيانكا » اما انا فقد أصبحت مدرساً . لقد أخذت اوزع الكتب على القرويين ، فزججت في السجن وبعد خروجي منه عملت مستخدماً في مكتبة ، ولكنني لم اك حذراً اثناء عملي فيها ، فأوقفت ثانية ، وأرسلت الى « آر كانجل » ، وكأنت لي منع الحاكم هناك أيضاً مضايقات ، فأبعدت الى مزرعة على شاطئ البحر الأبيض حيث لبثت خمس سنوات .

وكان صوته يرن هادئاً متزناً في الغرفة المشرقة التي يفرقها نور الشمس . لطالما سمعت الأم قصصاً من هذا النوع ، ولكنها لم تك تدرك لم كان اصدقاء بول يروونها بكثير من الهدوء كما لو كان الأمر يتعلق باحداث محتومة لا يمكن تجنبها . وقال نيقولا : ستصل اليوم شقيقي .

هل هي متزوجة ؟

— إنها أرملة . لقد نفقي زوجها الى سيبيريا ، ولكنه هرب من منفاه ، ومات في الخارج منذ عامين ، مات مصدوراً .

— اهي اصغر منك سناً ؟

— انها تكبرني بست سنوات ، وأنا مدين لها بالكثير . ستسمعين غداً عزفها ، فهذا البيانو ملك لها كالكثير من الموجودات هنا ، اما الكتب فهي لي ...

— وأين تقيم ؟

— وأجاب باسم : في كل مكان . في كل مكان يحتاج الناس فيه الى مخلوقة جريئة ..

— وهل تهتم هي أيضاً بالقضية ؟

— هذا أمر لا ريب فيه .

وانصرف الى مكتبه في حين راحت الأم تفكر في « تلك القضية » التي يساندها الناس يوماً بعد يوم ، بعناد ووعي ، وتشعر هي امامهم كأنها امام جبل في قلب الليل .

وعند الظهيرة أقبلت سيدة رشيقة مديدة القامة ترتدي ثوباً اسوداً وما كادت

الأم تفتح لها الباب حتى ألقت الزائرة الى الأرض بحقيبتها الصغيرة الصفراء ،
وراحت تحتضن بحرارة يد بيلاجي وهي تسألها :
- إنك والدة بول ... أليس كذلك ؟
وأجابت وقد ادهشتها الأناقة في مظهر السيدة :
- أجل .

وقالت السيدة وهي تنزع قبعتها امام المرأة :
- إنك تماماً كما تخيلتك فلقد كتب إليّ اخي بأنك ستأتين للإقامة معه . إنني
وبول صديقان منذ امد بعيد ، وكثيراً ما كان يحدثني عنك .
وكان صوتها أصم ، وكانت تتكلم ببطء ، ولكن حركاتها كانت تفيض حيوية
ونشاطاً ، وكانت تلوح في عينيها الواسعتين بسمة قنية صريحة ، وعلى صدغها انداح
تجاعيد صغيرة ، وفوق اذنيها الدقيقتين تلمع كالفضة خصل من الشعر الأشهب .
وقالت : اني جائئة .. وبودي لو احتسي فنجان قهوة ...
وردت الأم : سأعده لك في الحال .
وفيما كانت تخرج المغلاة من الخزانة سألت بصوت خفيض :
- أصبح ان بول يتحدث عني ؟
- كثيراً ...

وسحبت السيدة علبة من جلد ، فأخذت منها سيجارة اشعلتها ، ثم سألت الأم
وهي تذرع ارض الحجر جثة وذهاباً :
- أ أنت شديدة القلق عليه ؟
... وكانت الأم تبسم وهي تتبع ببصرها لهب المصباح الكحولي الأزرق
الذي كان يتراقص تحت المغلاة ؛ تبسم وقد تلاشى قلقها امام هذه السيدة ، وغار
في اعماق نشوتها .

- إذا فابني الشجاع يتحدث عني ؟

ثم أردفت ببطء :

- إن الأمر ليعير بلا شك ، ولكنه كان من قبل اكثر سوءاً . أما الآن ...

فأعلم بأنه ليس وحده .

وسألت وهي تركز بصرها في وجه الزائرة :

وما هو اسمك ؟

- صوفيا .

وكانت الأم تتأملها بدقة ، فلقد كان فيها شيء من التطرف والجرأة الشديدة
والاندفاع ... وكانت تتكلم بوثوق :

- المهم ، ألا يمكثوا في السجن طويلاً .. إنهم سيحاولون الى المحاكمة سريعاً ،
وعندما يصبح بول في المنفى فإننا سنمهد له السبيل الى الهرب ، لأننا لا نستطيع
أن نعمل هنا بدونه .

وحديث الأم بصوفيا وهي لا تصدق ما تسمع ، في حين كانت هذه تبحث
عن مكان تلقي فيه عقب سيجارتها ، فاهتدت أخيراً الى أصيص أزهار ، طمرته
في ترابه .

- واعترضت الأم بصورة عفوية :

- إنك بذلك تؤذين الأزهار ...

فاعتذرت صوفيا : المعذرة . إن ثيقولا يقول لي ذلك دائماً ...

ثم التقطت عقب السيجارة ، وقذفته من النافذة .

وشعرت الأم بالحرج ، فحدقت في عينيها وقالت لها بلهجة الخاطيء :

- اعذريني ، فلقد قلت ما قلت دونما تفكير . أ من شأني أنا ان اوجه

إليك الملاحظات ؟

فأجابت صوفيا وهي تهز كتفها :

- ولم لا ما دمنا انا شديدة الامل ؟ هل القهوة جاهزة ؟ شكراً . ولكن

لم أعددت قديماً واحداً ... ألن تشربني ؟

وأمسكت الأم من كتفها فجأة ، وجذبتها إليها ، وسألتهما بدهشة وهي

تحدق بها بإمعان :

- هل تشعرين بالضيق ؟

وأجابت بيلاجي باسمه :

- أوجه إليك الملاحظات ... ثم تسأليني هذا السؤال؟

ويدون ان تخفي دهشتها ، استأنفت ، كأنها إنما تخاطب نفسها :

- لقد حلت البارحة في منزلكم ... ومع ذلك فإني اتصرف كما لو كنت في منزلي . لا أخاف شيئاً ... وأقول ما أريد .

- يجب ان يكون الأمر كذلك .

واستطردت الأم :

- لا أدري أين هو مكان رأسي ، ولا أكاد اعرف نفسي . لقد كان عليّ في الماضي ان ادور طويلاً حول الناس ، لأقول لهم شيئاً ما دوناً مواربة ... أما الآن ... فإني افتح صدري في الحال ، وأبوح دفعة واحدة بأشياء لم افكر بها من قبل ...

وأشعلت صوفيا لفافة أخرى ، وكانت عيناها الرماديتان تلقيان على الأم نظرة مشرقة حنوناً .

وطرحت الأم هذا السؤال الذي كان يعذبها :

- أقلت أنك ستعدون العدة لفرار بول ؟ ولكن كيف سيعيش بعد ذلك ؟

وأجابتها صوفيا وهي تصب المزيد من القهوة .

- إنها لعبة صيدانية . سيعيش كما يعيش عشرات الفارين . لقد التقيت بواحد منهم ، وأنا في طريقي الى هنا . إنه رجل نشعر بالحاجة الماسة إليه ، وقد حكم عليه بالنفي خمس سنوات ، ولكنه لم يقض منها هناك سوى ثلاثة اشهر ونصف فقط .

وحذقت بها الأم باسمه ، وقالت بصوت خفيض وهي تهز رأسها :

- آه ... أنه ذلك النهار ، اول أيار ، الذي سبب لي الاضطراب ... فأنا

اشعر اني لست على ما يرام ، كما لو كنت اسلك طريقين مختلفين في آن واحد : ثارة يخيل اليّ اني أدرك كل شيء ، وثارة اجد نفسي فجأة كأني اغرق في الضباب ، فأنت مثلاً حين انظر إليك الآن ، سيدة تنهكين في العمل من اجل القضية ،

إنك تعرفين بول ، وتقديرينه ، واني لاشكرك على ذلك ..

وقاطعتها صوفيا ضاحكة :

- إنك أنت التي تستحقين الشكر .

فأجابت الأم وهي تتنهد :

- ولم ... فأنا لم اعلمه كل هذا ...

ووضعت صوفيا لفافتها في طبق الفنجان ، وهزت رأسها ، فانتثر شعرها

الذهبي فوق كتفها في خصل كثيفة ، وخرجت من الغرفة وهي تقول :

- حسناً .. اعتقد انه قد آن لي ان أخلع ثيابي وأن أنضو عني كل هذه الأبهة.

- ٣ -

... وعاد نيقولا في المساء ، وتناولوا العشاء جميعاً ، وقصت صوفيا خلال

ذلك ضاحكة ، قصة التبريد الذي التفته وخبأته . لقد كانت تخشى الجواسيس ، وترام في كل مكان ، وكان الرفيق الهارب مضحكاً حقاً . ولست الأم في لهجة صوفيا شيئاً يذكرها بتبجح العامل الذي انجز عمله الصعب باتقان ، فملأه السرور لذلك .

وكانت صوفيا ساعته تتردي ثوباً خفيفاً فضفاضاً ، اشبهاً فضي اللون ،

وكانت تبدو به اطول قامه ، كما تبدو عيناها اكثر تجهماً وحرakتها اكثر هدوءاً .

وقال نيقولا بعد العشاء :

- سيكون هناك مهمة جديدة تنتظرك يا صوفيا ؛ فأنت تعلمين اننا قررنا

إصدار صحيفة خاصة بالريف ، ولكننا فقدنا بسبب الاعتقالات الأخيرة ،

الصلة المباشرة ، وليس بمقدور أحد سوى بيلاجي ان يعثر لنا على الشخص

الذي سيتولى مهمة التغلغل في الريف . وعليك أنت يا صوفيا ان ترافقيها ؛

وليكن ذلك في اقرب وقت ممكن .

وقالت صوفيا وهي تمج سيجارتها :

- حسناً ، سوف نذهب .. أليس كذلك يا بيلاجي ؟

— لم لا ؟

هل المكان بعيد ؟

— انه يبعد نحو اربعة وعشرين كيلو متراً تقريباً .

— هذا حسن . والآن اود ان اعزف قليلاً فقل تتحملين سماع قليل من

الموسيقى يا بيلاجي ؟

وأجابت الأم وهي تجلس في زاوية من المقعد :

— لا تسأليني رأيي ، بل تصرفي كأنني لست موجودة .

وكانت تلاحظ ان الاخ وأخته يحاولان — دون ان يظهر عليها انها يعيرانها

اي اهتمام — يحاولان ان يشركاها دائماً في حديثها .

— اسمع يا نيقولا ، هذه المعزوفة لفرييج ... لقد حملتها معي اليوم ...

اقفل النوافذ .

وفتحت دفتر الموسيقى ، ونقرت أنامل يسراها برقة أصابع العاج ، فتحركت
الأوتار في رنين ناعم كثيف ، وانطلقت في بادئ الأمر زفرة عميقة ثم تلاها نغم
آخر غني الرنة ، وتعالّت من تحت أنامل ينها ، في رقة كثيفة ، صرخات
غريبة الشفافية ، ودومت الأنغام الواضحة ، واصطفقت اجنحتها فوق جهامة
الأنغام الخنيفة ، اصطفاق اجنحة العصافير المذعورة .

ولم تحرك هذه الموسيقى الأم ، في بادئ الأمر ، فقد كانت لا ترى في هذا
التتابع النغمي إلا خليطاً من الأصوات المتنافرة ، وكانت اذنها لا تستطيع ان
تحس اللحن المناسب في الذبذبة المعقدة ، ذبذبة ذلك الفيض من الأنغام ، بل
كانت تنرو ، وهي نصف نائمة الى نيقولا الذي كان يجلس على الطرف الآخر من
المقعد الواسع ، وقد طوى ساقيه تحته ، وتأمل وجه صوفيا الصارم ورأسها
الذي تقطيه تنف كثيفة من شعرها الأشقر .

لقد كان خيط دافئ من شعاع الشمس يشعل هذا الرأس ، وينحدر الى
كتفها ، ثم يترامى على العاج ، ويرف تحت أنامل العازفة ، ويغمرها ، وكانت
الموسيقى تملأ الغرفة شيئاً فشيئاً ، وقلب الأم يستيقظ على اللحن دون ان تشعر .

وفجأة استيقظت من اعماق أمسها المظلم ذكرى مهانة كان النسيان قد عفى
عليها منذ امد طويل ، وانبعثت الآن بوضوحها القاسي ؛ ففي ذات ليلة عاد
زوجها في ساعة متأخرة يتعتمعه السكر ، فأمسكها من ذراعها وألقى بها تحت
السرير وهو يركلها برجله قائلاً :

— اغربي من وجهي ابتها الجيفة فلقد سئمتك .

ولكي تنقي ضرباته ، انتزعت طفلها بعنف ، وكان في الثانية من عمره ،
وركعت تحتني بالجسد الضاوي وتجعله مجنّها الوافي . وكان بول يبكي ، وينتفض
جسده العاري الذي ادفأه الرعب ، وكان ميشال يزجر :

— اغربي من وجهي ... اغربي من وجهي .

وتركض نحو المطبخ فتطرح ثوباً على كتفها وتلف الطفل بشال ، ودونما
صراخ او شكوى ، تتطلق في الشارع حافية القدمين .

كان ذلك في ايار ، وجو الليل رطب ، والغبار البارد يلتصق بقدميهما
ويتراكم بين اصابعها ، والطفل يبكي وينتفض ، وتكشف هي عن صدرها ،
وتشد ابنها اليه ، وتسير يطاردها الخوف ، وهي تهدده وتدنن ..

— او .. او .. او .. او ..

... ويقبل النهار ويتملكها الرعب والحجل من ان يراها الناس نصف عارية ،
فتنحدر نحو ضفة المستنقع ، وتجلس على الارض تحت اكمة كثيفة من شجيرات
الحور ، وتمكث هناك طويلاً وقد لفها الليل ، وتسمرت عينها المتسعان على
الظلمات ، وتهدهد طفلها يحزع كسيرة القلب :

— او .. او .. او .. او ..

وفجأة يتحرك فوقها طائر اسود ، يتحرك بصمت ، ثم يطير نحو البعيد ،
فيطرد الكرى من عينها ، فتنهض ، وتجه وهي ترتعد برداً ، نحو المنزل ،
ليستقبلها فيه الرعب الذي تعودت ، والضرب وسيل جديد من الشتائم .

وزفر ، للمرة الأخيرة ، نغم "فاتر" بارد ... ثم خد .

واستدارت صوفيا ، وسألت اخاها بصوت خفيض :

- هل اعجبتك المقطوعة ؟

فأجاب وهو ينتفض كمن أيقظته المفاجأة :

- جداً ... جداً .

وكان صدى الذكريات يضح في صدر الأم ويرتعش ، وكانت هناك فكرة

تألاً خاطرها :

« هؤلاء قوم يعيشون بهدوء وانسجام رائع ، لا يتشاجرون ولا يشعلون

ولا يتخاصمون من أجل لا شيء ؛ كما هو حال الطبقة الدنيا من الشعب » .

وكانت صوفيا تدحن بكثرة وبلا انقطاع تقريباً ، وقالت وهي تعب الدخان

بعمق ، وتعزف من جديد لحناً خفيفاً حزيناً :

- لقد كانت المقطوعة التي عزفتها هي المفضلة لدى « كوستيا » المسكين ، لكم

كنت أحب ان اعزفها له فهو ناعم ، شديد الحساسية ، منفتح الذهن .

وقالت الأم في سرها : « لا شك انها تفكر بزوجها » . ثم ابتسمت .

وتابعت صوفيا بصوت خفيض والألحان الحفيفة تواكب افكارها :

- اية سعادة منحيتها ، ولكم كان يعرف كيف يعيش !

وقال نيقولا وهو يمسد لحيته :

- أجل .. لقد كانت روحه تغني .

وقدفت صوفيا اللقافة التي كانت قد اشعلتها ، واستدارت نحو الأم تسألها :

- هل يضايك عزفي ؟

وأجابت الأم بشيء من الانفعال الذي لم تستطع إخفاؤه :

- لا تسأليني ، فأنا لا أفقه شيئاً مما تعزفين ، ولست هنا إلا لأسمع ،

ولأجتر الخواطر ...

وردت صوفيا : بلى ... يجب ان تفهمها ... فلا يمكن لأمرأة إلا ان

تفهم الموسيقى لا سيما إذا كانت معذبة .

ونقرت الأصابع العاجية بقوة ، فتعالت صرخة مرثان كصرخة من تلقى نبأ

مرمياً أصابه في الصميم . وانتزع من صدره الأنين الموجه ؛ وتنجرت اصوات

أخرى فتيمة مذهورة ثم تبددت سريعاً ، وارتفع من جديد صوت هادر مسعور
طفى على ما عداه ، صوت تسمع حين تسمعه ان سوءاً ما قد نزل ، ولكنه سوء
يثير الحقد ، ولا يثير الشكوى . ثم تبعه صوت آخر قوي حنون راح يتغنى
بأغنية بسيطة حلوة ؛ أغنية جذابة معبرة .

وأفعمت قلب الأم رغبة في ان تقول لمضيفها كلمة طيبة ، وكانت تنبسم

منتشية بالموسيقى ، وتحس انها تستطيع ان تكون بالنسبة إليها شيئاً مفيداً .

وأدارت عينها تفتش عما تستطيع ان تقوم به من عمل . ثم انسلت الى

المطبخ لتعد الشاي ؛ ولكن رغبته في ان تكون « شيئاً مفيداً » لم تتلاش .

وكانت وهي منهمكة في اعداد الشاي ، تتكلم وعلى شفيتها ابتسامة غامضة ،

كأنها تود ان تعزي قلبها بكلمات يفيض منها الحنان الدافئ ، كلمات كانت

توجهها الى نفسها و الى رفيقها .

- إننا نحن ابناء الشعب ، نحس كل شيء ؛ ولكننا نعاني صعوبة في التعبير

عن احساسنا . إننا نخجل لإننا ندرك ، ولكننا لا نستطيع ان نبوح بذلك ؛

وكثيراً ما نشور بسبب هذا الضيق ، ضد افكارنا . إن الحياة نفسها تصفنا وتثخننا

جراحاً من كل جانب ، ونحن نود ان نتمتع بالراحة ، ولكن افكارنا تحرمها علينا ؛

وكان نيقولا يصفي وهو يمسح نظارته ، وكانت صوفيا تنو إليها وعيناها

الكبيرتان مشدوهتان ؛ لقد نسيت لفاقها المتطفنة فلم تشعلها ، وكانت هي لا

تزال امام البيانو ، تتجه إليه بنصف كتلتها ، وكانت تمر بين الفينة والفينة ، اصابع

يماها الطوال الناعمة على اصابع العاج ، فيمزج النغم ، حذراً ، بكلمات الأم

التي كانت تسارع فتكسو مشاعرها كلاماً بسيطاً مخلصاً .

- وما انذا الآن قد بدأت اقوى على الكلام عن نفسي وعن الآخرين مها

كان هذا الكلام تزرأ ؛ لاني بدأت افهم ، ولاني اصبحت قادرة على المقارنة ..

اما قبل الان فلم يكن عندي ما اقرنه . فالناس الذين يعيشون في ظروفنا

يحبون الحياة نفسها ، ولكنني الان ارى كيف يعيش الآخرون فأذكر كيف

وأردفت وهي تخفض من صوتها :
- ربما كنت اقول اشياء ليست كما يجب ان تكون ، وقد لا يكون في ذلك
اي ضير لانكما تعرفان كل شيء .
وكانت الدموع تدس الرعدة في ثبرات صوتها ، وكانت تنز إليهما وفي عينيها
بسمة طيبة .

- ولكنني اود ان اشرع لكما قلبي .. لتريا اني لا أخسر لكما إلا الخير ..
وأجاب نيقولا برقة : إننا نعرف ذلك .
ولم تك بيلاجي بمستطاعة ان تشبع رغبتها في الحديث ، فحدثتها ايضاً عما
كانت تراه جديداً بالنسبة إليها ، وعما كان يبدو لها ذا قيمة لا تقدر ، وراحت
تقص عليها قصة حياتها ، حياة المهانة والعذابات المستسلمة ، تقصها بلا حقد ،
وبسمة الأشفاق تقوِّف شفقتها ، وكانت تستعرض الشريط القاتم لأيامها الحزينة
وتحصي ما تلقته من ضربات زوجها ، متأثرة من تفاهة الأسباب الدافعة الى هذا
الضرب ، دهشة لعجزها عن تفاديه .

وكانا يستمعان إليها بصمت ، يبحثانها تأثر عميق بهذه القصة الساذجة لانسانة
معمولت ، زمناً طويلاً كالحيوان ؛ دون ان تنه عنها اية شكوى ، حتى غلكتها
الإحساس بأنها حقاً كذلك ، وكان يخيل إليها ان آلاف الناس ينطقون في
لسانها . لقد كان كل شيء في وجودها تافهاً بسيطاً ، ولكن هذه التفاهة وتلك
البساطة كانتا الطابع الذي تتميز به حياة عدد لا يحصى من الناس على وجه
الأرض ، ولم يكن لقصتها هي إلا قيمة الرمز .

وكان نيقولا جامداً يسند رأسه براحتيه ، ومرفقه الى الطاولة ، ويرنو الى
الأم من وراء نظارتيه ، بعينين تلمع فيها اليقظة ، اما صوفيا فكانت تستلقي
على متكأ المقعد ، وتبحثها بين الفينة والفينة رعدة ، وتهز رأسها مستنكرة .
وكان وجهها يبدو اكثر نحولاً وأشد اصفراراً ، ولم تكن تدخن .

وقالت صوفيا بصوت خفيض :

- لقد اعتقدت يوماً بأنني شقية ، وخيل اليّ ان حياتي ضرب من الحى ...

وكان ذلك الشعور يقتابني . وانا في المنفى ، في قرية صغيرة بائسة من قري الاقليم
حيث لا عمل يشغلني ولا تفكير لي إلا نفسي . وبوحي البطالة رحت احصي
مصائبي كلها واستعرضها :

لقد كان بني وبين والدي الذي احبه خصام ، وكنت قد طردت من المدرسة ؛
وألحقت بي المهانة ، ثم دقت السجن بعد ذلك والخيانة ، خيانة صديق كان عزيزاً
عليّ ، ثم اوقف زوجي ، ثم دخلت السجن من جديد ونفيت ، ثم لم يلبث ان
قضى زوجي نحبه ، وكنت أحسب عندئذ ان أشقى مخلوق على وجه الارض هو
انا .. غير ان مصائبي كلها ، حتى ولو كانت عشرة اضعافها ، لا توازي شهراً
واحداً من حياتك يا بيلاجي ... إذ أنى للناس القدرة على تحمل ذلك التعذيب
اليومي طوال سنوات مديدة !؟

وتنهدت الأم : انهم يعتادون ذلك .

وقال نيقولا وهو مطرق :

- اعتقد اني خبرت الحياة . لم يحدثني عنها كتاب ، ولا انطباعاتي المتناثرة ،
بل اعرفها وجهاً لوجه . انها رهيبة . بتفاصيلها ، بتفاهاتها .. وحتى بتلك
اللحظات التي تتكون منها الاعوام .

وكان الحديث يتشعب ويمتد ، ويعنف كاشفاً ملامح هذه الدنيا الجاحدة كلها ،
وكانت الأم ، وهي غارقة في الذكريات ، تستخرج من ظلمات امسها ، المخازي
اليومية وترسم اللوحة القاتمة ، لوحة الهول الصامت حيث كان يفرق شبابها .
وثابت اخيراً الى نفسها فقالت :

- أوه .. لقد اثقلت عليكما بثرثري ، وقد آن لكما ان ترحبا ؛ فلن يستطيع
المرء في قليل من الوقت ، ان يروي كل شيء .

واستأذناها بصمت ، ولا حظت ان نيقولا قد انحنى امامها اكثر من المعتاد
وشد على يدها بجمرة اكثر ، ورافقتها صوفيا الى حبرتها ، وقالت لها برقة وهي
على العتبة :

- ارتاحي ... وتصبحين على خير .

وكان صوتها دافئاً ، ونظرتها الدكناء تداعب وجه الأم .
واخذت الأم يد صوفيا في راحتيها واجابت وهي تضغط عليها :
- شكراً لك .

- ٤٤ -

وبعد أيام قليلة رأى نيقولا الأم وصوفيا تظهران وقد ارتدتا أثواباً عتيقة
رثة ، هندية الزبي ، وفي كتف كل منهما كيس ، وفي يدهما عصا ، وكان هذا
الذي يظهر صوفيا أصغر سناً ، ويضفي على وجهها شحوباً وصرامة .

وحين ودع نيقولا شقيقته شد يدها بمجراة ، ورأت الأم مرة أخرى ان
الود القائم بينها تعمس إقامة الدليل عليه ، فلقد كانا لا يفدقان القبل ، ولا
يتبادلان الالفاظ العاطفية ، ومع ذلك فقد كانا شديدي الوفاء ، يهتم أحدهما
بالآخر اهتماماً فائقاً ، اما هناك ، حيث كانت تعيش ، فان الناس يتعاقنون
كثيراً ، ويتبادلون غالباً الكلمات الناعمة الرقيقة ، ولكن ذلك لا يمنهم من ان
يتناهمشوا كالكلاب الجائعة .

وعبرت السيدتان المدينة بصمت ، وبلغتا الريف ، واندفعتا جنباً الى جنب ،
في الطريق الواسع المهد المتد بين صفين من اشجار الحور العتيقة .
وسألت الأم صوفيا : أما آن لك أن تتعي ؟
- انك تفكرين بأني لم اعتد المشي ... انا اعرف ذلك .

وراحت صوفيا تحدث الأم بمرح عن نشاطها الثوري كأنها تباهي بنزوات
طفولتها . لقد كان عليها ان تعيش بأسم مستعار ، وان تستخدم هوية مزورة ،
وان تتنكر لتفقت من رقابة الجواسيس ، ولتحمل الى مدن مختلفة عشرات
الكيلو غرامات من الكتب المنوعة ولتنظم فرار الرفاق من المنفى ، ولتؤمن
لهم اجتياز الحدود .. ولقد كان في مسكنها هناك مطبعة سرية ، وعندما كان
الجند الذين يبلغهم النبأ ، يأتون للتفتيش ، كانت تجدد متسماً من الوقت
لترتدي قبل وصولهم بلحظات ، زي خادمة ، ثم تخرج قبلتقي « بضيقها » عند

مدخل البناية : وتضي في قر الشتاء القاسي تجوب المدينة من اقصاها الى اقصاها ،
يدثرها معطفها ، ويغطي رأسها منديل حريري صغير ، وفي يدها مصباح بترول .
وفي احدى المرات وصلت الى مدينة مجهولة لتحل في ضيافة اصدقاء لها ،
وكانت تتسلق سلم المنزل عندما لاحظت ان تفتيشاً يجري في منزلهم ، ولم يبق
لدها متسع من الوقت لتتكفيء الى الوراء ، فطرفت بشجاعة باب المنزل الذي
تحتة وراحت ، وهي تدخل مع خفيتهما بيت جماعة لا تعرفهم ، راحت تشرح لهم
بصراحة ، حقيقة الأمر وتقول بوثوق :
- انكم تستطيعون تسليمي للبوليس اذا شئتم .. ولكنني اعتقد انكم
لن تفعلوا ذلك ابداً .

ولم يم القوم ليلتئذ فقد ملأهم الرعب ، وكانوا يتوقعون في كل لحظة ان
يُطرق بابهم ، ولكنهم لم يقرروا ابداً تسليمها الى الجند ، بل شاركوها السخريه
منهم في صباح اليوم التالي .

وفي مرة اخرى كانت تستقل ، وهي متكررة في ثياب راهبة ، نفس القطار .
بل انها كانت تجلس في نفس المقعد ، الذي يشغله مراقب أوكل اليه امر القبض
عليها ، وكان يباهي بحذقه وهو يحذرها كيف اعد العدة لاصطيادها ، وكان
واثقاً من وجودها في القطار ، وفي مقاصير الدرجة الثانية ، لذلك كان يخرج
عند كل محطة للتفتيش عنها وعندما يعود يقول لها :

- لم ارها ابداً ؛ لا شك انها نائمة . إنهم يتعبون مثلنا ايضاً لأن حياتهم
قاسية كحياتنا ...

كانت الأم تضحك وهي قصفي الى احاديث صوفيا ، وتزور اليها بعينين بفيض
منها الود ، وكانت صوفيا ، وهي مديدة القامة هزيلة ، تسير بخطى ثابتة رشيقه ،
وفي خطوها حين تخطو ، وفي كلماتها ورنه صوتها الخفيض الجريء ، وفي قوامها
الأهيف كله ، عافية معنوية جميلة ، وجراً طروب . لقد كانت تلقي على كل شيء
تراه نظرة فيها جدة وقوة ، وتقع انتى تلفتت على تفاصيل تثير فيها مرح الصبا .
- انظري ... ما اجل شجرة الشربين هذه ؟

واشارت الى احدى الأشجار فتوقفت الأم ، ترنو اليها . إنها لم تكن تتميز
عن سواها بعلوها ولا بكثافة ظلها ... ومع ذلك فقد وافقت :

- اجل . إنها لشجرة جميلة .

ثم راحت تنظر كيف يعبث الهواء بشعر صوفيا الاشهب المتهدل فوق اذنيها .
- اسمعي .. إنه صوت قبرة .

ولم في عيني صوفيا الرمادين ضياء الحنان ، وبدت كأنها تسبق بكل
كيانها الغناء الصافي ، غناء القبرة الضائعة في السماء المتألقة ؛ وكانت تنحني أحيانا
فتقطف زهرة من ازهار الحقل ، وتداعب بمحبة اوراقها المرتعشة ، تداعبها
بلمسة خفيفة من اصابعها الناعمة اللطيفة ، وهي تدندن باحدى الاغنيات الحلوة .
لقد كان ذلك كله يجتذب الأم الى هذه المرأة المشرقة العينين ، ويدنيهها اليها
فتقترب منها بعفوية ، حتى لتكاد ترحم طريقها ، وهي تحاول ان تنسجم معها حتى
في خطوها . غير ان كلمات صوفيا كانت تنسم أحيانا ، وبصورة مفاجئة بطابع
الحدة والعنف ، فتبدو في نظر الأم هذرا لا طائل تحته ، وتوقظ في ذهنها هذا
الخطر الحزين :

- إنها لن تعجب ميشال !

غير ان صوفيا تعود بعد لحظة الى التحدث ببساطة وصمیمية ، فترنو اليها الأم
بحنو وابتسام وتهمس : إنك ما تزالين شابة ...
وتجيبها صوفيا : أوه ولكنني تجاوزت الثانية والثلاثين .
فتبتسم بيلاجي :

- ليس هذا ما عنيت به ، فإن من يراك يقدر انك تجاوزت هذه السن ، ولكنه
عندما ينظر الى عينيك ويصغي اليك ، تأخذه الدهشة إذ تبتدين له فتاة صغيرة . إن
حياتك مضطربة ، شاقة ، خطيرة ومع ذلك فقلبك دائم الاقرار .

- انا لا اعتبر حياتي شاقة ؛ ولا أستطيع ان اتخيل حياة افضل منها واشد
إمتاعا . سأدعوك منذ الآن بأسم غائلتك فإن اسم بيلاجي لا يلائمك .
وترد الأم مطرقة :

- نادني بما تشائين ، فأنا اراك وأصغي اليك وافكر ، وإنه ليسرني ان اجدك
تعرفني الطريق الى قلوب الناس ، فتفتتح أمامك دونما تردد أو خوف ، وتبدش
النفس بذاتها وتغني للغائك . إني افكر بكم جميعا ، واقول في نفسي : انهم
سيدحرون الشر ، سيدحرونه حتما .
وقالت صوفيا بقوة وثقة :

- سيكون النصر لنا لأننا مع الكادحين . لقد قرر الشعب ، وهو حين يقرر
يحمل كل شيء ممكنا ، وعلينا نحن ان نوقظ وجدانه فقط ، هذا الوجدان الذي
ليس له حرية التطور والنمو .

وكانت هذه الكلمات توقظ في الأم شعورا معقدا . لقد كانت صوفيا تشير
شفقتها ، دون ان تدري لماذا ، ولكن هذه الشفقة كانت وليدة الصداقة لذلك
فهي لا تجرح . وكانت تود ان تسمع منها شيئا آخر ، ان تسمع منها كلمات
اكثر بساطة .

وسألته يهدوء وكآبة :

- من ذا الذي سيكافئك على جهودك ؟

فأجابت صوفيا باللهجة تعبت بالزهو :

- لقد كوفئنا . ربنا حياة تحق لنا الاكتفاء ، حياة نستطيع فيها ان نظهر

قوانا الروحية ... فإذا نبغي اكثر من ذلك ؟

ورمقتها الأم بنظرة خاطفة وطأطأت رأسها ثم راحت تفرق في التفكير من جديد :

- انها لن تعجب ميشال .

وكانت لا تسيّران مسرعين ، بل بخطى واثقة وهما تتنشقان الهواء الرطب
بله رتيقبا ؛ وكانت الأم تشعر كأنها في الطريق الى الحج ؛ وكانت تستعيد
ذكرى طفولتها ، والفرحة التي استبدت بها ، يوم غادرت قريتها بمناسبة احد
الاعياد لتحط الرحال في دير بعيد ، عند ايقونة عجائبية .

وكانت صوفيا تغني أحيانا بصوت غير قوي ولكنه عذب ، اغنيات جديدة
تتحدث عن السماء والحب ، أو تشرع في انشاد بعض الأشعار التي تغني بحقول

الفولغا وغاباته ، وكانت الأم تبسم وتصفي ، وتهز رأسها بحركة لا شعورية
إيقاعية ، تنسجم مع انغام القصائد التي سحرتها موسيقاها .
وكان قلبها يفرق في الدفء والهدوء والحلم ، كمن اكتنفته في إحدى امسيات
الصيف ، حديقة صغيرة عتيقة .

- ٥ -

وفي اليوم الثالث بلغنا إحدى القرى ، فسألت الأم فلاحاً كان يعمل في
أحد الحقول ، سألته عن معمل القار أين يقع ؟ وانحدرنا في ممر ضيق متعرج في
الغمام ، حيث كانت جذور الأشجار بارزة كدرجات السلام ، وافضت بهما الطريق
إلى فسحة صغيرة من الأرض جرداء مستديرة ، مملوءة بالفحم ، وشرائخ الخشب ،
وبقع القار ، وقالت الأم وهي تتفحص المكان بكآبة :
- ها نحن أولاء قد وصلنا .

وبالقرب من كوخ مبني من القصب واغصان الأشجار ، وحول مائدة
مصنوعة من ثلاثة ألواح خشبية غير مصقولة ، قائمة فوق أوتاد مثبتة في الأرض ،
كان يجلس ريبيـن وقد لطخه السواد ، وانحسر قميصه عن صدره ، وكان يجلس
معه أيفيم وشابان آخران ، وكلوا جميعاً يهمون بتناول غذائهم . وكان ريبيـن هو
أول من وقع بصره عليها فراح ينتظر وصولها صامتاً ، ويده تحجب نور الشمس
عن عينيه .

وصاحت الأم من بعيد :

- طاب يومك أيها الصديق ميشال !

فنهض وتقدم رويداً لاستقبالها ، وعندما عرف بيلاجي توقف ، وابتسم ،
وراح يداعب لحيته بأصابعه السوداء .

وقالت الأم وهي تدنو :

- إننا في الطريق إلى الحج ، وقد قالت لي نفسي : لتزره في طريقنا . هذه
هي صديقتي ، إنها تدعى « آنا » .

ورنت بطرف عينها مزهوة ببراعتها ، رنت إلى صوفيا التي كانت صارمة
الوجه قاسية الملامح .

ورد ريبيـن وهو يبتسم ابتسامة كدراء :

- طاب يومك ..

وشد يدما ، ثم حيا صوفيا ، واردف :

- إن الكذب هنا لا يفيد ، فنحن لسنا في المدينة ، ولا حاجة لنا بالكاذب

لان الجميع هنا من جماعتنا .

وكان أيفيم الجالس إلى المائدة يتفحص السيدتين بيقظة ، ثم يوشوش رفاقه .

وعندما اقتربنا نهض وسلم عليها بصمت ، أما رفيقاه الآخران فلبثا في مكانها

لا يتحركان كأنهما لم يفتبها لوجود السيدتين .

وقال ريبيـن وهو يربت على كتف الأم :

- إننا نعيش هنا كالرهبان . لا يأتي لرؤيتنا أحد . إن رب العمل غائب عن

القرية ، وزوجته في المستشفى ، وأنا بمثابة الوكيل . فهاجـلـتـسـم ؟ هل لكما

ببعض القهوة ؟ أأنتما ولان شيئاً من الطعام ؟ آتينا يا أيفيم بشيء من اللبن .

وانطلق أيفيم نحو الكوخ على مهل ، وانزلت المسافرتان متاعهما ، ونهض أحد

الشابين ، وهو طويل هزيل ، ليساعدهما على ذلك ، أما الآخر ، وكان مربوع

القامة ، رث الثياب ، فقد لبث في مكانه يستند مرفقه إلى المائدة ، وينظر إليها

بسهم ، وهو يهرش رأسه ، ويدندن بأغنية .

وكانت رائحة القار الثقيلة تنتزع بتنن الأوراق المتعفنة ، فتملأ الرأس بما

يشبه الدوار .

وقال ريبيـن وهو يشير إلى الشاب المديد القامة :

- هذا هو جاك ...

وأشار إلى الآخر قائلاً :

- وذلك هو أنياس ... حسناً ... كيف حال ابنك ؟

فزفرت الأم :

— إنه في السجن .

وصاح ريبين : مرة أخرى ؟ إن السجن يعجبه على ما اعتقد .

وانقطع أنياس عن الغناء وتناول جاك عكاز الأم وقال :

— استريح .

ووجه ريبين الكلام لصوفيا : وانت أيضاً تفضلي بالجلوس .

وجلس فوق جذع شجرة دون أن تنبس بكلمة ، وراحت تتأمل

محدثها بحذر .

وسأل ريبين وهو يجلس قبالة الأم :

— ومتى قبض عليه ؟

ثم صاح وهو يهز رأسه :

— إنك غير محظوظة يا بيلاجي .

— لا ضير في ذلك .

— إذن ، هل تمودت ذلك ؟

— كلا ، لم أتموده ، ولكنني لا أجد هناك وسيلة أخرى .

وقال ريبين : إنه لكذلك .. حسناً ، قصي عليّ القصة .

واخضر دعاء من اللبن ، وتناول كأساً عن المائدة ، وغسله ، ثم ملأه ،

ووضعه أمام صوفيا ، وهو يصغي بانتباه شديد لما تروييه الأم . لقد كان يتحرك

ويقوم بعمله دوماً ضجيج . وعندما انتهت الأم قصتها ظلوا جميعاً غارقين في

الصمت ، لا يتبادلون حتى النظرات . وكان أنياس يرسم بظفره على خشب

الطاولة ، ويفهم يتكلم على كتف ريبين لأنه كان يقف وراءه ، وكان جاك

للذي يسند ظهره إلى جذع شجرة ، كان يشبك يديه فوق صدره ، ويطلق

برأسه إلى الأرض ، وكانت صوفيا ترقب القرويين بطرف عيناها .

وقال ريبين بلهجة متساحبة حادة :

— إذن ... فهم يتصرفون هكذا ... على المكشوف .

فرد أنيفم ببسمة متجهمة :

— لو أقبنا هنا مثل هذه المظاهرة لضربنا الفلاحون حتى الموت .

وأكد أنياس وهو يهز رأسه :

— أجل ؛ ولذلك فإني سأذهب إلى العمل ، فالحياة هناك أفضل ..

وسأل ريبين :

— هل سيحكمون على بول ؟ ماذا تعتقدن ؟ .. وإذا أدانوه فماذا سيكون

عقابه ؟ هل قيل لك ماذا سيكون عقابه ؟

فأجابت بصوت خفيض :

— السجن .. أو النفي إلى سيبريا .

وتطلع إليها الشبان الثلاثة ، أما ريبين فقد طأطأ رأسه وتابع :

— وهو ... هل كان يعرف ماذا ينتظره عندما أقدم على ذلك العمل ؟

وقالت صوفيا بحزم :

— أجل ... لقد كان يعرف .

وصمت الجميع ، ولبثوا بلا حراك كأن فكرة واحدة سيطرت عليهم

فجمدتهم في امكنتهم .

واستأنف ريبين الكلام بقسوة وإتقان :

— أجل ... وأنا أيضاً اعتقد أنه كان يعرف ، فهو رجل جاد ، ولو لم يقس

عمق الحفرة لما أقدم على القفز : هكذا يكون الفتيان أيها الشبان . إنه فتي كان

يدرك أنهم قد يبعدون الحرية في صدره ، وإن المنفى مهيأ له .. ومع ذلك فقد

مشى . وقد يمر على جثة أمه .. قد يمر على جثتك يا بيلاجي ..

وقالت وهي ترتعد :

— أجل ...

وحذقت في الوجوه حولها ، واطلقت زفرة ، ولكن صوفيا دأبت يدها

بصمت ، ونظرت إلى ريبين ، حذقت في/بناض عينيه مقطبة الحاجب ، وقالت

بصوت خفيض :

— هذا رجل ..

وتفرست عنهاها الكئيبتان بوجوه رفاقه ، فاذا هم جميعاً يلزمون الصمت .
وكانت خيوط الشمس الناعمة تتدلى في الفضاء كشرائط من ذهب ، ومن احدى
الجهات كان غراب يطلق نعيبه اليأس ، وكانت الأم تتلفت حولها ، وتهزها
ذكريات اول ايار ، وحنينها الملتاع لابنها ولأندريه .

وكانت براميل القار الفارغة تجثم في الفسحة الصغيرة الضيقة ، وجذوع الاشجار
تشرئب في جوانبها ، وكانت اشجار الحور والسنديان تكتمل حولها وتتقحم
اطرافها من كل جانب ، وكانت هذه الاشجار التي يجمع بينها الصمت ؛ تلقي
على الارض ظلالاً متجمعة دافئة .

وابتعد جاك فجأة عن الجذع الذي كان يسند اليه ظهره ، وتنحى قليلاً ، ثم
توقف وسأل بصوت قوي جاف ، وهو يهز رأسه :

— أصد أناس كهؤلاء سيرسلوننا ، إذا ما وجدت انا وايقيم ؟

واجابه ريبيـن مقطب الوجه :

.. وضد من تعتقد اذن يا صاح ؟ إنهم يخنقوننا بأيدينا نحن . هذه هي لعبتهم .

وقال ايقيم بعناد :

.. ورغم ذلك فليس هناك ما ينبغي أن اكون جندياً .

وقال له انياس : ومن ذا الذي ينعك ؟ . اذهب .

ثم حذق في عيني ايقيم وقال ضاحكاً :

.. ولكنك عندما تطلق النار عليّ ، صوب رصاصك الى رأسي ، لا تتركني

رجلاً ذا عاهة ... بل اجزه عليّ في الحال .

وصاح ايقيم بخشونة :

— لقد قلت لي ذلك من قبل .

وعاد ريبيـن الى الكلام ، فقال ، وهو ينظر الى الفتيتان ويرفع ذراعه بحركة

بطيئة :

— مهلاً ايها الفتيتان ، وانظروا الى هذه المرأة (واثار الى الأم) ان ابنها

قد قضي عليه بكل تأكيد ..

وسألت الأم بصوت أسيان خفيض :

— ولم تقول ذلك ؟

— يجب ان اقله ، فلا بد ان يكون شعرك قد ابيض لسبب ما . حسناً

هل قتلوها بما فعلوه بابنها ؟ .. بيلاجي .. هل حملت الينا نشرات ؟

فرمقتها الأم بنظرة خاطفة ، واجابت بعد فترة من الصمت :

— اجل ، لقد حملت .

فقال وهو يضرب الطاولة بقبضته :

لقد ادركت ذلك فور ان رأيتك ، إذ لماذا تأتين الى هنا إذا لم يكن

جيتك من اجل ذلك ؟ اترون ؟ لقد انتزعوا الابن من الصفوف فحلت الأم مكانه .

ولوح بقبضته المهددة ، وراح يقذف سيلاً من الشتائم .

وداخل الام رعب ، وهي تنظر اليه فترى ان وجهه قد تغير كثيراً . لقد

اصبح اكثر نحولاً ، واتخذت لحيته شكلاً غير سوي ، شكلاً نفرت معه عظام

وجنتيه . وكانت تظهر في مآقي عينه المزرقاة أوردة حمراء كأنه لم يذق منذ امد

طويل ، طعم الكرى . وكان أنفه عظيماً أعقف كمنقرا الكاسر وكانت قبة قيصه

المفتوحة ، هذا القميص الذي لطخه القار ، فأحال لونه الاحمر الى اسود ، كانت

هذه القبة تنفج عن عظام حنجرتة ، وعن شعر صدره الاسود الكثيف ؛ لقد كان

في جماع منظرة شيء كثير الغموض ، كثير الأسى ، وكان ألقي عينيه المشتعلتين

يؤجج وجهه الكالـح بنار النعمة .

وكانت صوفيا ، وقد اشتد شحوبها ، صامته لا تستطيع ان تحول بصرها

عن الفلاحين ، وكان انياس يهز رأسه مقطب الجبين ، في حين كان جاك وأقفأ

بالقرب من الكوخ ، ينتزع باظافره مسعوراً قشور الاوتاد . اما ايقيم فقد كان

يتنقل بخطى بطيئة وراء الأم .

وتابع ريبيـن :

— بالأمس استدعاني مدير الناحية وسألني : ماذا رويت للكاهن ايها السافل ؟

وقلت له : لم تدعوني بالسافل ، وانا أكـد لأكسب خبزي ، ولم أسيء الى احد .

ولكنه راح يعربد، وصفني بقبضة يده على وجهي، ثم القاني في السجن ثلاثة ايام.
- أهكذا؟ ابمثل هذا الاسلوب مخاطبون الناس؟ لا تنتظر مني سماحاً أبداً
الشیطان. فإذا لم أثار انا بنفسی للالهانة التي الحقها بي، فسيثار لها آخر. وإذا
لم تكن انت هدف هذا الثأر، فسيكونه ابناؤك، تذكر هذا جيداً. لقد حررتهم
احشاء الشعب ببرائتكم، برائن الفولاذ، وغرستموها حقداً، فلا تنتظروا الرحمة
يا من حلت عليكم اللعنة.

وكان ريبين يغلي انفعالاً، وكانت النبرات المرتعشة في صوته تثير عرب الأم.
وتابع كلامه بهدوء:

- وماذا قلت للكاهن؟ لقد كان في الشارع يحدث الفلاحين بعد احد
الاجتماعات؟ ويقول لهم: إن الجمهور قطع، وهو بحاجة ابدأ الى راح. وقلت
انا مازحاً: «اذا نصبتا الثعلب سداً للغاية فسيكون هناك ريش لا طيور»
فنظر اليّ شرراً، وأذن لنفسه بالكلام، فقرر ان على الشعب ان يصبر، وان
يستسلم، وان يصلي لله ليمنحه القدرة على الاحتمال.. اما انا فقد اجبت هكذا:
قلت بأن الشعب قد صلي كثيراً، ولكن الامر الذي لا شك فيه هو انه ليس
لدى الله متسع من الوقت ليسمع.

وسألني: أية صلوات اتلو. فأجبت: بأنني لم اتعلم في حياتي سوى صلاة
واحدة، هي صلاة الشعب بأجمعه: يا إلهي علمني ان أجر القرميد الى القصر،
وأن آكل الحجارة، وان ابصق الاخشاب..

ولم يدعني اكمل.

وتوقف ريبين فجأة ليسأل صوفيا:

- هل انت من النبلاء؟

فأجابته وقد اعترتها رعشة المفاجأة.

- وما الذي جعلك تعتقد ذلك؟

فرد ضاحكاً.

- لان ذلك هو حظك... لقد ولدت هكذا... اتمتعين انه يمكن للمرء

ان يغطي خطية النبل، بمجرد ان يغطي رأسه بوشاح قطني؟ من الممكن يا سيدتي
معرفة الكاهن.. دون ان يكون في قفطانه. لقد وضعت مرفقك على الطاولة
المبللة فانتفضت كالمدعورة، وارتست على وجهك ملامح السخرية.. وفضلاً
عن ذلك، فان ظهرك اكثر استقامة من ظهر اية امرأة.

وخشيت الأم ان يكون في صوته الحشن وسخريته وكلامه ما بين صوفيا
فتدخلت بحدة وقسوة:

- انها صديقتي يا ميثال. انها إنسانة طيبة، لقد شاب شعرها وهي تعمل من
اجل قضيتنا.. فيجب الا..

- هل تلفظت بما بين؟

فمرمته صوفيا وسألته بلهجة جافة: هل تود ان تقول لي شيئاً؟

- أنا؟ أجل، منذ وقت قصير جاء الى هنا فتى آخر، إنه ابن عم لجاك وهو
مريض بالسل.. هل نستطيع ان نرسل في طلبه؟
- أجل.. ادعه.

ونظر اليها ريبين وهو يطوي اجفانه، ثم قال بصوت خافت:

- اذهب يا ايفيم، وادعه، قل له أن يأتي في السهرة.

واعتمر ايفيم قبعته، وتوارى في الغاية بطيء الخطى، ودوت ان يتبس
بكلمة: او ينظر الى احد، وأوماً اليه ريبين بحركة من رأسه ثم قال:

- انه يتغذب. سيجند عما قريب هو وجاك. إن جاك يقول: أنا لا استطيع
ان اكون جندياً. والآخر ايضاً لا يستطيع، ولكنه يرغب في ذلك، فهو
يعتقد انه بالامكان احداث حركة بين الجنود... أما انا فأعتقد انه لا يمكن
لأمرئ ان يخرق الجدار بحجته. إنهم يضعون الحرايب بين ايديهم.. فينطلقون.

نعم.. إن ايفيم يتألم وأنياس يعيد السكين الى جرحه... فما الجدوى؟

وقال انياس متجهماً الملامع ودون ان يلتفت الى ريبين:

- إن في ذلك جدوى بلا شك. انهم سيشغلونه في الفرقة، وسيطلق النار
على العمال بمهارة تفوق مهارة الآخرين.

واجاب ريبن مطرقاً :

— أنا لا اعتقد ذلك ، ولكن من الأكيد أنه يحسن صنعاً لو تجنبه . إن روسيا واسعة الأرجاء ، فأنتى لهم ان يعثروا فيها على رجل ؟ وما عليه إلا ان يستحصل على بطاقة هوية مزورة ، وان يطوف القرى ...

وقال انياس وهو يضرب فخذه بقطعة خشبية :

— هذا ما سأفعله أنا ايضاً ؛ ففي الوقت الذي يتقرر فيه خوض المعركة لا يكون هناك مجال للتردد .

واقفل الحديث ، وكانت اسراب النحل والزبابير تحوم منهمكة ، وكانت طينيتها يعلن سيطرة الصمت ، وكانت العصافير تغرد ، واغنية آتية من بعيد ، تهيم على وجهها في الفضاء . وبعد لحظة استأنف ريبن :

— حسناً ، علينا ان نعمل . وقد تكونان انما بحاجة الى الراحة وفي الكوخ أسرة ، فأجمع لها يا جاك قليلاً من الاوراق اليابسة ... وانت ايتها الأم هاتي ما تحملين من كتب .

وفتحت الأم وصوفيا كيسها ، واكب ريبن ينظر الى مافيه ، ثم قال بارتياح :

— حسناً .. إنكا تحملان رزمة كبيرة منها !

والتفت الى صوفيا يسألها :

— أمتد وقت طويل تهتمين بمثل هذا العمل ؟ ما هو اسمك ؟

— ان اسمي منذ اثني عشرة سنة هو آنا ايفانوفا ... فماذا تريد بعد ؟

— لا شيء ... هل كنت في السجن ؟ ربما ؟

— نعم ، كنت في السجن .

وقالت الأم برقة وفي لهجتها شيء من التأنيب :

— أرايت ؟ ... ومع ذلك فقد كنت فظاً في حضرتها ...

وصمت لحظة ، ثم حمل رزمة من الكتب على ذراعه ، وقال وهو يكسرها

عن اسنانه :

— تقضي مني ، فالفلاح والسيد كالصمغ والماء لا يلتئمان ابداً لانها ضدان .

وأجابت صوفيا بإبتسامة عذبة :

— ولكني لست سيدة ... بل كائنات بشرياً .

— هذا ممكن ... يقال ان الكلب كان من قبل ذئباً ... عفواً ... سأذهب

لأخبر هذه الكتب .

واقترب انياس وجاك منه ، وقال انياس :

— اعطنا بعضاً منها .

وسأل ريبن صوفيا : هل هذه الكتب كلها نسخة واحدة ؟

— كلا ... فهناك ايضاً صحيفة .

— آه ؟

واسرع الرجال الثلاثة جميعاً الى الكوخ ؛ وقالت الام بصوت شديد الخفوت

وهي تتتبعهم بنظرها السام : ريبن هذا الفلاح .. إنه يلتهب ...

وغفمت صوفيا : اجل .. فأنا لم أر حتى الآن وجهاً كوجهه ... إنه

كوجه الشهيد . هيا بنا نحن ايضاً الى الكوخ ، فأنا اريد ان القي عليهم نظرة خاطفة .

ومست الام : لا تقضي منه .. فهو قاس .

وابتسمت صوفيا : ما اطيب قلبك يا نيلوفنا .

وعندما بلغت السيدتان عتبة الكوخ ، رفع انياس رأسه ثم انكب ثانية على

الصحيفة المنشورة فوق ركبتيه ، وهو يدس يده في شعره المجدول ، اما ريبن

فقد وقف بالصحيفة تحت شعاع من اشعة الشمس كان يتسلل الى الكوخ من

شق في السقف ، وكان يحركها ، بين الفينة والفينة ، لينسكب النور على الاسطر

وكان يقرأ فيحرك شفثيه . اما جاك ، فكان يسند صدره ، وهو راكع ، الى

حافة السرير الخشبي ويقرأ .

وجلس الام في زاوية من زوايا الكوخ ، وطوقت صوفيا منكبها

بذراعيها وراحت تراقب الرفاق بصمت .

وقال جاك بصوت خافت ودون ان يتلفت :

— انهم يشتموننا يا عم ميشال ، يشتموننا نحن الفلاحين .

واجاب ريبين باسمًا : يشتموننا لانهم يحبوننا .

ونفخ انياس ، ورفع رأسه :

— انهم يقولون : « لم يعد الفلاح انسانًا » ، وهذا صحيح .. انه لم يعد كذلك .

وانزلق على وجهه الساذج المفتوح ظل المهانة ثم اردف :

— تعال ايها العالم اللعين .. ضع نفسك مكاني ، وتحرك في داخلك ، لنرَ بعد ذلك كيف تكون .

وقالت الام . لصوفيا هامة :

— سأستلقي قليلا فأنا متعبة بعض الشيء ، وهذه الراححة تسبب لي دوارًا ..

وانت ، ألن تستلقي ؟

— كلا ..

واضطجعت الام على السرير الحشوي ، واستسلمت للكرى بعد قليل ؛ وظلت صوفيا يجانبها تراقب الرجال الذين كانوا منهمكين في القراءة . وعندما كانت تلحظ تحوُّم فوق الأم او زنبور تسارع هي الى طرده بالحاح ، وكانت الام تلاحظ ذلك وهي مطبقة العينين نصف إطباق ، فتشعرها هذه العناية بشيء من اللذة والارتياح . واقترب ريبين ووشوش بصوته الحسن :

— هل نامت ؟

— نعم ...

وصمت لحظة ، وحدث في الام ، ثم اطلق زفرة وقال بهدوء :

— لعلها أول امرأة تنبت خطي ابنها في الطريق ... أول امرأة .

فقالت صوفيا : لندعها نائمة فلا نزعجها ، هيا بنا من هنا .

— أجل .. يجب علينا ان نعود الى العمل . لقد كنت احب ان نتحدث ،

ولكنني افضل إرجاء ذلك الى المساء . هيا بنا يا فتيتان .

ومضى الرجال الثلاثة ، بعد ان تركوا صوفيا بالقرب من الكوخ ، اما

الأم فقد كان يدور في رأسها هذا الخاطر :

— حسنًا إن الامور ستسير على ما يرام ... وشكرًا لله فقد اتفقوا ...

وعادت الى النوم مطمئنة ، وهي تستنشق الهواء المضمخ براحة الغاب .. والقار .

— ٦ —

وعاد الفحامون جذلين بتصرم نهارهم ، وايقظت اصواتهم الأم فخرجت من

الكوخ متاثبة باسمه ؛ وقالت وهي ترو اليهم بحنان :

— لقد كدحتم أنتم ، ونمت انا كسيدة !

فأجابها ريبين : إننا نغفر لك ذلك .

وكان كثير الهدوء ، فلقد استنفذ التعب انقباله الشديد . وتلفت الى انياس قائلا :

— تحرك يا انياس لإعداد الغداء .

ثم تابع : إننا هنا نقاوب الخدمة ، واليوم هو دور انياس في اعداد الطعام .

وأجاب انياس وهو يصيح بسمعه الى الحديث :

— ليتني أجد من يبادلني نوبتي .

ثم راح يجمع الحشب والاعصان اليابسة لإشعال النار .

وقال ايقيم وهو يجلس الى جانب صوفيا :

— في الزيارات فوائد للجميع .

وقال جاك : سأقوم بمساعدتك في عملك يا انياس .

ومضى الى الكوخ فأسير قطعة من الخبز فقطعها ثم وضعها على المائدة .

وقال ايقيم بهدوء : اصنع . انه يسعل .

وأصغى ريبين : — نعم .. انه قادم .

ثم مال على صوفيا يوضح لها :

— ستبين شاهدًا اتقن لو أستطيع أن أعرضه في المدن والساحات ليستمع

اليه الناس . إنه يردد دائما الكلام نفسه ، ولكن يجب ان يسمعه الناس جميعًا .

وكان الظلام والسكون يزدادان عمقاً ؛ فتزداد الاصوات معها رقة ،
وكانت صوفيا والأم ترقبان القوم : لقد كانوا جميعاً يتحركون ببطء وثقل ،
يشربها نوع من الحذر الغريب . وكان هؤلاء بدورهم يرقبون حركات امرأتين .
وبرز من الغاب رجل فارح الطول محدودب الظهر ، يشي ببطء متوكئاً على
عصاه بقوة ؛ وكان تنفسه الحشن يُسمع من بعيد .
- ها انذا .

قال ذلك ثم راح يسعل .

وكان يرتدي معطفاً خلقاً يغمره حتى كاحليه ، وكان شعره الأشقر المجدول ،
يتقلت من تحت قبعته المستديرة الرثة في خصل هزيلة قاسية ؛ وتغطي وجهه
الشاحب البارز العظام لحية وضاعة . وكان فيه نصف فاجر ، وفي محجريه الفاترين
تلع عيناه محمومتين كما لو كانتا تومضان من اعماق الكهوف المظلمة .
وسأل صوفيا عندما قدمه ريبين اليها :
- لقد حملت الينا كتباً على ما يبدو ؟

- نعم .

- شكراً لك بالنيابة عن الشعب . هذا الشعب الذي لم يستطع حتى الآن
ان يدرك الحقيقة بنفسه . أما واني قد ادركتها ؛ فاني اشكرك نيابة عنه .
وكان يتنفس بسرعة ويعب الهواء في جرعات نهمة ، وكان صوته متقطعاً
وأصابعه الضاوية تنزلق منهكة على صدره محاولاً ان يينكل ازرار معطفه .
وقالت صوفيا :

ان مرورك في الغاب ، وفي ساعة متأخرة يؤدي صحتك ، فالأوراق ؛ في
مثل هذا الوقت ، رطبة ، ورطوبتها تعلق بجنجرتك .
فأجابها وهو يلهث :

- لم يعد هناك شيء صحي بالنسبة لي أبداً . إن الشيء الوحيد الذي يريحني
حقاً هو الموت .

وكان الاصغاء اليه يبعث الألم ، ومظهره يثير الشفقة ، تلك الشفقة التي لا

طائل تحتها ، والتي ترغم على الاعتراف بعجزه ، وتولد في النفس نوعاً من الحنق
المستسلم .

وجلس فوق برميل ، وطوى ركبتيه بحذر كأنه يخشى على ساقيه ان يتحطما
ثم مسح جبينه المتصب عرقاً ، وكان شعره جافاً لا حياة فيه .

وتأججت النار وتراقصت حولها الأشياء وارتعشت ، وترامت الظلال التي
كان يلعبها اللهب ، ترامت نحو الغاب مذعورة ، وظهر فوق النار ، للحظة
قصيرة ، وجه انياس المستدير ، منتفخ الوداج ، ثم خد الألق ، وفجئت رائحة
الدخان وسيطر على الساحة من جديد الصمت والضباب . وكان الجميع يصغون
لل كلمات المبحوحة ، كلمات المريض :

- .. ولكنني استطيع ان اكون مفيداً للشعب .. كشاهد على الجريمة .
ها انذا فانظروا إلي . اني في الثامنة والعشرين ، ومع ذلك اني اموت . منذ عشر
سنوات كنت ارفع على منكبي ، وبدونة اي جهد ، ما يقارب المائتي كيلو
غراماً ، وكنت اقول لنفسني : يمثل هذه الهافية سأتحطى السبعين دون ان اكبو
ولكنني عشت من السبعين عشرأ فقط . ولم أعد استطيع المضي بعيداً . لقد
استنزفتي الاسياد ، سرقوا اربعين عاماً من عمري ، اربعين عاماً .
ومس ريبين : تلك هي معزوفته .

وتألفت دفقة من اللهب اشد قوة وضراً من ذي قبل ، وتراكضت الظلال
نحو الغابة من جديد ، في رفات خاطفة ؛ ثم كرت ثانية نحو النار ، وحامت
حول جذوتها في رقص صامت خافت . وكانت الاغصان الرمادية تفرقع في
الجدوة وتئن . وأوراق الاشجار تهامس وتضج ، وقد اثارها نفحة من الهواء
الحار . وكانت ألسنة النار تملو وتتعانق نشيطة جذلي ، وتتصاعد في الفضاء
حراء وصفراء ، لتزرعه شرراً ؛ وفي السيل كانت النجوم تبسم للشر كأنها تدعوه
الى الاعالي .

وقال المريض : انها ليست معزوفتي وحدي . ان آلاف الناس
يرددونها دون ان يدركوا ان حياتهم البائسة هي امثلة خلاص للشعب

و كثيرون هم الذين يموتون جوعاً بعد ان استنفد الكدح قوامهم او ورثهم العاهة .
وراح يعمل وهو يرتعش وينطوي على نفسه ، كأنه إنما حطم الى جزئين .
ووضع جاك على المائدة وعاء من «الكفاس» وألقى الى جانبه حزمة من
البصل الابيض وقال للمريض :

— تعالى يا سافولي .. لقد احضرت لك بعض اللبن .

فهرأسة علامة الرفض ، ولكن جاك اخذه من ذراعه ، وجره
الى الطاولة .

وقالت صوفيا لريين بصوت خافت ولهجة عاتية :

— لم ارسلم في طلبه ؟ إنه قد يموت بين لحظة واخرى .

وقال ريين موافقاً :

— هذا ممكن . و بانتظار ذلك ليس لنا إلا ان ندعه يتكلم . لقد دمر صحته
من أجل لا شيء ، ويمكنه أن يتعذب قليلاً في سبيل الناس ، فليس هذا
بالأمر الخطير .

وصاحت صوفيا :

— سيقال عنكم انكم تتلذذون بما لا ادري ..

ورثقها ريين بنظرة خاطفة ، ثم أجاب مقطب الجبين :

— إن «الاسياد» هم الذين يتلذذون برؤية المسيح وهو يئن على صليبه ، أما
نحن ، فإننا نريد من الانسان أمائيل ، ونريدكم انتم ان تحملوا بنرتها .

وقالت له الأم مدعورة :

— يكفيك هذا .

واستأنف المريض ؛ وهو يجلس الى المائدة :

— أسألكم لماذا يدرون الانسان بالكدح ؟ لماذا ينهبون عمره ؟ إن رب عملنا

— لقد صرفت عمري في مصنع نيفدوف — إن رب عملنا هذا أهدى إحدى

المغنيات حوضاً من الذهب لتستحم به ، كما اهداهل «مقعدة ليلية» من ذهب

ايضاً ؛ ولقد كانت حياتي كلها وقوتي في هذا الذهب ؛ انها هدرت في هذا

السبيل ؛ لقد قتلتني الرجل ، قتلتني كدأً وجهداً ليندخل البهجة الى قلب عشيقتي
وقدم لها من دمي إناء منزلياً من ذهب .

وقال ايفيم مبتسماً :

— لقد خلق الانسان على صورة الله ومثاله فانظروا فيم يستخدم ؟

وصاح ريين وهو يضرب الطاولة بقبضته :

— يجب أن ترفع صوتك بالشكوى .

وأضاف جاك بصوت خافت : يجب ألا تتحمل ذلك .

أما انياس فقد افتر ثغره عن ابتسامة .

ولاحظت الام ان الفتيان الثلاثة كانوا يصغون بانتباه ، وبشره النفوس

الغري ، وانهم كانوا يتطلعون الى ريين ، باهتمام كلما تحدث ، ويراقبونه بدقة .

وأثارت كلمات سافولي بسمة غريبة ارتسمت بنزق على شفاههم ، فلم يعودوا

يستشعرون معها شيئاً من العطف على المريض .

ومالت الأم نحو صوفيا تسألها همساً :

— هل ان ما قاله صحيح ؟

— نعم . إنه صحيح ، فلقد تحدثت الصحف عن هذه الهدية ، وقد حصل

ذلك في موسكو .

وقال ريين :

— ولم ينل هذا الرجل عقابه ؟ يجب أن يُقاصص . ان يجر إلى ساحة عامة

فيقطع إزياً ؛ ويلقى بلحمه النتن الى الكلاب . ان الشعب هو الذي سيوقع

القصاص الاكبر عندما ينهض من كبوته . إنه سيسفك كثيراً من الدم لينسل

مهاتته ، فهذا الدم هو دمه الذي امتص من عروقه .. لذلك فهو سيده وصاحبه .

وقال المريض : لقد برد الطقس .

وساعده جاك على النهوض ، والاقتراب من النار .

وكانت النار تشتعل متألفة ، وكانت الظلال المشوشة تتراقص حولها وترنو

بدهشة إلى ألسنة اللهب اللعوب . وجلس سافولي على أحد الجذوع ، ومد نحو

الدفء يديه الشفافتين الجافتين . وأشار ويبين اليه بهزة من رأسه وقال لصوفيا :
 - إن هذا أبلغ من الكتب بكثير ؛ فعندما تستقر الآلة ذراع عامل او
 تصرعه يقال بأن ذلك كان نتيجة لخطأه هو .. ولكنهم عندما يمتص دم انسان
 ثم يطرح بعد ذلك كالخيفة ، لا يجدون لذلك تفسيراً أبداً ، أنا افهم ان يقع
 حادث قتل ، قتل مهما كان نوعه ، ولكنني لا أفهم أن يعذب انسان لمجرد اللذة فحسب .
 علام يقتلون الشعب ؟ علام يعذبوننا نحن الآخرين ؟ إنهم يفعلون ذلك
 ليمزحوا ويمجنوا ، ويمتصوا انفسهم على هذه الارض ، ليشتروا بدمنا كل شيء ،
 ليشتروا مغنية ، وجياداً ، وآنية من فضة ، وصحافاً من ذهب ، ودمى لأطفالهم
 غالية الثمن .

ويقول لك رب العمل : إكدر أنت ، اكدر ما استطعت لأكدس انا الثروة
 من جهدك فأقدمها لمشيقي إناء من ذهب .

وكانت الأم تصغي وترنو ، فيتوضح لها ، مرة اخرى ، الطريق الذي اختاره
 بول ورفاقه جميعاً وتراه يتألق في الظلمات ، ويتلوى في شريط وضياء .

.. وفرغوا من طعامهم ، واقتعدوا جميعهم حول النار التي كانت تشتعل
 وتلتهم الحطب اليابس بسرعة ونهم . وكانت وراءهم ترقد الظلمات ، وتغمر السماء
 والغاب ، وكان المريض يرنو الى اللهب بعينين جاحظتين ، ويسعل بلا انقطاع ،
 فتزهز الرعشات بعنف ، حتى لتحسب ان بقايا الحياة فيه ، تهجر صدره وقدعيل
 صبرها ، وتتعبجل الرحيل من جسده الذي نخره الداء ؛ وكانت انعكاسات اللهب
 تتراقص فوق وجهه فلا تفلح في أذكاء الحياة في ذلك الجلد الميت ، غير ان عينيه
 فقط كانتا تشتعلان بنار لا تحمد ابداً .

ومال اليه جاك يسأله : ربما كنت تود الذهاب الى الكوخ يا سافولي ؟
 فأجاب بجهد :

- ولم ؟ إني اود البقاء هنا فلن يطول مكثي بين الناس .

وتصفحت نظراته بسرعة وجوه الرفاق ، وبعد فترة من الصمت ، تابع
 كلامه ، وعلى شفقيه تنطرح بسمة شاحبة :

- إني أشعر براحة وانا بينكم . اتصفح وجوهكم فأقول في نفسي :
 ربما كنتم أنتم الذين ستأرون لكل ما سلب منا ، لكل الناس الذين قتلهم
 قمره الآخرين ..

ولم يحبه احد ، وغلبه النعاس فتدلى رأسه على صدره ، ونظر اليه ريبين ثم
 قال بصوت خافت :

- إنه يأتي الينا فيجلس ويقص علينا دائماً نفس القصة . دائماً قصته كإنسان
 مهان ، فيفرغ فيها كل روحه ، كأن تلك المهزلة القذرة وحدها قد غطت على
 عينيه فلا يرى سواها ابداً .
 وقالت الأم وهي تطرق :

- ماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك ؟ اذا كان الآلاف من الناس يموتون
 إرهاباً ، ويوماً بعد يوم ، لكي يتاح للسيد ان يبدد المال في مراكب ونزوات
 كهذه ؟

ماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك ؟
 وهمس انياس :

- إن الإصفاء اليه شيء مل . إن قصته لا يمكن أن تُنسى حتى ولو سمعت
 مرة واحدة .. ولكنه هو لا يتفك يرددها .
 وأجابه ريبين بجملة :

- إنها بالنسبة له ، تحتوي كل شيء ، حياته كلها .. يجب ان تفهم ذلك .
 لقد استمعت اليه عشرات المرات وهو يروي مصيره ، أما أنت فيكم من مرة
 خامرتك الشكوك . إنني الحياة لحظات طيبة تود معها الا تؤمن بقذارة الانسان
 وجنونه ؛ لحظات ، فأخذك فيها الشفقة على الناس جميعاً ، غنيهم وفقيرهم . إن
 الغني أيضاً يضل الطريق ؛ إن أحدهما يعيميه الجوع ، والآخر يعيميه الذهب .
 فيا أيها الناس ، يا أيها الاخوة ، احنوا الرؤوس قليلاً ، وفكروا ، ولا يخيفنكم
 ان تفكروا .

.. وانتفض المريض مرتعشاً ، وفتح عينيه ، ثم انطرح على الارض ، فنهض

جارك يهدوء ، وتوجه الى الكوخ ، فأحضر غطاءً من الفرو ، وغطى به سافولي
ثم عاد فجلس الى جانب صوفيا .

وكانت الجذوة ذات الوجه الوردي والبسمة المثيرة ، ما تزال تلقي نورها على
الاشباح السوداء التي كانت تحيط بها ، وكانت اصوات الرفاق تختلط بالفرقة
الحلوة ووشوشة اللهب .

وراحت صوفيا تتحدث عن معركة الشعوب في العالم كله من اجل حق الحياة ؛
عن المعارك القديمة التي خاضها الفلاحون في المانيا ، عن بؤس الايرلنديين ،
وانتصارات العمال الفرنسيين الباهرة في كفاحهم المستمر من اجل الحرية .

وفي الغابة المتدثرة بمعطف الليل المحملي ، وفي الفسحة الصغيرة بين الأشجار ،
وتحت سقف السماء القاتمة ، وأمام الجذوة الضاحكة ، في قلب دائرة من الظلال
المندهشة الحاقدة .. كانت تمتع من جديد ، الاحداث التي زلزلت عالم المتخمين
والطباعين ، وتستعرض شعوب الارض وهي دامية الجراح ، تنهكها المعارك ،
وتتردد اسماء المناضلين من اجل الحرية والحقيقة .

وكان صوت صوفيا الذي تشوبه بحه خفيفة بون بعذوبة ، لقد كان كأنه
أت من الماضي لينعش الآمال ويوقظ الثقة ، وكان المستمعون يصغون بصمت إلى
حكاية إخوانهم بالروح ، ويحدقون في الوجه الشاحب الهزيل ، وجه صوفيا .

وكان ضياء ساطع ينير لهم القضية المقدسة ، قضية شعوب الدنيا كلها ، قضية
النضال الذي لا ينتهي من اجل الحرية ؛ وكان كل واحد منهم يجد أمانيه
وأفكاره في الماضي السحيق ، الملقع بنقاب دام قائم ، يجدها في الماضي السحيق
لشعوب اخرى مجهولة ، ويشارك في الكون عقلاً وقلباً ؛ ويلتقي فيه بأصدقاء
صموا منذ أمد بعيد ، وبكثير من الحزم وتكران الذات ، على ان يقيموا
العدالة في الارض ، أصدقاء عمدوا تصميمهم هذا بالألام التي لا تحصى ، وسفكوا
الانهار من دماهم من اجل انتصار حياة جديدة ، حياة صافية سعيدة . وكان
شعور القربى الفكرية التي تربطه بالناس جميعاً ، كان هذا الشعور يشمخ في قلبه
ويتنامى ؛ انه قلب جديد هو ذاك النبي كان يولد على الارض ، قلب يملأ التوق

الحار الى ان يفهم كل شيء ، ويتحد بكل شيء .
وقالت صوفيا بصوت واثق :

— سيأتي اليوم الذي يرفع فيه الكادحون في شق أقطام الارض رؤوسهم ؛
ليقولوا بحزم : كفى .. إننا لا نريد هذه الحياة ابداً .. عندئذ تنهار تلك القوة
الخداعة ، قوة أولئك الذين ليسوا اقوياء إلا بشرهم ؛ وستعيد الارض تحت
اقدامهم ، فلا يحدون ما يتشبثون به
وقال ريبين وهو يحني رأسه :

— هذا ما سيحدث اننا نستطيع إذا ما إهتمنا بأمر انفسنا ، ان ندلل كل عقبة .
وكانت الأم تصفي مشرئبة الحاجب ، وبسمة الدهشة المرحية تسمر على
شفثها ، وكانت تلاحظ ان كل ما كان يعمل في صدر صوفيا من عنف وحدة ،
قد تلاشى الآن على ما يبدو ، وانصر في السياق الهارم السوي لقصتها . وكان
سكون الليل وارتعاش النار ووجه صوفيا ، ولصقاه القرويين الشديد .. فوق
ذلك كله ، يبعث الارتياح في نفسها .

ولبثا جامدين بلا حراك ، جامدين ألا يعكروا تدفق حديثها الهادي ،
والأ يقطعوا ذلك الحيط الوضاء الذي يصلهم بالعالم . وكان واحد من بينهم
فقط ، يلقي الى النار ، احياناً ، بقطعة من الحطب ، يلقيها باحتراس ، حتى اذا
تعالى الدخان وتطايرت زمر الشرر راح يذبحها عن السيدتين بكفيه .

وبعد قليل نهض جاك وقال :

— انتظروا قليلاً .

ثم راح يعدو الى الكوخ ، فأحضر بعض الملابس التي أخذ انياس يدثر بها
جنوب الضيفتين واكتافهما . واستأنفت صوفيا الكلام ، وكانت تصف يوم النصر
وتبعث في الحضور الايمان بقوام ، وتوقظ فيهم حس الاتصال الوجداني بأولئك
الذين يكرسون حياتهم للكد التافه المقيم ، في سبيل الترفيه السخيف عن المتخمين .
ولم تكن هذه الكلمات لتثير قلق الأم ، ولكن إحساسها بشيء ما عظيم ، أثاره
حديث صوفيا وتغلغل في نفس الجميع ، هذا الاحساس كان يملأ نفسها بعرفان

الجميل ، والتقديس لأولئك الذين اجتازوا المخاطر ، اجتازوها الى قوم كبلتهم
سلاسل الكدح ، فحملوا إليهم عطايا عقولهم وإخلاصهم وحبهم للحقيقة .
وكانت تتم وهي تغمض عينيها
- ساعدهم يا رب .

وصمت صوفيا عند الفجر تعبي ، ورنث فاسمة الى الوجوه السامة المطلقة التي
كانت تحيط بها .

وقالت الأم : لقد آن لنا ان نرحل .

وردت صوفيا باعيا : اجل لقد آن ذلك .

وتهد أحد الفتيان بصوت مسموع ، وتعالى صوت ريبي في رقة غير معتادة :
- يؤسفنا جداً أن نرحل ، انكما تحسان الكلام ، وإنه لشيء عظيم أن تعملنا
على إقامة اواصر القربى فيما بين الناس . إن المرء ليشعر ان قلبه أضحى أفضل من
ذي قبل ، عندما يعلم ان الملايين تنوق إلى نفس ما تنوق اليه نحن الآخرين .
... والطيبة ، قوة عظيمة .

وغنم ايقيم وهو ينهض بخفة :

- إنك حين تحدثهم عن طيبة القلب ، يردون عليك بالمذرة يجب أن نرحل
السيدتان ، يا عم ميشال ، قبل أن يراهما أحد ؛ فستوزع النشرات وستنطلق
السلطات للبحث عن مصدرها ، وقد يكون هناك واحد يتذكر : لقد مرت
امراتان من هنا .

وقاطعه ريبي :

- حسناً . وشكراً أيتها الام على ما تحملته من مشقة . إنني عندما أراك
افكر طول الوقت ببؤس . لقد سلكت طريق الخير .

وارتسمت على شفتيه بسمه طيبة غريضة ، وكان موفور النشاط يرتدي
قيصاً يكشف عن صدره . وتأملت الأم قامته الضخمة ونصحته بؤد :

- يجب أن تضع شيئاً عليك فالطقس بارد .

فأجابها : اني اشتعل دفئاً في الداخل .

وكان الفتيان الثلاثة يتبادلون الحديث بصوت خفيض ، وهم وقوف بالقرب
من النار ، في حين كان المريض يرقد عند اقدامهم وقد دثره رداء من الفرو .
وكانت السماء تشعب ، والظلال تنصهر ، والاوراق ترتعش بانتظار بزوغ الشمس .
وقال ريبي وهو يشد صوفيا :

- وداعاً إذن .. كيف نهتدي اليك إذا أجبنا أن نراك في المدينة ؟

فأجابت الأم :

- ليس لك إلا أن تمر علي أنا

واقترب الفتيان الثلاثة من صوفيا بتؤدة ، وشدوا ايدها واحداً بعد واحد
بارتباك ودود ، ودون ان ينبسوا بكلمة : وكان جلياً ان كلا منهم يستشعر
في قرارة نفسه ، شعور العرفان بالجميل ، شعور الصداقة نحوها ، وكان هذا
الشعور يربكهم ، بلا شك ، بما فيه من جدة لم يتعودوها ، وكانوا يرون إليها
بصمت ، والبسمة في عيونهم ، هذه العيون التي يشيع فيها شحوب السهاد .
وسأل جاك :

- هل لكما بقليل من اللبن قبل ان نرحل ؟

فقال ايقيم : ولكن هل بقي عندنا لبن ؟

وأجاب انياس وهو يمر يده على شعره بارتباك :

- كلا .. فلقد عثرت بالاناء فاندلق .

وغرق الثلاثة في ضحك طويل .

لقد كانوا يتحدثون عن اللبن . ولكن الأم شعرت بأنهم كانوا يفكرون بأمر
آخر ، كانوا يتمنون لها ولصوفيا الخير كل الخير ، دون ان يفصحوا ، ولقد اثر
ذلك في نفس صوفيا ، وأثار فيها الاضطراب والتواضع الحيي ؛ فلم تقو معها على
التفوه بأكثر من هذه الكلمة الهزيلة :

- شكراً أيها الرفاق .

وتبادلوا النظرات ، وبدا كأن هذه الكلمة قد أثملتهم فأحوا يترنحون
بهدهوء . وتعالى من جديد سعال المريض الحشن ، وكان الفحم يجبو في الموقد ،

والقرويون يرددون : وداعاً .

وتشيع هذه الكلمة الكثيرة السيدتين ، وتواكبها خلال فترة طويلة .

وسارتا على مهل ، في طريق حرجي ، وسط غبش الفجر ، وكانت الأم

تقول وهي تسير وراء صوفيا :

— لقد مر كل شيء كالحلم .. وكانت الأمور على ما يرام . انهم يودون معرفة الحقيقة ، يودون ذلك يا عزيزتي . لقد كان ذلك أشبه بما يجري في الكنيسة قبل قداس الصباح في يوم عيد عظيم . الكاهن لم يصل بعد ؛ والجو قائم ، وكل شيء يسوده الهدوء . ويستولي الخوف عليك ، ثم يقبل الناس ، وتضاء هنا شمعة أمام الأيقونة ، وتضاء أخرى هناك ، وتطرد الظلمة شيئاً فشيئاً ؛ ويلاً النور بيت الله . وأجابت صوفيا بمرح :

— هذا صحيح ، ولكن بيت الله هنا هو الأرض بأسرها .

ورددت الأم وهي تهز رأسها مفكرة :

— الأرض بأسرها .. ذلك جميل جداً ، وإن كان يصعب تصديقه ! ولقد

أجدت يا عزيزتي صوفيا في حديثك ، أجدت الاجادة كلها ، وقد كنت أخشى ألا تعجبهم .

وأجابت صوفيا بعد قليل ، وبصوت خفيض لا يهجه فيه :

— إن المرء ليزداد بساطة حين يكون بينهم .

وتحدثتا طوال الطريق عن ريين ، والمريض ، والفتيان الذين كانوا يصفون بكثير من الاهتمام والذين عبروا عن صداقتهم الشاكرة تعبيراً بليغاً بما أحاطواهما به من لطف العناية ؛ وبلغنا الحقول الواسعة ، كانت الشمس تستيقظ أمامها ، ولم تك بعد قد برزت من افقها ، بل كانت تنشر في السماء مروحة شفافة من شعاعها الوردي ، وكانت حبات الطل تتلألأ فوق العشب كومضات متعددة الألوان من فرحة ربيعية مزهوة ، وكانت العصافير تستفيق ، فتبعث الحيوية في الصباح بأغاريدها المرحية ، والغربان الكبيرة ترسل نعيها المغموم ؛ وبتطير ، وهي تنفض أجنحتها بتثاقل ، وكان كناري يطلق من مكان ما لحنه ، في الفضاء ، وكانت

الابعاد تنحسر ، وتخلع عن الذرى ظلال الليل ، لتواجه الشمس . وقالت الأم حاملة :

— في بعض الأحيان يحدثك احد الناس ، يحدثك فلا تفهمينه ، الى ان يتفوه بكلمة ما لا تدرين ما هي ، كلمة بسيطة ، ومع ذلك ، لا شيء سوى هذه الكلمة يوضح لك فجأة كل شيء . ذلك هو حال ذلك المريض . لقد سمعت كثيراً ، وأنا ايضاً اعرف بنفسي كيف يرمق العمال في المصنع ، وفي كل مكان ، ولكن المرء يتعود ذلك فلا يهزه ولا يحركه . لقد قال شيئاً فيه كثير من المهانة ، وكثير مما ينجل .

يا إلهي : أيمكن أن يسلخ الناس حياتهم كلها في الكدح ؛ ليتيحوا لأرباب عملهم مثل هذه المهازل ؟ ان ذلك لا يمكن تبريره .

وتوقف تفكير الأم عند قصته التي رواها ، والتي اوضحت لها ، بما فيها من بلاهة وصفاقة ، كثيراً من الغرائب التي وقفت عليها من قبل ، ثم نسيها .

— إنهم يتخمون لدرجة يصابون معها بمرض القلب . لقد كان هناك مسير ناحية يرغب الفلاحين على تأدية التحية لجواده حين يخرج به للزراعة في البلدة ، ومن لا يفعل ، فالسجن عقابه . ترى ما حاجته الى مثل هذا العمل ؟ ابدأ . لم يتوصل احد إلى فهم السبب وراح صوفيا تغني أغنية نشيطة ، منتصرة كالصباح .

- ٧ -

وكانت حياة الأم تنساب بهدوء عجيب ، وكان هذا الهدوء يثرد هشتها أحياناً . لقد كان ابنها في السجن ، وكانت تعلم ان عقاباً قاسياً ينتظره ، ولكنها كانت كلما فكرت بذلك يمثل في ذاكرتها ، رغم إرادتها ، وجه اندريه ، وثيو ، وكثيرين غيرهما . وكانت صورة ابنها ، وهي تذكرها بكل اولئك الذين يشاطرونه مصيره ، تتضخم في عينيها ، وتحملها الى جو من التأمل يحول دون تركز افكارها على بول ، بل تشتتها في كل اتجاه ؛ وكانت هذه الأفكار تتشعب ، وتفرع الى شعاعات دقيقة غير متساوية ، فتلامس كل شيء ، وتحاول ان تلقي النور على كل

شيء ، وأن تجمع كل شيء في لوحة واحدة ، وتحول بينها وبين الشوق عن
احدى التفاصيل المعينة ، وتلهيها عن حزنها ، وعن ذلك الرعب الذي كان يبعثه
في نفسها مصير ابنها .

وكانت صوفيا قد بكرت في الرحيل ، ولكنها لم تلبث ان عادت الى الظهور
بعد خمسة ايام او ستة : عادت مرحلة موفورة النشاط لتختفي من جديد بعد
ساعات قليلة ثم انها لم تشاهد بعد ذلك الا بعد اسبوعين ؛ حتى لكأنها تنطلق في
الحياة في دوائر واسعة ، فلا تلج منزل أخيها إلا وهي عابرة ، لتملأ هذا المنزل
مرحاً وموسيقى

وكانت الأم قد أخذت تتذوق هذه الموسيقى . لقد كانت تشعر وهي
تصفي إليها ، كان موجات دافئة تلطم صدرها ، وتكمل إلى قلبها فينتظم
نبضه أكثر من ذي قبل . وكا تدرم البذور المغروسة في تربة جيدة الحرث .
منتظمة الري ، هكذا كانت تولد في رأسها الافكار الجريئة العنيفة ، وتزهو
التمائير الخفيفة الرشقة التي توقظها قوة الالمان .

وكانت تجد عناء في الصبر على فوضوية صوفيا التي كانت تبعثر في كل زاوية ،
أشغالها ، وأعقاب سجائرها ، ورماد هذه السجائر ؛ كما تجد مثل ذلك العنت في
مجاراتها بطريقة كلامها الشديدة الجراءة ، والتي تختلف اختلافاً بيناً عن هدوء
نيقولا وصفاته ، وروعة الفاظه العذبة ، تلك الروعة التي لا يفسدها شيء ابداً .
لقد كانت صوفيا في نظرها مراهقة تتعجل الوصول الى ان تكون شخصية
مرموقة ، وتعتبر الناس كدمي فضولية . كانت تتحدث كثيراً عن قداسة
العمل ، ولكنها باهاها بالبلد تزيد من مشاغل الأم ؛ وكانت تخطب عن
الحرية ، ولكن الأم ترى انها كانت قضايق الآخرين برعوتها الجسارحة ،
ومجادلاتها التي لا تنتهي . وكانت ترى فيها كثيراً من المتناقضات فتعاملها بحذر
ناعم وانتباه يقظ ، ولا تحس معها ، مثل ذلك الدفء الذي يغمر قلبها ، ويشير
فيها نيقولا .

وكان هذا ، وهو المنهمك ابداً ، يحيا يوماً بعد يوم ، حياة رقيقة منتظمة .

يتناول طعام الفطور في الثامنة ، ثم يقرأ الصحيفة ، ويفضي بما تحمله من أنباء إلى
الأم ، وكانت وهي تصفي اليه ، تبين بوضوح مدهش كيف تسحق عجلة الحياة
الثقيلة ، الناس دوناً رحمة ، لتحيلهم الى مال ؛ وكانت تكتشف فيه مزايا يشارك
بها مع اندريه ، فهو مثله يتحدث عن الناس دوناً حقاً ، ويعتبرهم جميعاً مسؤولين
عن التنظيم الاجتماعي السيئ ، ولكن ايمانه بحياة جديدة لم يكن أكثر حرارة
ولا إسرافاً . وكان يتكلم دائماً بهدوء ، وبلهجة قاض نزيه صارم ، وكانت البسمة
الوادعة العذبة لا تفارق شفتيه ، حتى ولو كان الحديث يتعلق بأشياء رهيبة ،
ولكن عينيه ، في مثل هذه الحال ، كانتا تلتصقان بألقى بارد قاس . وعندما كانت
الأم ترى هذه النظرة تدرك ان هذا الرجل لا يمكن أن يغفر شيئاً لأحد ، وأنه
لا يستطيع الغفران ، وكانت تشعر ان هذه القسوة تؤلمه فترثي له ، له هو الذي
كان حبها له يزداد على الدوام .

وفي التاسعة كان يمضي الى مكتبه ، فتصرف هي الى ترتيب المنزل ، وتعد
الطعام وتستحم ، ثم ترتدي ثوباً نظيفاً ، وتجلس في غرفتها تتأمل صور الكتب ،
وكانت قد اصبحت تحسن القراءة ، الا ان القراءة كانت تقتضيها جهداً ، وتتعبها
بسرعة ، فلا تستطيع أن تدرك الترابط بين الكلمات ، اما الصور ، فقد كانت
على العكس ؛ تسليها كطفل ، وتكشف لها عن عالم يكاد يكون ملموساً ، عالم
جديد رائع يمكن فهمه . لقد كانت ترى أمامها مدناً واسعة تفجأها ، وبنائات
رائعة ، وآلات ، وبواخر ، وآثاراً . كانت ترى الثروات التي لا تحصى ، والتي
أبدعها الناس ، وترى بذائع الطبيعة التي تدهش عقلها بتنوعها ، وكانت الحياة
تتسع أمامها حتى اللانهاية ، وتطلع عليها كل يوم بأشياء ضخمة ، لم تسمع بها ،
جنية الملامح ، وكانت بوفرة غناها ولا نهاية جمالاتها ، تشير روحها الغري التي
كانت تتفتح ، وكانت تحب بشكل خاص ، تصفح كتاب مصور في علم الحيوان ،
وبالرغم من ان هذا الكتاب كان بلغة اجنبية ، فانه كان يضع بين يديها أوضح
صورة عن جمال الارض ، وثروتها ، واتساعها .
وكانت تقول لنيقولا : ما أكبر الارض .

وكانت الحشرات تستهويها أكثر من كل شيء ، وعلى الأخص ، الفراش ،
فتأمل صورها بدهشة وتقول :

— يا لجمالها . أليس كذلك يا نيقولا ؟ كم يوجد من هذه الأشياء الجميلة الغالية
في كل مكان ، ولكنها جميعها تتخفى فلا تبدو لأعيننا . انها تمر أمامنا بسرعة
عجيبة فلا تراها أبداً . ان الناس يتحركون فلا يعرفون شيئاً ، ولا يستطيعون
ان يروا شيئاً ، وان يعجبوا به ، إذ لا وقت لديهم لذلك ولا رغبة . لكنهم
بإستطاعتهم أن يغضوا من مباحج ، لو عرفوا كم هي غنية أرضنا ، وكم من أشياء
مدهشة يجدون على ظهرها . ان هذه الأشياء كلها هي للجميع .. وكل واحد هو
لهذه الأشياء جميعاً . أليس كذلك ؟
ويجب نيقولا باسمًا :

— تمامًا

ويقدم اليها كتباً أخرى مصورة .

وفي المساء ، تكون الزيارات غالباً . ومن بين الزائرين الذين يترددون :
الكسي فاسيليف ، وهو رجلٌ وسيم وقور صوت ، صاحب الوجه ، اسود
اللحية ؛ ورومان بيتروف وهو ذو وجه نحاسي ، ورأسٌ شديد الاستدارة ،
قصطك شفته دائماً في حركة مشقة ؛ وجان دانيوف وهو صغير هزيل ، مدبب
اللحية ، وذو صوت نحيف صخاب مثير ، حاد كأنه الحُرز ، وإغور ، الذي يسخر
من نفسه ، ومن رفاقه ، ومن شقائه الذي يتعاطف بلا انقطاع . وآخرون غيرهم
كانوا يقبلون من المدن النائية ، فيعقد نيقولا معهم أحاديث طويلة ، تدور دائماً
حول موضوع واحد : الطبقة العاملة في العالم كله . وكانوا يتجادلون ، ويتحسسون ،
ويكثرون من الحركات ، ويشربون كثيراً من الشاي ؛ وفي غرة النقاش ، يبدج
نيقولا النداءات ، فيتلوها على الرفاق الذين يسارعون الى نسخها اثناء الجلسة ،
في حين تنصرف الام الى جمع تنف المسودات الممزقة وحرقها .

وكانت وهي تقدم الشاي لهم ، تدهش لتلك الحماسة التي تسيطر عليهم وحين
يتحدثون عن حياة العمال ومصيرهم ، وعن افضل الطرق وأمرعها لنشر الحقيقة في

سوقهم ، ورفع روحهم المعنوية ، وكثيراً ما كانت الآراء تتضارب ، فيغضبون
ويتبادلون التهم ، ويظهر الغم في وجوه البعض ، ولكنهم لا يلبثون ان يستأنفوا
نقاشهم من جديد .

وكانت الأم تحس انها تعرف حياة العمال اكثر مما يعرفونها هم ، ويتراءى لها
انها تدرك بوضوح اكثر ، حسامة المهمة التي تصدوا لها ، وهذا ما يجعلها على ان
تعاملهم معاملة فيها بعض التنازل الكئيب ، كتنازل رجل ناضج ، يشارك اطفالاً
يلعبون لعبة الزوج والزوجة ، دون ان يدركوا ما فيها من معنى المأساة .
وكانت ، دون ان تعتمد ذلك ، تحاول ان تقارن بين أقوالهم ، وأقوال ابنها
و أندريه ، فتلس الفارق الذي كان يفوتها في البدء ان تلمسه . وكان يملكها ،
بعض الأحيان ، شعوراً بان الأصوات ترفع هنا ، اكثر مما ترفع هناك في الضاحية ؛
فتعلل ذلك بقولها :

— إنهم يعرفون اكثر منهم لذلك فهم يتكلمون بصوت اقوى . ولكنهم
كانت تلاحظ في اغلب الأحيان ان هؤلاء القوم إنما يتحسسون وفقاً لحظة ، وأن
انفعالهم ليس إلا انفعالاً مصطنعاً ، وان كلا منهم يود ان يثبت لرفاقه ان الحقيقة
هي اعلى عليه ، وأقرب اليه من الآخرين ؛ وهذا ما يجرحهم ، فينهضوا ، لكي
يثبتوا معرفتهم لهذه الحقيقة ، الى استئناف الجدل ، بضراوة وقسوة . لقد كان
كل منهم يود ان يقفز اكثر من الآخر ، وكان الحيزن الكئيب يستولي على الأم
بسبب ذلك ، فتحرك حاجبيها ، وهي تنظر إليهم بعينين متوسلتين ، وتفكر :
— لقد نسوا صغيري بول ورفاقه .

كانت تصغي وهي حاضرة الدهن ، الى مناقشاتهم التي لم تك طبعاً تفهمها .
وكانت تحاول ان تغربل الكلمات لتقف على المشاعر . في الضاحية عندما يتكلمون
عن الخير يتناولونه مجنوعة ككل ، اما هنا فكل شيء يحجز الى جزئيات
صغيرة دقيقة . إن المشاعر هناك اعق وأقوى ، اما هنا فالسيطرة للأفكار التافهة
التي تفتت كل شيء . هنا كانوا يتكلمون عن تهديم النظام القديم ، في حين كانوا
يحلون بالنظام الجديد ، ومن اجل ذلك كانت أحاديث ابنها و أندريه أيسر
فهما بالنسبة لها ، وأقرب تناولا .

وكانت تلاحظ ان نيقولا يغدو ، حين يأتي احد العمال ، اكثر انطلافاً وحرية معه ، وأن تعبيراً فيه عذوبة يرتسم على ملامحه ، فيتغير اسلوبه في الحديث تغيراً كلياً ، وإذا كان هذا الحديث لا يغدو اكثر خشونة ، فإنه ليغدو على الأقل ، اكثر عفوية !

وكان هذا الحاضر يدور في رأسها :

« انه يجتهد في ان يفهم » .

ولكن ذلك لم يكن ليعزها ، وكانت ترى ان الزائر يستشعر الضيق ، ويحس بكبت داخلي ، ولا يستطيع ان يتكلم بسهولة وطلاقة إلا معها ، معها هي ، ابنة الشعب .

وفي احد الأيام ، وكان نيقولا قد خرج من المنزل ، سألت احدهم :

— لم تشعر بالضيق ؟ إنك لست صيباً يؤدي امتحاناً ... ؟

وابتسم الفتى ابتسامة عريضة :

— ان السراطين نفسها تجمر خجلاً عندما تحمل على غير عاداتها .. ثم انه ، على كل حال ، ليس هنا .

وكانت ساندريين تأتي أحياناً ، ولكنها لا تمكث طويلاً . وكانت تتكلم دائماً بانهاك ولا تضحك ابداً ، وفي كل مرة كانت تسأل الأم قبل انصرافها :

— و بول ؟ كيف حاله ؟ لعله غير مريض ؟

— شكراً لله ، ان صحته حسنة ، وهو مقتبط .

وتقول الفتاة : ابلغيه تحياتي .

ثم تتوارى .

وكانت الأم تشكو لها بأن سجن بول قد طال كثيراً دون ان يجد موعداً لها كمنه فيشجعهم وجه ساندريين ، وتقصمت ، في حين تضطرب اصابعها بعصبية . وكانت تتأكلها الرغبة في ان تقول لها :

— يا عزيزتي الصغيرة . انا اعلم جيداً انك تحبينه .

ولكنها لم تفعل ، لأن ملامح الفتاة القاسية ، وشفتيها المزمومتين بشدة ،

ولهجتها الجافة المغمومة ، كانت تنبئ بأنها لا تحتمل الدعاب ، فتصعد الأم زفرة وهي تشد صامتة ، اليد التي تمدها الفتاة اليها ، ثم تهمس في سرها :

— إنك لشديدة التعاسة يا ابنتي المسكينة .

وفي احد الأيام اقبلت نانا ، ومُمرت كثيراً لرؤية الأم . لقد عانقتها وأسرت اليها فجأة بهذا النبأ ، في جملة ما حملته اليها من انباء :

— لقد توقفت أمي .. توقفت المسكينة .

وأحنت رأسها ، وكفكت دموعها بحركة مريفة .

— لقد آتني ذلك أشد الالام ، فهي لم تتجاوز الخمسين من عمرها ، وكانت من الممكن ان تعيش اكثر . ولكنني من جهة أخرى اقول بأن الموت ، كان بلا ريب ، اخف وطأة عليها من الحياة ، لقد كانت دوماً وحيدة ، غريبة عن الناس ، لا يحتاجها احد . وكانت تعيش في خوف دائم من ثورات والدي .. فهل تراهما كانت تعيش حقاً ؟ ان المرء ليعيش الحياة وهو يرجو ان تحمل اليه الخير .. اما هي فلم تكن لترجو من حياتها شيئاً ، لم تكن تنتظر منها الا المهانة . وقالت الأم بعد لحظة تفكير :

— هذا صحيح يا نانا ان المرء ليعيش الحياة عندما يرجو شيئاً فيها خيراً ، اما اذا تلاشى هذا الرجاء ، فأني معنى يبقى للحياة بعد ؟

ثم اردفت وهي تتحسس يد الفتاة بخنات :

— والان .. هل انت وحيدة ؟

وأجابت نانا برفق : نعم

وصمتت الأم ثم قالت وهي تبسم :

— لا بأس فالطبيب لا يعيش وحيداً ابداً ، وهناك كثيرون تشدم إليك اواخر ...

— ٨ —

وعُينت نانا مدرسة في مقاطع قريبة من مصنع للنسيج ، وأخذت بيلاجي

تزودها بالكتب الممنوعة ، والبدايات والصحف ، حتى اضحى هذا شغلها الشاغل وكانت تجوب المقاطعة ، عدة مرات في الشهر ، وهي تتنكر بثياب راهبة ، او بائعة دانتيل او خرزوات ، او بثياب بورجوازية ثرية ، او زي حاجة ، تجوبها سيراً على الأقدام ، او في القطار ، او في عربة . وفي يدها حقيبة ، وفوق منكبها كيس .

وكانت تتصرف بهدوء اعصاب وبساطة سواء كانت في القاطرة او على ظهر الزورق ، او في الفنادق ، وتتحدث مع اشخاص لاتعرفهم ، وتبادلهم هي بالحديث ، وكانت تستلفت الانتباه ، دونما خوف ، بما تدير من احاديث ودية واجتماعية ، وبوثوقها بنفسها كما رأت الكثير ، واستوعبت الكثير .

وكانت تحب للتحدث الى الناس والأصغاء اليهم وهم يسردون حيواتهم وشكاياتهم ، وهمومهم . وكان قلبها يفيض بالغبطة كلما انتت من محدثها تلك النعمة العنيفة التي تقتش بالحاح ، رغم انها منصبة على ضربات الحظ ، عن اجوبة لأسئلة يعج بها رأسه ، وكانت تنبسط امامها دوماً لوحة الحياة وهي اكثر اتساعاً وتلوناً ، وغمر عليها حياة الناس ومشاكلهم كلها ومتاعبهم من اجل الرغيف . وكانت تلمس أنتى اتجهت ، الجشع بعمره الوقح ، الجشع الذي يعمل على خداع الناس وسلبهم ، على ابتزازهم وامتصاص دماهم .

وكانت ترى الخيرات موفورة على الأرض ، وقرى الشعب مع ذلك يعيش في العوز والجرمان . انه نصف جائع الى جانب ثروات هائلة لا يمكن حصرها . وفي المدن تقوم معابد تعج بالذهب والفضة ، ويحار الله ماذا يفعل بهذه الكنوز ، في حين يحتشد البؤساء في ساحات هذه المعابد وهم يرتجفون ، ويتنظرون ان قدس في اكفهم المدودة سحابت الاحسان .

وكانت قد رأت من قبل هذا المشهد ، رأت الكنائس وحلل الكهنة الموشاة بالذهب ، وأكواخ المعدمين ، وأسماعهم الخنزيرة ، ولكن ذلك كان يبدو لها امراً طبيعياً . اما الآن فإنها تجد هذا الوضع شيئاً مهيئاً لا يطاق ، ولا يرتضيه الفقراء الذين يحبون الكنيسة ، على ما تعلم ، اكثر مما يحبها الأغنياء ، ويرونها ضرورية لهم

اكثر من اولئك .

وكانت تعرف من الصور التي رأتها للمسيح ، والقصص التي سمعتها عنه ، انه كان صديقاً للفقراء . لقد كان يلبس ببساطة . . . ولكنها تراه في الكنائس التي يقبل عليها الفقراء ليلتمسوا العزاء ، تراه راسقاً في سلاسل من ذهب بطر ، اسير حرير يهيف بازدراء حين يبصر البائسين . وكانت كلماته وبين تقفز الى ذاكرتها :
" لقد استخدموا حتى الله لكي يخذلونا !

ودون ان يخارها شك بذلك اخذت قفيل من صلواتها ، وتكثر من التفكير بالمسيح ، وبأولئك الذين كانوا يعيشون ، كما يبدو لها ، وفق تعاليمه ، وإن كانوا عن ذكر اسمه ، او تظاهروا بعدم معرفته ، اولئك الذين كانوا مثله يعتبرون الأرض مملكة للفقراء ، ويبغون ان توزع بين الناس بالعدل ، ثروات العالم كلها . وكانت تفكر في هذا كثيراً ، فتنمو هذه الحاطرة في نفسها ، وكانت هي بدورها تعمقها ، وتقيم نوعاً من الترابط بينها وبين كل ما تقع عينها عليه . وكانت هذه الأفكار تنمو ، وتتخذ شكلاً وضاءً لصلاة تسبغ نورها على العالم العيوس ، على الحياة كلها ، والمخاوف كلها . وكان يخيل للأم ان يسوع ، الذي احبته من قبل حبا غامضاً ، وبعاطفة معقدة يختلط فيها الأمل بالرهبة ، والحنان بالأسى ، كان يخيل اليها ان يسوع هذا هو الآن اقرب اليها من ذي قبل ، وأنه قد تغير فأمسى اكثر سمواً ووضوحاً ، حتى لكأنه قد بعث حقاً بعد ان غسله ، وملاه حياة ، ذلك الدم الحار الذي يسفحه بسخاء من اجله ، من اجل هذا الصديق البائس للناس ، اولئك الذين يمنهم الحقر من التلطف باسمه .

وكانت الأم تعود من رحلاتها هذه سعيدة متأثرة بما رأت وسمعت خلال الطريق ، ويبعث فيها الشجاعة وحسن الرضى ، شعورها بانها قد قامت بعملها على خير وجه . وفي المساء كانت تقول لنيقولا :

- جميل ان يسافر المرء الى كل مكان ، وأن يرى كثيراً من الأشياء . إنه بذلك يدرك كنه الحياة . لقد عزل الشعب ونحني جانباً ، فألقى مهاناً ، ولكنه لم يتقبل ذلك مختاراً ، فهو يسائل نفسه ، لم يراد لي ان اظل معزولاً ؟ لم اجوع

وفي احد الأيام رجع نيقولا ، وهو المعروف بدقة مواعيده ، رجع من مكتبته متأخراً على غير عادته ، وقبل ان يخلع معطفه ، قال بعنف وهو يفرك يديه بانفعال :

هل عرفت ؟ لقد هرب احد رفاقنا اليوم من السجن . ولكن من هو هذا الذي هرب ؟ هذا ما لم اوفق الى معرفته .
فترنحت الأم ، وقد سيطر عليها الانفعال ، ثم جلست وسألت مغفمة :
- أيمن ان يكون الهارب بول ؟؟
وهز نيقولا كتفيه قائلاً :

- هذا ممكن .. ولكن كيف يمكن ان نساعد على الاختفاء ؟ وأين نستطيع العثور عليه ؟ لقد جبت الشوارع عليّ ألثقي به ... فكان ذلك بلاهة مني ، ولكننا على كل حال يجب ان نفعل شيئاً ... وما أنذا أخرج ثانية .
وصاحت الأم : وأنا ايضاً .
واقترح نيقولا : اذهبي إذن الى ايفور ، وتسقطي لنا الأخبار ...
ثم توارى سريعاً .

وألقت على رأسها غطاءً ، ثم خرجت في اسره محدوها الأمل وتسير مضطربة ، وقلبي يخفق بسرعة وعنف ، حتى لتكاد تنطلق عدواً . لقد كانت تسير لتواجه المحتمل مطأطئة الرأس لا ترى شيئاً مما حولها ؛ وكان هذا الأمل الوامض يدفعها الى الأمام :

- سوف أصل ، وأجده هناك .
وكان الجو حاراً ، وكانت هي تلهث من التعب . وعندما وصلت الى اسفل السلم المؤدي الى منزل ايفور توقفت وقد خانتها قواها فلم تعد تستطيع التقدم ؛ وارقدت الى الوراء ، وندت عنها صرخة دهشة مكتوبة ، ثم اغمضت عينيها لحظة فخيّل اليها انها ترى نيقولا فيسويكوف قرب الباب ، ويداه في جيبه ؛ ولكنها عندما فتحتها لم ترى احداً ، فقالت في نفسها :

والخير دافق ؟ لم انا بهم جاهل ؟ في حين تنتشر المعرفة في كل مكان ؟ ابن هو الله الرحيم الذي لا فقراء ، في عرفه ، ولا اغنياء ، بل الناس جميعاً بالنسبة له ، أبناء اعزاء ؟ لقد بدأ الشعب يثور شيئاً فشيئاً على الحياة التي يحياها ؛ انه يشعر ان الجور سيخفقه إذا لم يأخذ هو بنفسه قضيته بين يديه .
وكانت تستشعر رغبته طاغية متنامية في ان تتحدث الى الناس بلغتها ، ان تحدثهم عن مظالم الحياة ، وكان من العسير عليها أحياناً ان تلجم هذه الرغبة . وكان نيقولا يفاجئها وهي تتملى الصور ، فيبتسم ، ويقص عليها قصصاً كانت ترميها دائماً بالذهول .
وكانت تسأله وقد جبهتها قسوة المشاكل التي يطرحها الناس ، تسأله بلهجة متشككة :

- ولكن هل هذا ممكن ؟
وكان يصور لها بصبر ، وإيمان لا يتزعزع بصدق نبوءته ، يصور لها الغد كحكاية من حكايا الجن وعيناه الطيبتان ترنوان اليها من خلال نظارتيه :
- إن رغبات الانسان لا حدود لها ، وقوته لا تنفد ابداً ، ولكن العالم لا يقتني بالفكر إلا ببطء شديد ، فكل انسان مجبر لكي يتحرر ، ان يكسب المال ، بدلاً من المعرفة ، ولكن عندما يقضي الناس على شرمهم ، عندما يتحررون من عبودية العمل الإجباري ...
وقلما كانت بيلاجي تفهم معنى اقواله هذه ، إلا ان حس الايمان الصافي الذي يلهب هذه الأقوال ، كان يقربها دوماً من فهمها . لقد كان يقول :

- ان الأحرار على هذه الأرض قلة ضئيلة جداً ، وهذا هو سر شقاها .
وكانت تفهم هذا ، فهي تعرف كثيرين تحرروا من الجشع والخبث ، وتعتقد انه لو زاد عدد هؤلاء الناس ، فإن وجه الحياة الرهيب العبوس سيندو اجمل وأكثر بشاشة وإشراقاً وبساطة .
وكان نيقولا يحجب بأمره :

- إنما يرغم الإنسان على القسوة . وتهز هي رأسها موافقة . وتذكر كلمات البيورومي .

— لقد كان ذلك مجرد رؤيا !

وصعدت السلم وهي تصيح بسمعها ، وفي الساحة تحتها تعالى وقع "اخسر من
لخطى بطيئة فتوقفت ، وانحنت تنظر ، فإذا بها تبصر من جديد ، الوجه المجدور
يبسم لها ، فصاحت ، وهي تنحدر للقائه ، في حين كان قلبها ينقبض خيبة :

— نيقولا ... نيقولا .

وقال لها بصوت خفيض وهو يشير بيده :

— كلا ... اصعدي ... اصعدي .

وتسلقت السلم بسرعة ، ودخلت على ايغور ، فرأته ممتدداً على مقعد ،

فغمغمت وهي تلهث :

— لقد هرب نيقولا من السجن .

وسأل ايغور بصوته الصافر ، وهو يرفع رأسه عن الوسادة :

— ايها ... فهناك اثنان يميلان هذا الأمر .

— فيسوشيكوف . لقد جاء الى هنا .

— عظيم .

وكان فيسوشيكوف قد دخل ، وأقبل مزلاج الباب ، ونزع قبضته ، وراح

يضحك يهدوء ، ويمسد شعره ، فاتكأ ايغور على مرفقيه ، وسعل وهو يهز رأسه :

— مرحباً بك .

وتقدم فيسوشيكوف من الأم ، وعلى شفقيه ابتسامة عريضة ثم اخذ يدها :

— لو لم اراك لكان عليّ ان اعود الى السجن ، فانا لا اعرف احداً في المدينة

ولو عدت الى الضاحية لقبض عليّ حالاً . لقد قلت لنفسى وأنا اهم على وجهي :

أيها الخبيث ... لم أقدمت على الهرب ؟ وفجأة لحت بيلاجي تسير مفرعة ...

فلحقت بك .

وسألته الأم :

— كيف استطعت الهرب ؟

فجلس بلا مبالاة على حافة المقعد ، وقال وهو يشغل كتفيه 'مخرجاً' :

— لقد كانت مناسبة ... كنت اتمشى في باحة السجن ، فإذا بالسجناء ينهالون

على الحارس ضرباً . إنه دركي قديم 'طرد من وظيفته من اجل سرقة ارتكبها .

وكان يتجسس ، ويحيل حيوات الناس الى جحيم ... لقد طرحوه ارضاً وجلسوا

فوقه ... ياله من خليط عجيب ، وخاف الحراس فتراكضوا وهم يصفرون ،

ورأيت انا الباب الحديدي مشرعاً ، وورائه الساحة والمدينة ، فخرجت على مهل .

كأني في حلم ... وعندما ابتعدت قليلاً اخذت اسائل نفسي : اين اذهب ؟

وتلفت نحو السجن ، فإذا ابوابه قد اقفلت .

ومهم ايغور :

— هم هم ... حسناً يا سيد . لقد كان عليك ان تعود فتطرق الباب بأدب

وتتوسل إليهم ليسمحوا لك بالدخول ، وتقول لهم : المعذرة ... لقد كنت شارداً

الفكر قليلاً ...

وابتسم فيسوشيكوف وأردف :

— نعم ... إنها لحماقة ، خصوصاً وقد اسأت التصرف مع الرفاق ، اذ كان عليّ

ان اقول لهم شيئاً قبل خروجي ... وعلى كل حال .. فلقد ابصرت في

الطريق جنازة لطفل ، فسرت وراء النعش مع المشيعين ، وطأطأت رأسي ، ولم

اتلفت حولي ابدأ ؛ ولبثت بعض الوقت في المقبرة ، فأتاح لي مكثي القصير هناك

ان اتنشق الهواء ... ثم جاءني فكرة ...

وقال ايغور : فكرة واحدة فقط ؟

ثم أضاف باسماً : أعتقد ان هذه الفكرة لم تكن في حرج ...

ولم يفضب فيسوشيكوف بل راح يضحك :

— اوه ... إن رأسي لم يكن فارغاً كما كان من قبل ... وأنت يا ايغور

اتظل مريضاً ابدأ ؟

وأجاب ايغور وهو يسعل سعالاً لزجاً :

— كلّ يعمل ما في طاقته ان يعمل . اكمل .

- وبعد ذلك ... ذهبت الى المتحف؛ ووطفت فيه على غير هدى، وتفرجت، وكنت افكر طوال الوقت : اين سأذهب الآن؟ ونقمت على نفسي، وكنت اعاني اشد الجوع فخرجت، وسرت وأنا اشعر بالأفعال بهزني. ولاحظت ان رجال الشرطة كانوا يراقبون الناس جميعاً، فقلت في نفسي : اني بمثل هذه السحنة اسهل لهم التعرف عليّ وسأقع سريعاً بين «قوائم» القضاة، وفجأة ابصرت بيلاجي وهي ترقى السلم، فابتعدت قليلاً ثم لحقت بها وهذا هو كل شيء.

وقالت الأم وعلى وجهها سياء الخاطيء :

- وأنا التي لم انتبه لك؟

وكانت تتفحص فيسوشيكوف، فيخيل اليها انه امسى اقل غفلة من ذي قبل.

وقال نيقولا وهو يهرش رأسه :

- حقاً ... إن الرفاق لن يطمئن لهم بال.

وسأله ايفور :

- والجند؟ الا ترتي لهم؟ إنهم بلا ريب سينزعجون!

وفقر فاه وراح يحرك شفتيه كأنه يمضغ الهواء، وتابع :

- يكفي مرأحاً، وعلينا الآن ان نجبتك ... إنها مهمة لليلة ولكنها

ليست باليسيرة. ليتني استطيع النهوض.

وأخذته نوبة ضيق في التنفس، فرفع يديه الى صدره، وراح يدلّكه بعناء.

وقال نيقولا ان مريضك لشديد يا ايفور ...

ثم طأطأ رأسه.

وزفرت الأم وأجالت بصرها الكئيب في جوانب الغرفة الضيقة، ورد

ايفور : ذلك من شأني انا ... إسماليه، يا أماء عن بول ولا تتغاي.

وابتسم فيسوشيكوف ابتسامة عريضة حتى اذنيه :

- اما من ناحية بول فهو يتمتع بصحة جيدة. إنه رئيسنا الى حد ما،

وهو الذي يناقش الإدارة، وبصورة عامة هو الذي يصدر الأوامر؛ ويحظى

باحترام الجميع.

وكانت الأم تلتهم كلمات الشاب، وتحقق بشروء في وجه ايفور المنتفخ المزرق، وتبدو جامدة كالقناع، كأن وجهها قد تجرد من كل تعبير؛ وكانت عيناهما وحدهما، تومضان بألق النشاط والغسطة.

وصاح نيقولا فجأة :

- ليتكما تعطيانني شيئاً آكله، فانا جد جائع.

- اماء، يوجد على الرف خبز، وبعد ذلك ... سيدي في المشى واقرعي

الباب الثاني الذي تجدينه على يسارك، وستفتح لك امرأة، فاطلي إليها ان تأتي

الى هنا، وأن تحمل معها كل ما لديها من طعام.

واعترض نيقولا :

- ولم تحمل كل ما لديها؟

- لا تهج كبدك ... فإن ما عندها ليس بالشيء الكثير.

وخرجت الأم وقرعت الباب المعين، وأصاحت بسمعا وهي تفكر حزينة:

- إنه يموت ...

وارتفع صوت من الداخل :

- من الطارق؟

وأجابت الأم بصوت خفيض :

- إني آتية من قبل ايفور .. وهو يرجوك ان تذهبي اليه.

وجاء الجواب دون ان يفتح الباب :

- سأتي حالاً.

وانتظرت لحظة، ثم طرقت الباب ثانية، فانفتح الباب حالاً، وظهرت على

العتبة امرأة فارعة تلبس نظارتين وسألت بلهجة جافة وهي تسوي بعنف

كفها المجدد :

- ماذا تريدن؟

- إني آتية من قبل ايفور.

- آه. آه ... هيا بنا. لقد عرفتك فرحياً .. إن الظلام هنا كثيف ..

ورمقتها بيلاجي ، وتذكرت انها كانت تراها احيانا في منزل نيقولا ، فغمغمت :
- دائما من جماعتنا .

وطلبت الى بيلاجي ان تسير امامها ، ثم سألتها :

- هل حالته سيئة ؟

- نعم ... إنه في سريره ، وهو يرجوك ان تحبلي معك شيئا من الطعام .
- اوه ... لافائدة من ذلك .

وعندما دخلتا منزل ايغور ، قال هذا والحشرات تخنق صوته :

- إني منطلق للقاء اجدادي يا صديقي العزيزة لوميل ، وهذا الفتى خرج من
السجن - يا للوقاحة - دون اذن من السلطات .. فاعطه بادية ذي بدء ما
يا كلة ، وخبثيه بعد ذلك في مكان ما .

وهزت لوميل رأسها ؛ وقالت بقسوة وهي تنفر من وجه المريض :

- كان عليك يا ايغور ان ترسل في ظلي حال وصولها ... فماذا يعني هذا
الأهمال ؟ تعال معي يا رفيقي وسنعود حالا لنقل ايغور الى المستشفى .

وسأل ايغور :

- هل انت مصرة على نقلي ؟

- اجل وسأذهب معك .

- الى هناك ايضا ؟ آه يارب .

- لا تتباله .

وسوت الشابة ، وهي تتكلم ، الغطاء على صدر ايغور ، ونظرت بامعان الى
وجه نيقولا ، وقاست بعينها كمية الدواء المتبقية في الزجاجية ، وكانت تتكلم
بصوت مترن خافت ، وكانت حركاتها لطيفة ، وفي وجهها الشاحب يسكاد
حاجباها الأسودان يلتقيان عند اعلى انفها .

ولم يعجب الأم شكلها ، فقد حكمت عليها من خلاله ، بأنها شديدة الصلف ،
ولم تك عينها تومضان ببسمة او ألق ؛ وكانت تتكلم بلهجة الأمر :

- هيا بنا ، وسأعود بعد قليل ... جرعني ايغور ملعة من هذه

الرجاجة ، وامسح به عن الكلام .

ثم خرجت وهي تأخذ بيد فيسوشيكوف .

وقال ايغور وهو يصعد زفرة :

- إنها امرأة مدهشة .. وانسانة رائعة ، وكان من الواجب ان تقيمي عندها
يا أماه .. فهي تجهد كثيرا .

وقالت الأم برقة :

- لا تتكلم .. وخذ ، اشرب .

وجرع الدواء ، واستأنف الكلام وهو يغمض إحدى عينيه :

- كان من الأفضل ألا أتكلم ، ولكني ميت على كل حال ..

ورنا بعينه الأخرى اليها ، وافترت شفتاه ببطء عن ابتسامة ، فأطرقت
الأم برأسها ، وأهاج الاشفاق الدمع في عينها :

- هذا لا يحدي فتيل ... إنه امر طيبي ، فالشبع من الحياة يحمر وراءه
ضرورة الموت .

ووضعت الأم يدها على رأسه وهمست ثانية :

- لا تتكلم ...

وأغض عينيه كأنه يصغي الى الحشرات في صدره ، ثم عاد الى الكلام بعناد .

- من البلاء ان اصمت ... وماذا يحديني الصمت ؟ بضع ثوان اخرى من

النزع .. ثم افقد بعد ذلك لذة الثروة مع امرأة طيبة . وأنا اعتقد انه ليس في
العالم الآخر قوم طيبون كناس هذا العالم .

- لقد اوشكت السيدة ان تعود ، وسوف تقرعني لانني سمحت لك بالكلام .

- انها ليست سيدة ، بل ثائرة . انها رفيقة . انها روح مشير للاعجاب .. واما

انها ستقرعك فذلك بما لا شك فيه ، فهي تقرع الجميع دائما ...

وراح ايغور وهو يحرك شفتيه باجهد وبطء راح يقص عليها حياة جارته ،

وكانت عيناه تبتسمان ، وكانت الأم تلاحظ انه يعتمد مضايقتها ، فقرنوا الى

وجهه الذي يخضله ظل ازرق اللون ، وتفكر بضيق :
- إنه يموت .

وعادت لوميلا وأصدت الباب وراءها برفق ، ثم خاطبت بيلاجي :
- على صديقك ان يستبدل ثيابه ، وأن يترك هذا المكان بأسرع ما يمكن .
وعليك الآن ان تدبري له هذه الثياب حالا ، وأن تأتي بها الى هنا . من سوء
الحظ الا تكون صوفيا هنا ... فاخفاء الناس يدخل في اختصاصها .
وقالت الأم وهي تطرح شالها على كتفها :
- انها ستصل غداً .

وكانت الأم كلما كلفت بمهمة تحس برغبة طاغية في ان تؤديها بسرعة واثقان ،
وكانت لا تستطيع ان تتحول بتفكيرها الى شيء آخر غير واجبها ، لذلك سألت ،
وهي 'مقطبة الجبن' ، مغمومة الملامح ، بادية الاهتمام :
- ماذا ترتأين ان البسه ؟

- لا اهمية لذلك ، فسيخرج من المدينة ليلاً .
- ذلك أسوأ مما لو خرج في النهار إذ يقل مرور الناس في الشوارع ويسهل
تتبعهم ... ثم إنه ليس بارعاً ...

وضحك ايفور ضحكة مبحوحة ، فسأله الأم :
- هل تسمح لي بزيارتك في المستشفى ؟

فهز رأسه وهو يسعل ، ورنث لوميلا الى الأم بعينها السوداءوين واقترحت :
- ما رأيك في ان نسهر على راحتنا بالتناوب ؟ اتوافقين ؟ حسناً اما الان ..
فأسرعني لتنفيذ مهمتك .

وأمسكت الأم من ذراعها بحركة ودودة ، ولكنها آمرة ، وسارت بها نحو
الباب ومست في اذنها وهما وراءه :

- لايفضبنك اخراجي لك ، فالكلام يضره كثيراً ، وأنا ما زال لدي
بعض امل ...

وضغطت على يديها وفرقت اصابعها في حين كانت احفانها المنهكة تنسدل

على عينيها بهياء .

وأزعج هذا التدبير الأم فغمغمت :
- ماذا تقولين ؟

وأوصتها ، بصوت خافت :
- احذري الجواسيس ...

ثم راحت تفرك صدغها بأناملها ، وكانت شفتاها ترتعشان ، وملاعها ترق .
وأجابت الأم بشيء من الزهو .
- اعرف ذلك .

وعندما اجتازت مدخل البناية توقفت قليلاً فسوّت نقابها ، وأجالت فياحولها
نظرة خاطفة مختلصة ، ولكنها حذرة ، فلقد كانت على مثل اليقين بأنها تستطيع
ان تميز اي جاسوس من بين الناس ، فهي تعرف الخطو اللامبالي ، وسهولة
الحركات المقتلعة ، وأثار التعب والضيق المرتسم في الملامح ، وانسدال الجفون
الوجل المرتبك ... فوق عيون نفاذة مغمومة .

ولم تلحظ هذه المرة ، ذلك الشبح الذي تعرف ، فاندفعت في الشارع
على مهل ، ثم استقلت عربة ، وأمرت سائقها ان يتوجه بها الى السوق . واشترت
ثياباً لنيقولا ، وساومت بإسراف ، وهي تفرق زوجها السكير بسيل من
الشتائم ، هذا الزوج الذي يجب ان يستبدل ثيابه كلها ، باخرى جديدة ؛ وفي
كل شهر تقريباً . ولكن هذه « الأسطورة » التي اخترعتها لم تحرك حس الباعة
مطلقاً ، بل شعرت هي معها بنشوة عارمة ؛ وكانت تحدث نفسها ، وهي في
الطريق ، بأن رجال البوليس يعرفون - بلا شك - ان نيقولا سيتنكر ، وأنهم
قد اوفدوا عيونهم الى السوق ، ليراقبوا .

وبعد ان اتخذت احتياطاتها الساذجة عادت الى منزل ايفور ؛ وكان عليها ان
ترافق نيقولا حتى طرف المدينة ، وأن يسير كل منهما على رصيف ، وكانت بيلاجي
تضحك ، ويبهجها ان ترى نيقولا وهو يسير بتثاقل مطأطء الرأس ، يتعثر
بأذيال معطفه الرمادي ، ويرفع قبعته التي لا تنفك تتحدر على انفه . وفي احد

الشوارع المقفرة جاءت ساندرين للقائها ، ثم قفلت الأم راجعة الى المنزل . بعد ان
حيث فيسوشيكوف بإشارة من رأسها .
وكانت تحدث نفسها :
- وبول مازال هناك ... وكذلك اندريه .

- ١٠ -

واستقبلها نيقولا ايفانوفيتش باضطراب :
- إن حالة ايفور في غاية السوء . لقد نُقل الى المستشفى وجاءت لوميللا وهي
تبرجوك اللحاق بها .
- الى المستشفى ؟
وركز نظارتيه بحركة عصبية . وساعد بيلاجي على ارتداء معطفها . ثم قال
لها بصوت متهدج وهو يشد على يدها بأصابعه الحشنة الحارة :
- خذي هذه الرزمة معك ... هل ذُبر أمر فيسوشيكوف ؟
- نعم ... فكل شيء على ما يرام .
- سوف اذهب انا ايضاً لرؤية ايفور .
وكانت الأم منهمكة ، لدرجة ان رأسها كان يدور . ثم جاءت لهجة نيقولا
الكثيية فأشعرتها بدنو الفاجعة :
« إنه سيموت » .

وكانت هذه الفكرة القاتمة تطرق رأسها بعنف . ولكنها عندما ولجت الغرفة
الصغيرة المشرقة النظيفة ، في المستشفى ، ورأت ايفور جالسا في كومة بيضاء من
الوسائد . وبسمته الحشنة تطوف على شفتيه ؛ هذا روعها في الحال . وتوقفت
عند العتبة باسمه : فسمعت المريض يقول لطيبه :
- الدواء ضرب من الإصلاح ..
ويصبح به الطبيب بصوت نحيل قلق :
- لا تتصنع الدجل يا ايفور .

- وانا ثوري أمقت الاصلاحات .
واخذ الطبيب يد ايفور بحذر (ووضعها على ركبته ثم نهض وهو يمسد لحيته
سام الملامح ، ونحس بأصبعه التورمات في وجه المريض .
وكانت الأم تعرف الطبيب جيداً ، فهو من اخلص اصدقاء نيقولا ، ويدعى
ايفان دانيلوفيتش . ودنت من ايفور الذي مد لها لسانه ، اما الطبيب فالتفت
اليها قائلاً :

- اوه نيلوفنا ... صباح الخير . ماذا تحملين في يدك ؟
- كتباً بلا ريب .
وقال الطبيب الصغير :
- يجب الا يقرأ ابداً .

واحتج ايفور : إنه يريد أن يجعل مني إنساناً غيباً .
ودنت من صدره زفرات بسيطة أليمة ، رافقتها حشجة بلغمية خشنة ،
وكان وجهه يكتسي بقطرات صغيرة من العرق ؛ ويداه ترتفعان ببطء ثقيلتين
عصيتين ، ليمسح بها جبهته . وكان الجمود الغريب الذي يرين على وجنتيه
المتورمتين يشوه وجهه المريض الوسيم ، فلقد توارت ملاحه كلها تحت قناع
ميت ، وظلت عيناه الغارقتان في الورم ، تبتسان بسماح ، وتنبعث منها
إرثاء وضاءة .
وسأل طبيبه :

- هيه يا رجل العلم .. إني تعب قبل استطيع ان اتد ؟
واجاب الطبيب بإيجاز :
- كلا ...

- حسناً ، سأنتد عندما تذهب .
- لا تسمح لي بذلك . إرفعي له الوسائد ، وارجو الا تتحدثي معه ،
فالكلام يؤذي .

وهزت الأم رأسها بالإحباب ، ومضى الطبيب بخطى سريعة قصيرة ، وألقى

ايغور رأسه الى الوراء ، واغمض عينيه ، وظل بلا حراك ، وكانت أنامله وحدها
ترتمش برفق .

وكانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء تبعث في الجو نسمات من البرودة .
الجافة والحزن الكئيب ، واغصان الزيزفون السامقة الظليلة تحدد في الداخل ،
من النافذة الواسعة ، وعلى الأوراق القائمة المغمرة ، تلتصق بقع صفراء وضاءة
هي البواكير الباردة للخريف الوليد .

وغمغم ايغور دون ان يتحرك او يفتح عينيه :

— إن الموت يقترب مني ببطء وهو آسف . ويبدو انه يشفق عليّ بعض
الاشفاق ، فلقد كنت فتى اجتماعياً .

وتوسلت اليه الأم وهي تداعب يده بلطف :

— يجب ألا تتكلم يا ايغور .

— مهلاً ، فعلاً قليل سأصمت .

وتابع ، وهو يلث ، ويلفظ الكلمات بجهد ، ويخرجها مقاطع مقاطع :

— انه جميل ان تكوني معنا ، وحسن ان نرى وجهك . لقد ساءلت نفسي

حين رأيتك : نرى ماذا سيكون مصيرها ؟ وانه لحزن ان أفكر ... بأن

السجن وشتى ضروب العنت هي التي تنتظرك ، تنتظرك أنت كما تنتظر الجميع .

ألا ترهبين السجن ؟

واجابت ببساطة :

— كلا .

— هذا اكيد ، ومع ذلك فالسجن شيء رهيب ، إنه هو الذي هدّ كياني .

واذا اردت الصراحة ، فانا لا اود ان أموت .

واحببت ان تقول له : « قد لا تموت » ولكن نظرة خاطفة الى وجهه

أجلبتها الى الصمت .

— لقد كان باستطاعتي ايضاً ان اعمل . ولكن اذا لم يك ذلك مستطاعاً فلم

العيش ؟ إن هذا لمنتهى الغباء .

ولمعت في ذاكرتها ، بلا وعي ، عبارات اندرية ؛ فزفرت بألم :

« هذا صحيح ... ولكنه ليس عزاء . »

وكانت قد سلخت نهاراً منهكاً ، وغصها الجوع ، وكانت حشرة المريض
الرتيبة البلغمية ، تملأ الحجرة ، وتزلق بجهد على الجدران الملساء ؛ وكانت ذرى
اغصان الزيزفون تلوح وراء النافذة ، كغيوم انحدرت نحو الأرض ، وحومت
منخفضة ، وراحت تقبلاً العين بلونها الحزين القاتم ؛ وكان كل شيء يسيطر عليه
الجمود المظلم بشكل غريب ، بانتظار الليل .

وقال ايغور : لكم أشعر بسوء حالي !

واغمض عينيه ، وصمت .

ونصحته الأم : ثم ، فلعل ذلك يحمل اليك بعض الراحة .

ثم راحت تصفي الى انفاسه ، وتتلقت حوالها ، وظلت على هذه الحال ،
بضع دقائق دون ان تتحرك ، يتأكلها حزن كالح ، الى ان استولى عليها النعاس ؛
ولكن جلبة مكبوتة عند الباب أجفلتها ، فتطلعت ، فإذا ايغور ما زال
مفتوح العينين .

وقالت له همساً :

— لقد استولى عليّ النعاس فسامحي .

واجابها برقة : وأنت ايضاً سامحيني .

وعند النافذة كان المساء يهبط ، وقلق بارد يعصر الأعين فيبته كل شيء

بشكل غريب ، ويتجهّم وجه المريض .

وسمع حفيف ، ثم تبعه صوت لوميل :

— انها يجلسان في الظلام ويتوششان ؛ فأين مفتاح النور ؟

وفجأة غمر الحجرة نور أبيض كزهر ، واذا بلوميل امامها فارعة منتصبه ،

يحملها السواد .

وسرت الرعدة في كيانه ايغور كله ، ورفع يده الى صدره ، وصاحت لوميل ،

وهي تمدو نحوه :

— ماذا أصابه ؟

وكان يرنو الى الأم بعينين جامدتين تبدوان واسعتين متالقتين ، ورفع رأسه وهو فاغر الفم ، ومد يده الى الامام ؛ فأخذتها الأم برقة ، وحدقت به ، وهو يسلاً أنفاسه ، وبجركة تشنجية ، ألقى برأسه الى الوراء ، وقال بصوت مرتفع :
— لا أستطيع لقد قضي الأمر ...

وتشنج جسده قليلاً : وتدلى رأسه برفق على كتفه ، وانعكس الضوء البارد ، ضوء المصباح المعلق فوق السرير ، في عينيهِ المفتوحتين على اتساعها ، وانبعث منها بريقاً ميتاً .
وغغمت الأم :

— ايغور ، يا صغيري ...

وابتعدت لوميلاً عن السرير ببطء ، ووقفت بالقرب من النافذة ، وقد ضاع بصرها في المجهول ؛ وصرخت بصوت قوي هائل لم تألفه بيلاجي من قبل :

— لقد مات ..

وانحنت فأسندت مرفقيها الى النافذة ، ثم هوت راكعة الى الارض وقد هدها الإعياء ، كأن ضربة شديدة نزلت على رأسها ، وغمرت وجهها بكفيها ، وراحت تتحبب بصمت ..

وشبكت الأم ذراعي ايغور المتناقلتين فوق صدره ، ورفعت الى الرسادة رأسه الشديد الثقل ، ثم دنت من لوميلاً وهي تكفكف دموعها ، وانكبت عليها تمسح شعرها الكثيف بلطف ، فأدارت المرأة الشابة نحو الأم ببطء ، عينيها الحابيتين المتسعيتين المآقي ، ثم نهضت وتمتمت بين شفيتها المرتعشتين :

— لقد كنا معاً في النفى ، وعشنا فيه معاً . وضحمتنا معاً نفس السجون وكان ذلك سبجاً ، فوق الإختال أحياناً ، وكان الكثيرون يفقدون شجاعتهم
وشدت الغصة الجافة حنجرتها ، ولكنها تمالكت نفسها يجهد ، وأدنت من الأم وجهها الودييع الهادئ ، وقد ارتسمت على ملامحه مسحة حنان وألم ؛ واستأنقت بغمغمة عجلى ، وزفرات لا تواكبها الدموع :

— وكان هو دائم المرح لا يعتور مرجه وناء . وكان يمزح ويضحك فيخفي بذلك آلامه . وكان يجهد نفسه ليرد على الضعفاء شجاعتهم ، وكان كثير الطيبة شديد الحساسية .

وهناك في سيبيريا ، كانت البطالة تفسد الناس ، وتبعث فيهم غالباً الاحاسيس المنحطة ... أما هو فكان يعرف كيف يحارب هذه الاحاسيس . لو عرفته ، لعرفت اي رفيق كان . لقد كانت حياته الخاصة شقية أليمة ، ولكن احداً لم يسمعه ابدأ يضح بالشكوى . لم يسمعه احد ابدأ . لقد كنت صديقة حميمة له ، وإني لمدينة له بالشيء الكثير . فلقد وهبني من عقله كل ما استطاع ان يهب . وكان وحيداً متعباً ، ولكنه لم يطلب اليّ يوماً مقابل ما اعطى ، لم يطلب اليّ ابدأ أن أبادله اهتماماً بأهتمام ، وعاطفة بعاطفة .

واقتربت من ايغور ، وانحنت تقبل يده ، وتقول بصوت خافت حزين :
— يا رفيق ، يا رفيقي الغالي الحبيب . شكراً لك . شكراً لك من كل قلبي ، ووداعاً .. سأعمل كما علمت أنت ، دونما كلل ، وبأيمان لا يتزعزع ... سأعمل طوال حياتي ... فوداعاً ..

وهدهتها الزفرات وخنقتها ، فألقت برأسها على السرير عند اقدام ايغور وكانت الأم تسفح دموعها الغزيرة بصمت ، وتحاول ان تكفكفها لسبب لا تدريه ؛ وودت ان تسبغ على لوميلاً من حنانها ، وان تبرهن لها عن عاطفة خاصة عميقة ؛ وان تحدثها عن ايغور بعبارات تفيض محبة وأسى ؛ وكانت ترون من خلال عبراتها الى وجه الميت المتورم ، الى عينيهِ اللتين تبدوان كأنها تغفوان تحت اهدابه المسبلة ، الى شفتيهِ القاتمتين اللتين تجمدت فوقها بسمة خفيفة . وكان كل شيء يلفه الصمت ، تحت نور المصباح ، هذا النور الذي يشيع الضجر والسأم ..
... ودخل الطبيب بخطواته العجلى كعادته ، ولكنه توقف فجأة في وسط الحجرة ، وبجركة سريعة دس يديه في جيوبه وسأل بصوت نزق صارخ :

— أمتد وقت طويل ؟

ولم يتلق جواباً ، فترنح قليلاً ، ودنا من ايغور وهو يسح جبهته ، ثم اخذ

يده ، فضغط عليها وارقد الى الورا .

- ليس ذلك بمستغرب .. فلقد كان قلبه تعباً ، وكان هذا المصير منتظراً منذ ستة اشهر على الأقل .

وفجأة خفت صوته الحاد ، المضطرب الرنة ، وراح ، وقد اسند ظهره الى الجدار ، يمسد لحيته بأصابعه المضطربة ، ويرنو الى السيدتين الجائمتين قرب السرير واجفانه ترتعش باستمرار . وقال بهدوء :

- وهذا رفيق آخر نفقده !

ونفضت لوميلاً ، ودنت من النافذة فشرعتها ، وبعد لحظة كان الثلاثة قد اكتظوا أمامها يحدقون في وجه الليل الحريفي المظلم ، وكانت النجوم تتلألأ فوق ذري الاشجار السوداء ثم تغيب في اللانهاية ، في المدى البعيد للساعات .

وأمسكت لوميلاً بخصر الأم ، واستندت الى كتفها دون ان تتفوه بكلمة ، وكان الطبيب يسمح بنظاريته بتدبيله وهو مطرق ، وكان ضجيج المدينة الليلي يتنهد ، والنسيم البارد يتنفس في وجهه ، ويداعب شعره . واعترت لوميلاً الرعشات ، وانسابت على خدها دمعة ، وفي ردهة المستشفى كانت تهم اصوات مشوشة وجلة ، ويسجع وقع خطى مسرعة ، ونحيب ووشوشة حزينة . وكان الرفاق الثلاثة جامدين امام النافذة ، يحدقون في الظلمات صامتين .

وشعرت الأم بان وجودها غير ضروري فسحبت ذراعها بلطف من يد لوميلاً ، وتوجهت نحو الباب ، وانحنى امام ايفور .

وسألها الطبيب بصوت خافت ، دون ان يلتفت اليها :

- أنت ذاهبة ؟

- نعم .

وفكرت وهي في الشارع بلوميلاً وذكرت دموعها الشحيحة :

- إنها لا تعرف ... حتى كيف تبكي .

واطلقت الكلمات الأخيرة التي لفظها ايفور العنان لزفرتها ، وتحملت وهي تسير بخطى بطيئة ، عينيها المشتعلتين ، واستعادت في ذاكرتها مزاحه واحاديثه .

- ان حياة الرجل الطيب أليمة ، وموته يسير ... فكيف ستراني أموت ؟ ثم تحملت لوميلاً والطبيب منتصبين بالقرب من النافذة ، في الحجرة البيضاء التي يغمرها الضياء وعينا ايفور الخامدتان وراءهما ، فأجتاحها إشفاق مرهق ، أطلق من صدرها زفرة عميقة ، ثم انطلقت مسرعة ، يدفعها إحساس قائم لا تعرف كنهه .

وتمتت وهي تستكين لقوة داخلية يمتزج فيها الأسى باليأس :

- يجب أن أعد نفسي .

- ١١ -

وقضت الأم يومها التالي منهكة باعداد الترتيبات اللازمة لتشييع ايفور ، وفي المساء ، بينما كانت تتناول الشاي مع نيقولا وصوفيا ، أقبلت ساندرين نشيطة صخابة بشكل مثير للدهشة ، وكانت ملتزمة الوجنتين يبرق النشاط في عينيها ، وبدت للأم كأن هناك رجاء فرحاً يغمها ، ولم يلبث مزاجها اللطيف ان شن هجوماً ضارياً ضاحكاً على جو الأسى الذي تملأه ذكرى الراحل ؛ فأربكته ساندرين ، ولم تنفمس فيه ؛ وطرفته كالشعلة حين تتلألأ فجأة في قلب الظلمات .

وقال نيقولا وهو ينقر على الطاولة ساهماً :

- لست اليوم كمادوك يا ساندرين .

واجابت : صحيح ؟ ربما .

ثم أطلقت ضحكة فرحة .

ونظرت اليها الأم نظرة توبخ صامت ، ونبهتها صوفيا بنبرة ذات مغزى :

- كنا نتحدث عن ايفور ...

واندفعت ساندرين :

- يا له من رجل مدهش ... أليس كذلك ؟ ان لم أره مطلقاً إلا والبسمة على شفثيه او المزحة . ويا لله كم كان يعمل . لقد كان فنان الثورة ، يعي النظرية

تحنني الفرح ، وتسكرني بتعقدها المدهش ، وتنوع ظواهرها ، وتقدم الافكار
الغالية على قلبي . ربما كنا جميعاً شديدي الحرص على مشاعرنا ، نخفيها ونعيش
بالفكر ونسرف ، وهذا ما افسدنا بعض الشيء ، إذ إننا نفكر بدلاً من
ان نحس .

وسألته صوفيا باسمه :

— هل وقع لك حادث سعيد ؟

وضحكت ساندريين ، واجابت بهزة من رأسها :

— نعم ... حادث سعيد جداً ؛ كما اعتقد . لقد تحدثت طوال الليل مع
فيوشيكوف وكنت من قبل ، لا احبه ، إذ كنت أحسبه بدائياً فظاً ، ولقد
كان كذلك بالفعل . لقد كان يحقد على الدنيا حقداً قائماً ، لا يتزعزع ، ويضع
نفسه دائماً في نقطة المركز من كل قضية ، وبطريقة مؤلمة مثيرة للسخط . وكان
يتبجح : أنا ، أنا ، أنا ...

وما هذا إلا إحساس برجوازي حقير مثير للكرهية .

وابتسمت ثم أجالت فيما حولها نظرة مشعة :

— اما الآن فهو يتحدث عن « رفاقه » . وحبذا لو تسمعونه كيف يلفظ
هذه الكلمة بانفعال ورقة وودود ، لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات . لقد اضحى
بسيطا كل البساطة ، مخلصاً ، تقعه الرغبة في ان يتقن عمله . لقد وجد نفسه ،
وتبين قوته وعرف ماذا ينقصه . ويكفي ان يكون شعور الزمالة ، على الأخص ،
قد ولد فيه .

وكانت بيلاجي تصغي الى ساندريين ، ويسعدها ان ترى الفتاة القاسية رقيقة
فرحة ، ولكن فكرة غيوراً كانت في الوقت نفسه تولد في اعماق نفسها :

— وبول ؟ أين هو من كل هذا ؟

واستأنفت ساندريين كلامها :

— ان هم الوحيد الآن ينحصر في رفاقه . اقتدرون بماذا اقتنعي ؟ لقد اقتنعي

الثورية كمعلم عظيم . وبأية بساطة وقوة كان يرسم لوحة الكذب والكبت والجور .
وكانت تتكلم بصوت خافت ، وفي عينها بسمه حاملة لم تطفئ في نظرتها
لهب البهجة ... هذه البهجة التي كان الجميع يقرأونها ، دون ان يفهموا احد منهم .
وكان الحزن يسيطر عليهم ، فلم يستسلموا للبهجة التي حملتها ساندريين ، وكانوا
بصورة لا واعية ، يدافعون عن حقهم المرير في التغذي من المهيم ، ويحاولون
لا شعورياً ان يحرروا الفتاة لتشاركهم مزاجهم الحزين .
وقالت صوفيا وهي تتطلع الى ساندريين بيقظة :

— وما هو ذا قد مات .

فأجالت ساندريين في وجوه الرفاق نظرة متسائلة ، وقطبت حاجبيها وطأطأت
رأسها بصمت ، ثم ردت شعرها المتهدل الى الوراء بحركة بطيئة ، ورددت بصوت
مرتفع ، بعد لحظة صمت :

— لقد مات .

ومن جديد راح بصرها المستغفر يطوف بالحاضرين :

— وماذا يعني ذلك ؟ لقد مات . وما الذي مات ؟ هل مات تقديري لا يغور ؟

هل مات شعوري نحوه ؟ نحو الرفيق ؟ هل ماتت ذكرى صنيع افكاره ؟ هل
مات هذا الصنيع نفسه ؟ هل انطفأت تلك المشاعر التي ايقظها في ؟ هل اتحت
تلك الصورة التي رسمتها له في ذهني ؟ صورة الانسان الباسل الشريف ؟ هل مات
هذا كله ؟ .. كلا ان ذلك ، في نظري ، لا يموت أبداً . اعرف ذلك ، ويبدو
لي اننا نتسرع كثيراً حين نقول عن انسان ما ، انه مات . لقد ماتت شفتاه ،
ولكن كلماته ما برحت حية ، وستظل الى الأبد ، حية في قلوب الاحياء .

وعادت فجلست ، وقد سيطر عليها الانفعال الشديد ، واستندت مرفقها الى
الطاولة ، ثم تابعت مبتسمة ، وهي اكثر هدوءاً وسهوماً ، تابعت ، وهي تلقي على
رفاقها نظرة غائمة :

— ربما كان ما قلته مجرد حماقات ؛ ولكنني أؤمن أنها الرفاق بخلود الشرفاء ،

بخلود أولئك الذين وهبوني السعادة في ان احيا حياتي الرائعة ، هذه الحياة التي

بأن انظم حركة فرازم ... نعم ... وقال ان ذلك بسيط جداً وسهل .

ورفعت صوفيا رأسها ، وقالت بلهجة قوية :

— و انت ماذا تقولين في ذلك يا ساندريين ؟ انه أمر يستلزم التفكير .

وراح قدح القهوة يرتعش في يد الأم ، واكتد وجه ساندريين وحاولت ان تخفي انفعالها ، وبعد ان صمتت لحظة ، تابعت بلهجة مغيظة وهي ترتبكة ، إلا ان بسمة الاغتياب كانت رغم ذلك ، تلوح على شفتيها :

— اجل ... كل شيء هو كما قال في الواقع . ويجب ان نحاول . هذا هو واجبنا .

وتضرج وجهها ثم سكنت .

ونغممت الأم باسمه : يا عزيزي ، يا عزيزي .

وابتسمت صوفيا بدورها ، واطلقت نيقولا ضحكة خفيفة ، وراح يتأمل الفتاة برقة ، اما هي فقد رفعت رأسها ، ورننت اليهم بقسوة ، وقالت بصوت غاضب ، وهي شاحبة اللون متألفة العيينين :

— انكم تضحكون ، وانا افهمكم .. انكم تعتقدون ان هناك دافعا شخصيا يدفعني !

ونفضت صوفيا ، ودنت منها ، وسألته بنجبت :

— ولم يا ساندريين ؟

— ورأت الأم في السؤال تحدياً لساندريين واهانة لها ، فزفرت ، وتطلعت الى صوفيا ، وفي ملاعها تقريع .

وصاحت ساندريين :

— إني ارفض ، ارفض النقاش في هذا الموضوع إذا شئت بحته .

وقال نيقولا بهدوء :

— كفى يا ساندريين .

ودنت الأم منها وراحت تداعب شعرها برقة ، فامسكت ساندريين يدها ، ورننت اليها بارتباك ، وهي ترفع نحوها وجهها المتضرج . وابتسمت بيلاجي لها ،

ثم تنهدت بألم بعد ما أعياما أن تجد ما تقوله ، وجلست صوفيا الى جانب ساندريين وطوقت عنقها بذراعها ، وقالت لها وهي تحدق بها ، وتبتسم بفضول :

— لكم انت غريبة .

— أجل ... فانا اعتقد اني تفوهت بمحادثات كثيرة ..

وتابعت صوفيا :

— كيف استطعت ان تفكري ...

ولكن نيقولا قاطعها قائلاً بلهجة فيها وقار واهتمام :

— إذا كان الفرار ممكناً فيجب أن ننظمه ، ولا مجال للتردد . ولكن علينا

قبل كل شيء ان نعرف ما إذا كان الرفاق السجناء يوافقون على ذلك .

واطرقت ساندريين ، وتطلعت صوفيا التي كانت تشعل لفافتها ، الى اخيها ثم قذفت بعود الثقاب الى زاوية من زوايا الحجر .

وزفرت الأم :

— ولم لا يوافقون ؟ أما انا فلا اعتقد ان الفرار ممكن .

وصمتوا جميعاً ، وكانت بيلاجي ترجوا أن تسمع صوتاً واحداً يؤكد لها إمكانية الفرار .

وقالت صوفيا : يجب أن اقابل فيدوشيكوف .

وردت ساندريين : سأخبرك غداً متى وأين تستطيعين مقابلته .

وسألت صوفيا وهي تذرع أرض الغرفة :

— ماذا يود أن يفعل ؟

— لقد تقرر الاحتفاظ به كعامل لمصف الاحرف في المطبعة الجديدة ؛ وسيقيم بانتظار ذلك ، في منزل أحد حراس الغابات .

وتجهج وجه ساندريين ، واستعدادات ملامح هذا الوجه قسوتها ، واسترد صوتها جفافه ، واقترب نيقولا من الأم التي كانت تفصل الأقداح وقال لها :

— سنذهب الى السجن بعد غد ، فمن الضروري أن توصلي لبول قصاصة من الورق .. أفهمت ؟ يجب معرفة ..

واجابت الأم بحماية :

— لقد فهمت ... لقد فهمت ... وما وصلها اليه .

واعلنت ساندريين :

— إني منصرف الآن .

وخرجت منتصبه القامة ، مقطبة ، وسارت بخطى ثابتة بعد ان صافحتهم جميعاً واحداً بعد واحد .

ووضعت صوفيا يدها على كتف الأم وسألتها باسمه :

— هل تحبين أن يكون لك فتاة مثلها ؟

فهتفت الأم وهي تكاد تبكي :

— يا السهي ... ليتني استطيع ان أراها معاً ... ولو ليوم واحد .

وعلق نيقولا :

— نعم ... ان القليل من السعادة كافٍ لكل إنسان ، ولكن ليس هناك من يتمنى هذا القليل . واذا كانت السعادة كبيرة ، فأنها تصبح رخيصة .. وجلست صوفيا الى البيانوا ، وراحت تعزف لحناً كثيباً .

— ١٢ —

وفي صباح اليوم التالي كان بضع عشرات من الرجال والنساء يقفون عند باب المستشفى ينتظرون أن يخرج جثمان رفيقهم ، وكان عددٌ من رجال الأمن يدورون حولهم بحذر وقد ارتدوا الثياب المدنية ، ونشروا آذانهم لتلقف كل نأمة ، واطلقوا عيونهم تتفحص الوجوه وتحصي الحركات ، في حين كانت ترابط ، في الناحية الثانية من الشارع ، ثلة من رجال الشرطة ، مسلحة بالمسدسات .

وكانت وقاحة الجواسيس والبسات الساخرة على شفاه رجال البوليس المستعدين لعرض قوتهم ، كان ذلك كله يثير حتى الجمهور فيلجأ بعضهم الى المزاح ، يخفون به غضبهم ، ويطلق البعض الآخر : مقطبين ، كيلا تقع اعينهم على ذلك المشهد المهيئ ؛ ويطلق آخرون غيرهم العنان لثورتهم ، فيهزأون بالسلطات التي

تخشى قوماً لا سلاح لهم إلا الكلام . وكانت سماء خريفية زرقاء شاحبة تسكب ضوءها على الشارع الذي تبلطه أحجارٌ داكنة مستديرة ، تتناثر فوقها اوراق ميتة ، كان الهواء يتلاعب بها ، ويطرحها تحت الاقدام .

وكانت الأم في وسط الحشد تفكر بأسى وهي تطالع الوجوه التي ألفتها :
« إنكم قلة ، ويكاد ألا يكون بينكم عامل . »

وشرعت الأبواب ؛ وظهر في الشارع غطاء النعش تزينه الاكاليل ذات الشرائط المحر ، وبحركة واحدة ، نزل الرجال جميعاً قبعاتهم فبدت فوق رؤوسهم كسرب من الطيور السوداء ، واخترق الجمع ، بقوة ، ضابط شرطي ؛ مديده القامة ، كثيف الشاربين متورد الوجه ؛ ومشى رجاله وراءه يدفعون الناس بفظاظة ؛ ويركون ارض الشارع بأحذيتهم الثقيلة .

وقال الضابط بصوت فظ ولهجة آمرة :

— ارجوكم ان تنزعوا الشرائط .

واحاطوا به رجالاً ونساءً ، في حلقة متراصة ؛ وراحوا يخاطبونه كلهم في وقت واحد ، غاضبين ملوحين بأيديهم ، يريدون ان يمروا واحداً بعد آخر . وتراقصت أمام عيني الأم الغائمتين وجوهٌ شاحبةٌ مُستفزة ، مرتعشة الشفاه ، وكريجت على وجنتي امرأة دموع المذلة .

وتعالى صوتٌ فتي ، ضاع وحيداً في ضجيج الجدل .

— ليسقط العنف .

وشمرت الأم ايضاً بالمرارة في قلبها ، فخاطبت جارها بحنق ، وكان شاباً رث الثياب :

— هذا فظيع . انهم لا يسمعون حتى بدفن رجل ... كما يريد رفاقه !

وتنامى الحقد ، وتهادى غطاء النعش فوق الرؤوس ، وكان الهواء يداعب الشرائط ويغلف الوجوه ، وكان خفيف الحرير يُسمع جافاً متوتراً .

وخشيت الأم أن ينشب المراك ، فقالت بصوت سريع خافت لمن كان حولها :

— إذا كان الأمر كذلك ، فليس لهم إلا أن يطيعوا ، وإن يزعوا الشرائط ؛
فماذا ترون ؟

وهدر صوت جهوري قاص ، فطنى على الجلبة :

— إننا نطلب إن نترك بسلام لنشيخ الى الثوى الأخير رفيقاً ستموه
العذاب ...

وصاح احدهم بصوت نحيف حاد :

« سندخل المعترك » .

— أرجوكم أن تزعوا الشرائط . اقطعها يا جا كوفليف .

وسمع صليل حسام يُسل من غده ، واغمضت الأم عينها تتوقع صرخة ،
ولكن الضجيج هدأ وتعال دمدمة الناس ، وكشروا عن اسنانهم كالذئاب
الجائعة ، ثم ساروا بصمت ، مطرقي الرؤوس ، يملأون الشارع بصدى خطاهم .
وكان غطاء النعش المعرّى ، يتموج في الطليعة مع حطام الاكاليل ، وكان
رجال البوليس يسرون وراءه وهم يترنحون على وقع سنابك خيولهم ، وكانت
الأم تشي على الرصيف ، ولا تستطيع رؤية النعش لكثرة المزدحمين حوله ، وكان
الحشد يتعاطم ، ويتعاطم رويداً رويداً فيملأ عرض الشارع كله .

وراء الحشد كانت تنتصب الاشباح الرمادية ، أشباح فرسان البوليس ،
ويكتنف الجمهور من كل جانب ، المشاة منهم ، ويسرون وايديهم على قبضات
سيوفهم ، وفي كل مكان كانت تراقص عيون نفاذة لجواسيس تعرفهم الام ،
عيون تتفحص ملامح الناس بدقة وحذر .
وارتفع صوتان عذبان ينشدان بأسى :

— وداعاً ، رفيقنا ، وداعاً .

وصاح واحد من بين الجميع :

— يجب ألا ننشد ، ولنصمت يا سادة .

وتميزت هذه الصرخة بشيء فيه قسوة واتزان ، فأنقطع الانشاد الكئيب ،
وخفت ضجة الاصوات ، وظل وقع الخطى الحازم وحده يملأ الشارع بضجيج

اخرس رتيب ، ثم يرتفع فوق الرؤوس ، ويخلق في السماء الشفافة ، فيزلزل الفضاء
كرجع الزجاجة الاولى لعاصفة ما تزال بعيدة . وكانت الريح الباردة الحاقدة
ترداد عنفاً : تقذف وجوه الناس بالغبار والقذى ، وتعصف بثيابهم وشعورهم ،
وتطرف أعينهم ، وتصدق صدورهم ، وتزويج بين أرجلهم .

وكان هذا المأتم الضامث الذي لا كنهة فيه ولا تراتيل مؤثرة ، وهذه الوجوه
المنقبضة اليأسرة ، تثير في الأم إحساساً حزيناً ، فيدور تفكيرها ببطء ، ويسدل
على انطباعاتها قناعاً من الأفكار الكثيرة .

إنكم لقلّة ... انتم الذين تناضلون من اجل الحقيقة .

وكانت تتقدم مطأطئة الرأس ، ويخيل إليها انه ليس هو ايفور الذي يحتفل
بدفنه ، وانما شيء آخر يختلف عنه ، شيء كانت قد ألفته وكان قريباً منها ،
ضرورياً بالنسبة إليها ، وكانت من اجل ذلك حزينة ، تعبى ، ينعم قلبها
شعور عنيف ، يقض مضجعها : فهي ليست منسجمة في التفكير مع هؤلاء الذين
يشيعون ايفور ، لقد كانت تفكر :

— لا شك ان ايفور لم يكن يؤمن بالله ، وأن هؤلاء جميعاً لا يؤمنون به
كذلك .

ولكنها كانت لا تود الاسترسال في التفكير بهذا الموضوع ، فتأوّه ، لتطرح
ذلك الحمل الذي يبهظ روحها :

— يا إلهي ... يا يسوع ... أيمكن ان اكون انا ايضاً كذلك

وبلغوا المقبرة ، وداروا دورات طويلة في معابر ضيقة بين القبور حتى انتهوا
الى مكان خاوي غرست فيه بعنق صلبان بيضاء ، فتجمعوا حول حفرة هناك ،
ثم ساد الصمت . وكان هذا الصمت العبوس الذي ران على الاحياء بين القبور ،
ينبىء بشيء رهيب ارتعش له قلب الأم وجد يترقبه . وكانت الريح تتفخ بين
الصلبان وتعوي ، والازهار المتناثرة ترتعش ، اسبابة ، فوق النعش .

وكان رجال البوليس على استعداد تام ، يسمرون ابصارهم على قائدهم .
وانتصب فوق القبر شاب فارح ، شاحب الوجه حاسر الرأس ، طويل الشعر ،

ود الحاجين .

وفي اللحظة نفسها ، ارتفع صوت خشن ، صوت ضابط البوليس :

- ايها السادة .

وصاح الشاب بصوت جهور :

- ايها الرفاق .

وصرخ الضابط : انتبهوا ، إني لا استطيع السماح بالقاء الخطب .

وقال الشاب يهدوء :

- لن اقول إلا بضع كلمات فقط . ايها الرفاق : لنقسم على ضريح معلنا
ورفيقتنا الا ننسى تعاليمه ابدآ ، لنقسم على ان كلا منا سيعمل طوال حياته ،
دونما كلل ، للقضاء على ينبوع آلام وطننا كلها ، وعلى ان نحفر قبر القوة الشريرة
التي تضطهد هذا الوطن ، قبر الاوتوقراطية .

وصاح الضابط :

- اقبضوا عليه .

ولكن صوته ضاع في دوي الصيحات العاتية التي ارتفعت :

- لتسقط الاوتوقراطية .

واندفع رجال البوليس نحو الخطيب وهم يشقون طريقهم اليه بين الجمع ،
ولكنه ، وقد احاط به الناس من كل جانب ، كان يصيح وهو يلوح بيده :
- عاشت الحرية .

وألقي بالألم جانبا ، فاستندت في غمرة رعبها الى احد الصليبان ، ثم اطبقت
عينها كأنها تتوقع ضربة ما ، واصمت أذنيها عاصفة صاحبة من الاصوات المتنافرة ،
ومادت الارض تحت قدميها ومنعها الخوف والريح من ان تتنفس ، وكانت
صفارات البوليس تمزق الفضاء ، وصوت فظ آمر يلعلع ، ونساء يطلقن صرخاتهن
المهستيرية ، وكان خشب الاسوار يطقطق ، وخطو الناس الثقيل على الارض
الصلبة ، يرسل صداه الاخرس . واستمر ذلك وقتا طويلا ولم تستطع الام ان
تظل مطبقة العينين ، وكان رعبها قد ربا ، حتى اصبح لا يحتمل .

وفتحت عينها ، وأطلقت صرخة ، ثم اندفعت الى الامام وهي باسطة
ذراعيها ، وبالقرب منها ، وفي أحد المسالك الضيقة بين القبور ، كان رجال
البوليس ، قد أحاطوا بالشاب ذي الشعر الطويل ، وراحوا يردون عنهم الجمهور
الذي كان يهاجم من كل صوب ؛ وكانت السيوف المشرعة تبرز في الفضاء بألق
فاصع بارد ، وترتفع فوق الرؤوس ثم تنهاوى بسرعة . وكانت العصي وشظايا
الأسوار تتطاير . انها عاصفة ، انها رقصة من الأصوات مجنونة ؛ وفوق الحشد الثائر
كان وجه الشاب الشاحب ينتصب ، وصوته القوي يهدير فوق العاصفة ، عاصفة
الأحقاد المتفلتة من أغلالها .

- ايها الرفاق . يجب ألا نبدد قوانا .

وأطاعوه ، فأخذوا يلقون عصيهم واحدا بعد آخر ، ويبتعدون بسرعة عن
ساحة المعركة وكانت الأم تشق طريقها أبدأ الى الامام مدفوعة بقوة غير منظورة ،
وكانت ترى نيقولا يدفع المتظاهرين الذين أثلمهم الحقد ، وقبعته معلقة في عنقه ،
وتسمع صوته مشحونا بالتأنيب :

- يا لكم من مجانين . الهدوء . الهدوء .

وبدا لها أن احدى يديه كانت مضرجة بالدم ، فصاحت وهي تندفع نحوه :

- نيقولا ... انصرف من هنا .

- الى أين تذهبين ؟ إنك تتعرضين للضرب .

وأمسكت بكتفها يد ، واذا هي صوفيا . وكانت حاسرة الرأس منفضة
الشعر ، تسند فتى يكاد يكون طفلا ، وكان الفتى يمسح بيده وجهه المتورم بالدمى ،
وشفتاه المرتعشتان تغمغان :

- دعوني .. فالجرح بسيط ليس بذى بال .

وقالت صوفيا بسرعة وهي تضع يد الفتى في يد الأم :

- اهتمي بأمره ، وخذي به الى منزلنا وهذا منديل فاعصي به وجهه .

ثم ولت الأدبار وهي تقول :

- إذهبا بأسرع ما يمكن ... انهم يمتقلون ...

وكان الناس يتفرقون في كل اتجاه ، ورجال البوليس يسرون بثناقل بين القبور ، ويتمشون بأذيال معاطفهم ، ويشتمون ويلوحون بسيوفهم ، وكان الفتى الصغير يتتبعهم بنظرة ذئبية .

وصاحت به الأم بفطور وهي تمسح وجهه :
- هيا بنا بسرعة .

فغمغم وهو يبصق دماً :

- لا تقلقي . فليس بي من أذى . لقد ضربني بقبضة سيفه ، ولكنني سددت له بدوري ضربة من هذه العصا ... فراح يعوي .

ثم طوى قبضته المضرجة وقال بصوت متقطع :

- انتظري . لم ينته الأمر بعد . وسنحرقهم دوماً صبيح ، عندما نثور ، نحن العمال .

واستعجلته الأم :

- هيا بنا .

ثم اتجهت مسرعة نحو باب صغير في سور المقبرة ، وكان يخيل إليها أن رجال البوليس قد كمنوا وراء السور ، في أحد الحقول ، ينتظرونها ، وانهم ، سيقبضون عليها عند خروجها فيقتلونها ؛ ولكنها فتحت الباب الصغير بحذر ، وألقت نظرة خاطفة على الحقول التي ارتدت حلة رمادية من غيش الخريف ، فهدأ من روعها ، فجأة ، ما كان يخيم على هذه الحقول من وحدة وصمت .

وقالت للفتى :

- مهلاً ... دعني أعصب جرحك .

- لا حاجة لذلك فهو لا يخجلني . لقد أصبت يرح وأصيب هو بمثل فقساويننا . وضدت الأم الجرح على عجل ، فملاها بمنظر الدم شفقة ، وعندما أحست أناملها رطوبته الفاترة اعترتها رعشة رعب ، فقادت الجريح بسرعة عبر الحقول وهي تجرهُ من ذراعه ، صامتة ؛ ولكن الفتى أزاح الضمادة عن فمه ، وقال ، وفي صوته ضحكة صغيرة :

- إلى أين تفوديني يا رفيقة ! إني استطيع السير وحدي .

ولكنها كانت تحس أنه يترنح ، وأن خطواته لم تكن ثابتة ، وأن ذراعه يرتعش ، وكان يتكلم بصوت متهاافت ، ويسألها دون أن ينتظر جواباً :

- إني أدعى جان ، ومهني سمكري .. وأنت ؟ ... لقد كنا في حفلة ايفور ثلاثة ، ثلاثة سمكرين . وكان مجموع الحلقة أحد عشر عضواً . وكنا نحبه كثيراً ، رحمة الله عليه ... وإن كنت لا أؤمن بالله .

وعندما بلغوا أحد الشوارع استأجرت الأم عربة ، فأجلست جان فيها ووشوشته :

- الآن .. عليك أن تلزم الصمت .

ثم عصبت بالمنديل فمه ثانية ، فرفع يده ليزيحه ، وعندما أعياء أن يحز رشفتيه ، هوت يده بأعياء ، واستقرت فوق ركبتيه ؛ رغم ذلك فقد ظل يغمغم من خلال العصابة :

- هذه الضربات سأقيدها لكم على الحساب ، يا أعزائي الطيبين ... وقبل ايفور كان ثمة تيتوفيتش ... وهو طالب كان يعلمنا الاقتصاد السياسي .. ثم أوقفوه . وأحاطت الأم جان بذراعيها ، وأسندت رأسه إلى صدرها ، وإذا به يتقل فجأة ويصمت . وراحت وقد جمدما الرعب ، تطلق نظراتها الوجلي في كل ناحية ، ويخيل إليها أن رجال البوليس سيثوابون من كل زاوية من زوايا الشارع عندما يرون رأس جان المعسوب ؛ يتواثبون ليقبضوا عليه ويقتلوه .

وتلفت الحوذي من على مقعده وسأل بابتسامة لطيفة :

- لعله شرب ؟

فزفرت الأم :

- أجل .. ولقد اسرف كثيراً ، وهذا ما ينهكه .

- هل هو ابنك ؟

- نعم ... وهو اسكافي ... أما انا فطاهية .

- مهنة شاقة ... نعم ...

والهيب ظهر جواده بلسعة من سوطه ثم تلفت ثانية وتابع بصوت أشد خفوتاً :
— يظهر انه كان هناك بعض الضوضاء في المقبرة ، لأنهم كانوا يدفنون واحداً
من أولئك الذين يشتغلون بالسياسة ، والذين هم ضد السلطات . اما الذين
كانوا يقومون بدفنه فهم رفاق له بلاريب ، وكانوا يهتفون : لتسقط السلطات
فهي التي تجلب الخراب للشعب . وهاجمهم رجال البوليس بالسيوف ، واسكتهم
ويقال ان هناك قتلى ؛ وانه قد وقع بين رجال البوليس ايضاً بعض الاصابات .
وصمت ، وهز رأسه بأسى ثم استطرد يقول بصوت غريب :
— يضايقون الموتى ، (يوقظون الراحلين) ...

وكانت العربية تقفز بضجيج فوق بلاط الشارع ، ورأس جان يتأيل على صدر
الأم والحوذي يستدير نحوها نصف استدارة ويقغمم مطرقاً :
— الشعب في هياج ، والفوضى تنبع من الارض . نعم ... ففي هذه الليلة
اقتحم الدرك بيت الجيران ، ولا ادري ماذا « فبركوا » طوال الليل ... ثم
انهم قبضوا على حداد وساقوه معهم ، ويشاع انهم سيقنادهونه ، في احدي الليالي ،
الى ضفاف النهر ويفرقونه سراً ، رغم ان هذا الحداد كان نموذجاً للرجل الطيب .
وسألته الأم :
— وماذا يدعى ؟

— من ؟ الحداد ؟ انه يدعى « سافيل » وانه ما زال صغير السن ، ولكنه
يدرك اموراً كثيرة ... اما ما كان يدركه فهو محرم على ما يبدو . لقد كان
يأتينا دائماً فيسأل : أية حياة تحيونها انتم الحوذيين ؟ فنقول له ان حياتنا ، في الواقع ،
أسوأ من حياة الكلاب .
وقالت الأم فجأة :
— قف هنا .

وايقظ التوقف المفاجيء جان ، فراح يئن باعيا .
وعلق الحوذى :
— لقد صدم الفتى ... مسكين ... شارب الفودكا .

وكان جان يحتاز الساحة مترخلاً لا يكاد يستوي على رجله ، ويقول :
— انه أمر غير ذي بال ... اني استطيع ان امشي ...

- ١٣ -

وكانت صوفيا قد عادت منهمكة منفعلة ، فاستقبلت الام ، وسيجارتها في فيها
ثم مدت الجريح على اريكة ، وراحت ، وهي توزع اوامرها ، تفك بهمة
الضادة التي تعصب رأسه ، وكان دخان سيجارتها المتصاعد يحملها على اغراض
احدى عينيها .

— لقد وصلا يا دكتور . أأنت متعبة يا نيلوفنا ؟ لقد استولى عليك الخوف
اليس كذلك ؟ حسناً ... استريح . اعطها كأساً من الشراب يا نيلولا .
وكانت الأم وقد أذهلتها التجارب التي مرت بها ، تتنفس بصعوبة ، وتحس
بآلم في جنبها ، وقغمم :
— لا ترجعوا أنفسكم من أجلي .

ولكن كيائها كله ، كيائها المتوتر كان يستدعي الاهتمام والعطف والمواسي .
وخرج نيقولا من الغرفة المجاورة معصوب اليأس ، وتبعه الطبيب الذي كان
شعره منفوشاً كشعر القنفذ ، واقترب هذا من جان بالسرعة ، وانحنى فوقه :
— آتوني بماء ، بكثير من الماء ، وبعض الحرق لتنظيفه والقطن . وتوجهت
الام نحو المطبخ ، ولكن نيقولا امسكها من ذراعها ، وقال لها بود وهو يحركها
الى غرفة الطعام :

— انه لا يطلب ذلك منك بل من صوفيا . لقد تحملت كثيراً من الانفعالات
ايتها الصديقة العزيزة .. اليس كذلك ؟
والتقت نظراتها بنظراته اليقظة الحادية ، ولم تستطع ان تكبت زفرتها
فاندفعت :

— لقد كان ذلك رهيباً يا نيقولا . لقد كانوا يحصدون الناس بسيوفهم ..
وقال نيقولا وهو يهز رأسه ، ويصب لها كأساً من النبيذ :

— لقد رأيت ذلك. كلاهما خرج عن أطواره بعض الشيء؛ ولكن هدي من روعك، فلقد كانوا يضربون بعرض سيوفهم، ولم يصب بجراح خطيرة إلا شخص واحد، رأيتني يتلقى الضربات فسارعت الى سحبه من ساحة العراك . وكانت ملامح نيقولا وصوته، والدفع الذي يشيع في الغرفة، والنور الذي يغمرها، كان ذلك كله يهديء من اعصاب بيلاجي، فرمقته بنظرة شاكرة وسألته: — وأنت، هل أصبت أيضاً بضرباتهم؟

— لقد حملت الجريح وحدي، وجرحتي يدي على غير انتباه، وانكشط جلدها. خذي اشربي هذا القدح من الشاي، فالجو بارد، وثيابك خفيفة . ومدت يدها الى القدح فأبصرت الدم المتجمد يصبغ اناملها؛ وبجركة لا إرادية تهاوت يدها الى ركبتها، وكان ثوبها مبللاً. وكانت تنظر الى اصابعها، وعيناها جاحظتان، وحاجبها مرتفع، وكان رأسها يدور، وخاطرة قطرق رأسها: — قد يعاملون بول هكذا... وانهم لقادرون .

ودخل الطبيب وقد خلع ستارته وشرع عن ساعديه؛ وأجاب بصوته النحيل على سؤال نيقولا الصامت:

— إن جرح الوجه سطحي، إلا ان هناك كسراً في الجمجمة؛ وهو ليس بخطير لأن بنية الفم قوية، ومع ذلك فقد نزف منه كثير من الدم، وستقوم بإرساله الى المستشفى .

ورد نيقولا:

— لماذا؟ ليقب هنا .

— هذا يمكن اليوم وغداً ايضاً... أما بعد غد فلا... اذ لا يبقى لدي متسع من الوقت لزيارته . هل ستضع بياناً عن حادث المقبرة؟ — طبعاً .

ونهضت الام بسكون، واتجهت نحو المطبخ، فسألها نيقولا بكآبة وهو يستوقفها:

— الى أين يا نيلوفنا؟ ستقوم صوفيا بالعمل وحدها .

ورنت اليه، وأجابته مرتعشة وعلى شفثتها ابتسامة غريبة:

— اني ملطخة بالدم .

وابدلت ملابسها في غرفتها وراحت تفكر مرة أخرى بهدوء، تفكر بهؤلاء القوم، بموهبتهم في التغلب السريع على الهول في أي موقف. وأعادها هذا التفكير الى نفسها، فطردت الوجل من قلبها، وعندما رجعت الى الحجرة حيث كان الجريح وجدت صوفيا تقول له، وهي تنحني فوقه:

— انك تتفوه بالحماقات يارفيق .

فأجابها بصوت نازل ضعيف:

— ولكنني سأسبب لكم الازعاج .

— اسكت إذن... فذلك أفضل .

ووقفت الأم وراء صوفيا، ووضعت يدها على كتفها، وحدقت باسمة في وجه المريض الشاحب، وراحت تقص الأشياء التي هذى بها وهو في العربة، وتصفى الرعب الذي استحوذ عليها من جراء كلامه المتهور، وكان يصغي وعيناها تلمعان من الحمى، وأسنانه تصطك ولسانه يردد بارتباك:

— أوه... لكم اناغي .

وقالت صوفيا بعد ان سوت غطاءه:

— حسناً، سنتركك الآن، فاسترح .

وانتقلت السيدتان الى غرفة الطعام حيث تحدثتا طويلاً، مع نيقولا والطبيب عن احداث النهار . لقد كانوا يبحثون المأساة كأنها شيء من الماضي السحيق، وينظرون الى المستقبل بصفاء، ويتناقشون في عمل الغد؛ واذا كانت ملاحظتهم عن الانهاك فإن افكارهم كانت غلأها العافية؛ وعندما كان أحدهم يتحدث عما يشغله كان يعلن عدم رضاه عن نفسه . وكان الطبيب يتملئ في مقعده بعصبية، ويقول مجتهداً في أن يسبغ على صوته النحيف الحاد وقاراً أكثر .

— الدعاوة، الدعاوة... إنها ليست كافية الآن. إن الشيبية الكادحة محقة، ويجب أن تتحرك وفق مخطط أوسع.. العمال محقون... هذا ما أقوله لكم..

وأجاب نيقولا بلهجة قائمة :

— إن الشكوى تتعالى لعدم توفر الكتب، ومع ذلك فلا تتوفر لنا دائماً مطبعة جيدة . إن لوميلاً منهكة ، وستقع فريسة المرض إذا لم توفر لها مساعدتين .

وسألت صوفيا :

— وفيسوشيكوف ؟

— إنه لا يستطيع الإقامة في المدينة . ولن يباشر العمل إلا في المطبعة الجديدة ، ولكننا من أجل ذلك بحاجة أيضاً إلى شخص آخر .

وقالت الأم بهدوء :

— ألا أصلح أنا لذلك ؟

وهتفت صوفيا : إنها فكرة طيبة .

ورد نيقولا يحفاف :

— كلا ، فالعمل مرهق بالنسبة إليك يا بيلاجي . ثم إنه يقتضيك العيش خارج المدينة حيث لا تتاح لك رؤية بول .

وقاطعته وهي تتلهدد :

— ليس في ذلك بالنسبة لبول حرمان كبير ، أما بالنسبة إلي ، فهذه الزيارات تهصر قلبي . اتنا لا نستطيع أن نقول شيئاً . اني أقبع كالحيوان أمام ابني ، ويركزون هم ابصارهم على فك ، ليروا ما إذا كنت ستمادي في الحديث .

لقد استنفدت أحداث الأيام الأخيرة قواها ، والان ، ها هي الفرصة تسنح لها لتعيش بعيداً عن مآسي المدينة ، وانها لترغب في ذلك أشد الرغبة .

وغتير نيقولا مجرى الحديث فسأل الطبيب :

— بماذا تفكر ؟

فرفع هذا رأسه وأجاب متجهاً :

— إننا قلّة ؛ هذا ما أفكر فيه . وعلينا أن نعمل بحبوية أكثر ، وإن تقنع اندرية وبول بضرورة الفرار ، فكلاما اثن من أن يظل عاطلاً عن العمل . وزوّى نيقولا ما بين عينيّه وهز رأسه مراتباً ، وهو يلقي على الأم نظرة خاطفة ،

أودركت هي انهم لا يستطيعون التحدث بحرية عن ابنها بحضورها فانسحبت الى غرفتها ، وفي قلبها بعض الحقد عليهم ، عليهم هم الذين لم يعيروا رغبتها الا القليل من اهتمامهم .

وتددت في سريرها وهي مفتوحة العينين ، يدهدها همس اصواتهم ، ثم لم تلبث ان استسلمت لهجومها ، وكان النهار الذي ولّى ، يبدو لعينيها متجهاً مستعصياً على الفهم ، طافحاً بالرؤى الحزينة ، وكان يؤلمها ان تفكر فيه ، لذلك راحت وهي تطرد من ذهنها انطباعاته الكثيرة ، تركّز تفكيرها ببول .

لقد كانت تود ان تراه حراً ، وفي الوقت نفسه كانت هذه الرغبة تخفيها ، فهي تحس حولها توتراً ، واصطدامات قلسية وشبكة الوقوع ! لقد تلاشى استسلام الناس الصامت ، وحل مكانه التيقظ ، وتنامت النعمة بشكل محسوس ، وراحت المناقشات الحادة تدوي ، وفي كل مكان تنفخ ريح هياج جديد .

وكان كل منشور يثير الجدل العنيف في السوق والحوانيت ، بين الخدم والحرفيين ، وكل اعتقال يترك صدى خائفاً قلقاً ، ويولد ، في بعض الأحيان ، وبصورة لا شعورية ، شعوراً من التعاطف مع تلك التعليقات التي كان الثوريون يقدمونها للكشف عن دوافع هذا كله . وكانت بيلاجي غالباً ما تسمع من أفواه الناس البسطاء كلمات كانت من قبل تبعث رعباً : تمرد ، اشتراكيون ، سياسة . وكانوا يرددون هذه الكلمات بسخريّة ، إلا ان هذه السخريّة كانت لا تقلح في إخفاء نهمهم الى المعرفة ، وكانوا يرددونها بتفكير ، ولكن هذا التفكير كانت تشويه ملامح من الرجاء والوثيد .

وأخذ الاضطراب ينتشر ببطء ، ولكن في دوائر واسعة ، تنظم الحياة الراكدة الكالحة ؛ وكان الفكر الحذر يستفيق ، والاستسلام الهاديء المسألوف الذي واجه به الناس أحداث يومهم ، يفقد سلطانه .

لقد كانت بيلاجي تميز ذلك بوضوح أكثر من رفاقها ، لأنها كانت تعرف وجه الحياة الحزين أكثر مما يعرفونه ؛ هذا الوجه الذي ترى الآن فيه ، تقضّات التفكير والسخط ، فتستشعر الغبطة والخوف في آن واحد . أما الغبطة فلأنها

كانت تعتبر أن ذلك من صنع ابنها، وأما الخوف، فلأنها كانت تعلم أنه سينطلق إذا ما خرج من السجن، على رأس رفاقه جميعاً، سينطلق بهم إلى النقطة الأشد خطراً، وسيهلك.

وكانت صورة ابنها، تأخذ في عينها، أحياناً، تقاطيع بطل من أبطال الأسطورة، بطل يتحد في شخصه كل ما سمعته من قول حق، جريء، وكل ما أحبت من كائنات، وكل ما كانت تعرف من بسالة وصفاء، وكانت تجد هذا البطل بحماسة وزهو وحنان، وتقول في نفسها، والآمال تغمرها:

— سيسير كل شيء على ما يرام... كل شيء.

وكان حبها، حباً كام، يزداد ضراماً. ويهرق قلبها حتى ليكاد يحملها على الصراخ، وكان، من ثم، يحول دون نمو حبها للإنسانية، بل يستغرق هذا الحب كله، فلا يظل مكان هذا الشعور العظيم، إلا فكرة حزينة تنبض بوجل في الرماد الداكن، رماد القلق:

— سيلقى حتفه... سيهلك.

— ١٤ —

وعند الظهيرة كانت أمام حاجز السجن، تجلس تجاه بول، وتتفرس في وجهه الملتهب، بعينين غائمتين، وتترقب اللحظة التي تتمكن فيها من تسليمه القصاصات التي كانت تشد عليها بين أصابعها

وقال لها بول بصوت خافت:

— إن صحتي جيدة، وكذلك رفاقي، فكيف حالك أنت؟

وأجابته بآلية:

— لا بأس... ولكن يغور قدماتي.

ورذ عليها:

— آه... نعم؟

ثم أطرق برأسه إلى الأرض.

وتابعت هي ببساطة:

— وعند الدفن، حصلت مشادة مع رجال الشرطة، وأوقف أحد الأشخاص وسقسق معاون مدير السجن متفعلاً ودمدم وهو يقفز من مقعده:

— هذا ممنوع. يجب أن تقبها ذلك بالحسن. فلا يجوز التحدث هنا في السياسة.

ووقفت الأم وقالت محتجة:

— أنا لا أتحدث في السياسة، بل عن الخلاف الذي حصل، والواقع أنهم اشتبكوا في عراقك، حتى أن أحدهم أصيب بشح في رأسه.

— هذا سواء عندي. لذلك أرجوك أن تكفي. يعني أنك لا تستطيعين الكلام إلا فيما يتعلق بك، بك شخصياً وبعائلتك، وببيتك.

وعندما شعر أنه سيقع في الارتباك، جلس إلى طاولته، وأضاف بلهجة خافتة كثيفة، وهو يرتب أوراقه:

— إني مسؤول... نعم...

وحدثته الأم بنظرة، ثم دست القصاصة في يد بول وتأوهت بارتياح:

— إننا لا نندري ما الذي يريد أن تتحدث عنه.

وابتنم بول:

— وأنا كذلك لا أدري.

وأضاف المعاون بانفعال:

— إذا لا داعي للزيارات. لا شيء لديكم تقولونه... ثم تأون مع ذلك لأزعاج الناس جميعاً.

وسألت الأم بعد فترة من الصمت:

— هل سيكون موعد المحاكمة قريباً؟

— لقد جاء النائب العام إلى هنا مؤخراً، وقال إن الموعد سيكون قريباً.

وتبادلا أحاديث لا معنى لها، أحاديث لا فائدة فيها لـ كليهما، وكانت الأم

تلاحظ أن بصر بول يستقر عليها بعددوبة وحنو.

إنه لم يتغير، إنه ما زال هادئ الطبع متزناً، غير أن لحيته الخصبية النمو،

كانت تجعله يبدو طاعناً في السن، وكانت يداه أشد بضاضة من ذي قبل

وضاورتها رغبة في أن تدخل النشوة إلى قلبه، أن تحدثه عن فيسوشيكوف بنفس

— هذا صحيح . لقد نسيت . لنتنظر اسبوعاً آخر ... اسبوعاً آخر . هل
تعتقدن انه سوافق ؟

ونجهم وجهها ولم يبارح بصرها عيني الأم التي أجابت وهي تفكر :
— لا أدري ... ولكن لم لا يوافق إذا لم يكن في الأمر مخاطرة ؟
وهزت ساندرين رأسها ، وخففت من اهتمامها وسألتها ببرود :
— الا تعرفين ماذا يجب ان نطعم المريض ؟ إنه يطلب طعاماً .
— نستطيع ان نطعمه كل شيء ، كل شيء ... سأذهب الى ...
ودخلت المطبخ فتبعته ساندرين بثناقل :
— هل لي ان اساعدك ؟
— شكراً . لا ضرورة لذلك .

وكانت الأم تنحي فوق الموقد ، تتناول طنجرة ، عندما دنت الفتاة منها
وقالت لها بصوت خفيض :
— مهلاً .

وشحب لونها ، وكانت عيناها المفتوحتان على اتساعها تقطران كآبة ،
وشفتاها المرتعشتان تتمتان يحد ، ولكن بغير حرارة :
— وددت ان اسألك ... ولكني اعلم انه لن يوافق . فاقنعيه ، قولي له بأننا
نحتاج اليه من أجل قضيتنا ، وبأننا لا نستطيع الاستغناء عنه ، وبأنني أخشى
عليه من المرض ... ألا قرين ؟ إن موعد المحاكمة لم يحدد بعد .
ولقد كان واضحاً أنها تجد في الكلام عنناً ، وكان الجهد يوتر اعصابها ،
وصوتها ينساب متقطعاً ، وكانت وهي تسبل أجفانها التعبى ، تقضم شفتيها ،
وتضغط على أناملها بشدة .

وهزت هذه الثورة العاطفية الأم هزاً عنيفاً ، ولكنها أدركت دوافعها ،
فاحتضنت الفتاة وقد ملأها الاضطراب والأسى ، وأجابته بصوت خافت :
— إنه لا يستمع لأحد ، يا صغيرتي الغالية ... لا لأحد إلا لنفسه .
وظللتا كلتاها صامتتين ، وهما تتعانقان بحرارة ، ثم ثقلت ساندرين بلطف ،

الصوت وبنفس اللهجة ، التي تتحدث بها عن أشياء لا جدوى فيها ، فقالت :
— لقد رأيت ابنك بالعماد ... (فليونك)
فرمقها بول بنظرة متسائلة ، ولكي تذكره بوجه فيسوشيكوف المجدور ،
راحت تنقر على وجهها بإصبعها وتقول :
— إنه على ما يرام . وهو فتي قوي فشتار ، وسيلتحق عما قريب بعمل .
وفهم بول ؟ ورد عليها بإشارة من رأسه حيثة ، وبسمة في عينيها مرحة :
— هذا جيل .

— حسناً ... هذا ما عندي .
وكانت راضية عن نفسها كل الرضى ، متأثرة باللهجة البادية في ملامح ابنها ،
وعندما ودعته ، شديدها بحرارة :
— شكراً يا امه .

وكنشوة المغمور تصاعد الاحساس بالفرحة الى رأسها ، فرحة الاحساس بان
قلب ابنها قريب كل القرب من قلبها ، ولم تقو على ان ترد عليه بالكلمات ،
فردت فقط بضغطة صامتة على يده .

ولدى عودتها وجدت ساندرين عندها ، فلقد تعودت الفتاة ان تأتي في الأيام
التي تذهب فيها الأم الى السجن ، كما تعودت الاتسألهما ابداً عن بول ، فإذا
اعتصمت الأم بالصمت ، ولم تتحدث عنه من تلقاء ذاتها ، اكتفت ساندرين بان
تقرأ في عينيها ما تريد ان تعلم . ولكنها ، هذه المرة ، استقبلتها بسؤال قلبي :
— حسناً ! ماذا يفعل ؟

— إنه بخير .
— هل سلمته القصاصة ؟
— بكل تأكيد ، ولقد فعلت ذلك بمهارة فائقة لدرجة ...
— وهل قرأها ؟
— أين يستطيع ان يفعل ؟
واستدركت الفتاة فقالت ببطء :

وقالت وهي ترتعش :

- نعم ... إنك على حق ، وما تقوهتُ به مجرد حماقات ... إن أعصابي ...

... ولكنها استعادت هدوءها فجأة فتأملت ببساطة :

- لنحمل الى الجريح إذن ما يأكله .

وجلست عند رأس جان ، وسألته بكثير من الاهتمام والمطف :

- أيؤلك رأسك كثيراً ؟

وأجاب جان وهو يشد الغطاء بارتباك ، ويرفعه حتى ذقنه :

- كلا ... ولكنني أشعر بدوار ، وبأني خائر القوى .

وكانت أجفانه ترتعش بلا انقطاع كأن النور يطرقها ، ولاحظت ساندرين انه

لن يتناول طعامه بحضورها ، فنهضت وخرجت .

وجلس جان في سريره ، وتقبها ببصره ، وقال وهو يغمز بعينيه :

- فتاة رائعة .

وكانت عيناه الصافيتين جذلتين ، وأسنانه صغيرة مراضة ، وصوته لاترن

فيه نبرات الرجولة .

وسألته الأم مطرقة :

- كم عمرك ؟

- سبعة عشر عاماً .

- أين هم أهلك ؟

- إنهم في الريف . أما أنا فاني هنا منذ سبع سنوات .. أي منذ انتهت

دراستي . وأنت ... ما اسمك يا رفيقة ؟

وكان يبهج الأم ويعجزها دائماً أن يتوجه اليها أحد بالحديث ، لذلك أجابته باسمه :

- لم تريد ان تعرف اسمي ؟

وأوضح الفتى بارتباك ، وبعد لحظة من الصمت :

- لأنه كان في حلقنا طالب ... أقصد ... طالب كان يدرس معنا ، وقد

حدثنا عن والدته بول فلاسوف العامل ... أتعلمين انه في احتفال أول أيار ... ؟

... وهزت الأم رأسها ، وأصاحت بسمها فأضاف الفتى بزهو لاقى وقته الحسن في نفسها :

- لقد كان هو اول من رفع علم حزينا عالياً . ولم أك أنا موجوداً . وكنا

نفكر بأن نقيم هنا احتفالاً خاصاً بنا ، ولكننا لم ننجح . لقد كان عددنا قليلاً في

ذلك الحين ، أما هذه السنة ، فسيكون ذلك ممكناً بلا ريب ... سترين .

وأخذ التأثير منه كل مأخذ وهو يتذوق مسبقاً أحداث المستقبل ، ثم تابع ،

وهو يحرك ملعقته :

- وإذن ... فإن ام فلاسوف التي حدثتك عنها ، قد انخرطت هي ايضاً في

الحزب ... انخرطت فيما بعد ... ويقال إنها امرأة مدهشة .

وابتسمت الأم ابتسامة عريضة ، فلقد كان يلذ لها ان تسمع ثناء الفتى الحار ،

وكادت تقول له : « اني انا ... أم فلاسوف » ولكنها احجمت ، وقالت في نفسها

بحزن يمازجه بعض السخرية :

- آه ... يا لي من عجوز حمقاء .

والتفتت اليه فجأة ، وقالت بتأثر وهي تميل نحوه :

- هيا ... كل أكثر ... واستعد صحتك بسرعة من أجل قضيتنا الخيرة .

وفتح الباب ، وسبقت صوفيا نفحة من برودة الخريف الرطبة ، ودخلت هذه

بادية المرح ، متوردة الحدين :

- أقسم بشرفي أن الجواسيس يلاحقوني كما يلاحق العرسان وارثة ثرية ...

يجب أن أرحل من هنا .

وكانت وهي تشعل لفاقتها ، تطرح الأسئلة دون ان تنتظر الجواب عليها :

- وجان كيف حاله؟ هل هو بخير ؟ وأخبار بول يانيولوفنا؟ هل ساندرين هنا؟

وكانت عيناه الرامدتين تلفان الأم والشاب بنظرة ناعمة لطيفة ، وكانت

الأم تتأملها ، وتبتسم فيما بينها وبين نفسها ، وتفكر :

- ها أنذا قد أصبحت ايضاً شخصاً ذا قيمة .

ومالت من جديد نحو جان لتقول له :

- هيا ، إشف سريعاً يا صغيري .

وتوجهت نحو غرفة الطعام حيث كانت صوفيا تحدث ساندريين :

- لقد أعدت حتى الآن ثلاثية نسخة ، وهي تكاد تقتل نفسها في هذا العمل . إنها لبطولة حقاً . افتدريين يا ساندريين انه لمن السعادة الكبرى ان يعيش المرء بين قوم كهؤلاء ؛ وأن يكون رفيقاً لهم ، وأن يعمل معهم . ؟
وأجابت الفتاة بصوت خفيض :

- نعم .

وفي المساء قالت صوفيا للأم :

- ينبغي ان تذهبي ثانية الى الريف يا نيلوفنا .

- حسناً . اني موافقة ... متى يكون ذلك ؟

- خلال يومين او ثلاثة ... هل هذا ممكن ؟

- أجل .

ونصحها نيقولا :

- لا تذهبي شيئاً على الأقدام بل استأجري جيايد بريد ، واسلكي طريقاً آخر عبر مقاطعة « نيكولسكوي » .

وصحت ، وتجهم وجهه ، وطلعت على ملاحه الهادئة ابداً ، مسحة من القراية والدمامة .

وردت الأم :

- إنه طريق طويل ، ثم ان الجيايد تكلف غالباً .

وتابع نيقولا :

- اسمعي ... اني في الواقع لا اوافق على هذه الرحلة لأن الاضطراب يشمل تلك الناحية ، وقد أعتقل عدد من الناس ، بينهم على التدقيق ، معلم مدرسة .

يجب ان نكون اكثر حذراً ، ومن الأفضل ان ننتظر قليلاً ...

وعلقت صوفيا على هذا الكلام وهي تنقر على الطاولة باصبعها :

- المهم ان يستمر توزيع النشرات بلا انقطاع .

ثم وجهت الكلام فجأة الى الأم :

- الاتخشين الذهاب الى تلك المنطقة يا نيلوفنا ؟

وآلم ذلك الام فقالت :

- ومتى كنت اخاف ؟ انني في المرة الاولى نفسها لم أشعر بأي خوف ، والآن . وطأطأت رأسها دون ان تكلل جملتها ، ففي كل مرة كانوا يسألونها عما اذا كانت تخاف وعما اذا كان هذا الامر يوافقها ، وعما اذا كانت تستطيع أن تفعل هذا الشيء أو ذاك ، وكانت ترى في هذه الاسئلة توسلاً ، ويخيل اليها انهم يعزلونها ، ويعاملونها بشكل مغاير لما يعاملون به بعضهم بعضاً .

وعادت الى الكلام متتهدة :

- عبتا تسألونني عما اذا كنت اخاف . أنكم لا تطرحون هذا السؤال على بعضهم بعضاً .

ونزع نيقولا نظارته بجدة ، ثم اعادها ، وحدهج اخته . وهز السكون الحائر الذي جاء في اعقاب ذلك ، هز بيلاجي ، فنهضت ، مزعجة الملامح ، وبودها أن تقول شيئاً ، ولكن صوفيا لمست يدها برفق ، وقالت لها بصوت خافت كل الحقاوت :

- ساعيني ، لن اعود لمثل ذلك ابداً .

واضحك هذا القول الأم ، وبعد لحظات قليلة انهمك الثلاثة ، بكثير من الاهتمام ، في حديث ودي عن تفاصيل الرحلة الى الريف .

- ١٥ -

وعند الفجر كانت الام تتمدد في العربة التي تطفر فوق الطريق المبلل بمطر الخريف ، وكان الهواء الرطب يهب عليها ، والوحل يتطاير حولها ، في حين كان الحوذي يستدير نحوها ، وهو في مقعده ، نصف استدارة ، ويشكو اليها بصوت ناحب أنخن :

- وقلت له ... اعني لأخي ، حسناً ، لننقسم ، وبدأنا إجراء القسمة .

ولسع بسوطه فجأة ، الجواد الايسر ، وصرخ بصوت خافت :
- ديه ... هيا ، اسرع يا ابن الساحرة .

وكان غربان الحريف الفارمة تسير مغمومة فوق اثلام الحقول ، والهواء البارد يعصف بها نافخاً ، فتدير جنوبها لهباته التي تعبت بريشها وتفقدها توازنها ، فلا ترى بدأ من الرضوخ للقوة ، إذ لا تلبث ان تحرك اجنحتها الكسلى . وتنطلق لترتاح في مكان آخر .

وتابع الخوذي :

- ثم غلبني ... فرأيت انه قد أسقط في يدي ...

وكانت الام تتلطف كلماته كأنها في حلم ، وكانت ذاكرتها تستعرض امامها سلسلة الاحداث الطويلة التي عاشتها في سنواتها الاخيرة . لقد كانت الحياة ، من قبل ، تبدو لها خارجية نائية ، لا يدري احد من صنعها ، ولماذا صنعها ؟ اما الآن فإن كثيراً من الاشياء تتكون تحت سمعها وبصرها ، وبموازرتها ؛ وكان هذا يوقظ فيها إحساساً مشوشاً يمتزج فيه الشك بشعور الرضى عن الذات ، والحيرة بالحزن الهادى .

وكان كل شيء حولها يتذبذب في تحرك بطيء ، وفي السماء تهم الغيوم الرمادية وهي تتطارد بتثاقل ، وعلى جانبي الطريق تتراكض الاشجار البليدة وتهتز ذراها العارية ؛ وكانت الحقول تنأى في حركة دائرية ، وترتفع هضاب ثم لا تلبث ان تغيب .

وكان صوت الخوذي الاخن ، ورنين الجلاجل ، ونفخ الريح الرطبة وضجيجها ، كان ذلك كله ينضهر في جدول متئن ، نابض ، يتدفق فوق الحقول بقوة برتبية لا تتغير .

واكل الخوذي وهو يجر جر كلماته ويترنح فوق مقعده :

- وحتى في الجنة نفسها يعيس الثري في ضيق ... هكذا ... ثم أخذ يمتصرتني فلقد كان على صلة طيبة بالسلطات .

وعندما وصلا الى محطة البريد اوقف جواده وقال للأم بصوت لا أمل فيه :

- ليتك تعطيتني قطعة نقدية صغيرة لأشرب كأساً ؟

واعطته خمسة « كوبيكات » فخشخش بها في يده واعلن باللهجة نفسها :
- ثلاثة للفودكا ... واثنان للخبز .

وبعد الظهر بلغت بيلاجي قرية كبيرة تدعى « Nikolshié » وهي منهكة القوى ترتعش من البرد ؛ فدخلت فندق الحطة ، وطلبت قدحاً من الشاي ، وجلست قرب النافذة بعد ان وضعت حقيبتها الثقيلة تحت المقعد ؛ كانت النافذة تطل على ساحة صغيرة يغطيها بساط من العشب المصفر ، وعلى مبنى مديرية المقاطعة وهو ذو لون رمادي غامق ، وسقف كثير التثني ، وكان ثمة على سلم المبنى ، قروي اصلع طويل اللحية ، يرتدي قميصاً فقط ، ويدخن غليوناً . وكان هناك خنزير يسير فوق العشب ، ويحفر الأرض بخرطوميه ، محركاً رأسه واذنيه ، وملاحه تم عن عدم الرضا .

وكانت الغيوم تتراكض في كتل متجهمه ، ويتداخل بعضها ببعض ، وكان الجو قائماً هادئاً حزيناً ، يخيل للمرء معه ان الحياة قد توارت ، وامسكت انفاسها . وفجأة ، وصل جاويش قوزاقي مسرعاً ، فأوقف جواده الأشقر امام سلم المديرية وصرخ ببعض الكلمات في وجه القروي وهو يهز كرواجه ، وكانت صيحاته ترتطم بزجاج النافذة ، ولكن الأم لم تكن تسمع ما يقول . ووقف القروي ومد ذراعه يشير نحو الافق ، فترجل الجاويش ، ودار على عقبيه كالخائر ، ثم التقى الرجل بأعنة جواده ، وامسك بمحاجز السلم وراح يرتقي درجاته بتثاقل الى ان اختفى في البناء .

وخيم الهدوء من جديد ، وضرب الجواد الارض الرخوة بمجوافره ضربتين ، ودخلت الى الغرفة التي كانت بيلاجي فيها ، فتاة صغيرة تنسدل على عنقها صغيره قصيرة صفراء ، وتلمع في وجهها المستدير عينا ملاحظتان . وكانت تحمل فوق ذراعيها المدودين وهي تمض شفتيها ، طبقاً متأكلاً الحوافي ، مثقلاً بالأواني المطبخية . وحيث الأم بهزات متتابعة من رأسها ؛ فقالت لها الأم بود :

- صباح الخير ايبتها الصغيرة الشاطرة .

- صباح الخير .

ووضعت الصغيرة الاكواب والاطباق على الطاولة وفجأة اعلنت بحوية :

- لقد ألقوا القبض على لص ، وسيأتون به الى هنا .

- من هو هذا اللص ؟

- لا ادري .

- وماذا فعل ؟

- لا ادري . لقد سمعت فقط انهم قبضوا عليه ، وان حارس المديرية قد

اسرع لإحضار مفوض الشرطة .

ومدت الأم بصرها من النافذة ، فرأت رهطاً من الفلاحين يفترون ؛ بعضهم

يسرون ببطء وتناقل ، وبعضهم الآخر يتقدمون ، وهم يزررون على عجل ،

معاطفهم المصنوعة من الفرو... وتوقفوا عند سلم البناية، وتوجهت ابصارهم نحو

الجهة الشمالية .

وألقت الفتاة الصغيرة ايضاً نظرة عجلى على الشارع ثم خرجت بسرعة

وصفقت الباب وراءها . وارتعشت الأم ، ودفعت حقيبتها الى الورا تحت المقعد ،

ما وسعها ذلك ، ثم توجهت مسرعة نحو الباب وهي تطرح نقاياها على رأسها ،

وتغالب رغبة مفاجئة معقدة ، رغبة في أن تسرع الخطى ، في ان تركض .

وعندما اصبحت على سلم الفندق ، واجهتها نفحة باردة لسعت صدرها وعينيها

فشعرت بالخدر في ساقها ، وبأنها تكاد تختنق . وفي وسط الساحة ابصرت زيبين

يسير ويداه مكبلتان وراء ظهره ، ويحف به حارسان يضربان الأرض بعصاهما

ضربات موزونة ، وكان يقرب سلم المديرية حشد من الناس ينتظر بصمت .

وتولاهما الدهول فلم تحول بصرها عن زيبين ؛ وكان زيبين يتكلم وكانت هي

تسمع صوته ، ولكن كلماته كانت تحلق بلا صدى في فراغ قلبها المظلم المرتعد .

وعادت الى نفسها ، واستردت انفسها وكان هناك فلاح وضاء اللحية عريضا

يقف قرب السلم ويحدها بعينيهِ الزرقاوين . وسعلت ، وأمرت على خنجرتها

نديها اللتين اوھنها الرعب ، وسألت بأعياء :

- ماذا حدث ؟

- وأجابه الفلاح :

- ها كي .. انظري .

ثم تحول عنها ، واقترب منها فلاح آخر ووقف إلى جانبها .

وتوقف الحارسان أمام الجمع الذي كان يتضخم بلا انقطاع وهو يحتفظ بصمته

وارتفع فجأة صوت زيبين الممتلىء :

- ايها المسيحيون . سمعتم بتلك الاوراق التي رويت فيها الحقيقة عن حياتنا

كفلاحين ؟ انهم من أجل هذه الاوراق يضطهدوني لأنني انا الذي وزعتها

على الشعب .

وضيق الناس حلقهم حول زيبين ، وكان صوته يهدر يهدوء واتزان ، فيهدىء

من اضطراب الأم .

وبصوت خفيض سأل احد الفلاحين الرجل ذي العينين الزرقاوين ، وهو

يلكزه بمرفقه :

- أسمع ؟

ورفع هذا رأسه دون أن يجيب ، وراح يرنو الى الأم من جديد ؛ فحذا

الفلاح الآخر حذوه وكان اصغر منه سناً ، اسود اللحية خفيفها ، نحيل الوجه

تتناثر في وجهه هذا بقع من الشمس ، ثم لم يلبثا ان ابعدا كلامهما عن السلم ، فقالت

الأم لنفسها :

- لقد غلكتها الخوف .

وتضاعف اهتمامها ، وكانت ترى من اعلى السلم ، بوضوح ، وجه زيبين الأسود

المتنفخ ونظرته الملتبة ؛ وقد لو يراها هو ايضاً ، فتقف ، من اجل ذلك ، على

رؤوس أصابعها متطاولة ، مادة عنقها نحوه .

وكان الناس يحقدون اليه مراتبين ، متجهمي الوجه ، لا ينبسون بكلمة ،

وفي الصفوف الاخيرة من الحشد فقط كان يُسمع صوت صدى مخنوق .

وقال زيبين بصوت ممتلىء حازم :

- أيها الفلاحون : ثقوا بما تقولوه هذه الأوراق ، فقد يقتلونني بسببها . لقد ضربوني وعذبوني ، وأرادوا أن يرغموني على البوح بمصدرها ، سيضربوني مرة أخرى وسأتحمل كل شيء لأن الحقيقة قد سُطرت في هذه الأوراق ، والحقيقة يجب أن تكون أغلى بالنسبة لنا من الخبز هذه هي القضية .

وقال أحد الفلاحين بصوت خفيض :

- ولم يقول هذا القول ؟

ورد عليه ذو العينين الزرقاوين ببطء :

- لا أهمية لذلك الآن ، فالمرء لا يموت مرتين ، ولكنه على كل حال ، يجب أن يتذوق الموت مرة .

وكان الناس ما يزالون هناك صامتين يتسارقون النظر وهم كاسفوا الوجوه ، ويبدو عليهم جميعاً أنهم ينوؤون تحت عبء غير منظور ، ولكنه شديد الوطأة . وظهر الجاويش على السلم ، وعوى بصوت مخمور ، مترخفاً :

- من الذي يتكلم ؟

وتدحرج فجأة على درجات السلم ، فأخذ ريبين من شعره ، وشد رأسه إلى الأمام ، ثم دفعه صائحاً :

- هذا أنت الذي يتكلم يا ابن الكلبة .. أهدأ أنت ؟

وماج الحشد وتلاطم ، وأطرقت الأم وقد عصفت بها غم عاجز ، ودوى صوت ريبين من جديد :

انظروا أيها الناس الطيبون ..

- إخرس .

ولطمه الجاويش لكمة على أذنه ، فترنح وشغل كتفيه :

- إنهم يوثقون يدي المرء .. ويعذبونه كما يشتهون ...

- أيها الحرس ، خذوه .. وانتم الآخرين .. هيا تفرقوا

وكان الجاويش يضرب ريبين بقبضته ، يضربه في وجهه وصدره وبطنه ، وينط أمامه كالكلب مربوط أمام قطعة من اللحم .

وصاح واحدٌ من بين الجمع :

- لا تضربه .

وسانده صوت آخر :

وعلام تضربه ؟

وأشار الفلاح ذو العينين الزرقاوين بإيماءة من رأسه ، وقال لرفاقه :

- هيا بنا .

وتقدما على مهل نحو مسرح الحادث ، وكانت الأم تتبعهما بنظرة عطف ومحبة ، وتتنفس الصعداء ، وعاد الجاويش فتسلق السلم بتثاقل ، وزجر يجنون وهو يهدد بقبضته :

- اقول لكم جرؤة الى هنا !

وأجاب صوت قوي من بين الجميع :

- لن نسمح بذلك . لا تدعوه يفعلون أيها الفتيان . إنهم إذا ما اقتادوه إلى هناك فيضربونه حتى الموت ، وسيقولون بعد ذلك أننا نحن الذين قتلناه . فلا تسمحوا لهم بأن يفعلوا .

وعرفت الأم أن هذا الصوت لم يكن سوى صوت الفلاح ذي العينين الزرقاوين .

وصاح ريبين :

- أيها الفلاحون : ألا ترون كيف تميشون ؟ ألا تعرفون أنهم يسرقونكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم ؟ إن كل شيء يتوقف عليكم ؟ فأنتم القوة الرئيسية على الأرض ، ومنع ذلك ما هي الحقوق التي تملكونها ؟ إن حقكم الوحيد للذي تملكونه هو أن تنفلقوا من الجوع !

وفجأة علا صراخ الفلاحين واختلطت اصواتهم :

- إنه يقول حقاً .

- نادوا المفوض ، أين هو المفوض ؟

- لقد ذهب الجاويش لإحضاره .

— ولكنه ثل .

— ليس من شأننا نحن أن نستدعي السلطات .

وكان الضجيج يزداد باستمرار ، ويتعالى أكثر فأكثر :

— تكلم فلن ندعهم يضربونك .

— فكثروا وثاق يديه .

— حذار أن يضاب بمكروه .

وقال ريبين وهو يسيطر على الضجيج بصوته الجهور المترن :

— ان يديّ تؤلمانني ، ولن أهرب أبداً أيها الفتيان . ليس لي أن أختبئ من

وجه حقيقي ، فحقيقي تعيش في .

وانفصل بعض الأشخاص عن الحشد ببطء ، وابتعدوا وهم يتحدثون بصوت

منخفض ويهزون رؤوسهم ، ولكن جماعات أخرى محتاجة كانت تتراكم وقد

ارتدت ثيابها الرثة على عجل ، لتنضم إلى الجمع ، وكانوا يغنون حول ريبين كالزبد

القائم في حين كان هو يشبك ذراعيه فوق رأسه ككنيسة في الغابة ويصيح :

— شكراً لكم أيها القوم الطيبون شكراً لكم . ان واجبتنا أن نتعاون هكذا

لنحرر أيدينا من الاغلال ، والا فمن الذي سيساعدنا إذا لم نفعل نحن ؟

ومسح لحيته ثم رفع من جديد يده المضرجة بالدم :

— انظروا إلى دمي .. انه يسيل من أجل الحقيقة .

وهبطت الأم عن السلم ، ولكنها ، وهي على الأرض ، لم تعد ترى ريبين

الذي يرحم الناس ، فمادت تتسلق درحات السلم ، تلهب صدرها الحرارة ، وتحس

في قلبها خفقة الفرح .

— أيها الفلاحون . فتشوا عن تلك الأوراق واقرأوها . لا تصدقوا السلطات

والكهنة حين يقولون لكم ان اولئك الذين يحملون لنا الحقيقة ليسوا سوى كفر

عصاة ، إن الحقيقة تتسرب إلى العالم كله خفية ، وتبحث عن أعشاش لها في ضمير

الشعب . انها بالنسبة للسلطات كالسكين ، كالنار ، إنهم لا يتقبلونها لأنها ستدبجهم

وتحرقهم . إن الحقيقة بالنسبة لكم خير صديق ، ولكنها بالنسبة لهم عدو شر .

وهي من أجل ذلك تتخفى .

وعادت صيحات الاستحسان تتعالى من جديد بين الحشد :

— اصغوا إليّ أيها المسيحيون .

— هيه أيها الأخ إنك تهلك نفسك .

— من الذي خانك . فسلمك اليهم ؟

وقال أحد الحراس :

— إنه الكاهن ..

وأطلق الفلاحان بضراوة سيلاً من الشتائم .

ودوى صوت محدّر :

— انتبهوا أيها الفتيان .

- ١٦ -

وأقبل مفوض الشرطة الريفية ، وكان رجلاً فارح القامة ، قوي البنية ،

مستدير الوجه ، تتكوى قبعته على أذنه ، ويشرب أحد شاربيه إلى أعلى ، ويتدلى

الآخر نحو الأرض ، فيبدو وجهه معوجاً ، تشوهه بسمّة مينة بلهاء . وكان

يمتشق سيفه ببسراه ، ويلوح في الفضاء بيميناه ، وكانت خطاه ثقيلة واثقة .

وانكفأ الحشد أمامه ، وارتسم على الوجوه تعبير كالحج منك ، وهذا

الضجيج ، وخفت ، كأنه إنما غار في الأرض . وشغرت الأم يحلج جبهتها يرتعش

وبحرارة تشتعل في عينيها ، وعادتها الرغبة في ان تختلط بالحشد من جديد ،

ولكنها انحنت إلى الامام ، وجدت في قرب مغموم .

وسأل المفوض وهو يقف أمام ريبين ويقيسه بنظراته :

— ما هذا ؟ لم لم تؤثّق يداه ؟ اربطوه يا حراس .

وكان صوته جهوراً مرقعاً ، ولكنه لا لون له .

وأجاب أحد الحراس :

— لقد كانتا موثقتين ولكن الشعب فك وثاقهما .

ماذا؟ الشعب؟ وأي شعب؟

وتطلع المفوض الى الحشد الذي كان يحيط به على شكل نصف دائرة، وتابع بنفس الصوت الابيض، الرتيب الجرس، ودون ان يرفع من هذا الصوت أو يخفض:

— ومن هو الشعب؟

وسدد ضربة من قبضة حسامه الى صدر الفلاح ذي العينين الزرقاوين:

— أنت هو الشعب يا تشوماكوف! ومن أيضاً؟ أنت يا ميشين؟

وشد بينماه لحية فلاح آخر وصاح:

— هيا تفرقوا! أيها الاوباش، وإلا فسأريكم من أنا!

ولم يكن في صوته وملامحه اشارة غضب أو تهديد، فلقد كان يتكلم بهدوء، ويضرب الناس بمركات متساوية، كما لو كانت يدها الطويلتان القويتان قد تعودتا ذلك. وكان الحضور يترجعون الى الوراء إذا ما اقترب منهم، ويطأطئون

رؤوسهم ويشيحون بوجوههم:

وتلفت الى الحرس وقال لهم:

— حسناً... وماذا تنتظرون؟ هيا اوثقوه.

وبعد أن أطلق سرباً من الشتايم، تلفت الى ريبن وصاح به:

— وأنت... ضع يديك وراء ظهرك.

وقال ريبن:

— أنا لا اريد أن يوثقوني. إني لن أهرب، ولن اقاوم، فعلام إذن يشدون وثاقي؟

وسأله المفوض وهو يدنو منه خطوة:

— ماذا؟

وتابع ريبن وهو يرفع من صوته:

— لقد عذبتم الشعب بما فيه الكفاية أيها الوحوش الشر، وعما قريب سيأتي اليوم الأحمر، يومكم أيضاً.

وكان المفوض يحدث به جامداً وشارباً يترقصان، ثم انكفأ الى الوراء

خطوة، وقال بصوت تسيطر عليه الدهشة:

— آه. آه. آه. يا ابن الكلب. ما هذا؟ ماذا تعني بهذه الكلمات؟

وفاجأه بصفعة قوية خاطفة على وجهه.

وصاح ريبن وهو يتقدم نحوه:

— إنك لن تقضي على الحزبة بضربات قبضتك؛ ثم انه ليس من حقك ان

تضربني أيها الكلب القذر.

ومر المفوض وهو يساحب كلماته:

— أنا... لا أجرو؟ أنا؟

ورفع ذراعه ثانية ليهوي بها على رأس ريبن، ولكن هذا النحي قليل فلم

تصبه الضربة؛ وكاد المفوض وقد عصف به الغضب، أن يهوي إلى الأرض،

وقهقه احدهم من بين الجميع، بصخب، وراح صوت ريبن الرهيب يدوي من جديد:

— لا اسمح لك بضربي أيها الشيطان.

وتلفت المفوض حواله فإذا الفلاحون قد اقتربوا صامتين كالحي الوجوه،

وضربوا حوله حلقة كثيفة قائمة؛ فهتف وعيناه تبحثان عن احدهم:

— نيكييتا.. هيه، يا نيكييتا.

وبرز من الحشد فلاح صغير مربوع القامة، يرتدى سترة قصيرة من فرو الغنم

ويحدث في الارض مطأطأ رأسه الضخم الأشعث الشعر

وقال المفوض بتؤدة وهو يمسد شاربيه:

— إصفعه يا نيكييتا صفعة قوية على اذنه.

وتقدم الفلاح خطوة، ثم وقف أمام ريبن ورفع رأسه، ولكن ريبن

صعقه بهذه الكلمات المثقلة بالحقيقة:

— انظروا ايها الناس الطيبون، كيف يخنقكم هؤلاء الأشرار بأيديكم

انظروا وتبصروا!

ورفع الفلاح ذراعه ببطء، وضرب ريبن على رأسه ضربة خفيفة، ولكن

المفوض صاح به غاضباً:

— ليس هكذا الضرب أيها الوغد .

وارتفع صوت من بين الجمع :

— هه يا نيكيتا .. اتق الله .

وصرخ المفوض وهو يدفعه أخذاً بخناقه :

— اضرب .. أنا أقول لك اضرب .

ولكن الفلاح طأطأ رأسه وتحنى وهو يقول بلهجة كثيبة :

— لن أفعل ذلك أبداً .

— ماذا ؟

وانقبضت ملامح المفوض ، ولبط الأرض بقدميه من الغيظ ، ثم هجم على ريبين شامخاً . وزن صدئ صفعة خرساء ، ترنح لها ريبين ، ولوح بذراعه في الفضاء . وفي الهجوم التالي طرحه المفوض أرضاً وقفز فوقه ، وراح وهو يزجر ، يوسعه ركلاً برجليه ، على رأسه وصدره وأضلاعه .

وتعالى الصخب الحاقد من الجمع المتموج ، الذي اندفع نحو المفوض ، ولكن هذا احتاط للأمر فقفز جانباً ، واستل سيفه من غمده ، وتهدى صوته ، واعترفته بجة ، فبدا كالحطم :

— آه ، أمكذا ؟ إنكم تتمرّدون اليس كذلك ؟ أجل ..

وخازت قواه ، كما تلاشى صوته من قبل ، وغار رأسه بين كتفيه ، واحدودب ظهره ، فانكفاً الى الوراء وهو يدير عينيه الحساويتين في كل اتجاه ، ويتحسس الأرض بقدميه حذراً ، ثم صرخ ، وهو ينسحب ، بصوت كثيب أبج :

— حسناً ، خذوه . ها أنذا ذاهب . ها ؟ ألا تعلمون أيها الاندال الملعونون انه مجرم سياسي يعمل ضد قيصرنا ، ويحرض على الشعب ؟ أتعرفون ذلك ثم تدافعون عنه ؟ آه .. آه .. انكم إذن لتمرّدون .

وكانت الأم جامدة ، لا يطرف لها جفن ، وتزجج تحت وطأة الرعب والاشفاق ، خائفة القوى ، خامدة الفكر كأنها تعاني عذاب كابوس ثقيل . وكانت أصوات الاستنكار الحانقة الكالحة المنذرة بالشر ، تضج في رأسها كطنين

النحل ، وكان صوت المفوض يتهدج ، والهمس يتعالى :

— إذا كان مذنباً فليس لهم إلا أن يحاكموه .

— إصفي عنه .

— حقاً إنك تتصرف كما لو لم يكن هناك قانون

— أهذا ممكن ؟ إلى م يؤدي هذا إذا أخذوا يضربون الناس هكذا ؟

وكان الفلاحون قد انشطروا الى فريقين ، أحاط بعضهم بالمفوض وراحوا يحادلون ويضجون أما الآخرون وهم أقل عدداً ، فانهم ظلوا حول الجريش ، يتعالى صخبهم الأصم . وانفض بعضهم ، واراد الحرس أن يوثقوا يديه من جديد ولكن صوتاً هدر يقول :

— إصبروا إذن أيها الشياطين ..

ومسح ميشال الدم والوحل عن وجهه ، وتلفت حواليه بصمت فوقعت عينه على الأم ، وارتعشت هذه ، وتطاوالت نحوه ، وهزت يدها حركة غزيرية ، فأشاح ميشال بوجهه عنها ، غير ان عينيه عادت بعد لحظات لتستقر عليها ، وخيل لبيلاجي انه ينتصب ويرفع رأسه ، وان وجنتيه الداميتين ترتعدان :

— لقد عرفني .. أهذا ممكن ؟

وأومات له برأسها ، وقد هزتها غبطة تقعمها الكتابة الموجعة ، ولكنها سرعان ما لاحظت ان الفلاح الأزرق العينين الذي يقف الى جانبه ، كان يحرق بها أيضاً ؛ مما أثار في نفسها الإحساس بخطرها .

— ماذا أفعل ؟ لسوف يقبضون علي أيضاً بلا ريب .

... وصب الفلاح بضع كلمات في اذن ريبين فهز هذا رأسه وراح يتحدث بصوت محطم ولكنه واضح جريء :

— لا بأس في ذلك ، فلست وحدي على الأرض . إنهم لن يسجنوا الحقيقة كلها ، وسيذكرني الناس في كل مكان مررت به . لقد تهدم العش ولم يعد الاصدقاء والرفاق فيه .

ودار في خاطر الأم : إنه بوجه هذا الكلام الي .

- ولكن سيأتي اليوم الذي تخلق فيه النور بحرية ، اليوم الذي يتحرر فيه الشعب .

وحملت إحدى النسوة سطلا من الماء وراحت تغسل وجه ريبين وهي تقول وتنتحب ساخطة ، وكان صوتها النحيل الشاكي يختلط بكلمات ميشال فلا يتيح للآم أن تفهمها وتقدم رهاط من الفلاحين ، على رأسهم المفوض ، وصاح واحد من بينهم :

- آتونا بعربة تحمل السجن من منكم يقوم بهذه المهمة ؟

ثم دوى صوت المفوض الشديد التغير كالحنق :

- أنا أستطيع أن أضربك أيها النذل ، أما أنت فلا ، لأن ذلك ليس من حقك .
وصاح ريبين :

- نعم . وأنت .. من أنت ؟ أنت إله الناس ؟

وطغى على صوته دوي غنوق لا انسجام فيه ، دوي صراخات :

- لا تجادله يا صديقي ، إنه يمثل السلطة .

- لا تحنق فهو لا يعي نفسه ..

- إخرس أيها الفتى المضحك .

- إنهم سيأخذونك توأ إلى المدينة .

- إنهم هناك يحترمون القانون أكثر .

وكانت أصوات القوم تتعالى ، وفيها استعطاف ونصح ، وتختلط في ضوضاء شاكية مرتبكة ، لا تند منها نفحة أمل . وأمسك الجرس ريبين من إبطه ، وتسلقوا به السلم ، ودخلوا معه المنزل فاختلفوا عن الأنظار ..

وأخذ الفلاحون يتفرقون ببطم ، ورأت الأم الرجل الأزرق العينين يتجه نحوها ، وينظر إليها خلسة ، فأخذت ركبناها تصطكان ، وشد على قلبها بالوهن ، ورغبة بالتقيؤ ، وقالت في نفسها :

- يجب ألا انصرف .. يجب ألا انصرف .

ولبثت عند أسفل السلم تنتظر .

وكان المفوض على سلم المديرية يتكلم ويكثر من اشارات يديه ، وكانت الشتائم تنصهر في صوته الذي غدا أبيض لا حياة فيه :

- يا لكم من حمقى يا أبناء الكلاب ! إنكم لا تفهمون شيئا . إنكم تدسون انوفكم في هذه القضية ... في قضية تتعلق بالدولة . وعليكم أيها البهائم اللعينة ان تتحنوا أمامي حتى الاذقان ، وان تتوجهوا الي بالشكر ، جزاء طيبي ، لأنني لو شئت ، لكنتم في السجن جميعا .

وكانوا نحواً من عشرين فلاحاً يصفون اليه حاسري الرؤوس ، وكان المساء يهبط بظلامه ، والغيوم تهم على وجهها وتنخفض حتى تكاد تلامس الارض . واقترب الفلاح الأزرق العينين من الأم وقال لها متأوها :

- هذا ما يجري عندنا ..

وقالت الأم بهدوء :

- أجل .

فحدق بها وهو صريح الملامح وسألها :

- ماذا تفعلين هنا ؟

- اشقري المطرقات من الفلاحات .. والنسيج أيضاً .

فسد لحيته ببطم ، ثم رتا الى البناء المقابل ، وقد بدا عليه الضيق .

- ولكن ذلك لا تجديته هنا .

وتأملت الأم وراحت تنتظر الفرصة السانحة لتعود الى الفندق ، وكان هو ساهم النظرات وسيماً ، كثيب العينين ، عريض المنكبين ، يرتدي صدرية كثيرة الرقع ، وقيصاً نظيفاً من الكتان الهندي ، وبنطالاً أصعب من الجوخ الريفي ، وينتعل حذاءين بالين دون ان يكون في قدميه جوارب .

وتنفست الأم الصعداء دون ان تدري سبباً لذلك ، ثم استسلمت فجأة لخدس كان يسبق تفكيرها المضطرب ، وراحت تطرح على الفلاح سؤالاً فوجئت به هي نفسها :

- هل أستطيع ان اقضي هذه الليلة في ضيافتك ؟

وتقلصت بشدة عضلاتها ، وعظامها ، وكيانها كله ، ثم أنتصبت ، وسمرت
بصرها على الفلاح ، وراحت الحواطر المزعجة تتراقص في رأسها :
« ... سأكون سبباً في هلاك نيقولا .. لن أرى بول أبداً .. خلال وقت
طويل .. انهم سيفتكون بي .. »
وأجابها الفلاح بتؤدة ، وهو يرنو الى الأرض ، ويشد صدريته ليغطي
بها صدره :

— تقضين الليل عندي ؟ هذا ممكن .. ولم لا ؟ .. ولكن منزلي ليس
فخماً ..

وردت عليه لا واعية :

— ولكنني لست ابنة نعمة مدلة .

وأجابها وهو يقيسها بنظرة متفحصة :

— هذا ممكن .

وكان الظلام قد ختم ، وكانت عينا الفلاح تلتمعان بالقي بارد ، ووجهه يبدو
شديد الشحوب . وقالت بيلاجي بصوت خفيض وقد خالجه شعور كشعور من
يتدحرج من الهاوية :

— حسناً ؛ سأتي معك حالاً ، وستحمل لي حقيقتي .

— حسناً .

وهزت كتفها ارتعاشة ، وشد الفلاح ثانية صدريته ، وقال بصوت خافت :

— هي ذي العربة ..

وظهر ريبين على سلم المديرية ، موثوق اليدين من جديد ، تعصب رأسه ووجهه
هنة رمادية اللون ، وتعالى صوته في الغسق البارد :

— وداعاً أيها الطيبون ، فتشوا عن الحقيقة ، واحرصوا عليها ، وثقوا بمن

يحمل اليكم الكلم الطيب ، ولا تقضوا بقواكم من اجل الدفاع عن الحقيقة .

وصاح المفوض :

— اخرس ايها الكلب . وانت ايها الحارس النذل ، أطلق الجياد .

لا شيء يمكن ان تأسفوا عليه ... يا لها من حياة ؛ حياتكم ؟

وتحركت العربة ، وتابع ريبين وهو يجلس بين الحارسين :

— لم تدعون انفسكم تموتون جوعاً ؟ إعملوا من اجل الحرية ، فستهلككم
الحرية الخبز والحقيقة . وداعاً أيها الطيبون .

وطغى صخب العجلات ، ووقع الحواقر وضوت المفوض ، طفت جميعها على
صوته ، وتضافرت فخنقت هذا الصوت .

وقال القروي وهو يهز رأسه :

— لقد انتهى كل شيء .

ثم استدار نحو بيلاجي واستأنف :

— ابق هنا قليلاً فسأعود حالاً .

... وعادت الى فندقها ، فجلست الى المائدة قرب الموقد ، وتناولت قطعة

من الخبز ، فحدقت بها ، ثم وضعتها يدهوء في الصحن . إنها لم تكن جائعة ،

ولكنها كانت تحس من جديد اضطراباً في اعماق معدتها ، وحرارة أليمة تنهكها

وتوقف حرارة دمها ؛ وتسبب لها الدوار . وكان الفلاح ذو العينين الزرقاوين

ينتصب امامها بوجه الغريب الذي لا يوحي الثقة والذي يبدو كأنه ناقص

الخلق ؛ وكانت لا تود ان تقول لنفسها بصراحة : « سيخونني » .

ولكن هذه الفكرة كانت قد ولدت في رأسها ؛ وجثمت ثقيلة على قلبها ...

— لقد راقبني ... راقبني واستنتج أن ...

ولم يذهب تفكيرها إلى أبعد من ذلك ، بلى غرق في وهن أليم ، واحساس

لزج بالغيثان .

واعقب الضجيج صمت جبان ، كان ينبسط وراء النافذة ، ويشيع في القرية

ضرباً من الخوف والعياء ، ويزيد شعور الأم بالوحدة ، ويملاً نفسها بظلمات

كدراء ، رخوة كالرماد .

ودخلت عليها فتاة الفندق ، وتوقفت عند الباب تسألهما :

— هل آتيك بطبق من العجة ؟

— كلا ، لا رغبة لي في ذلك ... لقد اربعتني هذه الاصوات ...

واقتربت الصغيرة وراحت تقص ، بجرارة ، ولكن بصوت خفيض :

— لكم صفعه المفوض ... لقد كنت جسد قريية ، وشاهدت كل شيء . لقد حطم له اسنانه كلها ، فبصق دماً كثيفاً ، كثيفاً ، اسود اللون ، وحتى عيناه كان الدم يسيل منها . إنه يعمل في القار ... والجاريش عندنا ، انه ثمل لا يستطيع ان ينهض ومع ذلك فإنه يطلب دائماً المزيد من الخمر . ويقول إنهم كانوا عصابة كاملة ، وإن الملتحي ذاك هو رئيسهم . لقد قبض على ثلاثة منهم ... وهناك واحد استطاع النجاة ، كما القي القبض ايضاً على معلم مدرسة كان معهم . إنهم لا يؤمنون بالله ، وهم يوصون الناس بأن سلب الكنائس واجب ... فتأبلي أي قوم هم . هناك بعض الفلاحين داخلتهم الشفقة على ذاك ... وآخرون كانوا يقولون : يجب الاجهاز عليه . آوه ... لكم بين فلاحينا من اشرار ...

وكانت الأم تعير حديث الفتاة المتقطع السريع أذنًا صاغية ، وتجهد نفسها للتغلب على قلقها ، وتبديد غم الانتظار ، وكانت الضيبة ، وقد اسعدها بلا شك أن تجد من يصغي إليها ، كانت تثرثر بلا انقطاع وبكثير من الاندفاع ، وتتابع وهي تبثلم كلماتها وتخفص من صوتها :

— يقول والدي ان سبب ذلك هو قحط الموسم . فهذه هي السنة الثانية التي تجذب فيها الارض ، والناس لا يستطيعون ان يفعلوا إزاء ذلك شيئاً . ولهذا السبب يوجد الآن فلاحون هكذا يعانون بؤساً حقيقياً ... إنهم يتصايحون في الاجتماعات ، ويتعاركون . وبالأمر عندما بيعت موجودات فاسيوكوف بسبب الضرائب المتراكمة عليه والتي لم يدفعها ، سدد ضريبة من قبضته الى وجه المختار قائلاً : خذ هذه هي المتأخرات علي من ديوني ...

ورن صدى خطي ثقيلة وراء الباب فأتكأت الأم الى المائدة ، لتنهض . ودخل الفلاح ذو العينين الزرقاوين ، وسأل دون ان ينزع قبعته :

— أين هي امتعتك ؟

ورفع الحقيبة في يده دون عناء ، ثم هزها قائلاً :

— إنها فارغة . يا ماريون رافقي المسافرة الى المنزل .

ثم خرج دون ان يلتفت الى احد .

وسألت فتاة الفندق الام :

— هل ستقضي الليلة في القرية ؟

— نعم فأنا أبحث عن مطررات لأشترتها .

واوضحت الفتاة : إنهم لا يشتغلون منها عندنا ... انهم يشتغلونها في

« تانكوف » و « دارينو » وليس هنا .

— سأذهب الى هناك غداً .

ودفعت ثمن الشاي ، ونفخت الصغيرة ثلاثة « كوبيكات » بهرتها ...

... وفي الشارع ، اقترحت هذه وهي تجرر قدميها الحافيتين على الارض

الرطبة :

— هل تريد أن « اخطف رجلي » الى دارينو ، فاطلب الى نساءنا ان

يحملن إليك ما عندهن من مطررات ؟ فلا تضطرين للذهاب الى هناك . ومع ذلك يوجد اثنا عشر كيلومتراً ...

وردت عليها الأم وهي تسير الى جانبها :

— لا جدوى في ذلك يا عزيزتي .

وانعشها الهواء البارد وكان هناك حل يتكون ببطء في رأسها ، حل ما

زال قلقاً ، ولكنه حل واعد يتنامى في داخلها . وكانت ، ولكي تستعجل

تفتحه ، تسأل نفسها بالحاح :

— ما العمل ؟ هل اتصرف بصراحة ؟ هل اتصرف كما يوحي الضمير ؟

وكان الليل قد هبط بارداً رطباً ، والنوافذ تتلألأ بضوء أحمر جامد ، أكد

وفي قلب الصمت كانت الماشية تحور بلا مبالاة ، وتتمالى بعض الصيحات الحاطفة

ثم تلف القرية كآبة ساحقة .

وقالت الضيبة :

— من هنا الطريق . لقد اخترت منزلاً سيئاً ... فهذا الفلاح شديد الاملاق .

وتلمست الباب ففتحته ، ثم نادى منبهة :

- آيتها الام تاتيانا .

ثم ولت الادبار ، وجاء صوتها من قلب الظلمات .. خفيفاً :

- وداعاً .

- ١٧ -

ووقفت الام في العتبة ، وراحت تتفحص المنزل وهي تظل عينيها بيدها ، وكان اول ما لاحظته انه ضيق ، ولكنه نظيف . واطلت امرأة شابة برأسها من وراء المدفأة ، وحيث بصمت ، ثم توارت . وكان هناك في احدى الزوايا مصباح يشتعل على طاولة :

وكان رب البيت يجلس في الداخل ، واصابعه تنقر طرف الطاولة ، وبصره يتسمر على الام . وبعد هنيهة قال :

- ادخلي ... اذهبي يا تاتيانا ونادى « ببيز » ... هيا !

وخرجت المرأة بسرعة دون ان تلقي نظرة على الزائرة ، وجلست هذه على المقعد المواجه للفلاح ، تبحث ببصرها عن حقيبتها التي لم تكن تراها ، وران على الكوخ صمت ثقيل ، وكان لهب المصباح وحده يزفر زفرات خفيفة ، ووجه الفلاح المكفهر المغوم يتذبذب بغموض ، في عينيها ، فيسحن نظراتها بالباس . وفجأة سألت بيلاجي بصوت قوي فاجأها هي نفسها :

- أين هي حقيبتى ؟

وهز الفلاح كتفيه واجاب ساهماً :

- إنها ليست ضائعة .

واكمل بصوت اكثر خفوتاً ، وهو متجهج الملامح :

- عندما قلت امام الصغيرة في الفندق انها قارعة ، قلت ذلك عمداً ، في حين

انها ليست كذلك ... بل انها ثقيلة الوزن .

- ثقيلة جداً ؟ ومعنى ذلك ؟

ونفض ، واقترب منها ، ثم انحنى وسألها بصوت منخفض :

- وذلك الرجل ... هل تعرفينه ؟

وارتعشت الام ، ولكنها اجابت بحزم :

- نعم .

ويبدو ان الكلمة الموجزة قد فجرت الضياء فيها ، وغمرت بالنور كل شيء حولها ، فندت عنها زفرة عزاء ، ثم تقدمت ، فجلست على المقعد .

وارتسمت على شفتي الفلاح ابتسامة عريضة :

- لقد رأيتهما تتبادلان الاشارات فهمست في اذنه : ربما كنت تعرفها جيداً ... تلك التي تقف هناك على السلم ؟!

وسألته الأم بجملة :

- وماذا قال ؟

- هو ؟ لقد قال : « إنهم كثيرون .. نعم .. كثيرون » هذا ما قاله ...

ورشقا الرجل بنظرة متسائلة وتابع وهو يبتسم ثانية :

- هذا الرجل ... قوة هائلة ... إنه جريء ، يقول لهم دوناً مواربة : « انا » ويضربونه هم ... ولكنه لا يرضخ .

وكان صوته الواهي المشكك ، ووجهه الصارم ، وعينه الصافيتان الصريحتان ، كان ذلك كله يبعث الطمأنينة في قلب الأم شيئاً فشيئاً ، وكان القلق والاعياء يتقلصان من نفسها ، ليحل محلها الاشفاق على ربيين .. وهو اشفاق حاد أكال .

وغلكتها غضب مفاجئ مرير لم تستطع له كتباً ، فصاحت بأعياء :

- يا لهم من لصوص ... يا لهم من غيلان .

واطلقت العنان لزفرتها .

ونأى الفلاح عنها ، وهو يهز رأسه ، حزين الملامح :

- ان السلطات تكتسب اصدقاء صغاراً طيبين ... نعم ...

ثم عاد ، فأقترب منها فجأة ، وقال لها بصوت خفيض :

- حسناً . اني اتكهن بأن حقيبتك تحتوي على الصحيفة .. اليس ذلك صحيحاً .

واجابت الأم ببساطة وهي تسمح دموعها :

- نعم ... لقد حملتها له .

وقطب حاجبيه ، وجمع لحيته في قبضته ، ثم لاذ بالصمت وهو ضائع النظرة .

- لقد جاء الى هنا ومعه أيضاً كتب صغيرة . اننا نعرف هذا الرجل

وكنا نراه احياناً ...

وتوقف عن الكلام وفكر قليلاً ثم سأل :

- والان ماذا ستفعلين بهذه ؟ اعني الحقيبة ؟

فرت اليه الأم وقالت بأندفاع المتحدي :

- سأتركها لكم .

ولم يُفاجأ بذلك ، ولم يعترض بل ردد .

- لنا نحن ...

وهز رأسه موافقاً ، وارتخت قبضته التي كانت تمسك لحيته ، ومشط هذه

اللحية بأصابعه ثم جلس .

وكان مشهد تعذيب رابين يعود بالحاح حاقداً مزعج ، فيترامى لعيني الأم

وكان ما تستشعره من اجل هذا الرجل ، من عذاب ومهانة ، يعفّي على كل

مشاعرها الاخرى ، فلا تستطيع التفكير في الحقيقة ، ولا في شيء آخر سواها ،

وكانت دموعها تنهمر بلا انقطاع ، ولكن وجهها كان متجهماً ، والعرشة لا تعاري

صوتها وهي تقول :

- لتحل اللعنة عليهم ، انهم يسرقون الناس ، ويسحقونهم ، ويرغونهم

في الوحل .

وأجاب الفلاح بهدوء :

- إنهم اقوياء ... اقوياء بضراوة .

وتساءلت الأم بحقد :

- ومن اين استمدوا قوتهم ؟ إنهم يستمدون كل هذا منا نحن .. من الشعب

وكان هذا الفلاح يثيرها ، يثيرها بوجهه الصريح ... الذي لا يمكن مع ذلك

حل لغزه .

وقال بصوت متساحب :

- نعم ... سم ... صوت عجلة ...

واصاح بسمعه وهو يميل برأسه نحو الباب ، ثم قال بصوت كالهمس :

- لقد اقبلوا .

- من ؟

- جماعتنا على ما اعتقد .

ودخلت زوجته ، وتبعها فلاح ما كاد يخطو الخطوة الاولى في الكوخ حتى

قذف بقبعته الى احدى الزوايا ، واقترب بسرعة من رب البيت يسأله :

- واخيراً ؟

فأوماً الآخر برأسه إيماءة التأكيد .

وقالت المرأة وهي تقف بالقرب من المدفأة :

- ايتيين ... ربما كانت ضيفتنا تريد ان تأكل

واجابت الأم :

- كلا ... اشكرك .. إنك لطيفة جداً .

ودنا القادم الجديد منها ، وراح يحدثها بصوت مبحوح :

- أسمحين في ان تتعارف ؟ إنني ادعى « بير رابينين » وألقب بـ « آلين » ؛

واعرف القليل من اعمالك . إنني اعرف القراءة والكتابة ، ولست غيباً إذا

استطعنا القول ...

واخذ يد بيلاجي التي مدت اليه فمزها ثم استدار نحو ايتيين :

- اترى يا ايتيين ؟ إن زوجة « معلنا » سيدة طيبة ... لا شك في ذلك ،

وهي تقول بأن هذا كله ليس إلا حقايات واحلاماً ... وبأن اولئك الذين

يعكرون بالمخافة صفو العالم ليسوا سوى صبيان ازقة ... وانواع شتى من الطلبة .

... ومع ذلك ... فلقد شاهدنا كلانا ، انهم قد اوقفوا منذ قليل ، فلاحاً جاداً ،

كايحسب ، والان ... هي ذي ، كما ترى ، سيدة ليست من الرعاع ، ولا يبدو

عليها انها زوجة سيد ! ... لا تفضي ... الى اية عائلة تفتين ؟

وكان يتكلم بسرعة ووضوح ، ودونما توقف ، وكانت لحيته الصغيرة المدببة تهتز بعصبية ، وعيناه المتفتشتان تتفحصان ، على عجل ، وجه بيلاجي ومظهرها . وكان رث الثياب اشعث الشعر ، يخيل اليك انه آت لتوه من عراق ، وانه قد انتصر على قرنه ، وان حماس النصر الطروب يلا اياه . وأعجب الام مَرَحُهُ النشيط واستلامه منذ البدء مبادرة الحديث ببساطة ودونما موارد ، واجابت على سؤاله وهي ترمقه بنظرة ودود ، فز يدها ثانية بقوة ، وراح يضحك بهدوء ، وكانت ضحكته قصيرة جافة متقطعة .

— أرايت يا ايتيين ؟ إنه عمل شريف وقضية رائعة . لقد قلت لك إن الشعب بدأ يتحرك من تلقاء ذاته ؛ وامرأة «معلمنا» لن تقول لك الحقيقة ، لانها ستخطئ . إن تفعل . انا احترمها ، ليس في ذلك جدال ، فهي انسان طيب يبغي لنا الخير ؛ بل لنقل ، قليلاً جداً من الخير ، بشكل لا تخسر معه شيئاً . ولكن الشعب نفسه يريد أن يسير بعزم ، انه يخشى الخسران ، ولا يعرف أيات يتجه . إنه لا يسمع شيئاً حوله ، لا يسمع شيئاً سوى كلمة « قف » ، يرشق بها من كل جانب .

وقال ايتيين وهو يهز رأسه :

— إني أرى ...

ثم أضاف على الفور :

— انها ليست مطمئنة بسبب متاعها .

وغمز بيلاجي بنجبت ، ثم استأنف كلامه ، وهو يشير اليها بيده ليطمئنها :

— لا تقلقي ، فكل شيء قد نُظِم . ان حقيبتك الصغيرة في منزلي ، لأنه عندما حدثني عنك ، واخبرني بأنك تعملين حتماً في سبيل القضية ، وبأنك تعرفين « الرجل » قلت له : حذار يا ايتيين ، حذار ان تفتح فمك بكلمة ، فالأمر شديد الخطورة ، حسناً ... ولقد لاحظنا ، يا امه ، عندما كنا نقف بالقرب منك ، انك انت أيضاً تملكين حاسة شم جيدة ، وهذا ما يميز انوف الناس الشرفاء ،

لأن هذه الانوف ، في الحقيقة ، لا تهيم في الشوارع طويلاً وعلى غير هدى ، اطمئي ... ان حقيبتك في منزلي .

وجلس الى جانبها وتابع وفي نظره ضراعة :

— اذا شئت إفراغ محتواها ، فاننا نقدم لك المعونة بكل سرور ، فنحن بحاجة ماسة الى الكتب .

وعلق ايتيين :

— انها تريد ان تترك لنا هذه الكتب كلها .

— هذا رائع ... وسنعرف نحن كيف نتدبر الامر .

وقفز واقفاً على قدميه ، وانخرط في الضحك ، ثم قال مغتبطاً ، وهو يذرع الارض بخطى واسعة :

— يمكن القول انها قصة مذهشة ، وانها مع ذلك ، في منتهى البساطة . ان الامر يسوء في ناحية ، ويصلح في ناحية اخرى . وليس هذا بسيء . انت الصحيفة مفيدة جداً ، ولها اثرها . انها تفتح العيون ، وهذا ما لا يروق للاسياد . اني اشتغل على بعد سبعة او ثمانية كيلومترات . في معمل للنجارة تملكه سيدة ، يجب الاعتراف بانها فاضلة . انها تقدم لك كتباً من كل نوع ، وغالباً ما نقرأ هذه الكتب ، فتعطينا كثيراً من الافكار . وعلى هذا فنحن مدينون لها ؛ ولكنني اطلعنها يوماً على عدد من هذه الصحيفة ، فأغضبها ذلك قليلاً . وقالت لي : « اطرحها يا بيب . ان الذين يصدرونها صبيان ازقة لا عقل لهم . انها لا تملك الا ان تزيد عذابكم ، ولن تحمل لكم الا السجن وسيبيريا .

وصمت فجأة يفكر ثم سأل :

— اخبريني ... هل هذا الرجل قريب لك ؟

فأجابت الام :

— كلا ... فنحن غريبان .

وراح بيب يضحك بصمت دون ان يدري احد سر اغتباطه ؛ وهز رأسه ، فأخست بيلاجي ان كلمة « غريب » لم تكن تليق بريين ، وبأنها بالنسبة لها ،

لفظة مهينة فاستدركت :

— انه ليس من عائلتي ولكنني اعرفه منذ امدٍ بعيد ، واحترمه كأخي الحقيقي ، كأخي الاكبر .

وكانت لا تجدد اللفظة الضرورية للتعبير . فساءها ذلك ، ولم تقو على كبت زفرة صغيرة ندت عنها ، وران على الكوخ صمت انتظار كئيب : وكان بيير يبدو وهو منتصب ورأسه يميل نحو كتفه ، كأنه انما يصغي الى شيء ما . اما زوجته فأسندت ظهرها الى المدفأة في الظل ، وكانت الام تشعر بأن نظرها يستقر عليها فلا يريم . وكانت هي بدورها تحدد بين الفينة والفينة ، في وجهها الاسمر ذي الانف الاقنى ، والذقن الذي يشكل زاوية حادة . وكانت عينها الخضراوان تلتصعان بألقى الحذر واليقظة .

وقال بيير يهدوء :

— هو اذن صديق لك . انه خلاق ... نعم ؛ وشديد الزهو بنفسه ، كما يجب ان يكون . انه رجل ... أليس كذلك يا تاتيانا ؟ انك تقولين ... وقاطعته تاتيانا وهي ترم بقوة شفتيها الرقيقتين :

— هل هو متزوج ؟

وأجابت الام بأسى :

انه ارمل .

وقالت تاتيانا بصوت عميق يخرج من اعماق صدرها :

— هذا هو سبب شجاعته ، فالرجل المتزوج لا يقدم على عمل كهذا ..

إنه يخاف ..

وصاح بيير :

— انا متزوج ومع هذا ...

فاجابته وهي تقلب شفتيها ، ودون ان تنظر اليه :

— حسناً يا صاح .. ماذا دهاك ؟ انك لا تفعل شيئاً سوى الكلام . وفي

بعض الاحيان تقرأ كتاباً صغيراً .. ان ذلك لا يفيد كثيراً اولئك الذين تهامس

انت وايتين عنهم في الزوايا .

ورد الفلاح محنقاً :

— هناك كثيرون يسمعونني ، فأنا هنا كالخيرة ... لقد احسنت القول ..

وتنظر ايتين الى زوجته دون ان يتفوه بكلمة ثم طأطأ رأسه من جديد .

وسألت تاتيانا :

— وعلام يتزوج الفلاحون ؟ يقولون انهم بحاجة الى نساء يعمل ... تعمل بماذا ؟

ورد ايتين يهدوء :

— اليس لديك من العمل ما يكفيك ؟

— واي جدوى في هذا العمل ؟ اننا في كل الاحوال ، لا نأكل حين نجوع ،

كما ان اولادنا يأتون الى الدنيا فلا نجد لدينا وقتاً للعناية بهم بسبب العمل الذي لا يعطينا حتى الحيز .

ودنت من الام وجلست الى جانبها وقابعت باصرار . دون ان يبدو عليها الحزن او التشكي :

— لقد كان لي طفلان .. احدهما احترق في الماء المغلي وهو في الثانية من عمره ،

اما الآخر فقد ولد ميتاً ، وكان ذلك بسبب هذا العمل اللعين . فهل في ذلك بهجة

لي ؟ انا اقول ان الفلاحين يفقدون عذابهم بالزواج . انهم يكتبون به ايديهم ..

وهذا كل شيء . اما اذا كانوا احراراً فإنهم سيعملون للحصول على كل ما يلزمنا ،

وسيسرون جهاراً ، الى الحقيقة .. كهذا الرجل . اليس هذا صحيحاً ؟

وقالت الام :

— بلى ... إنه صحيح يا عزيزتي تاتيانا ، واذا لم يكن الامر كذلك ، فأننا

لن نكون اسياذ حياتنا .

— ألك زوج ؟

— لقد توفي ... ولي ابن واحد .

— واين هو ؟ هل يعيش معك ؟

— انه في السجن .

واحست بأن زهواً هادئاً ، يترج في قلبها ، بحزنها المهنود الذي تمودت هذه الكلمات دائماً دون ان تثيره .

- إنها المرة الثانية التي يسجن فيها ، لا شيء إلا لانه ادرك حقيقة الله وبشر بها جهاراً . انه شاب وسيم ، ذكي ، وهو الذي تخيل فكرة الصحيفة ، وهو الذي دفع ميشال ريبين في طريق الحقيقة ، رغم ان ميشال هذا يكبره بصعف سنه . والآن يهون بمحاكمة ابني من اجل ذلك ، وسيدنيونه ، وسيهرب من سيديريا ليعود من جديد الى العمل .

وكانت تتكلم وشعور الزهو الذي يملكها يتنامى دائماً ، ويشد حنجرتها ، ويحملها على ان تتخير الكلمات لترسم صورةً لبطل : وكانت تستشعر حاجة طاغية ، لأن ترفع لوحة من العقل والضياء ، مقابل المشهد القائم الذي كانت وهي تنقاد بلا وعي لحكم سليقتها السليمة ، تبوتق كل ما رأته من صافي ونير ، في شعلة واحدة تطرف عينيها بألقها الصافي .

- لقد ولد كثير من اولئك الناس ، ويولد الكثير منهم ابداً ، ولسوف يناضلون جميعاً حتى الموت ، من اجل الحرية ، من اجل الحقيقة .

وراحت ، وقد نسيت كل حذر ، تتحدث ، دون ان تتعرض لذكر الاسماء عما تعرفه عن العمل السري الذي يتم لتحرير الشعب من اغلال الشر ، وكانت وهي ترسم الصور الغالية على قلبها ، تصب في كلماتها كل قوتها ، وكل الحب الذي ايقظته فيها ، بعد فوات الأوان ، هوم الحياة وصدماتها ؛ وكانت هي نفسها تتحمس ، وبغبطة ، لأولئك الذين تستحضرهم في ذاكرتها ، وقد جملتهم ، وأضفى النور عليهم ذلك الأحساس الذي كان يملكها .

- إنه عملٌ تشترك فيه الارض كلها ، والمدائن كلها ، فالناس الطيبون قوة لم تقدر ، ولم يحسب لها حساب بعد ، وهي تنمو بأطراد ، وستظل تنمو الى ان تجيء ساعة انتصارنا .

وكان صوتها ينساب مترنماً ، وكانت تجد سهولة في التعبير ، وتنضد كلماتها

كلآء باوروية متعددة الألوان ، تنضدها بيسر ، في خيط الرغبة المتين ، رغبتها في ان تطهر قلبها من دم نهارها ووحوله . وكانت تحس كأنما قد امتدت للفلاحين جذورٌ هناك ، في المكان الذي نقلهم اليه حديثها ، وانهم كانوا يرون السها ولا يبدون حراكاً . وكانت تسمع الانفاس المتقطعة ، انفس المرأة الجالسة الى جانبها ، فيقوي ذلك كله من إيمانها بما تقول ، وبما تعد به ..

- على كل اولئك الذين يحيون حياة أليمة ، والذين سحقهم البؤس وجردوا من كل حق ، وأذلوا للأغنياء واجرائهم ؛ على هؤلاء جميعاً ، على ابناء الشعب كلهم ان يسيروا للقاء اولئك الذين يهلكون في السجون من اجلهم ؛ ويواجهون الموت والتعذيب .. إنهم يدلون الناس أين هي طريق السعادة ، سعادة الجميع ، دون ان يكون لهم في ذلك نفع شخصي ؛ ويعترفون بأخلاص انها طريق شاقة ؛ ولا يحرون احداً اليهم بالقوة ، ولكن إذا ما انتظم المرء في صفوفهم ، فإنه لن يخرج منها ابداً ؛ لأنه سيقنع بأنهم على حق ، وبأن طريقهم هذا هو الطريق الخير ، ولا طريق آخر سواه .

وكان يُسرُّ الأم ان تحقق رغبتها في النهاية : أن تحدث الناس عن الحقيقة بنفسها .

- يستطيع الشعب ان يسير مع اصدقاء كهؤلاء ؛ اصدقاء لا يلقون السلاح مكتفين بمكاسب ضئيلة ، ولا يتوقفون عن الكفاح قبل ان يدحروا الحداين ، والاشرار ، والطماعين جميعاً ؛ ولا تتشابك ايديهم اذا لم يكن الشعب بأسره روحاً واحدة ، واذا لم يصح بصوت واحد : إني انا السيد ، وسأضع بنفسني الشرائع العادلة للجميع .

وصحنت متعبة ، ورننت الى رفاقها ، وهي على يقين مطمئن بأن كلماتها لم تتلاش دون ان تترك آثاراً لها . وكان الفلاحون يسلمون ابصارهم عليها ، وفي ملاحظهم انهم ينتظرون منها المزيد . وكان بيير يشبك ذراعيه ، وكانت عيناه ترعان وعلى وجنتيه اللتين تقطعيهما بقع الكلف ، ترتعش بسمه . وكان ايتيين ينحني مائلاً بكل ثقله الى الامام ، وهو يسند مرفقه الى الطاولة ، متطامن العنق كأنه ما زال يصغي .

وكان هناك ظلٌ ينعكس على وجهه ، فيصفي على ملاحه الكمال ، وكانت تاتيانا جالسة الى جانب الأم تسند مرفقيها الى ركبتيها ، وتحقق في قدميها .

وغغم بيير :

- هذا هو الحال .

ثم جلس يهدوء على المقعد ؛ وهو يهز رأسه .

ونفض ايتيين ببطء ، وورنا الى زوجته ، وفتح ذراعيه كأنه يريد ان يعانق شيئاً ما . ثم قال بصوت خفيض متأمل :

- الحق انه إذا ما اردنا ان نتخبط في هذا العمل ، فعلينا ان نتفرغ له بكل قلوبنا .

وقاطعه بيير باستيحاء :

- اجل ، ودونما تلفت الى الوراء .

وتابع ايتيين :

إنه مشروع ضخم .

وأفل بيير : للأرض كلها .

- ١٨ -

وكانت الأم تصغي اليهم وهي تسند ظهرها الى الجدار وتلقي برأسها الى الوراء . ونهضت تاتيانا ، وتطلعت حولها ، ثم عادت الى الجلوس ، وكانت عينها الخضراوان تلتمعان بألقٍ جاف ، وتصبان على الرجلين نظرات يختلط فيها الازدراء بعدم الارتياح .

وقالت للأم فجأة :

- يظهر انك قد قاسيت كثيراً من الأمى ؟

- نعم ... لقد قاسيت .

- إنك تحسنين الكلام ، واحاديثك تجذب السامع حتى ليقول في نفسه : يا الهي ... ليتني استطيت الا ارى إلا من خلال ناس كهؤلاء ، وحياة كهذه .

- ٣٥٠ -

كيف ترانا نعيش ؟ إننا نعيش كالخراف ... فأنا مثلاً اعرف القراءة والكتابة ، اطالع الكتب وافكر كثيراً ، وتحطّر لي احياناً ، خلال الليل ، افكارٌ تمنع عني الكرى . واية فائدة في ذلك ؟ اذا لم افكر سببت لنفسى القلق بلا جدوى ، واذا فكرت ففي سبيل اللاشيء ايضاً .

وكان في نظرتها سخرية ، وكانت تتوقف بين الفينة والفينة ، فتقطع بذلك مجرى حديثها ، على حين غرة ، كما تقطع خطاً بين اسنانها . وكان الفلاحان صامتين ، والهواء يداعب زجاج النوافذ ، ويعبث بقش السقف ؛ ويزجر في المدخنة بصوت منخفض . وكان هناك كلبٌ يهر ، وبعض قطرات من المطر ، تنقر البلاط ، على كره منها . وارتعش لهب المصباح وشحب لونه ، ولكنه عاد على الفور الى التألق بنشاط وثبات .

- لقد كنت أصغي الى ما تقولون : « هو ذا السبب الذي يحيا من اجله الناس » ، وبدأ لي غريباً انني كنت اعرف كل هذا من قبل ، ولكنني لم أك اسمع به قبل ان اعرفكم ؛ ولم تراودني ابداً افكارٌ من هذا النوع . وقال ايتيين بصوت بطيء كئيب :

- يجب ان نتناول العشاء يا تاتيانا ، وان تطفئي المصباح ، فقد يلاحظ الناس ان النور ، في منزل آل تشوماكوف ، قد ظل مضاءً الى وقت متأخر . إن ذلك لا اهمية له بالنسبة لنا نحن ، ولكنه قد يكون بالنسبة لضيفتنا غير مناسب . ونهضت تاتيانا ، وربضت بالقرب من الفرن .

وقال بيير بصوت خفيض وهو يبتسم :

- نعم ... يا صاح ، يجب ان نكون على اتم الاستعداد ، وعندما تظهر الصحيفة ...

- انا لا اقول ذلك لمصلحتي ... لأنه لو ادّى الأمر الى اغتقالي ، فلن يكون في ذلك كارثة كبرى .

واقتربت زوجته من المائدة وقالت :

- تحجّ قليلاً .

- ٣٥١ -

فنهض وابتعد ، ولكنه قال ، وهو يراها تضع غطاء المائدة :

- خمسة دراهم ثمن الحزمة ... هذا هو سعرنا ، وهيات ان يصل الى هذه القيمة . وعندما تضم الحزمة مئة منا ...
وداخل الأم فجأة إشفاق عليه ، ثم اخذت ترتاح اليه شيئاً فشيئاً وقد شعرت بعد أن اصغت الى كلماته ، انها قد تخففت من حل النهار الثقيل القدر ، وكانت راضية عن نفسها ، تود ان تكون طيبة بالنسبة للجميع .
وقالت :

- ليس صحيحاً ما تقوله يا « معلم » . إن المرء غير ملازم بأن يرتضي الثمن الذي يحدده له أولئك الذين لا يبتغون منه شيئاً إلا دمه . وعليك ان تعرف ، انت نفسك قيمتك لا بالنسبة الى اعدائك ، بل بالنسبة الى اصدقائك .
وصاح الفلاح :

- أي اصدقاء لنا ؟ انهم يظلمون اصدقاء .. حتى تلوح لهم عظمة يتنازعونها .
- بلى ... فللشعب اصدقاؤه .

ورد ايتيين ساهماً :

- حسناً ... يجب ان نوجد من هؤلاء الاصدقاء هنا .
واطرق ايتيين :

- اجل ... هذا ما يجب ان نفعله .

ودعته تاتيانا :

- تفضلوا الى الطعام .

وراح بيير خلال العشاء يتحدث بحوية وقد بدا عليه ان كلمات الأم قد اثرت فيه وادهشته :

- عليك ان ترحلي من هنا في الصباح الباكر لكيلا تستثيري الانتباه ، استأجري عربية من المحطة التالية ، ولا تتوجهي الى المدينة .
وقال ايتيين :

لماذا ؟ سأوصلها بنفسني .

- لا حاجة لذلك . لانه اذا حدث شيء ما فانهم سيأولونك : هل قضت الليل عندك ؟ - نعم ... - والى اين توجهت ؟ - لقد رافقتها .. اوه ، اوه لقد رافقتها ؟ تفضل اذن الى السجن .. مفهوم ؟ فهل انت مستعجل للذهاب الى السجن ؟ ولم المجلة ؟ فكل شيء أوان ، وسيحين الوقت ، كما يقال ، ويموت القيصر . على انك اذا قلت ببساطة : - لقد نامت هنا ، ثم استأجرت عربية وذهبت .. فلن يؤذوك لان قريتنا معبر ، وهناك دائماً من يقضي ليله عند بيير او بول .

وسألته تاتيانا بسخرية :

- اين تعلمت الخوف يا بيير ؟

فصاح وهو يربت على ركبته :

- يجب ان يعرف المرء كل شيء يا عزيزتي . أن يعرف كيف يخاف ، وان يعرف كيف يكون شجاعاً . لا تذكرين كيف اساء رئيس المقاطعة معاملة فاغانوف بسبب هذه الصحيفة ؟ والآن ... انك لن تستطيعي ان تحملي صاحبنا فاغانوف على ان يمك بيده كتاباً ، مهما اغريته بالمال . انكم تستطيعون ان تصدقوني ، فانا امرؤ عجيب استطيع ان احسن الخيلة ، والناس جميعاً يعرفون ذلك جيداً . سأبذر لكم الكراريس ، والورقيات الصغيرة ، كما يجب ، وبالكميات التي تشاؤون ، صحيح ان جماعاتنا ليسوا متعلمين ، وانهم قوم رعايد ، ولكن زمننا هذا ، يحطم مع ذلك اضلاعهم لدرجة لا يستطيع احدهم معها الا ان يحملت يمينه ، وان يتساءل ماذا يعني هذا ؟ عندئذ يجيبه الكراس الصغير ببساطة : خذ ، هذا ما يعنيه ، فكر ، وع . وهناك حالات يفهم فيها الأمي اكثر من المتعلم ، لا سيما إذا كان هذا المتعلم يأكل جيداً .. اني اعرف البلاد معرفة جيدة ، وارى كثيراً من الأشياء ، فلا يكفي القول بأننا نستطيع ان نعيش ، ولكننا بحاجة الى دماغ ... والى كثير من البراعة ، لكيلا نقع مريماً في الفخ ، فالسلطات ، تشم هي ايضاً ما هنالك من جديد ، والفلاح يضربها ببرود ، ويبتسم قليلاً ، دون ان يكون في بسمته أية عذوبة .

وبالاختصار .. إنه يريد ان يستغني عن السلطات ..

بالامس جاؤوا الى « سموليا كوفو » وهي مزرعة ليست بعيدة عنا ، جاؤوا لتحصيل ضرائبهم ، ولكن الفلاحين تمردوا ، وامتشقوا المذارى في وجوههم ، فخطبهم المفوض بحزم : آه يا ابناء العاهرات .. إنكم اذا تمردون على القيصر ؟ وكان هناك فلاح اسمه « سيكافين » تصدى لهم قائلا : الجحيم لك ولقيصرك . فما هو هذا القيصر الذي يسلبنا آخر قيص على اجسادنا ؟ .. هذا ما وصلت اليه الحال ايها الام .. ومن الاكيد ان سيكافين قد اودع السجن ، ولكن كلمته يرددها حتى الصغار ، إنها تدوي ، إنها دائما حية .

وكان لا يأكل ، بل يتكلم ، ويتكلم بوشوشة متلاحقة سريعة ، وكانت عيناه السوداوان الماكرتان تبرقان بحوية ، وكان يفرغ امام الام بسخاء ، ملاحظاته التي لا تحصى عن الحياة في الريف ، كأنه إنما يفرغ امامها كيسا من القطع النقدية الصغيرة . ويقاطعه ايتين مرتين قائلا له :

— كل إذن ..

فيتناول لقمة ويحس ملعة من الطعام ، ثم يعود من جديد فيتدفق في الحديث كحسون صغير مستغرق في التغريد . واخيرا انتهى العشاء ، ووثب هو واقفا على قدميه ثم اعلن :

— حسنًا .. لقد آن لي ان اعود .

ووقف امام الام يهز يدها :

— وداعا ؛ فقد لا نلتقي ثانية ابداً ، وعلي ان اقول لك بأن هذا كله جيد جداً ، وانه لجميل ان ألتقي بك ، وان استمع اليك . ترى هل في حقيبتك شيء آخر غير الكتب والصحف ؟ شال من صوف ؟ تماما ... شال من صوف ؟ تذكر ذلك يا ايتين . سيأتك بحقيبتك في الحال . هيا بنا يا ايتين ... وداعا ... وعوفتم .

وعندما خرجا ، سمع صراخ الصراير ، وعبث الريح في السقف ، وغطيطها في المدفأة ، ونقرات المطر الخفيف الرتيبة على النافذة . وأعدت ثانياً فراشا

للأم من بعض الملابس التي فرشتها على المقعد .

وقالت بيلاجي :

— إنه فتى لبق .

— بل جرس صغير يرن ، ويرن ، ولكنه لا يسمع من بعيد .

— وزوجك ؟

— رجل طيب لا يشرب ابداً ، ونحن منسجمان اشد الانسجام ... إلا انه

ضعيف الشكيمة .

وانتصبت ثم تابعت بعد صمت قصير :

— ماذا يجب ان تفعل الآن ؟ نثير الشعب ؟ هذا أكيد ، إن الناس جميعاً

يفكرون بذلك .. ولكن .. كل في زاويته الصغيرة ، ويقضي ان نجهر به

عالياً ، وان يكون هناك واحد يوطد عزمه اولاً ..

وجلس على المقعد ثم سألت فجأة :

— لقد قلت ان هناك ايضاً فتيات صغيرات يهتمن بالامر ، ويقمن بتعليم

القراءة للعمال . أفلا يبعث ذلك ضجرهن وخوفهن ؟

وبعد ان استمعت بانتباه الى جواب الام ، اطلقت زفرة عميقة ، ثم استأنفت

الكلام وهي مطرقة :

— لقد قرأت مرة في احد الكتب هذه الكلمات : « ان الحياة لا معنى لها » ،

وقد فهمت ذلك سريعاً ، لأنني كنت قد عرفت تلك الحياة . إننا نملك انكاراً ،

ولكنها غير مترابطة . إنها تم كالنماذج بدون راع ؛ وليس هناك ما يجمعها ولا

من يجمعها . هذه هي الحياة التي لا معنى لها ، فليتني استطعت الهرب بعيداً عنها ،

دون ان اثلقت حتى الى الوراء . ألا ما اشد حزن المرء حين يكون على هذا

المستوى من الفهم .

وكانت الأم تقرأ هذا الحزن في الألق الجاف الذي يتعكس من عينيها

الحضراوين ، وفي وجهها الناحل ، وتسمعه في صوتها . فأرادت ان تسري عنها ،

وان تلاطفها :

— ولكنك يا عزيزتي تدرين ما يجب عمله .. !
واقطعتها تاتيانا بهدوء :

— يجب ان نعرف .. إن مريك جاهز .. فيها الى الرقاد .

ومضت نحو المدفأة ، ولبثت هناك صامتة منتصبه ، قاسية الملامح منقبضة الصدر .
ونامت الأم دون ان تخلع ثيابها ، واستشعرت تعباً أليماً في عظامها . فأنثت
بهدهوء . واطفأت تاتيانا المصباح ، وعندما غمرت الظلمة الكثيفة الكوخ ، رن
صوتها الحقيقض الرتيب ، رن من جديد كأنه إنما يحس شيئاً عن الوجه العريض ،
وجه الظلمات الخائفة :

— أرى انك لا تصلين .. وأنا ايضاً لا اعتقد بوجود الله ولا بالمعجزات .
وتقلبت الأم في مضجعها بقلق ، وكان الظلام الذي لا غور له ، يحدق اليها من
النافذة ، وحفيف خفيف ، وضجيج لا يكاد يُسمع ، يزحفان في الصمت بمناد ،
وقالت برعب كأنها إنما تهمس ممساً :

— فيما يتعلق بالله لا اعرف شيئاً ، ولكنني أوؤمن بالمسيح وكلماته : واجب
جارك كما تحب نفسك ، ... اجل .. إني أوؤمن بهذا .

وصمت تاتيانا ، وكانت الأم ترى في العتمة الخطوط الغامضة لشبحها المنتصب
الذي يبدو أكد اللون فوق سواد المدفأة ، وظلت المرأة الشابة واقفة امامها
جامدة . اما الام ، فقد اغمضت عينيها مغمومة .

وفجأة ارتفع صوت جليدي يقول :

— أنا لا أستطيع ان اغفر لله والناس موت ابنائي ... لا أستطيع ذلك أبداً .
ونهضت الام متأثرة ، وكانت تدرك عمق الألم الذي ألهم هذه الكلمات ،
فقالت لتاتيانا بخنان :

— انك ما زلت شابة وسيكون لك اولاد آخرون .

— كلا ... اني بائسة ... فلقد قال لي الطبيب اني لن ارزق أطفالاً أبداً .
وركضت فوق ارض الغرفة فأرة ، ومنزقت جمود الصمت ، كبرق غير
مرئي ، اصوات قرص جاف جهور ، وسمع من جديد ، وبوضوح ، حفيف المطر

وصخبه ، وهو ينهمر على قش السقف الذي يبدو كأنما بعثرته اصابع دقيقة
جبانة . وعلى الارض كانت قطرات الماء تتساقط كثيفة ، فتنتغم الانسياب
البطيء لهذه الليلة من ليالي الخريف .

وسمعت الأم ، في سهداها الثقيل ، وقع خطي في الشارع ثقيلة ثم فتح الباب
بحذر ، وهتف صوت مخنوق :

— تاتيانا ، هل نمت ؟

— كلا .

— وهي ... هل نامت ؟

— بلا شك .

واندلع لهب ارتعش قليلاً ثم غرق في الظلمة . واقترب الفلاح من سرير الأم ،
فسوى القراء الذي كان يلف ساقيها . واثرت هذه العناية في نفس بيلاجي ،
فابتسمت وهي تطبق عينيها . ونضا ايدين ثيابه بصمت ، ثم صعد الى «التخينة»
وهدأت به ذلك كل حركة .

ولبثت الأم جامدة لا تتحرك ، تصيح بسمعها الى الذبذبات الكسول ،
ذبذبات الصمت المسهد ، ويرسم امامها في الظلمات وجه ريبين المضرج بالدم .
وتناهى اليها من «التخينة» ممس :

— أخرى ؟ .. انظر الى القوم الذين انخرطوا في العمل .. إنهم طعنوا في السن ،
وركبتهم آلاف الاحزان ، وجهدوا طويلاً ، وقد آن لهم ان يرتاحوا ...
وانت يا اييتين .. انت الشاب السليم المنطق .. هه ؟
وزد صوت الفلاح الحشن :

— لا يمكن التورط في امر كهذا ، قبل التفكير ..

— لقد سمعت هذا منك قبل الآن .

وخمدت الاصوات ، ثم عادت من جديد ، وغنم اييتين :

— يجب التصرف هكذا . التحدث معهم اولاً على حدة . خذي مثلاً الكسي
ماكوف . إنه فتى ذكي متعلم يحتاجه السلطات ، وكورين ايضاً رجل راجح

العقل ، و« نيازير » فاضل وشجاع . وبعد ذلك سئى . يجب ان اقابل اولئك الذين كانت تتحدث عنهم ، وسأخذ قلمي ، وأنط الى المدينة متظاهراً بأني أسمى لريح بعض الدرهمات من تقطيع الحطب . يجب ان نكون حذرين . انها على حق حين تقول : ان قيمة الرجل هي عمله الشخصي ارأيت الى ذلك الفلاح الذي يدعى ريبين ؟ انه لن يخضع حتى لله ؛ لقد صمد للضربة ورجلاه ثابتتان في الارض . ونيكيتا ؟ لقد سيطر عليه الخجل . هذا فظيح .

— يضيرون رجلاً امامكم ، وتظنون انتم مطبقي الافواه ؟

— مهلاً .. واشكركم الله ، لأنهم لم يرغبوا نحن على ضربه .

وشوش طويلاً ؛ تارة بصوت منخفض جداً لدرجة كانت الام معها لا تكاد تسمع كلماته ، وتارة اخرى كان يرفع من صوته فجأة ، فتضطرب زوجته ان تنهره : — على رسلك ... إنك توشك ان توقظها .

وغرقت الام في نوم عميق ، كأن غمامة ظليلة قد هبطت عليها فلفتها وحملتها . وايقظت تاتيانا عندما كان الفجر الاغبش الذي ما زال اعشى ، يطل من نوافذ الكوخ ، والانعام النحاسية ، انفسام جرس الكنيسة ، تحوم وسني فوق القرية ، ثم تموت في الصمت البارد .

لقد هيات الشاي ... فأشربي ، وإلا فإنك ستبردين في العربة ...

وسأل ايتيين الام وهو يمشط لحيته الشعثاء ، سألها بلهجة عادية عن عنوانها في المدينة ، فخيل اليها ان مجلعه قد نضجت ، وانه اقرب الى القلب منه في السهرة . وفيما كانوا يتناولون الشاي قال ايتيين ضاحكاً :

— ما اغرب الشيء الذي حدث .

وسألته تاتيانا :

— ماذا ؟

— تعارفنا . لقد كان بمنتهى البساطة .

وقالت الام وهي ساهمة الملامح ، ولكنها مقتنعة :

— في هذه الأمور بساطة مدهشة في كل شيء .

واستأذناها ، ولم يفرط في الكلام بل كانا بخيلين ، ولكنها اغدقا عليها آلاف التوصيات والتنبيهات فيما يتعلق برحلتها .

وعندما جلست بيلاجي في العربة ، راحت تفكر في هذا الفلاح : لقد كان يقوم بواجبه بحذر ، ودونما ضجيج او هواة تماماً كالخلد . إن صوت زوجته الناقم سيرن ابدأ في اذنها ، وستظل عيناه الخضراوان تلتصمان بالألئق المشتعل ، ومهما عاشت ، فسيظل يعيش فيها ذلك الألم الحاقد ، ألم الذئبة ، ألم الأم التي تبكي اولادها الراحلين .

وتذكرت ريبين . تذكرت دمه ووجهه وعينه الملتبئين ، وكلماته ، وعصر قلبها ذلك الاحساس المرتسم على وجهه ، الاحساس المر بجزء امام الوحوش . وطوال الطريق ، وعلى اللوحة الباهتة ، لوحة النهار الاكمد ، كان شيخ ميشال القوي ينتصب امام عينها ، ينتصب بلحيته السوداء ، وقمصه الممزق ، ويديه الموثقتين وراء ظهره ، ورأسه المشعث ، ووجهه الذي يقيسه الغضب والايمان بالحقيقة . وكانت تفكر في القرى التي لا تحصى والتي تفتقرش الأرض خائفة ، وفي الناس الذين كانوا ينتظرون مقدم العدالة ، وفي آلاف الكائنات التي كانت تعمل صامتة ، بلا هدف ، طوال حياتها ، ودون ان تفتقر شيئاً .

وكانت الحياة تبدو لها كسهل وعمر ، ينتظر الفلاحين بصمت وترقب ؛ كأنه بعيد الايدي الحرة الشريفة قائلاً :

— اخصبني ببذور العقل والحقيقة ، اعدما اليك مئة ضعف .

وتذكرت النجاح الذي خالف رحلتها ، فأحست في اعماق قلبها بنبضة فرح حلوة ، ما لبثت ان كتبتها بخفر .

وفتح نيقولا لها الباب ، وهو متفوش الشعر ، وفي يده كتاب ، وصاح بفرح غامر :

— لقد غدت بسرعة !

وكانت عيناه اليقظتان تبرقان بود تحت نظارتيه . وساعدها على خلع معطفها وقال لها ، وهو ينظر اليها بابتسامة حميمة :

— هل عرفت ؟ لقد جاؤوا فقتلوا هذه الليلة ... هنا ... فساءلت نفسي عن السبب وخشيت ان يكون قد حدث لك شيء ما .. إلا انهم لم يوقفوني .. ولكن من المؤكد انك لو كنت هنا لما اطلقوا سراحي ابدًا .

وأدخلها الى غرفة الطعام وهو يتابع باندفاع :
— ومع ذلك فقد اطلقوني .. ان ذلك لا يحزنني ... ولكني سئمت احصاء الفلاحين الذين لا يملكون جيادًا .

وكانت الغرفة تبدو كأن مارداً قد طرق من الخارج جدران المنزل ، طرقها في ثوبه من مزاح بليد فزلزلهما لدرجة انقلاب معهما في الداخل ، فاذا عاليه سافله ، وكانت اللوحات ملقاة على الأرض وطنافس الجدران مزروعة ، تتدل خرقاً ، وركيزة النافذة مبتورة ، والرماد منتشراً بالقرب من المدفأة .

وهزت الأم رأسها عندما رأت المسكن الماكوف لديها ، وتسمر بصرها على نيقولا الذي كانت تحس في منزله ، بشيء من الجدة .

وعلى الطاولة ، بالقرب من الموقد الخامد كانت بعض الاواني المطبخية الوسخة ، وقليل من المقاتق والجن ، على ورقة بدلاً من صحن ، وقتات خبز مبعثرة وكتب ، وجرات في الموقد منطفئة . وابتسمت الأم ، وابتسم نيقولا كذلك بسمة مرتبكة :

— اني انا الذي اكملت لوحة التخريب هذه .. ولكن لا بأس في ذلك ، يا نيلوفنا لا بأس ؛ فانهم كما اعتقد ، سيعودون ، ولهذا تركت كل شيء على حاله .. حسناً .. وكيف كانت رحلتك ؟

وصعقها هذا السؤال ، وانتصبت امامها من جديد صورة زيبين ؛ وشمرت انها اخطأت لأنها لم تبدأ الحديث عنه في الحال ، ودنت من نيقولا ، واخذت تقص عليه ما حدث ، وهي تجهد نفسها للاحتفاظ بهدوئها ، خشية ان تنسى شيئاً من التفاصيل :

— لقد قبضوا عليه ...

وارتمش نيقولا : وكيف ذلك ؟

وأوقفت الأم سؤاله بأشارة من يدها ، وأتمت حديثها كأنها انما تمثل العدالة متجسدة وقد جاءت تشكو اليها التعذيب الذي لقيه إنسان ما ... واستلقى نيقولا على متكأ مقعده ، وراح يصفي وهو شاحب الوجه ، ثم نزع ببطء نظارتيه ، ووضعها على الطاولة ، ومسح وجهه بيديه ، كأنه انما يمسح عنه خيوط عنكبوت غير مرئي ، وتصرمت ملاعنه ، ونفرت وجناته بشكل غريب وارتمشت فتحتا انفه ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تراه بيلاجي فيها بمثل هذه الحال ، فدخلها من ذلك بعض الرعب .

وعندما انتهت حديثها نهض ، وخطا ، صامتاً بضع خطوات وقبضته في اعماق جيوبه ، ثم لآك بين اسنانه هذه الكلمات :

— انه رجل قادر ، وسبقامي كثيراً في السجن ، لأن امثاله من الرجال يستشعرون الضيق في غياهبه .

وأوغلت قبضته في جيوبه اكثر من السابق ، محاولا اخفاء انفعال كانت الأم ، رغم ذلك ، تحسه ، وتشعر أنه ينتقل اليها ، وتقلصت عيناه حتى غدتا كرامس سكين ، وقال بغضب وهو يستأنف سيرة :

— يا للفظاعة . حفنة من الأغنياء ، يضربون ويخنقون ويسحقون ليحموا

سلطانهم المشؤوم على الشعب . ان الوحشية تزداد ، والقسوة تغدو شريعة الوجود فتأملي . ان بعضهم يضرب ، وينطلق من قيده كالوحوش مطمئناً الى فجوره .

انهم مصابون بظمأ الى التعذيب شهواني ، مصابون بذلك الداء الكريه ، داء العبيد الذين يُباح لهم أن يظهرُوا غرائزهم المحنطة ، وعاداتهم البهيمية ؛ بكل ما فيهم من قوة . أما الآخرون فشوة الثأر تسممهم ، انهم يصبحون ، وقد أخبلتهم الضربات ، بكأ وعياناً ، لقد أفسد الشعب ، الشعب بكامله .

وتوقفت قليلاً ، وصمت وهو يركز أسنانه ثم استأنف مهدوء :

— ان المرة ليغدو ، رغمًا عنه ، ضارياً ... في هذه الحياة الضارية .

وسيطر على انفعاله ، واستعاد بعض هدوئه ، ولعل عيناه يبريق حازم ، ثم
رنا الى الأم والدموع الصامته تتدحرج على مقلتيه :

- ليس لدينا وقت لنضعه يا نيلوفنا ، فلنالك انفسنا أيتها الرفيقة الغالية ..
واقترب منها ، وعلى شفثيه ابتسامة حزينة ، ثم اخذ يدها وسألها :
- اين هي حقيبتك ؟
- انها في المطبخ .

- ان المنزل محاط بالعيون ، ولني نتجح في اخراج شيء من الاوراق دون
ان نرى ... لا ادري اين نخبئ هذه المنشورات ، فانا اعتقد انهم سيعودون
الليلة ، ليفتشوا ... لنحرق إذن كل هذا ، لنحرق معها كلنا الأمر .
وسألته الأم :

- نحرق ماذا ؟

كل ما في الحقيقة .

وأدركت ماذا يقصد ، ورغم ان حزنهما كان عظيماً ، فإن الزهو الذي
استثمرته لكونها قد نجحت ، هذا الزهو طرح على شفثيه بسمة فقالت :
- لا يوجد شيء في الحقيقة ... حتى ولا قصاصة واحدة من الورق ...

وراحت وهي تردد حيوية شيئاً فشيئاً ، راحت تتحدث عن اجتماعها
وأصغى نيقولا اليها بادية الأمر ، وهو كئيب ، مقطب الحاجبين ، ولكنه ما
لبث ان صاح دهشاً ، وقاطعها :

- آه ... هذا رائع ... ان حظك مدهش .

وشد على يدها ، ثم قال بهدوء :

- ان ايمانك بالشعب أثر في لدرجة ... في الحقيقة ، اني احبك كأني نفسي .
وكانت هي تتبعه ببصرها باسمه ، يدفعها الفضول ، فتحاول ان تدرك من
اين فاض عليه هذا الألق ، وتلك الحيوية .

وقال وهو يفرك يديه ويضحك ضحكة صغيرة لطيفة :

- أنه حقاً رائع اتعلمين؟ لقد قضيت هذه الايام الأخيرة بطريقة مدهشة ...

كنت طوال الوقت مع العمال ، اقرأ لهم ، وأحدثهم ، وانظر اليهم ... فتزودت
بشيء من الصفاء والطهارة . يا لهم من قوم طيبين يا نيلوفنا ... اعني العمال
الشيان ... انهم اشداء ، حساسون ، يملأهم التعطش لفهم كل شيء . أنت من
يراهم لا يستطيع الا ان يقول في نفسه : ان روسيا ستكون بلدي ديمقراطي
على وجه الأرض .

ورفع ذراعه في حركة تأكيدية كأنه انما يؤدي قسماً ، ثم تابع بعد فترة من
الصمت :

لقد كنت اعيش كالسجين ، واكتب و ... ، والى حد ما يمكن القول اني
تخثرت ، وتعمقت على الأوراق التافهة والأرقام . ان عاماً من حياة كهذه هو نوع
من المسخ .. لقد تعودت الحياة بين الكادحين ، لذلك فقد شعرت بشيء من عدم
الارتياح عندما انتزعت نفسي من صميم تلك الحياة . والآن ... استطيع ان اعيش
من جديد بحرية ، استطيع ان اراهم .. ان اشغل وقتي معهم ، فأظل بذلك قريباً
من مهد الافكار الناشئة ، قريباً من الثورة ، من الطاقة الخلاقة . ان هذا البسيط
بشكل مدهش ، ولجميل ومثير بشكل رهيب ، إذ يغدو المرء فتياً صلب العود ،
يحيا حياة ثراء ...

وأخذ يضحك بمرح يشوبه بعض الارتباك ، وكانت غبطته تنتقل الى الأم
التي كانت تدرك سبب هذه الغبطة ... ثم اردف .

- ثم ... انك امرأة خارقة . ما ابرعك في وصف الناس بطريقة مؤثرة ...
وما أشد فهمك لهم .

وجلس الى جانبها وهو يشيح بوجهه المقنبط ، ويمسد شعره ، ليخفي بذلك
ارتبাকে ، ولكنه ما لبث ان التفت اليها ، وراح يصغي بنهم الى بقية حديثها ،
الذي كان ينساب ببساطة ووضوح .

وصاح فجأة :

- يا لطالعك المدهش . لقد كان حظك بالاعتقال يعادل نسبة تسعة على عشرة ..
ثم تغير الوضع فجأة ... نعم ... اننا نشعر ان الفلاح قد بدأ يتحرك ، وهذا

امر طبيعي ... هذه المرأة اراها جيداً ... اننا بحاجة الى دس هيمون ، على وجه الخصوص ، بالريف ، ناس ... ان هؤلاء يتقصوننا ... والحياة تتطلب مئات السواعد .

ومست الأم :

- ليت ولدي بول يسترد حريته هو واندره !

ورمقها بنظرة ثم اطرق :

- اسمعي يا نيلوفنا . ان ما سأقوله سيؤلمك كثيراً ، ولكني مع ذلك سأقوله :

انا اعرف بول جيداً . انه لن يفر من السجن . انه يرغب في ان يحاكم ...

ان يبدو في اوج قوته ، ولن يتخلى عن ذلك ابداً . ويجب الا يفعل ... انه سيهرب من سيبيريا .

وزفرت الأم واجابت بهدوء :

- سيان عندي ... انه يعرف ما هو الافضل ...

ومهم نيقولا ، بعد لحظة ، وهو يحدق بها من خلال نظارتيه :

- هم . ليت «صاحبك» الفلاح يتعجل المجيء لزيارتنا أرايت ؟ انه لضروري .

جداً ان نكتب منشوراً عن ريبين ، ونخصصه للريف . فلن يضيره ذلك اذا ما

قصر ف بشجاعة . وسأكتب المنشور اليوم ، وستطبعه ليوميلا بسرعة ، ولكن

كيف نستطيع ايصاله الى هناك ؟ هنا المشكلة .

- سأحله انا .

واجاب نيقولا بمحبة :

- كلا ... شكراً ... ولكني افكر في الأمر واري ان فيسوشيكوف

جدير بهذه المهمة ... اليس كذلك ؟

- هل يجب ان نفاتحه بها ؟

- جربي ... وافهميه كيف يقوم بها .

- وانا ماذا افعل ؟

- طمني بالك .

وجلس ، ثم راح يكتب ، وكانت الام تنظر اليه وهي تنظف المائدة ، فترى قلمه الذي يرتعش في يده ، ويغطي الورقة بكثير من الكلمات ، وكان عنقه يمتدح احياناً ، فيرفع رأسه ، ويقضم عينيه ، وتهتز ذقنه ، فيؤثر ذلك في نفس بيلاجي .

قال وهو ينهض :

- هوذا المنشور جاهز . خبني هذه الورقة في ثيابك ، ولا تنسي انه اذا ما

جاء الدرك فانهم سيفتشونك انت ايضاً .

وقالت بهدوء :

- ليحملهم الشيطان .

وعند المساء جاء الطبيب ، وقال وهو يمشي في الحجرة بخطى محومة :

- ما الذي اثار قلق السلطات فجأة ؟ لقد قاموا خلال هذه الليلة بسبع

حملات تفتيشية ! .. اين هو مريضنا ؟

واجاب نيقولا :

- لقد رحل البارحة ... وهذا النهار هو نهار السبت ... الا تعلم انه لا

يستطيع ان يتخلف عن جلسة القراءة ؟ ..

- انه لمن الحق ان يفعل ذلك ورأسه منفلق !

- هذا ما اردت ان اقنعه به فلم اوفق .

وعلقت الام :

- لقد تملكته الرغبة في ان يتباهي قليلاً امام الرفاق ، ان يقول : انظروا

الي ؛ فلقد سفحت دمي ...

وقذفها الطبيب بنظرة عجلى ، وبدت في ملاحه الضراوة ، ثم قال وهو يكرر

اسمائه :

- أوه ، أوه . انكم دمويون .

- حسناً ، يا عجوزي ، ليس لك ما تفعله هنا ، ونحن ننتظر ضيوفاً فانصرف .

اعطه الورقة يا نيلوفنا ! ..

— ورقة أيضاً ؟
 — خذها وأوصلها الى المطبعة .
 — حسناً ، سأوصلها ... اهذا كل شيء ؟
 — نعم .. هناك جاسوس عند الباب .
 — لقد رأيته ... وعند بابي أيضاً جاسوس .. والآن الى اللقاء انتها المرأة
 الضارية ، اما انتم يا اصدقائي فاعلموا ان النزاع في المقبرة شيء حسن قطعاً ،
 والمدينة كلها تتحدث عنه . واما انت فقالك كان جيداً ، وقد وصل في الوقت
 اللائم . لقد كنت اقول دائماً ان خصاماً طيباً خير من سلم وديء .
 — إننا نوافق على ذلك .. فانصرف .
 — إنك في الواقع لا تحب .. هاتي يدك يا نيلوفنا ، لقد تصرف الفتى بحمق ..
 فهل تعرفين أين يقيم ؟
 وأعطاء نيقولا العنوان .
 — يجب ان امرّ غداً لأراه . إنه فتى طيب . أليس كذلك ؟
 — ينتهي الطيبة .
 ورد الطبيب وهو ينصرف :
 — يجب العناية به ، فهو ليس غيباً . هؤلاء الفتيان هم بالضبط الذين يؤلفون
 البروليتاريا الحقيقية ... المثقفة . إنهم هم الذين سيخلفوننا حين نتطلق الى حيث
 لا يوجد ، بلا شك ، صراع طبقات ...
 — لقد غدت ثرثاراً جداً ...
 — ذلك لأنني فرح ... إذن فأنت تنتظر السجن ؟ اتفق لك ان تجد
 الراحة فيه :
 — شكراً ... فأنا لست تعباً .
 وكانت الأم تصفي اليها ، سعيدة بأن تراهما شديدي الاهتمام بالعمل الفتى .
 وانصرف الطبيب وجلس نيقولا والأم الى المائدة بانتظار ضيوفهما الليليين .
 وتحدث نيقولا طويلاً عن رفاقه الذين كانوا يعيشون في المنفى ، وعن اولئك

الذين فروا منه ، واستأنفوا عملهم تحت اسماء مستعارة . وكانت جدران الحجرة
 العارية تعكس رنة صوته المخنوقة كأنها دَهشة مرتابة لسماع هذه القصص ، قصص
 الابطال المتواضعين ، المتجردين عن كل نفع ، والذين يكرسون قواهم كلها للعمل
 العظيم ، لإصلاح العالم .

وكانت ظلال ناعمة ودودة تكتنف الأم ، فتملاً قلبها عطفاً حاراً على هؤلاء
 المجهولين الذين كان خيالها يخترعهم جميعاً في كائن واحد عملاق ، لا تنفذ قدرته ولا
 تغضب شجاعته . وكان هذا الكائن يرود الأرض ببطء ، ولكن بهمة لا تعرف
 الكلل ، فينتزع منها ، بيديه المتلئتين حباً لعمله ، ينتزع غصن الدجل الذي راكمته
 العصور ، ويكشف لأعين الناس الحقيقة البسيطة المتألقة ، حقيقة الحياة . وكانت
 هذه الحقيقة الكبرى المتجددة ، تدعو اليها الكائنات جميعاً ، تدعوها بحبة ودونما
 تمييز ، وتعدّها كذلك بأن تحررها من الحسد والحقد والدجل ، من هذه الغيلان
 الثلاثة التي تسترق الأرض بقوتها الماجنة ، وتبعث فيها الرعب .

وكانت هذه الصورة تبعث في نفس الأم شعوراً كذاك الذي كانت تستشعره
 وهي راكعة امام الايقونات ، لتنتهي ، بصلاة سعيدة شاكرة ، يوماً كان يبدو لها
 اقل عذاباً من ايامها الآخر . اما الآن فقد نسيت تلك الأيام ، وتنامى الشعور
 الذي كانت توحيه ، فغداً اكثر وضوحاً ومرحاً ، وصارت له فيها جذور بعيدة
 الغور فراح يعيش ابدأ ويزداد اشتعلاً اكثر فأكثر .

واعلن نيقولا وهو يقطع حديثه فجأة :

— لن يأتي الدرك .

ف نظرت اليه الأم وقالت بحمق :

— حسناً ... فليذهبوا الى الشيطان ..

— صحيح ... ولكنه قد آن لك ان ترقيدي يا نيلوفنا ، فقد تكونين منهكة
 اشد الانهالك ... ويجب الاعتراف انك شديدة الجلد لدرجة مدهشة ، إذ ما اكثر
 ما تتعرضين له من انفعالات ، وهموم ، ولكنك تتحملين ذلك كله بسهولة ولم
 يشب فيك سريعاً سوى شعرك . هيا اخذي قسطاً من الراحة ، هيا !

واسيقظت الأم على باب المطبخ يُطرق طرقات غنيقة ، ويترع بلا انقطاع وبعناد صابر ، وكان الظلام والسكون ما زالاً يحيان ، وهذا الاطّاع في السّيرت يثير القلق . وارتدت الأم ثيابها على عجل ، وهرعت الى المطبخ ، وسألت من وراء الباب :

- من الطارق ؟

واجاب صوت مجهول :

- انا .

- من أنت ؟

ورد الصوت منخفضاً متوسلاً :

- افتحي .

وشدت الأم المزلاج ، ودفعت الباب بقدمها ، ودخل انياس ، وقال بفرح :

- آه ... لم اخطيء اذن ؟

وكان الوحل يغطيه حتى وسطه ، وكان وجهه أكمد اللون وعينه تحيط بها

هالة سوداء ، وشعره المظفور يتلفت من تحت قبعة ليتناثر في كل اتجاه

وغغم بعد ان أغلق الباب :

- لقد حاق بنا شر ...

- أعرف ذلك .

وبدت الدهشة في ملامحه :

- من اين عرفت ؟

وقصت عليه بسرعة وإيجاز قصة لقاءها .

- والآخران ... أعني رفيقك ، هل قبض عليها ؟

- لم يكونا موجودين ، بل كانا قد ذهبا الى مجلس التجنيد ، ولكنهم

اعتقلوا خمسة بما فيهم الأب ميشال ...

ونشق انياس ثم قال بإسماً :

- وبقيت أنا .. وهم بلا شك يبحثون عني .

- ولكن كيف استطعت الافلات ؟

وفتح باب الحجره يهدوء .

وصاح انياس وهو يجلس على احد المقاعد ويتطلع حواليه :

- أنا ؟ قبل وصول رجال الدرك بديقة ، أقبل حارس الغابات راكضاً ،

وقرع النافذة وقال : حذار ايها الفتيان .. لقد جاؤوا للقبض عليكم .

وأخذ يضحك يتؤدة ، ثم مسح وجهه بكم رداءه وتابع :

- ولم يئس الأب ميشال بسهولة ، بل قال لي على الفور : انطلق الى المدينة

يا انياس . تحرك . ألا تتذكر المرأة الهرمة ؟ وفي الوقت نفسه كتب عجالة

وقال : «خذها» وانطلقت بأسرع ما يمكن وراء العليق . وسمعتهم ينخدرون .

وكانا - يا للأبالسة - كانوا يتحركون من كل صوب ، فاذا هم كالشبكة حول

ورشتنا . وانطرحت ارضاً ، ومروا يحاني ثم نهضت ، بعد ذلك ، ورحت

أمشي وأمشي ، ولبت ليلتين ونهاراً طويلاً على هذا المتوال دون ان ارتاح .

وكان يبدو عليه انه راض عن نفسه ، وكانت البسمة تضيء عينيه السمراوين

وشفتاه الضخمتان المرأوان تحتلجان .

وقالت الأم وهي تقترب من موقد الشاي :

- ساعد لك بعض الشاي حالاً .

- العجالة .. سأعطيك إياها .

ورفع ساقه بعناء شائعاً مجدداً ، ووضع رجله على المقعد .

وظهر نيقولا على عتبة الباب وقال وهو يغمر بعينيه :

- صباح الخير يا رفيق . أسمح لي بمساعدتك ؟

واغنى يذك بسرعة المصائب الموحلة التي تلف ساق انياس .

وقال الفتى يهدوء وهو يسند فخذه بيده :

- حسناً .

وراح ينظر الى الأم بدهشة ، ولكن هذه قالت دون أن تلاحظ ذلك :

- يجب أن تفرك قدميه بالكحول ..
وأجاب نيقولا : هذا أكيد .

ونشق أنياس بارتباك .

وعثر نيقولا على العجالة فمهدا بيده ، وقرأ وهو يُدني القصاصة الرمادية
الرثة من عينيه :

« لا تتخلي عن المهمة أيتها الأم ، وقولي إذا أردت لتلك السيدة الكبيرة ألا
تنسى الكتابة عنا أكثر ؟ عنا نحن الآخرين . وداعاً . »

الامضاء : ريبين

وارخى نيقولا ببطء يده التي تمسك القصاصة وقال بصوتٍ واهٍ :

- رائع !

وكان أنياس ينظر إليهما وهو يحرك بلين الأصابع القذرة ، أصابع قدمه الخافية .
ودنت الأم منه وهي تخفي وجهها المبلل بالدموع ، وتحمل اليه وعاء من الماء ،
وجلست على الأرض ومدت يدها إلى ساقه ولكنه أبعدا بسرعة ، وخبا رجله
مذعوراً تحت المقعد :

- ماذا تريدن ؟

- هات قدمك حالا .

وقال نيقولا :

- سأحضر قليلاً من الكحول ..

ولكن الفتى دفع رجله تحت المقعد أكثر من ذي قبل ، وغغم :

- لم ذلك ؟ إننا لسنا في مستشفى .. ومع هذا ..

وأخذت الأم تفلح ضمادات رجله الأخرى .

ونشق أنياس بصوت مسموع ، ولوى عنقه ، ثم انحدرت عيناه نحو الأم
وهو يطمئنته في حركة ساخرة .

واستأنفت هي الكلام وفي صوتها رجفة :

- هل تعلم ؟ لقد ضربوا ميشال ريبين .

وأجاب بوجل : لا ؟

- بلى .. لقد اشبعوه ضرباً عندما اقتادوه إلى «نيكولسكواي» وهناك
استأنف الشاويش والمفوض ضربه على وجهه ، وركله بأرجلهما .. وكان
مُضرباً بالدم !

وسرت في منكبیه رعشة فقال ، وهو يقطب حاجبيه :

- انهم يحسنون هذا العمل ؟ واني لأخافهم كما اخاف الشياطين . ترى ماذا
كان موقف الفلاحين . اما ضربه ؟

- لم يضربه منهم سوى واحد فقط بأمر من المفوض . ولكن الآخرين لم
يفعلوا شيئاً .. بل انهم تدخلوا صائحين : « يجب ألا تضربوه » .

- أجل .. لقد بدأ الفلاحون يدركون اين هم الذين يدافعون عنهم ،
ولماذا يدافعون ؟

- ثم ان بينهم من يفكر تفكيراً سليماً .

- وأي مكان لا يوجد فيه امثال هؤلاء ؟ انهم في كل مكان ، ولكن من
الصعب العثور عليهم .

واحضر نيقولا زجاجة كحول ، ووضع قليلاً من الفحم في المدفأة ، ثم خرج .
وتتبعه أنياس بنظرة فضولية ، وسأل الأم بصوت خفيض جداً :

- هل «المعلم» الذي هناك .. طيب ؟

- لا معلم في هذه القضية ، بل كلنا رفاق .

وقال وهو يبتسم ابتسامة حائرة متشككة :

- إنه لأمر عسير .

- ماذا إذن ؟

- جميل .. هكذا . في ناحية يطحنون عظامك ، وفي ناحية أخرى يغسلون
قدميك .. فماذا يكون الحال في الوسط ؟

وفتح باب الغرفة وظهر نيقولا على العتبة

- بين هذا وذاك قوم يلحسون ايدي اولئك الذين يطحنون عظام ضحاياهم

ويعتصون دماءها .

ورنا انياس اليه باحترام وقال بعد قليل من الصمت :

- هذه هي الحقيقة .

ونهض وهو يميل بثقله على قدمه اليمنى تارة ، وعلى اليسرى تارة اخرى

ثم اردف :

- لقد اصبحنا الآن جديدين ، فشكراً جزيلاً .

ومضوا الى غرفة الطعام لتناول الشاي ، وهناك راح انياس يروي لهم

بصوت جاد :

- لقد كنت موزع الجريدة لأني جلود على المشي ..

وقاطعه نيقولا :

- هل يقرأها كثير من الناس ؟

- كل الذين يعرفون القراءة حتى الاغنياء منهم ، وهؤلاء لا يأخذونها بالطبع

من أجلنا ، فهم يفهمون الامور على هذا الشكل : سيفلس الفلاحون بدمهم

ارض التبلأ والاثرياء ، وهذا يعني انهم سيقبضونها هم ، وسيكون الاقتسام بلا

شك بطريقة لا يظل فيها ارباب عمل ولا شغيلة ، وإذا لم يكن الامر كذلك

فعلام الخصام إذن ؟

وكان يبدو عليه الانفعال ، وينظر الى نيقولا نظرة فيها ريبية وتساؤل .

وكان هذا يبتسم بصمت :

- واذا تخاصموا اليوم في العالم كله ، فإن الامر سيعود سيرقه الاولى غداً

عندما ينتصرون : سيكون الواحد منهم ثرياً ، والاخر فقيراً ، وشكراً لكم .

المعروف ان الثروة كالرمل لا تبقى جامدة ابداً في مكانها . انها ستسيل من جديد ،

وستوزع في كل اتجاه ، فما الفائدة إذن من ذلك ؟

وقاطعته الأم مازحة :

- لا تحنق .

وقال نيقولا وهو سامع :

- ما العمل لإيصال المنشور ، عن توقيف ريبيين ، بأسرع ما يمكن من الوقت ؟

ومد انياس اذنه :

- نعم

واقترح انياس وهو يفرك يديه :

- اعطني اياه لأوصله .

وضحكت الأم بهدوء دون ان تنظر اليه :

- ولكنك منك وخائف ، وقد قلت ذلك أنت نفسك !

فأمر يده العريضة على شعره المصفور ، وأجاب بلهجة جادة هادئة :

- الخوف شيء ، ومهاتنا شيء آخر .. ان مهاتنا هي مهاتنا .. لماذا

تسخرين مني ؟ انك حقاً لغريبة .

وصاحت به بغير ارادة منها :

- يا طفلي ..

- اسمعوا .. انا الآن طفل !

وقاطعه نيقولا الذي كان يتفحصه بعينين عطوفتين رافنتين :

- لن نذهب الى هناك ..

وسأله انياس بقلق :

- الى اين ساذهب إذن ؟

- سيذهب آخر سواك وستشرح له انت بتفصيل كيف يتصرف . هل

يمجيك هذا الحل ؟

فأجاب ، مرغماً ، وبعد لحظة من التردد :

- حسناً .

- سنحصل لك على بطاقة هوية ، وسنعتبك كمأمور احراش ..

فرفع رأسه فجأة وقد امتلاً غماً :

- وماذا أفعل اذا جاء الفلاحون ليخطبوا أو لأمر غير ذلك ، هل انكل

بهم ؟ ان ذلك لا يليق بي .

وأخذت الأم تضحك وكذلك نيقولا ، مما جعل الفتى يضطرب من جديد ويبتس.

وطمانه نيقولا :

— لا تكن سيء المزاج . انك لن تتكل بالفلاحين .. فاطمئن .

وغغم انياس :

— لقد اختلف الأمر الآن .

ثم ابتسم باغتباط وطمأنينة وقال :

— اود أن أذهب الى العمل ، فهناك كما يقال ، قوم ذوو عقول رشيدة .

ونفضت الأم عن المائدة ورنّت من النافذة وقالت وهي ساهمة :

— هذه هي الحياة . نضحك في النهار خمس مرات ونبكي مثلها .. والآن هل

انتهيت يا انياس ؟ هيا الى النوم .

— ولكنني لا اريد .

— اذهب ، اذهب .

— انك قاسية . حسناً ، سأذهب . وشكراً لك على الشاي اللذي قمت به

والعناية البسيطة ..

وفيما كان يتمدد على سرير الأم ، كان يغغم وهو يهرش رأسه :

— ان هذا سينشر رائحة القار في منزلك . هه ؟ لم ذلك كله ؟ أنا لست

نعساناً ..

وغفا فجأة وتعالى شخير ، وظل حاجباه مشقولين ، وفمه مفتوحاً نصف

افتتاحاً .

٢١

وفي المساء نفسه كان انياس يجلس وجهاً لوجه امام فيسوشيكوف ، في

حجرة صغير ابن تحت الارض . ويقول له وهو يخفض من صوته ويقطب

حاجبيه :

— اربع مرات على النافذة الوسطى .

ويردد فيسوشيكوف باهتمام :

— اربع مرات ؟

— ثلاث مرات اولاً هكذا .

وينقر الطاولة بإصبعه المطوي وهو يعد :

— واحد ، اثنان ، ثلاثة .. وثم نقرة اخرى ايضاً .

— حسناً .

— وسيفتح لك رجل اصعب الوجه ويسألك : هل أتيت من أجل القابلة ؟

فتجيبه : نعم .. من قبل المعلم .. وهذا وحده يكفي ، لأنه سيفهم .

وكان احدهما يميل برأسه نحو الآخر ، وكلاهما صلب قوي البنية ؛

ويتحدثان ، وهما يسكان صوتيهما ، والأم تنو اليهما وهي واقفة بالقرب من

الطاولة مشبكة الذراعين ، وكانت تلك النقرات الغامضة ، والأسئلة والأجوبة

المتفق عليها ، تحملها على الابتسام فيما بينها وبين نفسها ، كما تحملها على التفكير :

— انهم سزالوا أطفالاً .

وكان هناك في الجدار مصباح يشتعل ، ناثراً ضوءه على بقع الرطوبة القائمة ؛

وعلى صور مقتطفة من المجلات . وفي الارض دلاء منبوعة ، وصفائح متساقطة

من السقف ، وجو الحجرة يعبق برائحة الصدا والعفن والدهان .

وكان انياس يرتدي معطفاً سميكاً من جوخ وبري يبدو انه معجب به كثيراً ،

وكانت الأم تراه وهو يداعب كفه بحب ، ويمد عنقه الضخم ليحفص مظهره ،

فيفهم قلبها حنان حار وتهمس :

— يا اولادي الأعزاء ...

وقال انياس وهو ينهض :

— والآن تذكر جيداً .. إسأل اولاً عن الجد في منزل آل موراتوف .

وأجاب فيسوشيكوف :

— لن انسى ذلك .

ولكن انياف لم يك ليصدق على ما يبدو، اذ كرر له مرة اخرى كل الاشارات وكلمات المرور؛ ثم مديده اليه أخيراً وهو يقول :

— ابلغهم تحياتي ، انهم قوم طيبون ، سترى ...

ونظر الى نفسه نظرة اعجاب ، وتحسس بيده معطفه ، وسأل الأم :

— هل اذهب ؟

— هل تعرف الطريق ؟

— بالتأكيد ... الى اللقاء يا رفاق .

ومضى شامخ المتكئين ، منتفخ الصدر ، تتكئ قبعته الجديدة على احدى اذنيه ، وتقوص يدها في اعماق جيوبه ، وترتعش على صدغه ، بمرح ، خصل وضاءة . وقال فيسوشيكوف وهو يدنو بتؤدة من الأم ..

— حسناً .. هوذا انا في العمل ثانية . لقد انتابني الضجر من قبل .. وكنت أتساءل : لماذا هربت من السجن ؟ لا لشيء إلا لأختيء . لقد عملت في السجن بعض الاشياء ، وكان بول يدخل في رؤوسنا ان السجن متعة ... والآت ماذا تقرر بشأن الفرار ؟

وأجابت الأم بزرقة لا شعورية :

— لا أدري .

وألقى يده على كتفها ؛ وأدنى وجهه من وجهها وقال :

— اشرحي لهم فيستمعون اليك . ان الفرار يسير جداً ، وباستطاعتك انت نفسك ان تتحقيقي من ذلك . اسمعي : للسجن جدار ، وإلى جانب هذا الجدار مصباح عاكس للنور ، وقبالته ارض موات . وإلى اليسار تقوم المقبرة ، وإلى اليمين الشارع ، اي المدينة . يأتي المولج بإيقاد المصباح لتنظيفه في وضح النهار فيسند سلمه الى الجدار ويتسلق ، ثم يثبت في اعلى الجدار خطاطيف سلم من حبال ويدليه الى باحة السجن ، ومن الامام .. وفي هذا الوقت يكون الرفاق على علم بأية ساعة من النهار يجري ذلك ، فيعززون الى السجناء باقتمال حادثة شغب ، أو انهم يقومون بذلك بانفسهم ، وفي اثناء ذلك يتسلق الذين اتفق عليهم السلم ،

وبلحظتين ... وثلاث حركات ينتهي الامر .

ولوح بيده تحت انف الأم وهو يشرح خطته ، وكان يرى ان كل شيء يجب أن يتم ببساطة ووضوح وبراعة . لقد عرفته من قبل بطيئاً متردداً ، تشع عيناه بالريبة ، وبمزاج غضوب متجهم ، أما الآن فهي على ما يبدو لها ، مختلفان . انها تشعان بضياء رتيب دافئ ؛ فتسيطران عليها ، وتثيران قلقها .

— فكري ... سيكون ذلك في النهار . في النهار . فممن من الناس يخطر في باله ان سجيناً يجرؤ على الفرار في وضح النهار ، وعلى مرأى ممن في السجن جميعاً ؟ . وقالت الأم وهي ترتعش :

— واذا أطلقوا النار عليهم وهم فوق ؟!

— من سيطلق النار ؟ ليس هناك جنود .. والنظار يستخدمون مسدساتهم في دق المسامير .

يكاد يكون ذلك يسيراً لكل اليسر .

— سترين ان هذه هي الحقيقة . باحثي الآخرين بالخطا ، فلقد اعددت كل شيء : سلم الحبال والخطاطيف ... ثم ان صاحب البيت الذي استأجره سيقوم بدور موقد المصباح .

وتحرك شخص وراء الباب وسعل ، وسمعت ضوضاء صفائح التنك . وقال فيسوشيكوف :

— هو ذا قد اقبل .

وظهر في اطار الباب حوض من صفيح ، ودمدم صوت مبجوح :

— أألن تمر بالعين ؟

ثم بدا رأس مستدير رمادي الشعر أشعث ، حاجظ العينين ، ولاح شارب في وجه كله دماثة .

وساعده نيقولا فيسوشيكوف على ادخال الحوض ، ودخل الرجل ، فاذا هو فارع القامة محدودب الظهر ؛ ثم سعل نافخاً اوداجه الحليقة ، وبصق ثم قال بصوته المبجوح :

- مرحباً .

ونظر نيقولا الى الأم :

- هيا اسأليه .

- تسألني أنا ؟ عماذا ؟

- بشأن الفرار .

فصاح الرجل وهو يمسح شاربه بأصابعه السوداء :

- آه .. آه ...

أرأيت يا جاك ؟. انها لا تصدق ان ذلك سهل !

- 'هم' ... انها لا تصدق ؟. ذلك لأنها لا تريد ، اما نحن فنريده كلانا ومن

أجل هذا فاننا نصدق .

قال ذلك يهدوء ، وانحنى فجأة كأنه انقهم الى شطرين ثم اخذ يسعل ،

واستمرت نوبة سعاله طويلا ، وكان وهو يقف في منتصف الحجرة يدلك صدره

متشققاً ، ويرنو الى الأم بعينييه المتسمتين .

وقالت الأم :

- لبول ورفاقه أن يقرروا ...

وأطرق نيقولا فيسوشيكونف برأسه مفكراً .

وسأل المؤجر وهو يجلس :

- ومن هو بول ؟

- انه ابني .

- من أي عائلة ؟

- من عائلة فلاسوف .

فهب رأسه وأخرج كيس تبغ وغليونيه ، فحشا الغليون وهو يقول بصوت

متقطع :

- لقد سمعت هذا الاسم من قبل . ان ابن اخي ايفشكنكو يعرفه .. فهو

ايضاً في السجن ... فهل تعرفين ابن أخي ؟. اما أنا فادعى «غوبون» ان

الشبان جميعاً سيكونون في السجن عما قريب ، وستطيب الحياة عندئذ لنا نحن

الشيوخ . لقد وعدني البركي بإرسال ابن اخي نفسه الى سيبيريا ، وسيبر الوغد

بوعده .

وأخذ يدخن ، ويصق بين الفينة والفينة على الارض ، ثم ما لبث ان استأنف

موجهاً الحديث الى فيسوشيكونف :

- انها لا تريد ؟ . هذا شأنها ، وهي حرة . وانت اذا كنت قد تعبت من

الجلوس فامش ، ألا تريد أن تنشي ؟ ابق اذن جالساً .. أيسرقونك ؟ إخرس .

أيفسرونك ؟ أستسلم . أيقتلونك ؟ أمكث هناك . اني اعرف ذلك ولكنني

سأنتشل ابن أخي من هناك .. أجل سأنتشله .

وكانت عباراته القصيرة المتقطعة كالمواء ترمي الأم في احضان القلق ، الا

ان كلماته الأخيرة أثارت فيها كوامن الحسد .

وفيما كانت تسير في الزقاق باتجاه معاكس لاتجاه المطر الذي حملته ريح

باردة ، كانت تفكر بفيسوشيكونف :

- أترين كيف غدا ؟.

وتذكرت غوبون ، فقالت في نفسها كأنها تصلي :

- في الظاهر لست انا الوحيدة التي تحيا من جديد .

وشمخت في قلبها صورة ابنها فأتمت :

- ليتني فقط يوافق على الخطوة .

- ٢٢ -

ونهار الاحد ، فيما كانت تستأذن بول بالانصراف وهي في قاعة الاستقبال في

السجن ، شعرت به يدس في كفها كرة صغيرة من الورق ؛ فارتعشت كأن تلك

الكرة قد أحرقت كفها ، ورمقت ابنها بنظرة متسائلة متوسلة ، ولكن نظرتها

هذه لم تلق جواباً ، وكانت البسمة الحازمة المطمئنة التي تعرفها جيداً ، لطيف

كالعادة في عينييه الزرقاوين .

وقالت وهي تتأوه :

- ٣٧٩ -

- ٣٧٨ -

- وداعاً ..

فمد إليها يده ثانية ، في حين كانت موجة من الحنان تمر وجهه مرتمشة :
- وداعاً أماء .

وانتظرت قليلاً وهي تحضن بيدها يده ؛ فإذا به يقول :
- لا تقلقي ، ولا تغضي

وكان في هذه الكلمات ، وفي التفحص العصي في جيبته ، الجواب الذي تنتظره ؛
فغمغمت وهي تطأطأ رأسها :

- لم أقول هذا ؟. ماذا تقصد ؟ ...

وخرجت مصرعة دون ان تنظر إليه ، لكيلا تفضح انفعالها دموع عينيها
وارتعاش شفتيها ؛ وفي الطريق ، كان يخيل إليها ان مفاصل يدها التي تنطوي على
جواب ابنها تؤلمها ، وان ذراعها كله ثقيل كأن لكمة قوية نزلت على كتفها .
وألقت القضاة الى نيقولا بسرعة وهي تدخل المنزل ؛ ونبض في اعماقها
أمل جديد وهي تراه يفضها ، غير ان نيقولا قال :

- هذا طبيعي اسمعي ماذا كتب : «لن نهوب أبها الرفاق فنحن لا نستطيع
ذلك ، ولا يستطيعه احد منا ، لاننا ان تفعل نفقد احترامنا في عين انفسنا .

اهتموا بالفلاح الذي اوقف مؤخرأ فهو يستحق عنايتكم ، وهو جدير بجهودكم
انه يتعذب هنا كثيراً ، ويشترك كل يوم في اكثر من شجار مع الادارة . لقد
سجنوه اربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة . انهم يعذبونه ، ولقد توسلناهم جميعاً
أجله . وآسوا امي وكونوا عطفين عليها . واشرحوا لها فتفهم كل شيء .»

ورفعت رأسها وقالت بصوت راعش :

- ماذا يشرحون لي ؟ لقد فهمت .

واستدار نيقولا وسحب منديله ثم مخط بصوت مرتفع ودمدم :

- يجب ان اكون قد اصببت بالرشح .

وأمر يده على عينيهِ ، ليعيد نظارته الى مكانها ، وليستأنف وهو ينقل
الخطى في الحجرة :

- أرايت ؟ اننا لن نتجح بأية وسيلة ..

وقالت الأم منبسطة الأسارير ، في حين كان الغم القاتم يغم صدرها :

- لا بأس دعوه يحاكم .

- لقد تلقيت رسالة من صديق لي في بطرسبورغ ..

- انه يستطيع ان يهرب من سيبيريا ايضاً .. أليس كذلك ؟ أهذا ممكن ؟

- طبعاً لقد كتب الي الرفيق يقول : «ستبدأ المحاكمة عما قريب ، والقرار
معروف وهو النفي للجميع.» أرايت ؟ القرار يعرف في بطرسبورغ قبل المحاكمة .

وقالت الأم باستسلام :

- دع هذا يا نيقولا ؛ فعبتاً تحاول أن تسري عني وأن تشرح لي . ان بول

لا يسيء التصرف ابداً . انه لا يعذب نفسه ولا يعذب الآخرين عبثاً . ثم انه

يجبني . أجل انه يفكر في كما ترى ، فيقول : اشرحوا لها واسوها . أليس كذلك ؟

وكان فؤادهما يخفق بشدة ، والانفعال يجعلها تشعر بدوار ، وصاح نيقولا

بقوة لم تتعودها منه :

- ابنك رجل مدعش ، وأنا أكنّ له كثيراً من الاحترام .

واقترحت : يجب أن تفكر بما سنفعله من اجل ريبين .

وكانت تود أن تبشر العمل فوراً ؛ أن تذهب الى ناحية ما ، ان تشي حتى

تتعب ولكن نيقولا رد عليها وهو يذرع الغرفة بخطاه :

- أجل .. يجب على ساندريين ان ..

- لن تلبث أن تحضر ، انها تأتي دائماً في الأيام التي اقابل بول فيها .

وجلس نيقولا الى جانب الأم ، على الأريكة ، مفكراً مطرقاً ، يقضم شفتيه

ويداعب لحيته :

- الشيء الذي يؤسف ان شقيقي ليست هنا .

- حبذا لو استطعنا ان نهيه ذلك في الحال ، وفي الوقت الذي يكون فيه

بول ما يزال هناك ؛ فإنه سيكون سعيداً .

وصمتا فترة ، ثم قالت الأم فجأة وبصوت منخفض بطيء :

- أنا لا افهم لماذا يرفض ؟
ونهض نيقولا على الفور ، ولكن الجرس رن ، فتبادلا النظرات وهمس نيقولا :

- 'م' ، إنها ساندريين ..

وقالت الأم بصوت خفيض ايضاً :

- كيف نقول لها ؟

- أجل .. إنه لأمر صعب .

- اني لأرئي لها .

ورن الجرس ثانية أقل عنفاً من ذي قبل ، كما لو كان الطارق الذي يقف عند العتبة ، يتردد هو ايضاً . ومضت الأم ونيقولا معاً لاستقبال هذا الطارق ، ولكن نيقولا تراجع الى الورااء عندما اقترب من الباب :

- من الأفضل ان تستقبلها أنت .

وسألت الفتاة بحزم عندما فتحت لها الأم :

- ألم يقبل ؟

- كلا .

وقالت ساندريين ببساطة :

- لقد كنت اعرف ذلك .

وشحب وجهها وراحت تفك اضرار معطفها ، ثم تميد اثنتين منها الى ما كالا عليه ، ثم تحاول ان تخلعه فلا توفق ، وأخيراً قالت :

- طقس مزعج . مطرٌ وريح ... وهو .. هل صحته جيدة ؟

- نعم .

وأردفت ساندريين بصوت خفيض وهي تتفحص يدها :

- مسرورٌ ويتمتع بصحة طيبة .

فردت الأم دون ان تنتظر اليها :

- لقد كتب طالبا تدبير وسيلة لتسهيل فرار ريبين

وغنمت الفتاة ببطء :

- نعم ؟ يبدو لي ان علينا أن نلجأ الى تلك الخطة ..

وقال نيقولا وقد ظهر في الباب :

- هذا هو رأيي ايضاً .. صباح الخير يا ساندريين .

ومدت له الفتاة يدها :

- ما هي العقبة التي تعترض تنفيذها ؟ ان الجميع يعترفون بأن هذه الخطة

يجب أن تنجح .

- ومن سينفذها ؟ فالكل مشغولون .

وقالت الفتاة وهي تنهض بسرعة :

- دعوني أقوم بها .. فلدي الوقت الكافي ..

- ليكن .. ولكن يجب ان تطلي الى الآخرين ..

- حسناً ، سأفعل ، وسأذهب اليهم فوراً .

وأخذت تبكل اضرار معطفها بحركات واثقة .

واقترحت الأم :

- يجب ان تراضي قليلاً .

فابتسمت ابتسامة خفيفة واجابت وهي تخفف من صوتها :

- لا تزعجي نفسك ، لست متعبة .

وشدت يديها بصمت ، وانطلقت مقرورة قاسية الملامح .

واقتربت الأم ونيقولا من النافذة ، وتلبعاها ببصرها وهي تحتاز الساحة

وتتوارى وراء الحاجز ، وأخذ نيقولا يصفر ، ثم جلس الى الطاولة ، وبدأ

يكتب ، أما الأم فقد همست بسهم :

- سيشفها هذا العمل .. وستجد فيه ما يعزها .

وأجاب نيقولا :

- نعم هذا اكيد .

ثم استدار نحوها والبسمة تطيف في وجهه الطيب :

- هل فائك ان تتجرعي هذا الكأس ؟ أها تأومت ابدأ في اعقاب الرجل

فصاحت وهي تشير بيدها:

- يا لها من فكرة . أنا أتأوه ؟ ان الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه هو أن ارغم علي الزواج من هذا او ذاك .

- ألم يكن هناك من يحظى بإعجابك ؟

ففكرت قليلاً ثم أجابت :

- لا اذكر يا صديقي العزيز . مما لا شك فيه ان كان هناك واحد .. ولكنني لا اذكر ابداً ..

ورنت اليه ثم اكملت كلامها ببساطة وبجزم هادى :

- لقد كان زوجي يضربني كثيراً ، وكل ما كان قبله قد احتى تماماً من ذاكرتي .

وانكب من جديد على قرطاسه ، وخرجت هي لحظة ثم عادت ، فرنا اليها بحنان ، واستأنف الكلام هامساً ، وراح يداعب ذكرياته بمحبة :

- اسمعي .. لقد كان لي انا ايضاً كساندرين قصة حب . لقد كنت احب فتاة بل مخلوقة مدهشة رائعة ، وما قد مضى على لقائنا الاول عشرون عاماً ، واعترف اني ما زلت حتى الآن احبها ؛ واحبها دائماً ومن كل ذاتي ؛ احبها بعرفان وإلى الأبد .

وكانت الأم ترى عينيه ، وهي يحانه ، تشتعلان بلهب حار وضاء ، وكان يسند رأسه الى يديه المستقرتين على متكأ الكرسي ، ويرنو الى ناحية ما في البعيد . وكان جسده كله ، جسده الهزيل الرشتي ، القوي في الوقت نفسه ، يبدو كأنه يميل الى الامام ، كما يميل جذع النبتة نحو ضياء الشمس . ونصحته الأم :

اذا كان الأمر كذلك فتزوج .

- لقد مر على زواجها خمس سنوات ..

- ولم لم تتزوجها من قبل ؟

ففكر لحظة ثم اردف :

- أرايت ، لم يكن ليحالفنا الحظ . فعندما كنت في السجن كانت هي طليقة

وعندما كنت انا طليقاً كانت هي في السجن او المنفى . تماماً كوضع ساندين .

واخيراً ارسلوها الى سيبيا لمدة عشر سنوات ، وانه لثاني رهيب ، وقد احببت

ان ألحق بها الى هناك ، ولكننا خجلنا انا وهي . وهناك التقت برجل آخر ،

بصديق لي ، وهو فتى طيب جداً .. فلم يلبثا ان هربا معاً ، وما الآن يعيشان

في الخارج .. نعم ..

وتوقف ، وتزع نظارتيه فمسحها ثم نظر الى زجاجها في الضوء وعاد

يفر كمها .

واندفعت الام تقول وهي تهز رأسها متأثرة :

- آه .. يا صديقي المسكين .

لقد كانت تشفق عليه .. ولكن شيئاً ما فيه كان يطرح ، على شفتيه ، في

الوقت نفسه ، بسمه حارة .. بسمه امومة . وغير من وضعه ، واخذ القلم بيده

ثانية ، ثم تابع وهو يلوّح به على وقع كلماته :

- ان الحياة العائلية تضائل فعالية الرجل الثوري : تضائلها باستمرار :

الاطفال ، وفقدان الموارد ، وضرورة العمل الدائب لكسب العيش ، في حين

انه لا بد للثوري من ان ينمي فعاليته بلا انقطاع ، وفي كل اتجاه . وهذا يتطلب

وقتاً . ومن واجبتنا ان نكون دائماً في الطليعة ، لأننا نحن الكادحين الذين

اختارتهم قوة التاريخ لتهديم العالم الهرم ، وبناء الحياة الجديدة ، فاذا ما ظللنا

في المؤخرة ، واذا ما استسلمنا للنصب ، او لإغراء مغرم صغير قريب ، كان ذلك

وبالاً ، بل كاد ان يكون خيانة . ليس هناك من نستطيع ان نسير معه ، بنفس

الخطى ، دون ان يفسد علينا ايماننا ، ومن واجبتنا الان نسي ابدأ ان مهتمنا

ليست في تحقيق مغام صغيرة ، ولكنها فقط في تحقيق نصر كامل .

وتجلى الحزم في نبرته ، وشحب لونه ، وتألفت في عينيه قوة الشكيمة التي

عرف بها .

ورن الجرس من جديد ، عنيقاً هذه المرة ، فقطع عليه كلامه ؛ ودخلت لوميلاً مضرجة الوجنتين من البرد ، ترتدي معطفاً خفيفاً لا يصلح للشتاء ، وقالت بصوت حائق ، وهي تخلع حذاءها الممزق :

— لقد حُدد موعد المحاكمة . انه سيكون خلال ثمانية ايام .

وصرخ نيقولا من داخل الحجرة :

— صحيح ؟

واندفعت الأم نحوها ، دون ان تدري ما اذا كان الفرع او الخوف هو الذي يقلقها ؛ وتبعها لوميلاً وهي تكلل بصوت خفيض تمازجه السخرية :

— اجل ... وفي المحكمة يقولون بصراحة ان القرار مهيباً سلفاً . ولكن ماذا يعني ذلك ؟ هل تخشى الحكومة ان يعامل موظفوها اعداءها بلين ونعومة ؟ لا يبدو أن عملاءها أنذال ؛ رغم انها قد افسدتهم ، وربتهم على الفساد خلال زمن طويل ، وبذلت في سبيل ذلك كثيراً من الجهد والمراحم .

وجلس على المقعد وهي تفرك وجنتيها المزيلتين ، ويشع الازدراء من عينيها المتجهمتين ، ويهدر صوتها بنقمة متنامية .

وقال لها نيقولا محاولاً ان يهديء من ثورتها :

— إنهم لن يسمعوك .. فلا تضيعي جهدك عبثاً .

وكانت الأم تصغي الى الفتاة بكل انتباهها ، ولكنها كانت تردد وراءها دون وعي ، وبصورة آلية ، نفس الكلمات :

— المحاكمة .. خلال ثمانية ايام .. المحاكمة ..

واحست فجأة بدنو حدث جديد القسوة ، وحشي الضراوة .

— ٢٣ —

وعاشت الأم نهارين طويلين ، في هذا الضباب من القلق والوهن ، وتحت وطأة غم الانتظار الثقيل . وفي اليوم الثالث اقبلت ساندرين لتقول لنيقولا :

— كل شيء معد ، للساعة الواحدة اليوم . !

واجاب هذا بدهشة :

— أعد كل شيء ؟

— ولم لا ؟ لم يكن عليّ إلا ان اجد ملجأ لريين وثياباً ... اما الباقي فقد تكفل به غوبون . وليس علي ريين إلا ان يسير بضع مئات من الامتار فحسب ، وسيسير فيسوشيكوف امامه ، متنكراً بالطبع ، فيسله معطفاً وقبعة ... ويدله على الطريق ... اما انا فساأنتظر اويته ، فابدل ملابسي ثم اقوده ...

وقال نيقولا :

— لا بأس .. ولكن من هو غوبون هذا ؟

— إنك تعرفه .. فلقد كنت تقوم في منزله بالمحادثات مع صانعي الاقفال .

— آه .. اجل لقد تذكرت . إنه رجل عجوز .. طريف نوعاً ما ..

واجابت ساندرين وهي تنظر عبر النافذة :

— إنه جندي قديم ، ومهنته اليوم سقف السطوح ... وهو واسع الافق بعض الشيء ، ويكره كل عنف ، كرهاً لا ينفد .. إنه فيلسوف نوعاً ما ..

وكانت الأم تصغي اليها بصمت ، وفي رأسها خاطر غامض ينضج ببطء :

— يود غوبون ان يدبر فرار ابن اخيه ايشانكو . ذلك الفتى الذي اثار

اعجابك باناقته ونظافته المتصنعة بعض الشيء .. هل تتذكر ؟

وهز نيقولا رأسه بالايجاب .

وتابعت ساندرين :

— لقد أعد كل شيء بدقة ، ولكنني بدأت اشك في نجاح العملية ، فالسجناء يخرجون الى باحة السجن للترهة في نفس الساعة ... وسيود الكثير منهم ان يفروا عندما يرون السلم .

وصمتت هنيهة ، مغمضة العينين ، فدنت منها الأم :

— وبالطبع ، سيزاحم بعضهم بعضاً .

وكانوا ثلاثتهم امام النافذة ، وكانت الأم تقف وراء نيقولا وساندرين ، وكان حديثهم الخاطف يثير فيها إحساساً شديداً الغموض .

وقالت فجأة :

— سأذهب .

وسألتها ساندريين :

— ولماذا ؟

ونصحتها نيقولا :

— لا تذهبي الى هناك يا صديقي ؛ فقد يصيبك حادث ما . يجب ألا تذهبي .

فرنت اليها ، ورددت بصوت اكثر خفوقا ... ولكنه يزخر بالاصرار :

— بلى . سأذهب .

وتبادلوا النظرات ، وهزت ساندريين كتفها :

— هذا مفهوم ...

ثم استدورت نحو الام ، واحتضنتها بذراعيها ، وقالت لها ببساطة وتصميم :

— ومع ذلك فإني احذرك .. عينا تأملين ..

وصاحت الام وهي تجذبها الى صدرها بيد مضطربة :

— خذيني معك يا عزيزتي . فلن أضيئك . يجب ان ارى . فانا لا اصدق ان

الفرار ممكن .

وقالت الفتاة لنيقولا :

— دعها تأتني معنا .

ورد نيقولا ، مطأطئا رأسه :

— ذلك شأنك انت .

— ولكننا لن نستطيع البقاء معاً . ستسلكين انت طريق الحقول نحو الجنائن ،

فان سور السجن يرى من هناك .. ولكن .. ماذا ستقولين إذا ما سئلت عما

تفعلن في ذلك المكان ؟

واجابت الام بيقين وهي شديدة البهجة :

— لن أعدم جواباً .

وقالت ساندريين :

— لا تنسي ان حراس السجن يعرفونك ؛ وإذا ما رأوك هناك فأنهم ...

— لن يروني .

وفجأة اضطرم الرجاء الذي كان يستكن فيها طوال الوقت ، دون ان

ترتاب فيه ، فلأها بالحوية ، وفكرت وهي ترتدي ملابسها على عجل :

«ربما هو ايضاً ...»

وبعد ساعة كانت في الحقول وراء السجن ؛ وكانت الريح تهب عاتية فتعصف

بثيابها ، وتسفع الأرض التي يغطيها الجليد ، وتتمتع السياج الممزق ، سياج الحديقة

التي كانت تمر بقرها ، وتلطم بعنف جدار السجن القليل الارتفاع ، ثم تنطرح

في باحته فتكنس الاصوات المتصاعدة منها ، وتبعثرها ، وترقى بها نحو العلاء .

وكانت اليوم تفر مسرعة ، تاركة وراءها فجوات صغيرة من زرقة السماء .

وراء الأم كانت تنبسط الحدائق وأمامها المقبرة ، وعلى يمينها يقوم السجن ؛

على بعد نحو من عشرين متراً . وكان هناك بالقرب من المقبرة جندي يخرج جواداً

من عنائه ، وآخر إلى جانبه ينفذ سرجه ، ويصرخ ويصفر ويضحك ، اكن

بالقرب من السجن احد غيرهما .

وتجاوزتها ببطء وهي تتجه نحو سور المقبرة ، وتلقي نظرات مختلطة الى

اليمين والى الورا ، وأحست فجأة بساقيها يصطكان ، ويثقلان كأن الجليد قد

سهرها في الأرض ؛ وظهر عند زاوية السجن رجل محدود الظهر ، يحمل سماً

على كتفه ، ويسير بخطى سريعة كما يفعل موقد المصابيح .

وألقت ، وعيناها ترفان من الرعب ، ألقت نظرة خاطفة على الجنديين اللذين

كانا يضربان الأرض بأقدامهما في حين كان الجواد يخب حولهما . ثم أبصرت الرجل

حامل السلم ، يسند سلمه الى الجدار ثم يتسلقه بتؤدة ، ويومئ بيده نحو الساحة ،

ثم ينحدر بسرعة ، ويختفي في منعطف السجن . وكان قلب الأم يخفق بشدة ،

والثواني تمر ببطء ، والسلم لا يكاد يرى على الجدار القائم ، الملطخ بالوحل ،

وبالبقع التي انقشر عنها الجير ، فأنكشف تحتها القمر بيد .. وفجأة ظهر فوق

الجدار رأس اسود ، ثم تآرجح من الناحية الأخرى جسم وانزلق إلى أسفل ،

وبعد قليل ظهر رأس آخر يعمتر قبعة من وبر ، وقفزت كتلة سوداء إلى الأرض ، واختفت بسرعة وراء منطف الجدار . وانتصبريين ، وتطلع فيا حوله ، وهز رأسه . وكانت الأم تغتم وهي تركز الأرض بقدمها :
- هيا . انج بنفسك . انج بنفسك .

وملاً الطنين اذنيها ، وتناهد الى سمعها بعض صرخات ، وظهر فوق الجدار رأس ثالث ، وكانت هي تراقبه جامدة ، ويداها تتشنجان فوق صدرها ، ووثب الرأس الاشقر الحليق الذقن ، في الفضاء ، كأنه يود أن يفصل عن جسده ، ثم اختفى فجأة وراء الجدار .

وكانت الصيحات قد ازدادت ارتفاعاً وعتواً ؛ وكانت الريح تحملها في الفضاء ، وتحمل معها رجع الصغير الحاد . وسار ريبين بمحاذاة الجدار ، ثم تخطاه ، وعبر فسحة حرة بين السجن وبيوت المدينة ؛ وكان يبدو للأم انه يشي ببطء شديد ، وانه يشمخ برأسه عالياً وبلا جدوى للدرجة لا يمكن أن ينسى معها من يلتقيه ، وجهه ، فتغمغم :
- اسرع ، اسرع .

وطرطق يحفاف شيء ما في باحة السجن ، وسمع صوت ناحل كصوت كأسر محطم ، وشد الجندي الجواد اليه ، وهو يثبت قدميه في الأرض ، أما الآخر فقد صرخ ، بعد ما جعل من قبضته شيئاً كالقوق ، صرخ يبعث الكلمات بانجاء السجن ، ثم مال برأسه وراح يصني .
وكانت الأم تتلفت الى كل جهة ، متشجعة الأعصاب ، فلا تصدق عينها ان ما كانت تتخيله رهيباً معقداً ، تم بكل بساطة وسرعة ، وقد أذهلتها هذه السرعة وأفقدتها صفاءها .

ولم يعد ريبين يرى في الشارع ، بل كانت العين تقع على رجل مديد القامة ، يشي متدنراً بمعطفه الطويل ، وعلى صبية صغيرة تركض . وبرز حراس ثلاثة عند زاوية السجن ، وكانوا يسرون متراصين ، وأيديهم اليمنى بمدودة الى الأمام . واندفع احد الجنديين للقائهم ، أما الآخر فقد ظل يدور حول الجواد ، ويبدل

جهده لامتطاء صوة هذا الحيوان الذي كان يراوغ ويثب ، ويلوب حول نفسه . وكانت اصوات الصفارات تترق الفضاء بلا انقطاع ثم تحتنق ، وكانت نداءاتها القلقة التائهة توقظ في بيلاجي حس الخطر ، فتستبد بها رعشة ، وتسير بمحاذاة سور المقبرة ، وهي تتتبع الحراس بعينها ، ولكن هؤلاء يلقون مع الجنود ، الزاوية الاخرى من السجن ، ثم يختفون ، ويجري في اثرهم نائب المدير الذي تعرفه جيداً ، ببذلة الرسمية المفككة الأزرار .

وكانت الريح تزوبع وتعضف كأنها فرحة ، وتحمل الى اذني الأم اشلاء الصراخ المختلط ، ودوي الصفارات ، فيهبها هذا الذعر ، وتغذ من سيرها وهي تفكر :

- « إذن ... يمكن ان يكون هو ايضاً قد استطاع ... »

وفجأة التقت عند زاوية سور المقبرة إثنين من رجال البوليس فصاح بها احدهما وهو يلهث :

- قفي . ألم تزي رجلاً ذا لحية ... ؟

فأشارت بيدها الى الحدائق ، واجابت برباطة جأش :

- لقد هرب في هذا الاتجاه ... فماذا حدث ؟

- انفخ صفارتك يا يغوروف .

وعادت الى المنزل يلاًها اسف مظلم ، ويفعم قلبها الغضب والمرارة ؛ وعندما بلغت المدينة قطعت الطريق عليها عربية ، فرقت رأسها ، فاذا بها تبصر في داخلها شاباً اشقر الشاربين ، شاحب الوجه ، منهكاً ، ووقع بصره هو ايضاً عليها ، وكان يجلس جلسة جانبية بحيث بدا لها كتفه الايمن اعلى من الايسر ، وتلقاها نيقولا بفرح :

- والآن ... كيف جرت الامور ؟

- اعتقد ان الحطة قد نجحت ...

واخذت تقص عليه عملية الفرار ، جاهدة في ان تذكر التفاصيل كلها ؛ وكانت تتكلم كأنها تقص عليه قصة سمعتها من شخص آخر ، ولا تصدقها هي .

يقولوا وهو يفرك يديه :

- لقد حالفنا الحظ ، ولكن الله يعلم كم ساورني من خوف عليك . اصفي الي يا نيلوفنا ، فسأقدم اليك نصيحة صديقي . « لا تخيفك المحاكمة ابداً ، وصدقيني انه كلما اقترب موعدها ، اقترب اليوم الذي يطلق فيه سراح بول . ومن يدري ... فقد هرب وهو في الطريق الى سيديريا ؟ ... ام ... فيما يتعلق بالمحاكمة فستكون هكذا على التقريب ... »

وراح يصف لها الجلسة ، وكانت هي تصغي ، وتذكر ان المخاوف تساوره ولكنه كان يود ان يدها بالشجاعة .

وفاجأته بهذا السؤال :

- ربما كنت تعتقد اني سأقول شيئاً للقضاة ، واني سأقدم اليهم بعريضة ؟ ماذا تقولين ؟

- انا خائفة ، هذا صحيح ، ولكن مم أخاف ؟ لا ادري ! وصمتت ، وظلت نظراتها ثابتة في الحجرة .

- يخيل اليّ احياناً انهم سيهنون بول ويستخرون منه ... وانهم سيقولون له : « فلاح ... ابن فلاح ، فماذا حسبت نفسك ؟ » ... ويول عتي الكبرياء ، لذلك سيوقفهم عند حدهم أو يهزأ بهم اندريه ... واقول في نفسي : إن صبرهم سينفذ بسرعة ، فهم جميعاً شديداً القوران ، وسيصدرون عليها احكاماً قد لا نراهما بعدها ابداً .

وتابعت بصوت خفيض ، في حين كان نيقولا يحتفظ بصمته المتجهّم ، ويمسك لحيته المذبذبة :

- ان لا استطيع ان انتزع هذه الافكار من رأسي . إن الأمر رهيب عندما يجلسون للتدقيق والتجسس ؛ فليس العقاب هو الرهيب ، بل المحاكمة . ما ارهب المحاكمة ... لا ادري ماذا اقول ...

وسيطر عليها إحساس لم يك نيقولا يدرك كنهه ، واريكها هذا الاحساس وزاد من عجزها في التعبير عن هلعها .

- ٢٤ -

وكان هذا الهلع ، كالعفن ، تسد عليها رطوبته بجاري النفس ، ولا يفتأ يتنامى في داخلها ، وعندما حان يوم المحاكمة حملت معها الى المحكمة حملاً ثقيلاً قائماً ، كان يقوس ظهرها ويحني رأسها .

وفي الشارع التقت بيجران من الضاحية تعرفهم ، فانحنّت لهم بصمت رداً على تحياتهم ، وشقت طريقها بين الحشد الذي يرين عليه الغم ، وفي الاروقة ، وداخل القاعة اصطدمت بأقارب المتهمين ، وكانوا يتحدثون بأصوات خفيفة ، ويخيل اليها ان حديثهم الذي يترامى الى سمعها ، نافه لا جدوى فيه ، بل انها كانت لا تفهمه . وكان يستحوذ على الناس جميعاً إحساس واحد من الكتابة ، كتابة تنتقل عداواها منهم الى الأم ، فتضاعف من كدها وغمها .

وقال لها سيزوف وهو يفسح لها مكاناً الى جانبه على المقعد :

- اجلسي هنا .

فأطاعت وسوّت ثيابا ثوبها ، ثم رنت الى ما حولها ، وكان خليطاً من الخطوط الخضراء والقرمزية يراقص امام عينيها ، وخيوط صفراء دقيقة تلمع في هاتين العينين .

ومسّت امرأة كانت تجلس بجانبها :

- ان ابنك هو الذي جر ولدنا غريغوار الى الهلاك .

وأجاب سيزوف بلهجة مغمومة :

- اخبرني يا ناتالي .

ونظرت الأم الى المرأة فاذا هي والدة سامووف ، وكان والده على بعد قليل منها ، وهو رجل اصلح ، حلو التقاطيع ، ذو لحية صهباء ، متشعبة كالبروكة ، وعينين غائرتين في وجهه النافر العظيم ، وكان يحرق أمامه ، ولحيته ترتعش . ومن التواخذ العالية للقاعة ، كان ينهمر ضياء رتيب كدر ، وتزلزلت تنف الثلج على الزجاج ؛ وبين التوافذ كانت لوحة كبيرة معلقة ، تمثل القيصر ، ويحيط بها إطار مذهب شديد الالاق ، تندس حواشيه تحت طيات ستائر ثقيلة ليلكية ،

تبدل من النوافذ ؛ وإمام اللوحة كانت تقوم طاولة منطاة بقماش من الجوخ الأخضر ، تكاد تستغرق عرض القاعة كله ؛ وإلى اليمين ، ووراء حاجز مشبك مقعدان من الخشب ، وصفان من الأرائك القرمزية اللون . وكان عدد من الحجاب ذوي الباقات الخضراء والازرار المذهبة على الصدر ، والبطن ، يروحون ويحيئون دونما ضجيج .

وفي هذا الجواب المضطرب كانت تهم بخفر ، دمدمة من الاصوات المكبوتة ، وتفتح رائحة غامضة كرائحة صيدلية .

هذه الألوان كلها ، وهذه الانعكاسات كلها ، وهذه الأصوات والروائح ، كانت جميعها تثقل على الأعين ، وتقلل القلب الحاوي بخوف مستكين يمازجه الاضطراب والوهن .

وفجأة أطلق أحدهم بضغ كلمات بصوت مرتفع ، فارتعشت الأم ، ووقف الحضور جميعاً ، ووقفت هي أيضاً ، ولكنها عندما فعلت تعلقت بذراع سيزوف . وانفتح إلى الزاوية الشمالية باب مرتفع ، وخرج منه عجوز ضئيل ، ذو نظارتين ، يترنح في مشيته ، وترتجف في وجهه الصغير الرمادي لحية بيضاء هزيلة ، وقهور شفته العليا الخلق في فمه ، وكانت وجنتاه النابتتان وذقنه تستند إلى ياقة بذلته العالية ، فيبدو كأنما لا عنق له .

وكان يسنده من وراء شاب ضخم ، ذو وجه خزي أحمر مستدير . ثم تقدم نحو المنصة ثلاثة رجال آخرين يرتدون زيّاً رسمياً ، موشى بالذهب ، وتبسمهم بعد ذلك ثلاثة من المدنيين .

وتشاغلوا طويلاً وراء المنصة ، ثم استقروا في أرائكهم ، وراح أحدهم ، بعد أن جلسوا - وهو امرد الوجه - يتحدث إلى العجوز الضئيل وهو يحرك بتناقل وصمت شفثيه المتفتحتين . وكان العجوز يصغي جامداً مشدود العضلات بشكل غريب ، وكانت الأم ترى وراء زجاج نظارتيه بقعتين صغيرتين لا لون لهما .

وفي أقصى المنصة ، كان يقف أمام مكتب صغير ، رجل ضخم ، أصلع الرأس ، يقلب أوراقه ويسعل .

واهتز العجوز إلى الامام ثم بدأ يتكلم ، ولفظ الكلمة الأولى بوضوح ولكن كلماته الأخرى كانت كأنها تتبخر على شفثيه الرقيقتين الرماديتين .

- انني أعلن ... أدخلوا ...

وشوش سيزوف وهو يدفع الأم برفق ، وينهض :

- انظري .

وراء الحاجز شرع باب ، ظهر منه جندي يتككب سيفه المسلول ، ويتبعه بول واندرية وثيومازين والاخوان غوسيف ، وبوكين ، وساموالوف ، وسوموف ، وخمسة شبان آخرين لم تكن الأم تعرف اسماءهم . وكان بول يتبسم بود ، كما كان اندرية يتبسم ابتسامة تكشف عن أسنانه ، ويوميء برأسه ، وكثت ابتساماتها وملاعها وحركاتها النشيطة تضيء على الصمت المتوتر المصطنع ، كثيراً من البساطة والوضوح . وبهت الألق الشديد ، ألقى الذهب اللذي يوشي الملابس الرسمية ، ومس قلب الأم تيار من الثقة والبسالة ، ونفحة من القوة والحياة ؛ فأخرجها ذلك من تخدرها .

وسرت خلفها ، على المقاعد ، حيث كان الحشد ما يزال ينتظر مرهقاً ، سرت غممة هي الرد على تحايا المتهمين .

وسمعت سيزوف همس :

- انهم غير هيايين !

في حين كانت والدة ساموالوف إلى عيئه تجشش بالبكاء .

وصاح صوت فيه قسوة :

- الصمت .

وقال العجوز الضئيل :

- إنني اخطركم ...

وكان بول واندرية يجلسان جنباً إلى جنب ، ولمس معهم على المقعد الامامي مازين وساموالوف والاخوان غوسيف . وكان بول قد حلق لحيته واطلق العنان لشاربيه فتهدلت أطرافها ، وبات رأسه المستدير شبيهاً برأس القط ، وكان

لقسماته تعبيراً جديداً ، ففي ثنيات فمه معنىً حاداً لاذع ، وفي عينيهِ تجهم ...
وكان يظلل شفة مازين العليا خط غامق اللون ، أما وجهه فكان ممتلئاً ، وكان
شعر سامو الوف مضافاً أكثر من ذي قبل . أما جان غوسيف فكان يحتفظ
دائماً بنفس البسمة العريضة ، كمادته .

وكان سيزوف يقغم وهو مطأطأ الرأس .

— آه ... ثيو ... ثيو ...

وكانت الأم تصفي الى الاسئلة الغامضة التي كان الرجل المعجوز يطرحها على
المتهمين دون ان ينظر اليهم ، وتصفي الى اجوبة ابنتها الهادئة الموجزة ، ويخيل
اليها ان رئيس المحكمة ورفاقه جميعاً لا يمكن ان يكونوا اشراراً قساة . لقد
كانت تقف من انتباه في وجوه القضاة ، محاولة ان تستشف فيها شيئاً وكانت
تحس ان أملاً جديداً يتنامى في قلبها .

وكان الرجل ذو الوجه الخزي يقرأ بتؤدة وبهجة لا مبالية ، وكان صوته
الذي لا طابع له يملأ القاعة بضجر يحدّر الجمع الجاثم على المقاعد بلا حراك ؛ وكان
اربعة من المحامين يتحدثون مع المتهمين بصوت خفيض ، ولكنه حار ، وتند
عنهم حركات عريضة سريعة تذكرها بالطيور السوداء الكبيرة .

وكان الى جانب المعجوز قاض ضخيم بدني تفرق عيناه الصغيرتان في الشحم ،
ويفيض جسمه من المقعد ؛ والى الجانب الآخر كان يجلس رجل مقوس
الظهر ، ذو شاربين أصهبين يشطران وجهه الشاحب ، وكان ، وقديداً عليه الإنهاك ،
يسند رأسه الى ظهر مقعده ، ويفكر واجفانه مطبقة نصف إطباق .

وكان النائب العام يبدو ايضاً متعباً ضجراً ، ووراء القضاة يظهر عمدة المدينة
وهو رجل قوي ممتلئ يداعب وجنتيه بسهوم ، ثم مارشال النبلاء وهو ذو
شعر أشيب ، ولحية طويلة ، ووجه قرمزي ، وعينين ناعمتين ؛ ثم نقيب المقاطعة ،
وكان واضحاً ان كرشه يضايقه ، وانه كان يحاول ان يغطي بهمطه ولكن هذا
المعطف لا ينفك يتحسر عنه .

وارتفع صوت بول يعلن بحزم :

— لا قضاة هنا ولا مجرمون . بل سجناء ومنتصرون ...

وران الصمت ، ولم يتناه الى سماع الأم ، لبضع دقائق ، الا خفق قلبها ،
وصرير القلم وهو ينساب على الطرس عجلان ناعماً .

ويدا رئيس المحكمة كأنه هو أيضاً ينصت الى شيء ما ، ويختظر ، وتقلل
زملأوه . واخيراً خرج عن صمته :

— نه ... م ... اعترف يا اندريه ناكودكا .

ووقف اندريه بثناقل وهو يمسد شاربته ، وينظر الى رئيس المحكمة المعجوز
شزراً ، ثم قال بصوته الغريد المركز ، وهو يشغل كتفه :

— وماذا اقررت لأعترف ؟ لست بقاتل ولا سارق ، ولكنني ببساطة تأثر
ضد نظام يكره الناس على ان يختلس بعضهم بعضاً ، وان يقتل بعضهم بعضاً .
وزجره المعجوز بأجهاد ، ولكن بوضوح :

— اجب بأيجاز اكثر .

وشغرت الأم بتحريك رءاها على المقعد : فلقد كان الحضور يتحدثون همساً ،
ويتسلطون كأنهم إنما يحاولون ان يملصوا من خيوط العنكبوت التي نسجتها
الكلمات الهكئة ، كلمات الرجل ذي الوجه الخزي .

ووشوش سيزوف : أرايت كيف يحييون ؟

— اجب يا ثيو مازين ؟

ورده ثيو بوضوح وهو يثب واقفاً :

— لا اريد ان اجيب .

وكان الإنفعال يضرع وجهه ، وعيناه تبرقان . ولأمر ما كان يخبىء يديه
وراء ظهره .

وصعد سيزوف آهة مخنوقة ، وجعلت عينها الأم من الدهشة .

— لقد رفضت توكيل محام ، ولن اتكلم ابداً . اني اقدر محكمتكم اللامرعية .
متي أنتم ؟ هل منحكم الشعب حق محاكمتنا ؟ كلا ... إنه لم يفعل ، وانا لا اعترف بكم .

وجلس ، وتوارى وجهه المشتعل وراء كتف اندريه .

ومال القاضي الضخم برأسه نحو الرئيس، ووشوشه، ورفع القاضي ذو الوجه الشاحب اجفانه وألقى على المتهمين نظرة مزوّرة، ومدّ يده فخطبقله الرصاصي، شيئاً على الورقة المبسوطة امامه، وهز نقيب المقاطعة رأسه، وحرك قدميه بجذر، وألقى بكرشه على ركبتيه، ثم غطاء يديه. واستدار العجوز الضئيل دون ان يحرك هامه، نحو القاضي الأصهب اللون، ثم ارتعشت شفتاه... فحنى الآخر رأسه وراح يصفي إليه؛ وادار ماريشال النبلاء حديثاً مهموساً مع النائب العام، في حين كان العمدة يصفي إليها وهو يفرك وجنته. واخيراً هدر من جديد صوت الرئيس الخافي.

ووشوش سيزوف في اذن الأم ديهشاً :

— أرايت كيف اهانهم ؟ إنه ، في الحقيقة أفضل من الآخرين .

وكانت الأم تبتسم دون ان تفهم ما يقول ، وبدأ لها ان ما حصل كله ليس الا مقدمة تافهة مملّة لأمر رهيب سيسحق النظارة عما قريب ، دفعة واحدة ، بما يحمل من رعب شديد .

وجاءت اجوبة بول واندرية الهادئة فدوّت بكثير من الشجاعة والحزم ، كأنها إنما يتفوهان بها في ذلك المنزل الصغير بالضاحية ... لا امام المحكمة . ولكن جواب ثيو الفائز أهلبها ونشر في القاعة جواً من الجرأة ، واستنتجت الأم من تحركات الناس الذين يجلسون وراءها ، انها ليست الوحيدة التي تستشعر ذلك .

وسأل العجوز القميء النائب العام :

— وما هي مطالعتكم ؟

فنهض النائب العام ، وابدأ مطالعته بسرعة ، سارداً بعض الأرقام ، ولم يكن في صوته ما يخيف ، ولكن وخزة قاسية في قلب الأم بعثت في الوقت نفسه قلقها ، فأحست معها إحساساً غامضاً بشيء عدائي ، بعداء لا صراخ فيه ولا وعيد ، ولكنه يتنامى دون ان تراه عين او تلمسه يد . وكان هذا العداء يرف حول القضاة أعشى ، ويبدو كأنه يلهم بضبابه لا يمكن اختراقها ، ولا

يمكن ان يتسرب اليهم عبرها شيء من الخارج .

وكانت الأم تترنن إليهم ، فيبدون لعينها كسر لا يمكن اكتناهاه ، وعلى غير ما كانت تنتظر ، لم يثرهم تصرف بول وثيو ، ولم يوجهوا إليها كلاماً جارحاً ، بل لاحظت ان استلثهم جميعاً لم يكن لها شيء من الأهمية في نظرهم ، وانهم انما كانوا يطرحونها عليها مرغنين ، ويصفون الى اجوبتهم يجهد . لقد كانوا يعرفون سلفاً كل شيء ، لذلك لم يكن هناك ما يثير اهتمامهم .

ومثل امامهم دركي ، وقال بصوت خفيض :

— لقد أجمع الناس على ان بول فلاسوف هو المخبر الرئيس .

وسأله القاضي البدين بلا مبالاة :

— وناكودكا ؟

— وهو ايضا ...

ورقف احد المحامين :

— هل تستطيع ؟ ...

فسأل العجوز احدثهم :

— هل من اعتراض لديك ؟

وكان يخجل للأم ان القضاة جميعاً يعانون انحرافاً في صحتهم ، وان اوضاعهم واصواتهم تم عن إعياء مرضي . وكانت تقرأ هذا الاعياء في وجوههم ، وتقرأ معه الضجر القاتل . فازايؤم الرسمية والقاعة والجنبد ، والمحامون وتسمّرهم في مقاعدهم ، واستجواب المتهمين والاصفاء اليهم ... كل ذلك كان بلا شك ، ثقيلاً عليهم ، مثيراً لاشمئزازهم .

وجاء الآن دور الضابط الاصفر اللون الذي تعرفه ، لقد كان يتكلم جاد الملامح ، متساحب الكلمات ، يتكلم بصوت مرتان عن بول واندرية ، وكانت تقول في نفسها بعفوية ، وهي تصفي اليه :

— إنك لا تعرف شيئاً كثيراً ...

ولم يكن يداخلها اي خوف ، او اشفاق ، نحو اولئك الذين كانت ترام

وراء الحاجز . ان اشفاقها لم يك ينصب عليهم ، فلقد كانوا جميعاً يثرون فيها الدهشة ، فحسب ، وحبا كان يشد قلبها بحرارة ؛ وكانت دهمتها تلك هادئة ، وحبا ذلك سعيداً صافياً .

لقد كانوا ، وقد بدت عليهم امائر الفتوة والبأس ، يثرون بالقرب من الجدار ، ويكادون لا يولون أي اهتمام لأقوال الشهود المملة الرتيبة وحديثهم مع القضاة ، ولا للجدل القائم بين المحامين والنائب العام . وكانت تند عن احدهم - احياناً - بسمة ازدراء ، ثم يلقي ببضع كلمات الى رفاقه الذين كانت وجوههم ايضاً تطفح بالبسمة الساخرة .

وكان بول واندرية يتحدثان همساً ، وبأستمرار تقريباً ، الى واحد من وكلاء الدفاع كانت الأم قد رأتها في السهرة عند نيقولا ، وكان مازين وهو اكثر رفاقة انفعالاً واضطراباً يصيح بسمعه الى حديثهم ؛ وحياناً كان ساموا لوف يتحدث الى جان غوسيف ؛ وكانت الأم ترى هذا الاخير ، في كل مرة ، يلكر زميله ، خفية ، بمرقه ، ويكبت يجهد ضحكة مدوية ، ثم يتسرع وجهه ، وتنتفخ وجنتاه ، ويخفض رأسه ليختبئ . وقهقهه مرقين او ثلاثاً ، ثم ظل بضع دقائق يتصنع محاولاً ان يكون اكثر جدية واتزاناً . لقد كانت تغلي في كل منهم فتوة ، يبدل قصارى جهده ، ليحد من فورانها .

ولكر سيزوف الأم بمرقه لكزة خفيفة ، فأستدارت نحوه فاذا هو منشرج الملامح ، بادي الاهتمام :

- انظري ... الى «الأشقياء» كم هم مطمئنون ... إنهم يبدون كالآسياد ... اليس كذلك ؟

وكان الشهود في القاعة يدلون بأفاداتهم بأصوات عجل لا لون لها ، وكانت القضاة يستجوبونهم بلا مبالاة ، وعلى مضض ، وكان القاضي الضخم يتأهب فيغطي فمه بيده المنتفخة ، أما الآخر ذو الشارب الأصهب ، فقد كان يبدو اكثر شحوباً ، وكان يرفع ذراعه احياناً فيضغط بأصبعه على صدغه بقوة ، ويجدق في السقف تائه النظرات ، بعينين متمددتين لدرجة تثير الاشفاق .

وكان النائب العام يدون ، من حين إلى آخر ، بعض الكلمات بقله الرصاصي ، ثم يستأنف الحديث مع ماريشال النبلاء الذي كان يقلب ، فيما حوله ، عينيه الواسعتين الحولتين ، ويمسك لحيته الدكناء ، ويتنسم ، وهو يثني من جيده بشيء من التعاطف .

وكان العمدة يشبك ساقه ، وينقر على ركبته دوناً ضجيج ، ويراقب بانتباه حركة أصابعه ، وكان كرشه المندلق يستريح على ركبتيه ، وتسنده كلتا يديه بجذر . اما نقيب المقاطعة فكان يحني رأسه ، ويبدو كأنه الوحيد الذي يصغي إلى طنين الاصوات الرتيب ، يشاركه في الاصغاء ، ذلك المعجوز الضئيل المنغرز في القعدة ، حيث يبدو نافرأ ، جامداً كناعورة الهواء ، في يوم لا ريح فيه . واستمر الحال طويلاً على هذا المتوال ، ثم عاد فتور الضجر يحدّر النظارة من جديد .

وقال المعجوز الضئيل :

- إني أعلن .

ثم نهض بعد أن خنق الكلمات التالية بين شفثيه الرقيقتين .

وماجت القاعة بالصخب والزفرات ، والهتافات الصماء ، والسعال ، وضجيج الاقدام المتحركة ، وأقتيد المتهمون ، وهم يتنسمون ويومثون برؤوسهم إلى ذويهم واصدقائهم ، وخاطب جان غوسيف احدهم بصوت هادئ :

- تشجع يا ايفور .

وخرجت الأم وسيزوف إلى الأروقة ، فسلها العامل المعجوز بالحاج :

- هل ترافقيني لتناول قدح من الشاي في المشرب ، فلدينا ساعة ونصف الساعة سنقضها في الانتظار ؟

- كلا .

- حسناً .. وانا لن اذهب .. أرأيت إلى هؤلاء الفتيان ؟ لكنهم هم وحدهم الرجال الحقيقيون هنا ، أما الآخرون فليسوا بنظرهم شيئاً مطلقاً . وثيو .. هل لاحظت ذلك ؟

واقترب والد ساموالوف منها ، وقبعت في يده ، وابتسم ابتسامة فظة :
ورولدي غريغوار ؟ لقد رفض توكيل حمام ، وهو لا يريد أن يتكلم . إنه هو
أول من اكتشف هذه الطريقة .. أليس كذلك ؟ أما ابنك ، يا بيلاجي ، فقد
وافق على ضرورة وجود الحمامين ، في حين قال ابني انه لا يريد واحداً منهم ،
وقد حذا حذوه اربعة .

وكانت زوجته إلى جانبه ، ترف أجفانها بسرعة ، وتمسح أنفها بطرف
مندبيلها . وتابع زوجها ، ولحيته في قبضته ، وعيناه تحديقان في الارض :
— عندما ينظر المرء إليهم ، إلى هؤلاء الفتيان .. «الملاعين» .. يظن بأنهم
يسلكون هذا السلوك في سبيل لا شيء . وانهم يخاطرون بأنفسهم بلا جدوى ،
ثم يتبين له فجأة انهم ربما كانوا على صواب . ان عدمهم في العمل يزداد بآطراد ،
ورغم انهم ، في كل لحظة ، يصطادون الكثير منهم فيه ، فإنهم يظلون كصغار
السماك في النهر . وهذا ما يدفع إلى التساؤل من جديد : هل هناك معنى قوة
وراءهم قدعهم ؟
ورد سيزوف :

— يعسر علينا أن ندرك هذه الأشياء .

ووافق ساموالوف : نعم .. هذا أمر عسير .

ونشقت زوجته بصوت مسموع وقالت :

— يا للأشقياء .. إنهم جميعاً بالصحة الجيدة .

ثم أضافت ووجهها المريض الشاحب يطفح بالبسمة :

— لا تقضي يا نيلوفنا ، لإلغائي منذ قليل ، التبعة على ابنك .. فأبي عفريت
يستطيع أن يعرف ، حقيقة ، من منهم هو الأكثر إجراماً . لقد سمعت ما قاله
الدرك والجواسيس عن ابننا غريغوار .. فله هو أيضاً .. هو الحيوان .. خطيئته !
وكان واضحاً انها فخورة بابنها ، وربما كان ذلك دون تمعد منها ، ولكن
الأم كانت تعرف هذا للشعور ، فأجابتها وهي تبسم بطيبة :
— إن القلوب الفتيه هي دائماً أكثر قرباً إلى الحقيقة .

وكان الحضور ينتشرون في الاروقة جماعات جماعات ، ويتحدثون بأصوات
صماء ، يتحدثون بروية او انفعال ؛ ولم يفر أحد منهم ، بل كنت تقرأ بوضوح ،
وعلى وجوههم جميعاً ، الرغبة في التحدث والسؤال والإصغاء .
وفي الممر الضيق الذي طرش ما بين جداريه باللون الأبيض ، كانوا يعجّون
كان ربحاً عاتية قد سُلطت عليهم ، فراحوا يبحثون عن شيء راسخ ثابت
يتمسكون به .

وكان الأخ الاكبر لبوكين ، وهو فني ضخيم حائل اللون ، يفرط في حرركاته
وإشاراته ، ويتلفت بعنف في كل اتجاه مؤكداً :

— ان نقيب المقاطعة لا دخل له في هذه القضية .

وينهره والده ، وهو عجوز ضئيل الجسم ، ويتطلع الى ما حوله بنظرات خائفة :
— إخرس يا قسطنطين .

— كلا .. وسأقول ما أعرف عنه . يقال إنه قتل في العام الماضي كاتبه
بسبب امرأته ، وهي تعيش الآن معه . فكيف تفسرون هذا ؟ وفوق ذلك فهو
لص محترف ..

— أوه .. يا قسطنطين .. يا آلهي ..

وقال ساموالوف :

— هذا صحيح . هذا صحيح . إنه قاض غير مستقيم ..

واقترب بوكين الذي كان يسمع ذلك ، اقترب بسرعة وهو يجر الآخرين
معه ؛ وراح يصرخ ، ويكثر من الاشارات ، ودم الانفعال يفرج وجهه :

— من أجل سرقة .. او جريمة يوجد محلفون يحكمون . محلفون من الناس
العاديين ، والفلاحين والحرفين . أما أولئك الذين يعارضون الدولة ، فالدولة هي
التي تحكمهم ، إن هذا أمر لا يستقيم . إنك إذا أهنتني فصفتك ، وكنت انت
الذي ستحاكمني من أجل ذلك ، فإنني سأكون أنا المخطيء بلا شك .. ولكن
البادئ .. من هو ؟ انه انت .

وفرق الجمع حارس مسن أعقف الأنف ، ترين صدره الأوسمة ، وقال

لبوكين وهو يتوعده بأصبعه :

- هه .. انت الذي هناك .. لا ترفع صوتك فليست هنا في ملهى .

- اسمع لي أيها الفارس .. لقد فهمت .. اسمع . لو انتني ضربتك ، وكنت انا القاضي الذي سيحاكمك فماذا تمتقد ..

فأجاب الحارس بقسوة :

- سترى .. سأطردك من هنا .

- إلى أين ؟ ولماذا ؟

- إلى الشارع لتتعلم كيف تنهق .

فأجال بوكين بصره فيما حوله وقال بصوت خفيض :

- المهيم بالنسبة لهم أن تنكت ..

فصاح به المجوز بشراسة :

- ألم تعرف ذلك حتى الآن ؟

ففتح بوكين ذراعيه ، واستأنف بصوت أشد خفوتاً :

- ثم .. لماذا لا يُسمح للناس بحضور المحاكمة ؟ بل يسمح بحضورها فقط

لذوي المتهمين !؟ لو كانوا يحكون بالعدل لتصرفوا علناً أمام الناس جميعاً .. اذ لن يكون ما يخفيهم ..

فردد سامو الوف ، ولكن بلهجة أقوى :

- هذا هو الصحيح . إن المحاكمة لا قروضي الضمير !.

وكان بود الأم أن تقول له ما كانت قد سمعته من نيقولا عن لا شرعية المحاكمة ، ولكنها كانت قد أساءت فهم ما قال ، ونسيت بعضه ، فابتعدت عن الجميع لتحاول أن تتذكر ما نسيت ، وخلال ذلك لاحظت ان هناك فتى وضاء الشارب يزور إليها ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ، مما جعله يبدو كأن كتفه الأيسر أدنى من الأيمن ؛ وقد بدا لها انها تعرفه ولكنه لم يلبث ان ادار لها ظهره ، ولم تلبث هي أيضاً أن نسيت في غمرة ذكرياتها .

وبعد قليل تناهى الى سمعها سؤال طرح بصوت خافت :

- أأنتك هي ؟

ورد أحدهم بصوت مرتقع ويحذل :

- نعم .

فتطلعت .. فاذا الرجل المزور المنكب ، يستدير نحوها استدارة جانبية ، ويتحدث الى جاره وهو في ابود اللحية ، يرتدي معطف قصيراً ، ويتنعل حذاءً ضخماً .

وتحركت فيها من جديد ، وبقلق ، ذكرى لم تستطع ان تتميزها ؛ وتلكتها رغبة طاغية في ان تحدث الناس عن مثل ابنها الأعلى وان تستمع الى الاعتراضات التي يمكن ان يوجهوها اليه ، وان تستخلص من أقوالهم قرار المحاكمة .

وراحت تتحدث .. بصوت خفيض وهي توجه كلامها بحذر الى سيزوف :

- أهكذا تكون المحاكمة ؟ انهم يريدون أن يعرفوا ماذا فعل كل واحد ،

أما لماذا فعل ؟ فإن ذلك لا يعنيهم ابداً . ثم انهم جميعاً طاعنون في السن ، وللحكم على شيان يجب أن يكون هناك شيان ..

وقال سيزوف :

- أجل .. انه لمن العسير علينا جداً ان نفهم هذه القضية .. من العسير ..

ثم هز رأسه ساهماً .

وكان الحارس قد فتح باب القاعة وصاح :

- ذوو المتهمين فقط .. ابرزوا بطاقتكم !

وارتفع صوت كئيب يقول ببطء :

- بطاقات ! .. كما لو كنا في سيرك !

.. واجتاحت الناس سخط أصم ، واستشعروا في نفوسهم جرأة منبهة ، ولكنهم بدوا أقل ضيقاً ، فراحوا يضجون ويتجادلون مع الحجاب .

- ٢٥ -

وجلس سيزوف على المقعد مغضباً ، فسأله الأم :

- ما بالك ؟

- لا شيء . ان الناس يهائم ..

ورن جرس ، ثم أعلن صوت بلا مبالاة :

- تهيات المحكمة

ونفض الجميع ، كلمة الاولى ، ودخل القضاة بنفس الترتيب وجلسوا في مقاعدهم ، ثم أدخل المتهمون .

ووشوش سيزوف :

- الانتباه . سيداً النائب العام مرافقته .

ومدت الأم عنقها ، ومالت الى الأمام بكل جسدها ، ثم جدت ، فاذا بها

تسمع من جديد ما يثير الرعب .

وأطلق النائب العام زفرة ، وهو يقف ويدير رأسه نحو القضاة ، ويتكلم

بمرفقه على طاولته . ثم راح يتكلم ملوحاً بيده اليمنى في الفضاء بحركات متقطعة .

ولم تسمع الأم عباراته الاولى فقد كان صوته خفيضاً ممتلئاً ، غير متناسق للنبهة ،

فهو ثارة بطيء وثارة أخرى سريع ، وكانت الكلمات تتمطى في سلسلة طويلة

رقيقة ، تتطاير فجأة وتضغط ، وتهوم كسرب من الذباب الأسود فوق قطعة

من السكر ، ولكن بيلاجي كانت لا تجد فيها ما يوجب أو يتوعد ، بل كانت

هذه الكلمات تتناثر باردة كالثلج ، كمداء كالرماد ، وتنفطر فتملأ جو القاعة

بضجر قاحل ، كالرمل الدقيق الجاف .

وكانت هذه المرافعة التي شجعت فيها العواطف وخسبت الكلمات ، لا تصل ،

بلا شك ، إلى آذان جان ورفاقه الذين كانوا لا يتأذون بها مطلقاً ، والذين كانوا

لا ينفكون يتهايمون كالسابق ، آمنين ، ويتسمون ثارة ابتسامة عريضة ،

وثارة أخرى يخبثون بسماهم تحت ملاحهم الباسرة .

وغغم سيزوف :-

- انه يكذب .

ولم يكن باستطاعتها هي أن تقول أكثر من ذلك ، وكانت تصغي إلى

النائب العام فتفهم من كلامه انه يتهم الجميع دونما تمييز ، وعندما أتى على ذكر

بول ، راح يتكلم عن ثبو ، ويضعه في نفس الوضع القانوني ، ثم يضم إليها بوكين

بأصرار وكان يبدو انه يحشر المتهمين جميعاً في جراب واحد ، ويسد عليهم بابيه ،

ثم يصرهم مصرأ ، غير ان المعنى الظاهري لكلامه لم يكن ليرضي الأم ، لا

يحركها ولا يخيفها ، ومع ذلك فقد كانت تنتظر ذلك الشيء الرهيب ، فتبحث

عنه تحت كلمات النائب العام ، وفي ملامح وجهه ، وعينييه ، وفي يده البيضاء

التي كانت تلوح ببطء في الفضاء . أجل .. لقد كان ذلك الشيء ماثلاً هناك ،

وكان رهيباً ، تحسه الأم ، ولكنها لا تتحسسه ، فهو عصي على التعريف ، يسجن

قلبها من جديد في شبكة جافة خشنة .

وكانت تتطلع الى القضاة ، فتدري بوضوح ان هذه المطالعة قد أضجرتهم ،

وكانت وجوههم الصفراء الكالحة التي لا حياة فيها ، لا توحي لها بشيء ، وكانت

كلمات النائب العام تنتشر في الفضاء ضباباً لا تراه العين ، يتكاثف حول القضاة ،

ويلفهم بسجاية سميكة من اللامبالاة ، والعياء المستسلم .

وكان رئيس المحكمة جامداً كالمومية لا يبدي حراكاً ، وكانت البقع

الرمادية الصغيرة تخنفي بين الفينة والفينة ، وراء زجاج نظارتيه ، وتنصر في

رقعة وجهه ، وازاء هذا الجمود الجيفي ، وهذه اللامبالاة الباردة ، كانت الأم

تتساءل بقلق :

- هل يحاكمون حقاً ؟

وكان هذا الشك يصر قلبها ويترد منه قليلاً قليلاً ، خوفها من ذلك الشيء

الرهيب الذي كانت تتوقعه ولكن شعوراً حاداً بالمذلة كان يأخذ بخناقها .

وتوقفت مرافعة النائب العام بغتة ، ولكنه أضاف بضغ دمدمات سريعة ،

ثم انحى للقضاة وجلس وهو يفرك يديه ، فأوماً له ماريشال النبلاء برأسه مقلباً عينييه ،

ومد العمدة اليه يده ، أما النقيب فراح يتأمل كرشه ويتبسم .

إلا ان مرافعة النائب العام لم ترق ، على ما يظهر ، للقضاة الذين لم تبدر منهم

بعدما أية حركة .

وقال المعجوز الضئيل وهو يدي ورقة من وجهه :

— الكلام الآن لو كبل الدفاع عن فيدو سيف ، وماركوف وزاغاروف .
فوقف المحامي الذي كانت الأم قد رآته عند نيقولا ، وكانت عيناه الصغيرتان
تبسمان وضائتين في وجهه العريض السمح ، وخيل للام ان تلك النقطتين
المستكيتين تحت حاجبيه الاصهين تنطلقان كالقص لتقطعا شيئاً ما في القضاء .
وأخذ يتكلم على مهل ، وبصوت جهوري واضح ، ولكن الأم كانت لا
تستطيع ان تسمعه ، فوشوش سيزوف في اذنها :

— هل فهمت ما يقول ؟ هل فهمت ؟ إنه يقول إنهم معتوهون مختلو الشعور
فهل صحيح ان تبودور كذلك ؟

ولم تجب ، وأرهقا شعور ألم بخيبة الأمل ، وكان شعورها بالمهانة يتزايد
فيسحق روحها . لقد أدركت الآن لم كانت تنتظر المحاكمة ؟ لقد كانت تعتقد
بأنها ستشهد نقاشاً قانونياً قاسياً بين ابنها وحقيقته ، والقضاء وحقيقتهم ، وكانت
تتصور ان هؤلاء سيستجوبون بول طويلاً وبدقة ، وانهم سيسألونه بتفصيل عن
حياة قلبه كلها . وانهم سيتفحصون بعينون نفاذة أفكاره كلها ، وتصرفاته ،
ومشاغله ، وانهم عندما يلمسون صواب نظرتة سيجهرون بعدالة :

— هذا الرجل على حق .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ؟ فلقد كان المتهمون ، كما يخيل اليها ، على بعد
مئة فرسخ من القضاء . وكان هؤلاء لا يثيرون في المتهمين اي اهتمام ، وكانت
الجدل القائم لا يروق للام ، لذلك كانت لا تصغي اليه ، بل تفكر وهي
تشعر بالمهانة :

— أهكذا يحاكمون الناس ؟

وغنم سيزوف وهو يرمي برأسه مؤكداً :

— إنها تليق بهم !

وانتقل الكلام الى حمام آخر ، ضئيل الجسم ، منغم الملامح ، باهت اللون ،
ساخر اللهجة ، ولكن القضاء قطعوا عليه كلامه . ووثب النائب العام ولفظ
بصوت سريع مهتاج كلمة «محضر الضبط» ثم راح المعجوز الضئيل يتكلم داعياً

اياه الى الهدوء ، في حين كان المحامي يصغي اليها ، وقد طأطأ رأسه احتراماً ، ثم
لم يلبث ان استأنف الكلام .

وقال سيزوف :

— اسلخهم جيداً .. اسلخهم جيداً .

وساد الهرج القاعة من جديد ، وانتظم الهياج العنيف الجمهور ، وكان المحامي
يسوط جلد القضاة الهرم بكلماته اللاذعة ، فيبدون كأنهم يتجمعون على انفسهم
بشدة وينتفخون ، وينتفشون ليردوا عنهم طعناته الشديدة الواخزة .

ويقف بول فيسود القاعة فجأة صمت غير منتظر ، وتميل الأم بكيانها كله إلى
الأمام ، ويبدأ بول كلامه بهدوء :

— إني كحزبي ، لا اعترف بمحكمة إلا محكمة حزبي . لذلك لن اقول شيئاً
دفاعاً عن نفسي ، ولكنني ، تحقيقاً لرغبة بعض رفاقي الذين رفضوا توكيل محام ،
سأحاول أن أشرح لكم ما استصغى عليكم فهمه . لقد وصف النائب العام تظاهرتنا
في ظل علم الاشتراكية الديمقراطية بأنها ثورة على السلطة العليا ، وتحدث عنا
كمصعقة ثأرين ضد القيصر . ومن واجبي أن أعلن ان الاوتوقراطية ليست بالنسبة
لنا القيد الوحيد الذي يشد البلاد الى اغلالها ، بل إنها القيد الاول الذي نحسه
أكثر من سواه ، والذي يجب علينا ان نحرر الشعب منه .

وكان السكون قد زاد عمقاً عند انطلاق هذا الصوت الحازم الذي بدا كأنه
يباعد ما بين جدران القاعة ، كان بول قد نأى كثيراً عن سامعيه .. ولكن هذا
الصوت ، كان في الوقت نفسه جليلاً واضحاً .

وتعلم القضاة بتثاقل وقلق ، وهمس ماريشال النبلاء بضع كلمات في اذن
القاضي ذي الوجه اللامبالي ، فحرك هذا رأسه ، واستدار الى المعجوز الضئيل
الذي كان يوشوه من الناحية الاخراى القاضي ذو الملامح المتألمة ؛ ووجه المعجوز
وهو يترنج في مقعده ذات اليمين وذات اليسار ، بضع كلمات الى بول ، ولكن
صوته ضاخ في غمرة التيار العريض المتدفق الذي ينساب من فم بول :

— إننا اشتراكيون . وهذا يعني اننا اعداء الملكية الخاصة التي تفكك الناس

وتؤلب بعضهم على بعض ، وتخلق بينهم عداة في المصالح لا نهاية له . اعداء الملكية الخاصة التي تكذب حين تدعي انها تقطي او تصفي هذه الخصومة ، والتي تقسد الناس جميعاً بالكذب والرياء والحق . ونحن نقول ان المجتمع الذي يعتبر الانسان اداة لإثرائه هو مجتمع لا إنساني ، مجتمع يفيض بالنسبة لنا ، لا نستطيع ان نتقبل اخلاقيته المرائية الكاذبة . إن سفاوته الماخنة وقسوته بالنسبة للشخصية الانسانية تثيران كرهنا ، ونحن نريد أن تناضل ، وسنناضل ضد كل شكل من اشكال عبودية الانسان الجسدية والمعنوية ، في مجتمع كهذا ؛ سنناضل ضد كل الأساليب التي يُسخق بها الانسان في سبيل الجشع . ونحن ، أعني العمال ، نحن الذي يصنع جهدنا كل شيء ، من الآلات الضخمة الجبارة الى دُمى الأطفال . نحن الذي حرمانا حق النضال في سبيل كرامتنا كبشر ، والذين يدّعي كل واحد ، حقاً له ممتازاً بأن يجعل منا أدوات للوصول الى غايته . نحن العمال ، نريد الآن أن يكون لنا من الحرية ، ما يمكننا مع الزمن ، ان نظفر بالسلطة كلها . إن شعاراتنا بسيطة : لتسقط الملكية الخاصة . أدوات الانتاج كلها ملك للشعب . السلطة كلها للشعب . العمل إلزامي للجميع ! . وهكذا ترون أننا لسنا أعضاء متمردين !

وقال الرئيس بصوت واضح قوي :

— ارجوك تكلم في الموضوع !

وكان قد استدار نحو بول وراح يحدق به ، وخيل للأُم ان عينه الشزراء الكدراء كانت تلتصق ببريق شرير نهم ، وكان القضاة يرون جميعاً الى الفئبيعيون تبدو كأنها تلتصق على وجهه ، وتخترق جسده لتمتص منه الدم ، فتحنين به أجسادهم المهترئة الفانية . أما هو فكان يقف منتصباً بكل قامته ، حازماً ، صلباً ، ويمد نحوهم ذراعه ويقول بصوت واضح هادئ :

— نحن نأثرون ، وسنظل كذلك ما دام البعض يأثرون والآخرون يعملون . نحن نكافح ضد مجتمع أمرتم بأن تحموا مصالحه ، مجتمع نحن خصومه الألداء

وخصومكم ؛ ولن يحل بيننا الوثام إلا حين نلتصر ، وسنتصر نحن ، نحن العمال . إن مولكم هم دون ما يتصورونه من قوتهم بكثير ؛ وثوراتهم التي يكسدونها ويحتمونها بتضحية الملايين من البشر التي يستعيدونها ، وهذه القوة التي تعطيهم السلطان علينا ، كل ذلك يثير فينا بينهم التنازع العدائي ، ويهدمهم مادياً ومعنوياً . ان الملكية تتطلب جهداً عظيماً جداً لتحمي نفسها ، وأنتم في الحقيقة ، أنتم جميعاً أيها الأسياد ، يا أسيادنا ، عبيد أكثر منا . ان عقولكم هي المستعبدة ، أما نحن فلسنا عبيداً إلا بأجسادنا . انكم لا تستطيعون أن تتحرروا من غير الاغراض والتقاليد التي تقتلكم معنوياً ، أما نحن فلا شيء يمنعنا من أن نكون أحراراً في ذواتنا ؛ والسوم التي تنفثونها فينا هي أقل خطراً من الدواء الشافي الذي تهرقونه في وجداننا دونما إرادة منكم ؛ وهذا الوجدان يكبر وينمو بلا انقطاع ، ويزداد دوماً تأججاً ، ويجر وراءه كل ما هو أفضل ، وأسلم معنوياً ، حتى ولو كان هذا الأفضل ، وذاك الأسلم من تراث طبقتكم .

انظروا .. انكم لا تجدون شخصاً واحداً يستطيع أن يناضل ايديولوجياً بامم سلطتكم ، فلقد استنفذتم حججكم كلها ، هذه الحجج القمينة بأن تحميمكم من هجوم العدالة التاريخية . كما انكم لا تستطيعون أن تأثروا بحديد في نطاق الفكر ، اي انكم قد ابتليتكم بالعمق فكرياً . أما أفكارنا ، أفكارنا نحن ، فإنها تنمو وتتأجج وتزداد إشراقاً ، وتكتسح جماهير الشعب ، وتنظمهم في نضالهم من اجل الحرية . ان الشعور بالدور العظيم الذي يجب أن تلعبه الطبقة الكادحة ، هذا الشعور يوحد عمال العالم كلهم ؛ ويجعل منهم روحاً واحدة . ومن المستحيل عليكم ان توقفوا عملية تجدد الحياة إلا بالقسوة والخذاع ، ولكن الخداع واضح ، والقسوة تثير النقمة . والأيدي التي تخنقنا اليوم ستشد أيدينا عما قريب في عنق أخوي . ان طاقتكم هي الطاقة الآلية لتضخم الذهب ، وهي تلم شتاكم في جماعات 'قدر لها أن يفترس بعضها بعضاً ، أما طاقتنا نحن ، فهي قوة الضمير الحية المتنامية أبداً ، النابتة من تضامن الكادحين جميعاً .

ان تصرفاتكم كلها اجرامية لأنكم لا تهدفون من ورائها الا الى استرقاق

الناس ، أما علمنا نحن ، فانه يحرق العالم من الاشباح والفيضان التي يخلقها دجلكم وحقدكم ، ونهكم ، ليرهب بها الشعب . لقد انتزعتم الانسان من الحياة وسحقتموه ، ومهمة الاشتراكية أن تجمع العالم الذي مزقتموه في كل واحد جبار . وستحقق ذلك .

وتوقف بول قليلاً ثم ردد يهدوء وبمزيد من القوة .

— سيتحقق ذلك .

ونهاضت القضاة فيما بينهم ، وندت عنهم حركات غريبة ، دون أن يقتلعوا عيونهم الشرمة عن بول ، وأحست الأم كأنهم انما يدنسونه بنظراتهم هذه جسدها ابناً اللطيف الصلب ، هذا الجسد الذي يحسدونه على ما ينعم به من عاقبة ، وقوة ، ونضارة .

وكان المتهمون يصغون بانتباه لكلمات رفيقهم وهم شاحبو الوجوه ، تتألق الفرحة في عيونهم ، وكانت الأم تلتهم هذه الكلمات التهاماً فتتخفى في ذاكرتها مقاطع طويلة منها .

وقاطع العجوز القميء بول مرات عدة ، شارحاً له ما لا تدري ، وقد ارتسمت على شفتيه في احدى المرات ابتسامة حزينة . وكان بول يصغي اليه بسكون ثم يستأنف بصوت صارم ولكنه هادئ ، يرغم القضاة على الاصغاء اليه ، ويخضع لإرادتهم لإرادته .

وأخيراً أخذ العجوز يصرخ مشيراً بيده الى بول ، ولكن هذا اكتفى بالرد عليه بأن قال بصوت تمازجه سخرية خفيفة :

— سأنهي كلمتي . إني لا أقصد أن اوجه اليكم أية إهانة شخصية بل بالعكس ، أما وقد أرغمت على حضور هذه المهزلة التي تسمونها « محاكمة » فإني اكاد استشعر بعض الشفقة عليكم . انكم رغم ذلك كله بشر ، وإنه لشديد علينا دائماً ان نرى اناساً ، وإن كانوا أعداء لأهدافنا ، يتحدرون ، بشكل دنيء هكذا ، ليكونوا في خدمة الإرهاب ، ويفقدون الى مثل هذه الدرجة الإحساس بكرامتهم الإنسانية .

وجلس دون أن ينظر إلى القضاة ، وكانت الأم وهي تمسك انفاسها ، تركز بصرها عليهم وتترقب .

وشد اندريه بقوة على يد بول وهو مشرق الأسارير ، أما سامو الوف ومازين والآخرين جميعهم ، فقد اشرأبوا نحوه . وكان هو يبتسم ، وقد اربكته بعض الشيء حاسة رفاقه ، ثم ألقى نظرة على المقعد حيث كانت تجلس أمه ، فأولمها برأسه إيماءة كأنه يسألها :

— هل يعجبك هذا ؟

وردت عليه ، وقد غمرتها موجة من الحنان الملتهب ، بزفرة عميقة من الفرج . وغغم سيزوف :

— لقد بدأت المحاكمة هذه المرة . فلقد حشرهم شر حشرة . أليس كذلك ؟ وهزت رأسها دون ان تجيب ، سعيدة لأن ابنها تكلم بكثير من الجرأة ، ولعلها كانت أكثر سعادة أيضاً لأنه أنهى كلامه .

وكان هناك سؤال يطرق دماغها :

— والآن ... ماذا سيحل بكم ؟

— ٢٦ —

ولم يكن ما قاله ابنها جديداً عليها ؛ فلقد كانت تعرف افكاره ، ولخصها كانت لأول مرة تحس ، هنا أمام المحكمة ، قوة إيمانه العجيبة الجارفة . وكان هدوء بول يصعقها ، وخطابه يتكثف في صدرها ، في حزمة مشعة من يقين مضيء ، كان يؤكد لها سداد خطاه وانتصاره . وخطر لها ان القضاة لن يلبشوا أن يناقشوه بضراوة ، ويحاووه بحقيقتهم غاضبين ، ولكن هو ذا اندريه ينهض ، ويترنح ، ثم يلقي نظرة خاطفة الى تحت ، ويقول :

— أيها السادة وكلاء الدفاع .

ولكن القاضي اذالوجه المربض صاح به بصوت قوي غضوب :

— المحكمة هي التي أمامك لا وكلاء الدفاع .

وكانت الأم تقرأ في ملامح اندريه أنه يريد أن يمزح . لقد كان شاربسه يرتعش ، وفي عينيه يلتصع دغاب خبيث خداع تعرفه جيداً ، وفرك رأسه بيده الطويلة ، ثم تنهد ، وقال وهو يهز رأسه :

— ليس ذلك ممكناً ؟ لقد كنت أعتقد أنكم لستم قضاة بل وكلاء دفاع فقط !

ورد عليه المجوز القميء ، يحفاف :

— ارجوك تكلم في صلب الموضوع .

— في صلب الموضوع ؟ حسناً . أنا أريد أن أفترض إذن أنكم قضاة حقاً ،

ورجال مستقلو الرأي شرفاء ..

— ليست المحكمة بحاجة إلى تقديرك ..

— ليست بحاجة إلى تقديري ؟ ثم ... ومع ذلك سأتابع كلامي ...

لنفترض انكم رجال لا أصدقاء لهم ولا خصوم ، رجال احرار ... وانه قد مثل

أمامكم فريقان : أحدهما يتظلم : « لقد سلبني وحطمت سحتي » ، والآخر

يجيب : « ان لي مطلق الحق في أن أسلب واحطم الرؤوس ... لأنني أملك

بندقية .. »

واقاطعه المجوز وهو يرفع من صوته :

— هل لديك ما تقوله في الموضوع ؟

وكانت يده ترتعش ، فيبهج الأم ان تراه يغضب ، ولكن الطريقة التي

تصرف بها اندريه لم ترق لها ؛ فهي لا ترتفع إلى مستوى دفاع بول ، وكانت

بيلاجي تود ان تستمع إلى نقاش حاد مركز .

ورنا البيوروسي الى المجوز بصمت ثم قال بوقار وهو يفرك رأسه :

— في الموضوع ؟ ولم أتكلم فيه ؟ ان ما يتوجب عليكم معرفته قد قاله

رفيقي ، أما الباقي فسيقوله لكم آخرون عندما يحين الوقت ..

فوثب المجوز الضئيل من مقعده وصاح :

— اني امنعك من الكلام . الكلام لفريفيوار ساموالوف .

وتهالك اندريه على مقعده مطبق الشفتين غير مبال ، ووقف الى جانبه

ساموالوف والهواء يعبث بشعره الأجعد :

— لقد وصفنا النائب العام بأننا برايرة ، واعداء للثقافة ...

— عليك ألا تتكلم إلا فيما يتعلق بالقضية .

— هذا ما افعله ؛ فليس هناك من شيء لا يتعلق بالشرفاء . ثم إنني ارجوك

ألا تقاطعني ، وأسألك ... أن تقول لي اذن ما هي ثقافتكم ؟

وقال المجوز وهو يفقر فمه :

— لسنا هنا أمام زميل لنا ... فادخل في صلب الموضوع .

وكان ظاهراً بوضوح ان موقف اندريه قد بدّل من مزاج القضاة ، وبدا كأنه

قد عفى على شيء ما في نفوسهم ؛ فظهرت في وجوههم الغبراء بقع ، ولعلت في

عيونهم شرارات باردة صفراء . وكان دفاع بول قد أثار حفيظتهم ، ولكن قوته

غطت على غضبهم وفرضت احترامه عليهم ، ثم جاء البيوروسي يفرّج عنهم هذا

الضيق ، ويظهر دونما جهد ما كان يخفيه .

وتهامسوا فيما بينهم وكانت ملاحظهم تتقبض وتتغصن بشكل غريب ، وغدت

حركاتهم كقضاة يشوبها الافراط والمبالغة .

— انكم تدربون الجواسيس ، وتجرون النساء والشباب الى الفجور ، وتحيلون

الانسان الى سارق وسفاح ، وتسمعون بالكحول . المذابح الشاملة ، والدجل

العالمي ، والفجور ، وجر الشعب كله الى الخبل ، هذه هي ثقافتكم ... ونحن ،

أجل ، نحن ، أعداء لهذه الثقافة .

وصاح المجوز الضئيل . ولحيته ترتعش :

— ارجوك ..

ولكن ساموالوف كان يصيح في الوقت نفسه ، محتقن الوجه مشتعل العينين :

— ولكننا نحب الثقافة الاخرى ونحترمها ، الثقافة التي تعملون على ان يتغفن

في السجن خائقوها الذين تحيلونهم إلى مجانين ..

— اني اسحب منك الكلام ... لتيودور مازين .

ووثب مازين الصغير كجرذ خرج من حجره وقال بمجدة :

- اني .. اقسم واعلم .. بأن الحكم علي جاهز .

واختنق صوته واصفر لونه ولم يعد يرى في وجهه إلا عيناه ، ثم صاح وهو يبسط ذراعه :

- اني أعطيك عهد شرف . ارسلوني انتي شتم ، فساهرب ، وسأعود ، وسأعمل ابداً من أجل القضية طوال حياتي ، أعطيك عهد شرف ..

وسمل سيزوف بقوة ، وتغلغل ، وكان الجمهور كله ، وقد جرفته موجة من الهياج تتنامى ابداً ، كان هذا الجمهور يزجر ، فتندب عنه ضوضاء غريبة . وبكت امرأة ، وسمل أحد الناس ، ثم نشج . وكان رجال الدرك ينظرون الى المتهمين بدهشة بلهاء ، والى الجمهور بغضب . وكان القضاة يتأيلون تارة إلى اليمين وتارة اخرى الى الشمال ، وأخيراً صرخ المعجوز بصوت نحيل :

- غوسيف جان ...

- لا اريد أن أتكلم .

- بإسبل غوسيف .

- لن أتكلم .

- بوكين قيودور .

فنهض الفئ ذو الشعر الابنوسي متاثلاً وقال بتؤدة :

- يجب أن تخرجوا ، فأنا رجل غير مثقف ... ومع ذلك افهم ما هي العدالة .

وكان يرفع ذراعه فوق رأسه . ولم يكمل بل أطبق عينيه نصف إطباق كأنه يعير انتباهه الى شيء يراه في البعيد .

وصرخ المعجوز الضئيل وهو يتقلب على ظهر أريكته ، وقال بدهشة يخاطبها الغضب :

- ما هذا ؟

- حسناً إني ...

وترامى بوكين على المقعد متجهماً الوجه ، فلقد كان في كلماته الفاتكة شيء كبير عظيم ، وكان فيها في الوقت نفسه تقريع شجي ساذج . ولمس الحضور هذا كله ،

وحق القضاة اصغوا اليه ، كأنهم يترقبون ان يرن في آذانهم صدى يحمل من الوضوح أكثر مما تحمل كلماته . وعلى مقاعد النظارة جمد القوم جميعهم ، فلا تعلق من صفوفهم تأمة ، سوى نشيج خفيف . وشغل النائب العام كتفيه ، وهو يبتسم بازدياد ، وسمل ماريشال النبلاء بقوة ، وارتفعت المهمة من جديد ، ودبت الحركة في القاعة شيئاً فشيئاً .

ومالت الأم على سيزوف تسأله :

- هل سيتكلم القضاة ؟

- كلا فلقد انتهى الأمر ولم يعد هناك إلا اعطاء القرار !

- ابداً لن يتكلموا ؟

- ابداً .

ولم تصدقه .. وكانت والدته سامووف تتململ على المقعد قلقلة ، وتلكز بيلاجي بمنكبها ومرفقها وتسأل زوجها بصوت خفيض :

- والآن ماذا ؟ أمن الممكن ان ...

- أنت ترين ان ذلك ممكن ...

- ولكن ... ولدنا غريغوار .

- دعيني وشأني .

وكنت تحس ان كلاماً من الحضور كان يعاني شيئاً من الضياع والتحول والانسحاق ؛ وتقرأ الاضطراب في عيونهم الراحشة التي تبدو كأن نوراً شديداً قد بهرهما . وكانوا وقد خفي عليهم الاحساس بذلك الشيء العظيم الذي انبثق فيهم فجأة ، كانوا ، يتمجلون فيمقدقونه انطباعات حسية ، سهلة الادراك . وكان شقيق بوكين يقول بصوت خفيض ودونما عناء :

- أستمعون فتقولون لي لم لا يأذنون لهم بالكلام في حين يستطيع النائب العام ان يقول ما يشاء ، وأن يتكلم طويلاً وبالقدر الذي يريد ؟
وكان بالقرب من المقعد حاجب ، فنهزه وهو يلوح بيده :
- على مهلك ... على مهلك .

واستلقى والد سامو الواف الى الورا ، وغغم وراء ظهر زوجته :
 - لنفترض انهم مجرمون حقاً ، فليسمحوا لهم ان يشرحوا وجهة نظرم ،
 ليسمحوا لهم ان يقولوا ضد ماذا فاروا ؟ اريد ان افهم .. فانا ايضا يعني ذلك ..
 وصاح به الحاجب وهو يهدده باصبعه :
 - الصمت . الصمت .

وهز سيزوف رأسه وهو متجهج الأسارير .

ولم ترفع الأم بصرها عن القضاة ؛ وكانت ترى غضبهم يتنلسل ، ولا تتميز
 كلمة من تهاشمهم المتأمر . وكان رجح أصواتهم الخادع البارد يلامس وجعها ،
 فترتمش له وجنتها ، وتحس في فيها طعم التقرز . لقد كان يخيل اليها انهم جميعاً
 يتحدثون عن جسم ابنها وأجسام رفاقه ، عن اطراف هذه الفتوة وعضلاتها التي
 تقور بالدم الحار والقوة الحية النابضة ؛ وان هذه الأجساد تضرم فيهم الحسد
 الكريه ، حسد المتسولين ، وتثير فيهم الشره الشديد ، شره المنهك والمريض ؛
 فتتملظ شفاههم ، ويتحسرون على هذه العضلات القادرة على ان تعمل ، وتثري ،
 وتمتع ؛ وتخلق . أما أجسادهم هم ... أجساد هؤلاء المجائز ، فإنها تجفو دورة
 الحياة الفاعلة وتنكرها ، وتفقد إمكانية التمتع بقوتها ، وإمكانية السيطرة على
 الحياة والتهامها ، ومن أجل ذلك ، كانت تلك الفتوة تثير في القضاة المعجائز ميلاً
 حقوداً الى الثأر ، كذاك الميل الذي تثيره في الوحش الجائع رؤية اللحم الطري ،
 دون ان تكون له القدرة على امتلاكه ، فيستشعر انه فاقده لتلك الحيوية التي غلأ
 الآخرين ، فيزجر بألم ، ويعوي بياأس ، وهو يرى أود حياته يفلت هكذا من
 يديده .

وكانت الأم كلما اعارت القضاة انتباهاً أكثر ، كلما اتخذت هذه الفكرة
 المغزبية الفجة شكلاً واضحاً في رأسها ، ويخيل اليها انهم لا يعملون على اخفاء
 ذلك الشره القلق ، ولا ذلك السعار الخوار ، سعار الجياع الذين لا يتورعون
 عن التهام كل شيء يجدونه امامهم ؛ وكان يرهبا ، كأمراة ، وكأم تحب ، رغم
 كل شيء ، جسد ابنها أكثر من ذاك الذي يسمونه روحاً .. كان يرهبا ان ترى

تلك العيون المنطفئة تتساحب على وجهه ، وتتلصص صدره ومنكبويه ويديسه ،
 وتحتك بيشرة المتهبة ، كأنهم إنما ينشدون فيها إمكانية الدفاء ، وإذا كاه الدم
 في عروقهم المتصلبة ، وفي عضلاتهم المثيرة ، عضلات رجال نصف أموات
 تبعث فيها بعض الحيوية وخزات الشهوة ، شهورهم الى تلك الحياة الفتية التي تحتم
 عليهم ان يدينوها ، وأن يتلكوها . وكانت الأم تشعر ان ابنها يحس هذا
 التماس الكريه الحضل ، وأنه يتطلع اليها مرتجفاً .

وكان بول يركز عليها عينيه المهادنتين الودودتين ، المتعبتين ببعض الشيء ،
 ويومئ لها برأسه من حين الى آخر ، ثم يبتسم ، وكانت ابتسامته تقول لها :
 - سأكون طليقاً عما قريب .

فتدغدغ هذه الابتسامة قلبها .

وفجأة نهض القضاة جميعاً ، وتلبعت الأم تحر كهم بصورة غريزية ، وقال سيزوف :
 - إنهم منصرفون .

- لوضع الحكم ؟

- نعم .

وتبدد بفترة ذلك التوتر الذي كانت تحسه ، وهذه كيائها اعياء مرهق ، وراح
 حاجبها يرتعش ، وتلألأت على جبهتها حبات من العرق ، وتفجر في قلبها احساس
 ثقيل بالقرق والمهانة ، وسرعان ما تحول هذا الاحساس الى ازدرأ شديد اليوطة
 للقضاة وقرارهم ، وشعرت بألم تحت جبهتها ، فأمرت يدها عليها بقوة ، ثم ادارت
 بصرها فيها حولها : لقد كان ذوو المتهمين يقتربون من الحاجز ، وكان صخب
 الأحاديث يملأ القاعة ، وتقدمت هي ايضاً من بول ، وشدت على يده وانفجرت
 ثبكي وقد امتلأت هوناً وبهجة ، وضاعت في خليط من الأحاسيس المتناقضة ؛
 وحدثها بول حديثاً رقيقاً ، أما البيوروسي فقد كان يمزح ويضحك .

وكانت النساء جميعهن يبكين ، ولكن بكاءهن كان في الغالب بدافع العادة
 لا الأسى ، ولم يكن الألم هو الذي يذهلن بضربة على الرأس بلهاء ، بضربة
 وحشية مفاجئة ، بل الاحساس الحزين بفراق ابنائهن ؛ غير ان هذا الاحساس

نفسه كان يفرق ويدوب في انطباعات نهارها ذاك . وكان ذوو المتهمين يرفون الى ابنائهم وقد استولى عليهم شعورٌ قلقٌ يختلط فيه اختلاطاً عجيباً ارتياهم بالشباب ، واستعلاؤهم الذي تعودوه ، بضرب من الاحترام ؛ وكانوا يتساءلون بأسى : كيف ترام سيعيشون الآن ؟ وكان هذا الحاضر الملحاح يصطبم بالفضول الذي يشهه هؤلاء الشبان الذين كانوا يتحدثون بجرأة ودونما خوف ، عن امكانية الوصول الى حياة اخرى ، الى حياة أفضل . وكانوا ، وهم اعجز من ان يعبروا عن هذه المشاعر ، يستنفدون قوامهم في فيض من الكلام غير انهم كانوا يتحدثون عن اشياء بسيطة : عن الفسيل والثياب ، وضرورة الاحتفاظ بالصحة الجيدة . وكان الابن البكر لبوكين بحث اخاه الأصغر بحركات قوية :

— إننا نريد العدالة ... لا أكثر ...

ويحييه الأخ الأصغر :

— اعتن جيداً بالزرزور

— لا تقلق من هذه الناحية .

وكان سيزوف يمسك بيد اخيه ويقول ببطء :

— ها أنت ذا تذهب يا تبودور !

ومال ثيو عليه وأسر شيئاً في اذنه وهو يتسم ابتسامة خيثة ، وابتسم كذلك جندي الحراسة الذي يقف الى جانبها ، ولكنه لم يلبث ان استرد سحنه القاسية وسعل .

وكالآخرين كانت الأم تتحدث مع بول ، وفي المواضيع نفسها : عن غسله وصحته ، في حين كانت تردح في نفسها الأسئلة عن ساندريين وعنه ، وعنهما هي نفسها ؛ وفي ظل هذه الأحاديث كان ينمو شعورها بحبها العظيم لابنها ، ورغبتها الملحة في ارضائه ، في ان تكون اكثر قرباً الى قلبه . وكان ترقبها للشيء الرهيب ، قد تلاشى دون ان يترك وراءه شيئاً الا رعشة مزعجة ، كانت تهزها كلما مر في خاطرها ذلك التفكير المتجهم الدفين ، التفكير بالقضاء . وكانت تحس

بأن فرحاً غامراً وضاءً يولد في نفسها ، فرحاً لا تعرف له كنهها ، ولكنه ... يقلقها . ورأت ان البيوروسي كان يتحدث مع احد الناس ، فتوجهت اليه ، لأنها أدركت أنه أحوج من بول الى الكلمة المطوف ، وقالت له :

— هذه المحاكمة لم تعجبني !

فصاح وهو يتسم بامتنان :

— ولم أيتها الأم الصغيرة ؟ انه طاحون عتيق ... ولكنه يدور ...

وأجابت هي بتردد :

— إنها لا تبعت الرهبة ... ولم تفهم منها أين هي العدالة ؟

— أوه . أوه ... أهذا ما كنت تريدني ؟ أعتقد انهم هنا يبحثون عن

الحقيقة ؟

فتأوهت ثم ابتسمت :

— لقد كنت أحسب أن المحاكمة ستكون شيئاً رهيباً :

وتعالى صوت :

— تهيات الحكمة !

فأصرع الجميع الى مقاعدهم .

وأخفى للرئيس وجهه بورقة ، وهو يستند الى الطاولة ، ثم راح يقرأ بصوت هزيل مدندن .

وقال سيزوف وهو يصني :

— إنه القرار .

وخيم الصمت ، ووقف الجميع وقفة تسمرت أبصارهم على المعجوز الذي كان يتصبب ضيلاً جافاً كعصا تمسك بها يده غير منظورة ؛ ووقف القضاة أيضاً ، وكان نقيب المقاطعة يحذق في السقف ، وعنقه مائل على كتفه ، وكان العمدة يشبك ذراعيه ، وماريشال النبلاء يمسد لحيته ، أما القاضي ذو الوجه المريض ، وزميله البدن ، والنائب العام فقد كانوا يتحدثون بالمتهمين . ووراء القضاة ، وقوف رؤوسهم كان القيصر يرتو رافلاً يبرزه الحمراء الرسمية ، ووجهه الأبيض الأبله

الذي كانت تحبو فوقه احدى الحشرات .

وقال سيزوف وهو يصعد زفرة عزاء :

— النفي ، لقد قطي الأمر أخيراً فشكراً لله . كنا نتوقع ان يحكم عليهم بالاشغال الشاقة . ولكن ذلك لم يحصل .

وقالت بيلاجي بصوت منهاك :

— لقد كنت أعرف ذلك .

— ومع هذا فقد أصبح ذلك أكيداً ... ومن كان يستطيع ان يعرف !

واستدار نحو المحكومين الذين كانوا يخرجونهم من القاعة ، وقال بصوت مرتفع :

— الى اللقاء يا ثيو . الى اللقاء جميعاً . وليكن الله في عونكم .

وأومات الأم برأسها الى ابنها ورفاقه ، أومات لهم وهي صامتة ، وكان يودها ان تلتحب ، ولكنها كانت تحجل من دموعها .

— ٢٧ —

... وأدهشها وهي تغادر الحكمة ان ترى الليل قد لف المدينة ، والمصاييح مضادة والنجوم تتألق في السماء . وعلى مقربة من قصر العدل كان الناس يتجمعون في المراء البارد جماعات صغيرة ، والثلج يصر تحت أقدامهم ، وأصوات قنية تتعالى فيقاطع بعضها بعضاً . ودنا من سيزوف رجل يرتدى قبعة رمادية وسأله بصوت سريع :

— ماذا كان الحكم ؟

— النفي .

— لهم جميعاً ؟

— لهم جميعاً .

— شكراً .

وابتعد الرجل . ومال سيزوف على الأم ليحول لها :

— أرايت ؟ إن الأمر يثير الاهتمام ...

وأحاط بها فجأة فريق من الشبان والشابات ، وبدأت الهتافات تنهر :

وتجذب أشخاصاً آخرين .

وتوقفت الأم وسيزوف . وكان المتجمعون يدون معرفة الحكم ووقعه على المحكومين ، ومن منهم ألقى خطاباً وفي أي موضوع ، وكان يضج في هذه الأسئلة كلها نفس الفضول النهم ، الفضول الصادق الحار الذي يثير الرغبة في اشباعه . وقال أحدهم :

— أها السادة ، هذه هي والددة بول فلاسوف .

وصمت الجميع تقريباً .

— اتسمحن لي بأن أشد يدك ؟

وشدت يد قوية بين الأم ، واستأنف الرجل كلامه وقد ملأه التأثر :

— سيكون ابنك بالنسبة لنا جميعاً مثلاً أعلى في الشجاعة ...

ودوت صرخة عالية :

— يعيش العامل الروسي !

وكانت الأصوات تتضاعف وتتنامي ، وتنفجر هنا وهناك ، والناس يتوافدون من كل صوب ، ويزدحجون حول سيزوف والأم ، وكانت صفارات البوليس تشق الفضاء ولكنها لا تنجح في كبت الصراخ ، وكان سيزوف العجوز يضحك ، أما الأم ، فكان هذا كله يبدو لها كحلم جميل ، فتبتسم ، وتشد على الأيدي ، وتثر التحايا ، وتشرق لهاثها بدموع السعادة ، وترتجف ركبها من التعب ، ولكن قلبها الذي غمرته بهجة تلتفت كل شيء ، كان يعكس انطباعاتها كصفحة مشرقة لبحيرة صافية ، وعلى قرب شديد منها كان صوت متميز يتعالى بمصيبة :

— أها الرفاق . إن القول الذي يفترس الشعب الروسي قد أشبع اليوم ، من

جديد ، نهم الجشع الطاغوي ...

وقال سيزوف :

— هيا بنا نذهب أيتها الأم .

وفي اللحظة نفسها ظهرت ساندريين ، فتأبطت ذراع الأم وجرتها بسرعة الى

الرصيف الآخر :

— تعالى فقد يلجأ البوليس الى ضرب الناس ووقيهم .

ثم سألت :

— النفي ؟ الى سييريا ؟

— نعم . نعم .

— وكيف تكلم ؟ أنا أعرف ذلك من قبل . لقد كان أشد بساطة ، وأصليهم كذلك وأقسام . إنه حساس ، رقيق ، ولكنه يجعل من اظهار عواطفه .
وكانت حرارة الكلمات التي تنطق بها همساً ، كلمات حبيها ، تهدى من اضطراب الأم ، وتنش قوامها الحائرة .

وسألها بصوت خافت وحنو وهي تشد يدها :

— متى ستذهبن للالتحاق به ؟

وأجابت الفتاة وهي تركز بصرها أمامها بثقة :

— عندما أجد من يحمل عني عبء عجلي ؛ وعلى كل فاءاً أيضاً سأحكم وسأنتفى بلا شك مثله الى سييريا . وسأصرح انني أرغب في أن أتقى الى المكان الذي سيكون هو فيه ...

وتعالى من وراءها صوت سيزوف :

— بلغيه اذن تحياتي ... انني ادعى «سيزوف» وهو يعرفني . اني عموماً زين .

وتوقفت ساندرين واستدارت نحوه وهي تمد اليه يدها :

— أعرف قبو . واسمي ساندرين .

— واسم والدك ؟

— قرنت اليه وأجابت :

— ليس لي أب .

— هل هو متوفي ؟

وردت بجرارة ، وفي صوتها شيء من العناد والاصرار ، بدا في ملاعبها :

— كلا انه ما زال على قيد الحياة . انه من أصحاب الأملاك ، وهو الآن مدير

الناحية ... انه ينهب الفلاحين .

فقال سيزوف باعياء :

— هكذا ... اذن .

ثم اردف بعد صمت قليل ؛ وهو يتفحص الفتاة بطرف عينيه :

— حسناً ، وداعاً ايها الأم . سأسلك الشارع الذي على يسارنا . الى اللقاء

يا أنستي انك شديدة القسوة على والدك ، وما من شك في ان ذلك من شأنك انت ...

وصاحت ساندرين بانفعال :

— لو كان ابنك فتي سوء ، يلحق الأذى بالآخرين لدرجة تثير فيك الرعب ،

أما كنت تقول مثل قولي ؟

فأجاب بعد لحظة من التردد :

— ... أقول .

— إذا فستكون الحقيقة عندك اغلى من ابنك ، وهي بالنسبة لي اغلى من والدي .

وابتسم سيزوف وهز رأسه ثم قال متأوها :

— انك بارعة الجواب ، لا يطول الصراع معك . انك تعرفين كيف تقهرين

الشيخ فانت شديدة البأس . وداعاً ، وليحالفك الحظ ، ولتكن معاملتك للناس

أكثر حلاً وتسامحاً . وأنت يا نيلوفنا سلاماً . إذا اجتمعت بيول فبلغيه اني

استمعت اليه جيداً . صحيح اني لم افهم كل ما قال ، وأنه قد أثار رعي في بعض

المقاطع ، ولكن ما قاله كان حقاً . قولي له ذلك .

ورفع قبعته واختفى متباطئاً في منعطف الشارع .

ولا حظت ساندرين وهي تشيعه بنظرة باسمة ؛

— يبدو أنه رجل طيب .

وأحست الأم ان في وجه الفتاة تعبيراً أفضل من المعتاد وأكثر رقة .

وعندما بلغتا المنزل جلستا على الأريكة متلاصقتين ، واستأنفت بيلاجي

الحديث عن خطة ساندرين ، في حين كان كل شيء يستريح في الصمت . أما

ساندرين فكانت ترنو الى البعيد ، بعينها الواسعتين الحاليتين ، وقد تسامق حاجباها الكثيفان ، وكان وجهها الشاحب ينعكس كالمرآة ما يطيف بنفسها من تأمل هادئ ..
- وفيما بعد ، عندما يصبح لكما اطفال - سألتحق بكما ايضا لا عني بهم ، ولن يكون العيش هناك أسوأ من هنا ، إذ سيجد بول عملا لأن له يدين من ذهب ..
ولفت ساندريين الأم بنظرة متفحصة :

- الا ترغين في اللحاق به حالا ؟

فزفرت بيلاجي :

- وماذا يستفيد مني ؟ إنني سأسبب له الازعاج فقط إذا ما عزم على الحرب ، ثم إنه قد لا يرضى ...

وهزت ساندريين رأسها :

- إنه لن يرضى .

وأضافت بيلاجي بشيء من الزهو :

- ثم إن لدي هنا ما يجب ان اقوم به .

وردت ساندريين بسهوم :

- اجل ... وهذا حسن .

وارتعشت فجأة كأنها تتخفف من عبء ثقيل ، ثم قالت ببساطة وبصوت خفيض :

- لن يمكث هناك طويلا ، ولا ريب انه سيهرب .

- ولكن ماذا سيحل بك انت والطفل إذا كان لكما طفل ؟

- سترى . يجب الا يدخلني في حسابيه ، وعليّ انا الا ازعجه . صحيح انه

سيؤلمني كثيرا ان انفصل عنه ، ولكن من المؤكد انني سأقلب على هذا الأم .

إني لن ازعجه ، لن ازعجه ابدا .

وشعرت الأم ان ساندريين جديرة بأن تتصرف وفق ما قالت ، فأخذتها

الشفقة عليها وضممتها بين ذراعيها :

- يا عزيزتي ... سيكون ذلك شديدا عليك .

وابتسمت ساندريين برقة والتصقت بالأم بكل كيانها ...

وأقبل فيقولان منها ، وقال على عجل وهو ينضو ثيابه :

- اسرع يا ساندريين ، وارحلي ما دام لديك متسع من الوقت ، فهناك

جاسوسان ما فتئا يلاحقانني منذ الصباح واني ، بصراحة ، أشم في هذا رائحة

الاعتقال . إن حدسي يقول ذلك . يجب ان يكون هناك شر قد وقع في مكان

ما . وبالمناسبة خذي ، هذه مرافعة بول ؛ لقد تقرر طبعها فاحلبها الى لومبلا ،

وألحي عليها بانجاز ذلك بأسرع ما يمكن . لقد أجاد بول كثيرا يا نيلوفنا ، وأنت

يا ساندريين ، حذار من الجواسيس ...

وكان وهو يتكلم يفرك ، بقوة ، يديه اللتين جدهما الصقيع ، ثم اقترب من

الطاولة وأسرع في فتح ادراجها ، وأخرج أوراقا مزرق بعضها ، ونحى بعضها

الآخر ، وهو مضطرب مغموم :

لم يمض وقت طويل على تنظيف هذه الأدراج ، ومع ذلك ، انظري هذه

الرزمة الهائلة التي تكدست فيها . يا للشيطان . إنه من الأفضل بلا شك الاتنامي

هنا يا نيلوفنا ، أليس كذلك ؟ إن مشاهدة تلك « المهزلة » شيء يبعث الضجر ،

ولن يتورعوا عن اعتقالك أنت أيضا ؛ ثم إنه يتوجب عليك كذلك ان تحملي

خطاب بول لتوزيعه ...

- قل لي لماذا يعتقلونني ؟

فأجاب فيقول بثقة وهو يلوح بيده أمام وجهها :

إني أستروح ذلك ، وعلى كل ، باستطاعتك ان تساعدني لومبلا ... أليس

كذلك ؟ إذ هي إذن قبل ان تقعي في شدة الذنب .

وأجابت وقد أسعدتها فكرة الاسهام في طبع خطاب بول :

- إذا كان الأمر كذلك فإني سأذهب .

ثم أضافت ، ولكن بصوت خافت :

- الآن لم أعد أخشى شيئا ، فشكرا لك يا رب .

وصاح فيقول دون ان يلتفت إليها :

— رائع ... ولكن آه ... قولي لي أين هي ثيابي وحقيقتي ؟ لقد قبضت على كل شيء ، بيدك النهمتين ، فأصبحت لا أستطيع ، على الإطلاق التصرف بملكي تصرفاً حراً .

وكانت ساندريين تلقي ، وهي صامتة ، الأوراق الممزقة في المدفأة ، وعندما احترقت هذه الأوراق حرصت على أن تخطط رمادها برماد الفحم . وقال نيقولا وهو يبسط لها يده :

— هيا يا ساندريين ارحلي . الى اللقاء ، ولا تنسي ان ترسلي لي كتاباً إذا ظهر منها ما يثير الاهتمام . الى اللقاء أيتها الرفيقة العزيزة ؛ كوني حذرة . وسألته ساندريين :

— هل تعتقد ان بقاءك هناك سيطول ؟

— الشيطان وحده هو الذي يعلم ؛ ولكن مكثي سيطول بلا شك ، فهناك أشياء كثيرة تؤخذ علي . اذهباً معاً يا نيلوفنا لانه من الصعب تتبع شخصين ، الا توافقانني على ذلك ؟

— سأذهب ؛ وما أنذا ارتدي ثيابي .

وكانت تراقب نيقولا بانتباه ، ولكنها لم تلاحظ في ملامحه شيئاً إلا ذلك الاهتمام الذي كان يحجب ما في وجهه من طيبة ورقة معتادة ، ولم ترفه ، هو الذي كان أعز لديها من الآخرين ، لم تر أية اشارة من امارات العصبية الزائدة ، أو علامة من علامات الاضطراب . لقد كان يولي الجميع نفس الانتباه ، وكان ودوداً مبرئاً مع الجميع ، ورغم هدوئه ووحدة فقد ظل بالنسبة لاصدقائه ، كسابق عهدهم به ؛ رجلاً يعيش حياة داخلية خفية ، حياة يبدو معها كأنه يسبق الآخرين . ولكنها كانت تدرك أنه أقرب إليها ، وأشد انسجاماً ، لذلك أحبته حباً حذراً يبدو غير واثق من نفسه . أما الآن فهي تشعر انها تشفق عليه اشفاقاً يفوق الحد ، ولكنها تسيطر على هذا الإحساس ، لأنها تعلم انها إذا ما جهرت به وأعلنته ، فإن نيقولا سيفقد سعة صدره وسيماني القلق ، وينقلب الى رجل مضحك بعض الشيء كعادته ؛ وهي لا تحب ان تراه كذلك .

وعادت الى الغرفة ، وكان هو يشد يد ساندريين :

— رائع . أنا واثق من ان ذلك سيكون خيراً لك وله ؛ فقليل من السعادة الشخصية لا يضر شيئاً . هل أنت على استعداد يا نيلوفنا ؟

ودنا منها باسمًا ، وغدال من وضع نظارتيه :

— حسنًا الى اللقاء . بعد ثلاثة أو أربعة أو ستة أشهر . لنقل ستة أشهر . فإنها شيء كثير في الحياة . رجائي ان تعني بنفسك . أليس كذلك ؟ تعالي تتعانق .

ولف بذراعيه عنق بيلاجي ، وحدث في عينها ضاحكاً وقال :

— سيغال اني وقعت في غرامك ، فأنا اعانقك دائماً .

وقبّلت جبينه ووجنتيه دون ان تتكلم ، وكانت يداها ترتعشان فتركتهما تهويان كيلا يلاحظ ارتجافها .

— كوني حذرة ؛ واوفدي اليّ ، صباح الغد ، غلاماً لمقابلي هنا ... عند ليوميلاصي شاطر ... الى اللقاء أيتها الرفيقتان ، ولتسر الأمور على ما يرام . وعندما أصبحت ساندريين في الشارع قالت :

— إذا أضطر لأن يذهب الى لقاء الموت ، فسيلاقيه بنفس البساطة مسرعاً بعض الشيء ، مثله الآن . وعندما يأتيه الموت ، سيسوي نظارتيه ويقول له :

« رائع ، ثم يموت .

ونغممت الأم :

— اني احبه اشد الحب .

— إنه يدهشني ، اما اني احبه فلا . ولكني اقدره أشد التقدير . إنه جاف بعض الشيء رغم انه طيب ودود احياناً ، ولكنه ليس بشرياً كفاية ... يبدو ان الارصاد يتتبعوننا فلنفترق . لا تذهبي الى لوميللا إذا رأيت ان هناك من يراقبك . وقالت الأم :

— اعرف .

ولكن ساندريين أصرت :

- لا تذهبي اليها ، ومن الأفضل ان تأتي الى منزلي ، وابتظار ذلك ،
استودعك الله .

واستدارت بسرعة ، وعادت على اعقابها .

- ٢٨ -

وبعد بضع دقائق كانت بيلاجي تصطلي قرب المدفأة في حجرة ليوميل الصغيرة ، وكانت هذه ، وقد ارتدت ثوباً اسود يله مشد جلد ، تروح وتجيء ببطء في الغرفة التي تملأها بجفيف ثوبها ونبرات صوتها الامر . وكانت النار في الموقد تزفر وتصففر وهي تعب هواء الحجرة ، وصوت لوميل الرتيب يلعلع :

- إن الناس بهائم ، اكثر بكثير مما هم أشرار .. فهم لا يرون ما هو قريب من حقير ، ولا ما له قيمة في نظرهم ناهي بعيد . إنهم سيفيدون جميعاً بكل تأكيد ، وسيسعدون إذا ما تبدلت الحياة ، وغدت اكثر يسراً وغدوا هم اوسع عقلاً ، ولكن يجب علينا ، لبلوغ ذلك ان نتخلى عن الطمأنينة مؤقتاً ... وانتصبت فجأة امام الأم ، وقالت بصوت اشد خفوتاً كأنها تعتذر :

- إني لا أرى إلا القليل من الناس ، لذلك إذا مر أحدكم لمقابلتي انزعفت في الشررة ... أليس هذا مضحكاً ؟

وأجابت الأم :

- لماذا ؟

وكانت تحاول ان تكتشف المكان الذي تطبع فيه ليوميل المنشورات فلا ترى حولها شيئاً غريباً . ففي الغرفة التي تطل نوافذها الثلاث على الشارع ، توجد اريكة ، ومكتبة ، وطاولة ، وبعض الكراسي ، وسرير بالقرب من الجدار ، وفي إحدى الزوايا مغسلة ، وفي الأخرى مدفأة . أما الجدران فكانت تغطيها الصور . وكان كل شيء يبدو جديداً ، قوياً ، نظيفاً ، يخلع عليه الشبح الرهباني لربة المنزل ظلاً بارداً ، ويستشعر المرء كأن هناك شيئاً خبيثاً خفياً ، ولكنه لا يدري أين هو ... وتطلعت الأم الى الأبواب ، لقد ولجت الغرفة من احدها

الذي يطل على رواق صغير ، أما الآخر وهو مرتفع ضيق فقد كان بالقرب من المدفأة .

وشعرت ان ليوميل تراقبها ، فقالت بارتباك :

- لقد جئت مهمة ...

- اعرف ذلك ، فليس هناك من يأتي اليّ لامر آخر ..

ولمست الأم في صوتها نبرة غريبة ، ورنّت اليها فإذا البسمة على خفاف شفيتها الرقيقتين ، وإذا عيناهما الخابيتان تلتزمان وراء نظارتها . وحولت بيلاجي بصرها عنها ومدت اليها يدها بخطاب بول :

- تقضي . إنهم يرجونك ان تطيعيه بأسرع ما يمكن .

وراحت تحدّثها عن تدابير نيقولا الاحتياطية خشية اعتقاله .

ودست ليوميل الورقة في زناها بصمت ، وجلست على احد المقاعد ، فانعكس

لهب النار الأحمر على زجاج نظارتها ، واختالت في وجهها الخالي من كل تعبير

بسمة لاهبة ، وبعد ان استمعت الى حديث الأم قالت بصوت خفيض مصمم :

- سأطلق عليهم النار عندما يحيثون اليّ . فمن حقي ان اذفع عن نفسي

ضد العنف ، ويجب عليّ ان افعل إذا كنت ادعو الآخرين الى نضاله .

واختفت انعكاسات اللهب على وجهها ، وارتسم في ملامحها شيء من القسوة

وظل الكبرياء .

وحدثت الأم نفسها بود :

- « إن حياتك ليست مضحكة . »

وأخذت ليوميل تقرأ خطاب بول ، تقرأه في بادئ الأمر مكرمة ، ثم لم

تلبث ان زاد انكبابها على الورق ، وكانت تطرح بعنف الأوراق التي انتهت قراءتها ،

حتى إذا انتهت من قراءة الخطاب ، وثبت من مقعدها واقتربت من الأم قائلة :

- إنه رائع .

وأطرقت برأسها قليلاً ثم أردفت :

- لم أشأ ان احذثك عن ابنك ، فأنا لم أره أبداً ، ثم إني لا أحب الأحاديث

الحزينة ؟ وأعلم ماذا يعني ان يرى المرء احد ذويه يسير الى المنفى ؟ ولكنني أود ان أسألك : هل من الخير ان لك ولد مثله ؟

وأجابت الأم :

- أجل .

- ولكنه شيء رهيب .. أليس كذلك ؟

وابتسمت الأم برقة :

- كلا .. ليس في ذلك ما يرهب حتى الآن !

وسوت ليوميلا بيدها السمراء شعرها الأملس ثم استدارت نحو النافذة ؛ ورف فوق وجنتيها ظل خفيف ، لعله ظل لبسمة مكبوتة .

- سأبشر العمل بسرعة . أما أنت فستطعمين . لقد كان نهارك شاقاً ، وأنت تعب . نامي هنا على السرير ، فأنا لن انام ، وربما ايقظتك اثناء الليل لتساعديني ، وقبل ان تغفي ، اطفئي المصباح .

وألقت النار قطعتين من الحطب ، ثم نهضت ، وخرجت من الباب الضيق بالقرب من المدفأة ، وأغلقتها وراءها بعناية ، وتبعتها يلاجي بعينيها ، ثم اخذت تنضو عنها ثيابها وهي تفكر بمضيفتها :

- انها تقاسي حزناً ما ..

وكان التعب يعصف برأسها كالدوار ، ولكنها مع ذلك كانت تشعر ان نفسها هادئة أشد الهدوء ، وأن كل شيء يتألق في عينيها بضياء ناعم مدغدغ ، ضياء رقيق ساكن ؛ يملأ قلبها . لقد كانت تعرف من قبل هذه الطمانينة التي تجيء دائماً في أعقاب الانفعالات الكبرى ، والتي كانت من قبل ، ترعبها بعض الشيء ، أما الآن فهي توسع آفاق نفسها ، وتوثقها باحساس قوي كبير . وأطفأت المصباح وركدت في السرير البارد ، وتجمعت تحت الغطاء ، ثم لم تلبث ان غرقت في سبات عميق .

وعندما فتحت عينيها كان انعكاس النور يملأ الغرفة بضياء أبيض جليدي ، ضياء يوم من أيام الشتاء . وكانت لوميلا تستلقي على الأريكة ، وفي يدها كتاب

وكانت تزفوا الى النافذة وعلى شفيتها بسمة لم تتعودها منها .

وصاحت يلاجي مرتبكة :

- أوه يا إلهي ... هل مرّ علي وقت طويل وأنا نائمة ؟

وردت ليوميلا :

- طاب صباحك . لقد بلغت الساعة العاشرة ، فانهضي وهيا بنا لتناول الشاي .

- لماذا لم توقظيني قبل الآن ؟

- أردت ان أفعل ، ولكن بسمتك كانت حلوة جداً وانت نائمة !

ونهضت بحركة ناعمة انتظمت كيانها كله ، واقتربت من السرير ، وانحنى فوق وجه الأم ، فقرأت هذه في عينيها الحائيتين شيئاً فيه الفة ، وقرب ، ووضوح .

- لقد ندمت لا يقاظي إياك ؛ اذ لعلك كنت تفرقين في حلم جميل ؟

- لم أحلم في حياتي ابداً ...

- حسناً ، هذا لا يهم ... ولكن بسمتك اعجبتي ، فهي وادعة جداً ،

وطيبة جداً ... وعظيمة جداً ...

وراحت ليوميلا تضحك وكانت ضحكها صاماً هادئاً .

- لقد بدأت أفكر بك . فهل حياتك شاقة ؟

وارتعت حاجبا الأم ، وصمتت تفكر .

وسارعت ليوميلا الى القول :

- حتماً ... انها شاقة .

وقالت الأم بتردد :

- لا إدري ... ويخيل الي في بعض الاحيان انها كذلك . ان هناك كثيراً

من الاشياء وكلها جاد ومدش ، وهي تتعاقب بسرعة ... بسرعة جداً .

وتصاعدت موجة القلق التي تعرفها جيداً ، تصاعدت الى قلبها فملأته بالصور والافكار ، ثم جلست في سريرها ، وسارعت تجسد افكارها تلك ..

- هذا يروح وهذا يجيء . والنتيجة هي دائماً ذاتها . ان في الحياة لوتعلمين ،

كثيراً من الاشياء المؤلمة ، فالناس يتعبون ، ويضربون ، يضربون بقسوة

وتحرم عليهم كثير من المباح؛ وهذا لعمرى أمر شديد القسوة بالنسبة اليهم .
ورفعت ليوميلا رأسها بتأثر ، ولفتت الأم بنظرة عميقة :
- انك لا تتكلمين عن نفسك .

ورنت اليها الأم ، ثم نهضت ، واخذت ترتدي ثيابها .
- وكيف يمكننا ان نغزل انفسنا عن الناس عندما نحب واحداً ، ويكون
الآخر عزيزاً علينا ، وعندما نخاف من اجلهم جميعاً ، ونشفق عليهم ... ان ذلك
كله يصطرع في القلب ... فكيف نبقي في معزل ؟

وظلت ساهرة لحظة ، وهي نصف عارية في وسط الحجرة ، وخيل اليها انها لم تعد
تلك التي اغتامت كثيراً ، واكتأبت كثيراً من أجل ابنها ، وعاشت على أمل
الاحتفاظ به سالماً معافى . ان بيلاجي هذه لم تعد موجودة . لقد انفصلت ،
ونأت بعيداً الى مكان لا يعرفه أحد ، ولعل نار الانفصالات قد التهمتها ، ولعل
نفسها قد انطلقت متخلفة من أثقالها ، مطهرة ، ولعل قوة جديدة راحت تبرىء
قلبها من جديد . وكانت تصفي لذاتها وتشهي ان تكتشف ما يدور في نفسها
وتساورها الخشية في ان توقظ من جديد همومها العتيقة .

وسألتها ليوميلا بود وهي قدنو منها :

- بم تفكرين !

- لا أدري .

وصمتت كلتاها وتبادلتا النظرات وابتسمتا ثم خرجت ليوميلا وهي تقول :
- ماذا حدث لا يريق الشاي ؟

وسرحت الأم بصرها من النافذة ، وكان يلف الدنيا في الخارج نهار بارد
شديد البرودة ، وكان جو قلبها صافياً كذلك ، ولكنه حار . وكانت تشهي ان
تتحدث عن كل شيء ، ان تتحدث طويلاً وبغبطة غامرة ، يحدها شعور غامض
من عرفان الجميل نحو كائن مجهول .. ان تتحدث من اجل ما يستاقط في نفسها
فيضيئها ، من ألق ارجواني كذاك الذي يسبق شفق الغروب ..
ومثلتها رغبة في ان تصلي ، رغبة لم تشعر بها منذ زمن بعيد ، وتذكرت

وجهاً غنياً ، وتعالى في خاطرها صوت مرثان : « إنها والدة بول ساموالوف » ،
وتألفت في ذاكرتها عينا ساندريين حائيتين مثبطين ، واتصب شبح ريبين
الاسود ، وابتسم وجه بول البرونزي الحارم ، وغمز نيقولا بعينيهِ مرتبك الملامح .
وراحت هذه الصور كلها تتراقص فجأة ، وتحركها نسمة عميقة خفيفة فتختلط
وتتأفج في سحابة شفاقة غنية الألوان تغمر خواطرها كلها بحس الدعاء
والاطمئنان .

وقالت ليوميلا وهي تعود الى الغرفة :

- لقد كان نيقولا على حق ... فلقد اعتقلوه . لقد أرسلت الصبي كما قلت
فوجد رجال البوليس عنده ، وكان أحدهم يخبئ وراء الرتاج ، والجواسيس
يطوفون حول البيت ، وكان الصبي يعرفهم ...
وقالت الأم وهي تهز رأسها :
- آه . يا للمسكين .

وزفرت ، ولكن من غير حزن ، وهذا ما أدهشها بعض الشيء .

وقالت ليوميلا وقد بدا في ملامحها التجهم والهدوء :

- لقد عقد في المدة الأخيرة كثيراً من الاجتماعات عند عمال المدينة ، ومع
ذلك كان لديه متسع من الوقت لكي يتواري ، ولقد نصحه الرفاق بذلك فلم
يصغ اليهم . اعتقد انه في مثل هذه الحالات ينبغي ان يكره المرء إكراهها
لا أن ينصح ...

وظهر على العتبة فتى مورد الوجنات ، اسود الشعر ، ذوعين زرقاوين
حلوتين ، وأنف أقي ، وسأل بصوت جهور :
- هل آتي بالشاي !

- اذا أردت يا سيرج ... انه ريبين .

وكانت الأم تلاحظ ان تغيراً قد طرأ على ليوميلا هذا الصباح ، فهي أكثر
بساطة وأقل تأيلاً ، وفي حركاتها الرشيقة ، حركات جسمها المتناسق كثير من
الجمال والقوة ، وهذا ما كان يلطف قليلاً من قسوة وجهها الشاحب . وكانت

الهلات الزرقاء حول عينيها قد توسعت أثناء الليل فم ذلك عن الجهد المتواصل الذي تبذل ، وكانت نفسها متوترة ، كحبل مشدود الى النهاية .

وحمل الصبي ابريق الشاي .

— هذه هي ياسيرج ، بيلاجي نيلوفنا ، والددة ذلك العامل الذي حكم عليه البارحة .

وانحنى الصبي دون ان ينبس بكلمة ، وشدّ يد الأم ثم خرج ، وعاد يحمل بضع قطع صغيرة من الخبز ، ثم جلس الى المائدة . وأقنعت ليوميل بيلاجي ، وهي تصب الشاي ، بالألا تعود قبل ان يُعرف ما اذا كان رجال البوليس مازالوا ينتظرون عند نيقولا .

— لعلهم بالتأكيد يريدون ان يستجوبوك انت ...
وأجابت الأم :

— ليستجوبوني ، وليوقفوني فلن يزيد ذلك من شقائي ، ولكن ينبغي أولاً توزيع خطاب بول في كل مكان .

— لقد صُفّ اليوم ، وسيكون لنا غداً نسخ كافية للمدينة والضاحية . هل تعرفين ناتاشا ؟

— كيف لا أعرفها ؟

— احلي اليها من هذه النسخ ...

وكان الصبي يقرأ في احدى الجرائد ، ويبدو عليه كأنه لا يسمع شيئاً ، ولكن عينيه كانتا أحياناً تستقران على وجه الأم ، فيسرهما ان يلتقي بصرها بنظره الحادة ، ويدفعها ذلك الى الابتسام .

وعادت ليوميل الى الحديث عن نيقولا دون ان يظهر عليها التأثير لاعتقاله ، وبدت لهجتها طبيعية تماماً في نظر الأم . وكان الوقت يمر سريعاً أكثر منه في الايام الأخرى ، وعندما انتهوا من طعام الفطور ، كان النهار قد انتصف أو كاد . ووطرق الباب بعنف ، فنهض الصبي وألقى نظرة متسائلة على سيدة المنزل وهو يقطب حاجبيه .

— افتح ياسيرج . من تراه يكون ؟

وبحركة هادئة دست يدها في جيب تنورتها وقالت للأم :

— اخذوا من رجال الدرك فاجلسي هنا في هذه الزاوية ، وأنت

ياسيرج ...

فقاطعها الصبي بصوت خفيض :

— اعرف ..

ثم توارى .

وابتسمت الأم ، فهذه الاستعدادات لم تعد تحركها ، لأنها لم تعد تحس بأي شقاء جديد .

وكان الاقدم هو الطبيب الصغير الذي سارع الى القول :

— أولاً : لقد اعتقل نيقولا . آه . آه . أنت هنا يا نيلوفنا؟ ألم تكوني هناك

عندما اعتقل !

— لقد أرسلني الى هنا .

— 'م' ... لا أعتقد أن هذا سينفعك ... وثانياً : لقد استخرج عددٌ من الشبان ، هذه الليلة ، خمسية نسخة من الخطاب . ولقد رأيتها ، وأعتقد أن لا بأس بها فهي واضحة مقروءة . إنهم يريدون ان يوزعوها في المدينة هذا المساء ، أما أنا فأعارض ذلك لأنني أفضل توزيع الأوراق المطبوعة في المدينة .. أما هذه المخطوطة فينبغي ان ترسل الى ناحية أخرى .

وصاحت الأم بجملة :

— حسناً أعطوني اياها لأحلبها الى ناتاشا !

لقد كانت تعاني رغبة فطيمة في أن تنشر خطاب بول بأسرع ما يمكن ، وان تفرق الأرض بكلمات ابنها ، وكانت تروى الى الطبيب بعينين يقظتين ، ينهل منها التوصل .

وقال الطبيب بتردد :

— آه يا للشيطان . ان لا أدري ما إذا كان من المناسب ان نكِلَ اليك هذا

الأمر الآن !

وأخرج ساعته ثم تابع :

- الساعة الآن الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والأربعون ، وسيصل القطار في الثانية وخمس دقائق ، وستكون هناك في الخامسة والربع ؛ أي في المساء ولن يكون الوقت متأخراً على كل حال ... ثم ان القضية ليست هنا ...

ورددت ليوميلاً متفضضة الجبين :

- كلا ... القضية ليست هنا ...

وسألك الأم وهي تدنو منها :

- إذن ؟ .. الأمر يتوقف فقط على حسن انجاز العمل .

وركزت ليوميلاً بصرها عليها ، وقالت وهي تمسح جبينها :

- إن في ذلك خطراً عليك ...

وأجابت الأم بإصرار لاهب :

- ولماذا ؟

وردد الطيب بصوت عجلان ، ولكنه متفاوت النبرة :

- السبب هو هذا : لقد تركت المنزل قبل اعتقال نيقولا بساعة من الزمن .

ويحتمل أنك كنت في العمل حيث يعرفونك كمية المدرسة . وبعد وصولك

ظهرت منشورات ممنوعة . إن هذا كله سيكون كالأنشودة التي تضيق حول

عقك .

وأكدت الأم بجملة :

- إنهم لن ينتبهوا لي ، وإذا أوقفوني عند العودة ، فليألفوني أين كنت ؟

وتوقفت لحظة ثم أردفت :

- وسأعرف كيف أجيبهم ، وسأنتقل من هناك ترواً الى الضاحية حيث يقم

احد معارفى ويدعى سيزوف . وسأقول بأني قد توجهت بعد صدور الحكم على

الفور الى منزله ، وبأني كنت حزينة ، وكان هو كذلك ، فلقد حكم على ابن اخيه

مع بول . وسيقول هو نفس القول . أرايتما ؟ ...

ولست الأم انها يملان الى الرضوخ لرغبتها ، فراحت تبذل جهدها لاقتناعها نهائياً ، وكانت تتكلم بالحاح متزايد الى أن رضخوا في النهاية .

- لا حيلة في اليد فاذهي ..

وكانت ليوميلاً صامتة ، تروح وتجيء في الغرفة وهي مطرقة . وكان وجهه هو متجهماً وخداه غائرين ، وعضلات عنقه تبدو مشدودة ، كأن رأسه قد ثقل فجأة ، وقدلى على صدره بصورة لا إرادية .

وتأملته الأم وقالت له باسمة :

- إنكم ترفقون بي كثيراً ولكنكم لا ترفقون بأنفسكم !

وأجاب :

- ليس هذا صحيحاً ، فكلانا بالآخر رفيق ، ويجب ان نكون كذلك .

إنها تلوم أولئك الذين يبعثون قوام على غير طائل ، أجل يا سيدتي ... ولنعد الى موضوعنا الآن . سننملك نسخ الخطاب في المحطة .

وراح يشرح لها ما يجب عليها ان تفعله ، ثم نظر اليها مواجهة وقال :

- حسناً . أتمنى لك حظاً طيباً .

ومضى ... وقد بدا عليه انه لم يكن مع ذلك راضياً ؛ وما ان اغلق الباب

ورأه حتى دنت ليوميلاً من الأم ، وعلى شفتيها بسمة صامتة :

- انني أفهمك ...

وتأبطت ذراعها ، ثم سارت من جديد بضع خطوات في الحجر :

- وأنا أيضاً لي ولدٌ بلغ الثالثة عشرة من عمره ؛ وهو يعيش مع والده .

إن زوجي وكيل نيابة ، والصبي معه ، واني غالباً ما أتساءل : ماذا سيكون

مصيره ؟

وارتمش صوتها ؛ واستأنفت بصوت ساهم خفيض :

- إن من يشرف على تربيته عدوٌ واعٍ لأولئك الذين أعتبرهم أفضل من

حلت الأرض ؛ وقد يصبح ابني ، عندما يكبر ، عدواً لي أيضاً ؛ فأنا لا

أستطيع ان أخذه ، لأنني أعيش تحت اسم مستعار ، ولقد مضى علي ثمان سنوات

لم أنه خلّاهما ، ثماني سنوات ... إنه لأمد طويل .

وتوقفت بالقرب من النافذة ، ورنّت الى السماء الباهتة المغفرة :

— لو كان معي لكنت أقوى ، ولما كان في قلبي هذا الجرح الذي يعضني ابدًا .
وجتي لو كان في عداد الأموات فإن عذابني سيكون أخف وطأة ...

وقالت لها الأم بصوت شديد الحفوت ، وقد هصرت الشفقة قلبها :

— يا صغيرتي المسكينة .

وأردفت ليوميلا باسمه :

— إنك سعيدة . وانه لرائع ان تمشي أم وابنها جنبًا لجنب ، وهذا

امر نادر .

وصاحت بيلاجي وقد أدهشها هتافها :

— أجل . . انه جميل .

وأردفت وهي تخفض من صوتها كأنها تبوح بسر :

— انكم جميعاً ، انت ونيقولا وكل أولئك الذين يعملون من أجل الحقيقة

تسيرون أيضاً جنباً الى جنب ؛ لقد أصبح الناس ، دفعة واحدة ، اقرباء اعزاء ،

واني لأقهمهم جميعاً . صحيح اني لا أفهم ما يقولون ... ولكنني أفهم الباقي

كله ... افهمه ...

وقالت ليوميلا :

— نعم . . انه كذلك .

وألقت الأم يدها على كتفها ، وضغطت بلين ثم تابعت بصوت كأنه الغمغمة

وكانها انما تصغي الى افكارها هي نفسها :

— ان الابناء يتقدمون في الدنيا ؛ هذا ما أدركه ، انهم يتقدمون في الدنيا ،

في الأرض كلها ، وفي كل مكان ، نحو هدف واحد . ان أنقي القلوب ، إن

العقول الشريفة تزحف باصرار ضد كل ما هو سيئ ، وتستحق الدجل بخطواتها

الصامدة ، والشبان ، الشبان الأصحاء ، يوجهون قواهم التي لا تقهر ، في سبيل

غاية واحدة هي تحقيق العدالة . انهم يسرون نحو الانتصار ، الانتصار على العذاب

الناس ، ويمتشقون السلاح ليقضوا على شقاء الكون ؛ ويناضلون ليتقروا الحسة ،
وسينتصرون !

لقد قال لي احدهم : « اننا سنشعل شمساً جديدة » ؛ وسيشعلون تلك الشمس .

« وسنجمع القلوب الحطيمة كلها في قلب واحد » ، وسيجمعون تلك القلوب

الحطيمة كلها ... في واحد .

وعادت الى ذاكرتها كلمات من صلوات منسية ، فأذكت ايمانها الجديد الذي

كان ينبعث في صدرها كالشرر :

— ان ابنائنا الذين يسرون في سبل العدالة والعقل يحملون حبهم الى الأشياء

كلها ، ويرتقون الضياء على كل شيء ، ضياء ناري لا يمكن ان تحبوا ، نار تنبع

من اعماق النفس . ومن هذا الحب الملتهب ، حب ابنائنا للعالم كله ، تولد حياة

جديدة . فمن ذا يستطيع ان يطفىء هذا الحب ؟ من ؟ وهل هناك قوة مها ستمت

تستطيع ان تقهره ؟ ان الارض هي التي انبتته ، والحياة كلها تريد له ان ينتصر ،

الحياة كلها !

وابتعدت عن ليوميلا وقد ارهقها الانفعال ، وجلست لاهثة ، فجلست

ليوميلا ايضاً بهدوء وحذر كأنها تخشى ان تحطم شيئاً ما ، ولكنها لم تلبث ان

نهضت تتنقل في الحجرة بخطى رشيقة ؛ وهي تركز في البعيد نظرة عميقة من عينيها

التيين خباً فيها الألق ، وبدت كأنها اشبح قامة ، واشد استقامة ، واكثر

نحولا . وكان وجهها الهزيل الصارم منقبض الاسارير ، وكانت تضغط شفيتها

بعضية . وهذا الصمت المسيطر ، اعصاب الأم بسرعة ، فسألت وهي ترقب

ملامح المرأة الشابة ، وسألت بصوت خفيض جبان النبرة :

— لعلي قلت شيئاً ما كان يجب ان اقله . . ؟

فأستدارت ليوميلا بعنف ، ونظرت اليها كالمذعورة ، وسارعت الى القول

وهي تمد يدها كأنها تود ان توقف شيئاً ما :

— كلا ... إن ما قلته صحيح ، ولكن ... دعينا من الخوض فيه ، ولنظل كما

قلنا منذ قليل ...

ثم اردفت وهي اكثر هدوءاً :

— ربني لك ان تذهبي باكرآ ... فالمكان بعيد ...

— نعم يجب ذلك آه . لو تعلمين كم انا مسرورة ؟ فأحمل كلمات ابني ،
كلمات دمي ... إنها عزيزة عليّ كروحي .

وكانت تبسم ، غير انه لم يكن لبسها سوى انعكاس باهت على وجه ليوميلآ ،
وكانت تشعر ان تحفظ السيدة الشابة يضي على غبطتها شيئاً من البرود ، فعصفت
بها فجأة رغبة ملحة ، رغبة في ان تصب من وهجها في تلك الروح القاسية ، وان
تشعلها بلهبها لتزهها هي ايضاً ، تلك الغبطة التي تقعم جوارحها .
واخذت يد ليوميلآ ، وضغطتها بشدة :

— لكم هو جميل يا عزيزتي ان نعرف ان في الحياة نوراً يهدي الناس جميعاً ،
وانه سيأتي اليوم الذي يبصرون فيه هذا النور ، ويمائقونه بكل جوارحهم .
ارتعش وجهها الكبير الطيب ، وتألقت عيناها ، ورفت اجفانها ، كأنها
إنما تهب لألق احداها اجنحة . وبعثت فيها النشوة افكار عظيمة ، افكار
كانت تولد متنامية الحيوية ، وتزدهر متزايدة الضياء ابداً ، في قلبها الحزين الذي
تثيره القوة الخلاقة لشمس ربيعية .

لكن إنهم جديداً قد ولد ، فالواحد للكل ، والكل للواحد . هكذا
افهمكم .. انتم الآخرين . إنكم جميعاً ، في الواقع ، رفاق ، وذوو قربي ، وابناء
لأم واحدة هي الحقيقة .

وغمرتها من جديد موجة من الانفعال ، فتوقفت قليلاً لتتنفس ، ثم قالت
وهي تفتح ذراعها كأنها تعانق شيئاً ما :

— وعندما امس في نفسي هذه الكلمة « رفاق » اسمع في قلبي غممة :

« إنهم يتقدمون ! »

... ونجحت خطتها ... فإذا وجه ليوميلآ يشتعل بلهب غريب ، وإذا
شفتاها ترتعشان ، وإذا بدموع ثقيلة متألفة تنهمر من عينيها .

واحتضنتها الأم بين ذراعيها ، وضحكت بصمت ، وقلبتا مغمض بالزهو ،

زهي انتصارها .

وعندما افترقتا ، حدثت ليوميلآ في عينيها وقالت بصوت خفيض :

— هل تعرفين كم يسعد المرء ان يكون معك ؟

— ٢٩ —

... وفي الشارع عصف بها الهواء الجاف البارد ، وشد حنجرتها ، ونقتر
انفها ، وحبس انفاسها في صدرها لحظة ، فتوقفت وتطلعت حولها ، فإذا في
زاوية الشارع وعلى مسافة غير بعيدة منها ، حوذي يعتمر قبعة من وبر ، وعلى
مسافة أبعد ، رجل يسير بحني الظهر ، يفرق رأسه بين منكبيه ، وامامه جندي
يعدو بوثبات سريعة وهو يفرك اذنيه .

وقالت في نفسها :

— لا شك انهم اطلقوا هذا الجندي الصغير في سباق !

ومضت في طريقها وهي تصفي بنشوة الى الصرير المقي الجهور تحت قدميها ،
صرير الثلج .

ووصلت الى المحطة مبكرة ، ولم يكن قطارها قد اعد بعد ، إلا ان صالة
الانتظار في الدرجة الثالثة ، هذه الصالة القدرة التي سودها الدخان ، كانت تمتج
بالخلق ، فلقد ألبأ البرد إليها عمال الخط ، وعدداً من الحوذين ، وسيني الكسوة
الذين لا مأوى لهم ، فجاءوا يلتمسون فيها بعض الدفء . وكان فيها ايضاً
عدد من المسافرين ، وبعض الفلاحين ، وتاجر ضخم يلتف برداء من الفرو
وكاهن تصحبه صبية مجدورة الوجه ، وخمسة من الجنود أو ستة ، وبعض
البرجوازيين الصغار الذين يبدو عليهم الانهاك .

وكانوا جميعاً يدخلون ويترثرون ويشربون الشاي والفودكا ، بالقرب من
المقصف كان احدهم يطلق ضحكة داوية ؛ وكانت سحب الدخان تهم فوق
الرؤوس ؛ والباب يصير عندما يفتح ؛ ويهتز زجاجه ، ويحدث صوتاً عندما
يُصق ، وكانت رائحة التبغ والسك الملح تركم الانوف بشدة .

وانخذت الام مكاناً لها بالقرب من الباب ، مكاناً وجيباً ، وراحت تنتظر .
 وكان كلما دخل داخل تهب معه فتحة من الهواء البارد ينشرح لها صدرها ، فتتنفس
 ملء رئتيها . وكان الناس يتوافدون ، وفي ايديهم رزم ، وعليهم ثياب ثقيلة
 فيملقون بالباب ، وهم يلجونه ، فيشتمون ، ويقذفون بحاجياتهم الى الارض او
 يلقون بها على احد المقاعد ، وينفضون نتف الثلج عن ياقات معاطفهم واكمامهم ،
 ويسجونه عن لحام وشواربهم ، ويدمدمون ...
 ودخل شاب كان يحمل حقيبة صفراء ، فالتقى على ما حوله نظرة سريعة ، ثم
 اتجه مباشرة نحو الام وسألها بصوت خافت :

- الى موسكو ؟

- نعم لزيارة ثانيا .

- حسناً .

ووضع الحقيبة بجانبها على المقعد ، وسحب سيجارة من جيبه ، وأشعلها وهو
 يرفع قبعته قليلاً ثم خرج من باب آخر دون ان ينبس بكلمة .
 ودأبت الام بيدها جلد الحقيبة الباردة ، ثم اسندت اليها مرفقها وراحت
 تتفحص وجوه الناس مسرورة ، وبعد لحظة نهضت لتجلس على مقعد آخر قريب
 من المخرج الذي يقضي الى الرصيف . وحملت دون عناء الحقيبة التي لم تكن كبيرة ،
 وراحت ، شاخخة الرأس ، تحديق في وجوه اولئك الذين يبرون امامها .
 واصطدم بها شاب يرتدي معطفاً قصيراً عالي القبة ، ثم ابتعد عنها دون ان
 يتفوه بكلمة ؛ في حين كانت اصبعه تلامس قبعته . وخيل اليها انها قد
 رأته من قبل ، فاستدارت نحوه ، وكانت عين الرجل الصافية تتركز عليها من
 وراء قبعته العالية ؛ واخترقتها هذه النظرة البقطة ، فارتعشت يدها التي كانت
 تمسك بالحقيبة ، واحسبت بحملها يغدو ثقيلًا فجأة .

ومست في نفسها : لقد رأيته من قبل في مكان ما ! ، وكانت تقاوم احساساً
 كريباً معتكراً بلاء صدرها ، ولم تشأ ان تحدد ، بكلمات اخرى ، ذلك الشعور
 الذي كان يهصر قلبها بهدوء ، ولكن بصلف ؛ غير ان هذا الاحساس كان
 يتنامى ، ويتصاعد ليلاً حنجرتها ، ثم فيها ، ببرارة جافية .

وعصفت بها رغبة لا تقاوم في ان تستدير وتلقي الى الوراء نظرة اخرى ،
 فاذا بالرجل ما يزال مكانه ، يستند تارة الى احدى رجليه ، وطوراً الى الثانية
 باحتراس وحذر ، وكانت يده اليمنى قدس بين ازرار معطفه ، في حين تستقر
 اليسرى في جيبه ، فيبدو كنفه الايمن ، وهو في هذا الوضع ، أعلى من الأيسر .
 واقتربت متمهلة من المقعد ، وجلست بحذر وببطء كأنها تخشى ان تجتث شيئاً
 ما في داخلها ، واستحضرت لها الذكرى التي ايقظها حدسها الرهيف بالشقاء ،
 استحضرت لها هذا الرجل على صورتين : الاولى في الحقول بعد هرب رييين ،
 وعلى مقربة من السجن ، والثانية في المحكمة . فلقد رأته فيها الى جانب رجل
 البوليس الذي كذبت عليه وضلته حين دلته على الطريق الذي سلكه رييين .

وظلت تسائل نفسها لحظة :

- ترى ... هل وقعت في الشرك ؟

وفكرت مرتعشة :

- ربما كنت لم اقع حتى الآن !

ثم اردفت بعد ذلك :

- لقد وقعت !

وتطلعت حوالها فلم تر شيئاً ، وكانت خواطرها تتدفق واحدة بعد الاخرى
 كالشرر ، ثم تنطفئ في رأسها .

- هل اترك الحقيبة ؟ وامضي في سبيلي ؟

ولكن شرارة اخرى التهمت اكثر تألقاً :

- وكلمات ابني اطرحها في ايدي كهذه ؟

وضمت الحقيبة الى صدرها :

- هل انجو بها واهرب ؟

وكانت هذه الافكار تبدو غريبة لها كأنها إنما ادخلت الى رأسها عنوة ؛
 وتلدغها ثم تخترق حروقها تلك ، دماغها ، وتحطم قلبها وتفسخه كخيوط محترقة ،
 وقدلها وتنشئها عن نفسها ، عن بول ، عن كل ما كان من قبل متحدأبقلبها . وكانت

تشم ان قوة بغیضة تطبق علیها فتصهرها وتسحق منكیها وصدورها، وثلیخها لتفرقها فی رعب ممت، وكانت عروق صدغیها تنبض، والحرارة تتصاعد الى جذور شعرها.

ویجد سریع صلب، استطاعت ان تخنق كل هذه الرمضات الخبیثة الواهنة المسکينة، وان تسيطر علی نفسها:

— عارٌ علیك یا نفسی.

وشمرت بالعزاء یتسرب الى جوائنحها فجأة، فقوت من عزما وتصمیمها:

— لا تكونی عاراً علی ابنك... لا احد یخاف..

والتقت عیناهابنظرة حزینة رعدیده، وقرأت لها صورة ربیب فی لحة خاطفة، وبدا لها كأن هذه اللحظات القلیلة من الخیرة قد عادت فثبتت كل شیء فیها، وراح قلبها ینبض بهدوء اکثر من ذی قبل.

وتساءلت وهي تراقب الجاسوس:

— ماذا سبحدث الآن؟

وكان هذا قد اوما الى احد الحراس ثم راح یوشوشه، وهو یشیر الیهابعینه، فرنا الیه الحارس ثم تراجع الى الوراء، ودنا حارس اخر، واصاخ بسمعه وقطب حاجبیه، وكان عجوزاً وقور الشکل، أشهب اللحیة والشعر، وأوماً الى الجاسوس برأسه ثم تقدم نحو المقعد الذی كانت تجلس علیه الأم، فی حین كان الجاسوس یتوارى.

وسار العجوز متمهلاً وعیناه الخائفتان تتفرسان بدقة فی وجه الام، فانكفات

هذه الى الطرف الآخر من المقعد:

— المهم ألا یضربونی.

ووقف بالقرب منها شامتاً ثم ما لها بصوت خافت قاس:

— الى م تنظرین؟

— لا شیء.

— حسناً ایتها اللصة... لقد بلغت من العمر عتياً وما زلت تمارسین هذه المهنة؟

ولطمتها هذه الکلمات کصفعتین ألیمتین علی وجهها، صفعتین شریرتین داویتین، خیل الیها كأنها مزقتا وجنتیها، واقتلعتا عینیها.

وصاحت بكل قوتها:

— أنا؟ أنا لصة؟ إنك تكذب.

واخذ كل شیء یدور فی دوامة سخطها، واسكرت الإهانة المرة قلبها، فشدت غطاء الحقیبة الذی لم یلبث ان انفتح، وصرخت وهي تثب:

— انظر... انظروا جميعاً.

وانتزعبت رزمة من المناشير، ولوحت بها فوق رأسها، وسمعت من خلال الطین فی اذنیها، هتاف الناس الذین كانوا یتراکضون من كل صوب.

— ماذا حدث؟

— هو ذا مفتش سري...

— ما هذا؟

— یقال إنها سرقت...

— إن مظهرها یوحی الاحترام... اذا كان لا یوحی البؤس!

وعادت الأم تعلن بصوت داوٍ، وقد هدأ من روعها بعض الشیء منظر الجمهور المحتشد الذی اكتظ حولها.

— لست لصة. لقد حُکم البارحة علی بعض السجناء السیاسیین، وكان ابني احدهم وقد القی فلاسوف خطاباً؛ هوذا... إني احملة الى الناس لیقرأوه،

ولیتعنوا فی الحقیقة...

واختطف احدهم بعض الأوراق من یدها بجذر، ولوحت هي بالآخری فی الهواء ثم اقلت بها الى الجمهور.

وتعالی صوت مدعور:

— انهم لن یقدموا لك التهانی من اجل هذا...

وكانت الأم تلاحظ أنهم یتخطفون الأوراق، ویتخبثونها فی معاطفهم وجیبهم، واحست من جدید انها اشد ثباتاً علی ساقیها؛ فزاحت تتحدث،

وهي اكثر هدوءاً ، وقوة ، وتوتراً ، واشد احساساً بالزهو الذي كان يتنامى في داخلها ، وبالفرحة العارمة التي كانت تلهب جوانحها ، تتحدث وهي تنتزع من الحقيقة رزم الاوراق ، فتقذفها ذات اليمين وذات الشمال ، وتلقي بها الى ايدى رشيقة نهمة .

— اتدرون لماذا حُك على ابني ، وعلى كل اولئك الذين كانوا معه ؟ سأقول لكم السبب ، وستصدقون قلب أم وشعرها الأشيب : بالأمس حُك على قوم لأنهم كانوا يحملون الحقيقة اليكم ؛ اليكم جميعاً . وبالأمس عرفت ان هذه الحقيقة لا يستطيع احد ان ينكرها ... لا يستطيع احد .

وكان الحشد الذي سيطر عليه الصمت يتزايد شيئاً فشيئاً ويتكاثف ويحيط بالأم بجلقة حية :

— الفقر والجوع والمرض ... هذا ما يربح الناس من عملهم . كل شيء يقف ضدنا ، ويوماً بعد يوم نفرق في العمل طوال حياتنا ، نفرق في الوحل والحديعة في حين يتختم الآخرون ؛ ويتمتعون على حساب شفاتنا ، ويستبقوننا كالكلاب في قبضة القيد والجهالة ، لأننا لا نعرف شيئاً ؛ ويستبقوننا في قبضة الرعب لأننا نهرب كل شيء ، ان حياتنا هي الليل... وانه لليل حالك الظلمة .

وتعالت بعض الأصوات :

— هذا هو الواقع .

— سدوا شذوها .

وابصرت الأم الجاسوس وراء الحشد ، يصحبه دركيان ، فأسرعت في توزيع الرزم الاخيرة ، ولكن عندما غاصت يدها في الحقيقة ، التفت بيد اخرى فيها :

— خذوها .. خذوها ...

وصاح الدركيان :

— تفرقوا ...

واندفعوا يبعدان الناس الذين كانوا يرضخون لدفعها مرغمين ، ولكنهم كانوا يحشرونها ويضيقونها بكثلتهم ، وربما كان ذلك عن غير قصد منهم .

وكانت تلك المرأة ذات الشعر الاشهب والنظرة الصريحة والوجه الناضج بالطيبة ، كانت تستهوي الناس استهواء طاغياً ، فاذا بهم ، وهم الذين عزلتهم الحياة وباعدت فيا بينهم ، ينصهرون الآن في كل واحد ، ويبحث فيهم الحرارة لهب كلامها ، هذا الكلام الذي ربما كان الكثيرون منهم قد سمعوه منذ امد طويل ، ولكن قلوبهم التي أذلتها مظالم الحياة تحس نحوه الآن بظلم حار مسور . ولف الصمت اولئك الذين كانوا اقرب اليها من الآخرين ، ولكنها كانت ترى عيونهم اليقظة النهمة ، وتشعر بلهائهم الفاتر يلفح وجهها .

— اغربي ابتها المعجوز .

— انهم يوشكون ان يقبضوا عليك .

— إنها غير هيابة !

وصاح الدركيان اللذان كانا يقتربان :

— تفرقوا ...

وكان الناس يتموجون مثدافعين ، ويتعلق بعضهم بالبعض الآخر ؛ ويخيل للأم انهم على أتم الاستعداد لفهمها وتصديقها ، وكانت تود ان تقول لهم ، على عجل ، كل ما كانت تعرف ، ان تبوح لهم بكل تلك الخواطر التي تحس زخمها ، والتي تتصاعد من اعناق قلبها دونما عناد ، وتجمع على شفيتها كأغنية ، ولكنها كانت تتحقق بأنكسار ، ان الصوت ينقصها ، فصوتها مبجوح ، يرتعش ويتمزق .

ان كلمات ابني هي الكلمات الطاهرة ، كلمات فتى انبثت الطبقة الكادحة . انها صوت النفس التي لا يشوبها الفساد ، فأعرفوا الرجال النزهاء من جرأتهم ! .. ورمقها عيون فتية بجحاس ورعب .

وتلقت ضربة في صدرها ، فترنحت ، وهوت على المقعد ؛ وكانت ايدي الدركيين تلوح فوق الرؤوس ، فتلك اعناق الناس ومناكبهم ، وتنحنهم جانباً وتقتلع قبعاتهم وتلقي بها بعيداً .

وترنح كل شيء امام الأم ، وغرق في الظلمات ، ولكنها استطاعت ان تسيطر على نفسها ، وان تصرخ بما تبقى لها من صوت :

- ليجمع الشعب قواه في قوة وحيدة !
واهوى احد الدركين بيده الكبيرة الحمراء على عنقها وهزها :

- اخرسي .

وارتطم عنقها بالجدار ، ولثغ قلبها ، للحظة ، دخان من الرعب لاذع ، لم يلبث ان بددته حرارة لها الداخلي .
وقال لها الدركي :

- امشي .

- لا تخشوا شيئاً ، فليس هناك شقاء اشد وطأ من ذلك الذي تتنفسونه
طوال حياتكم ...

وامسك الدركي بذراعها وشدها بضراوة :

- اخرسي ... قلت لها اخرسي .

وامسك بذراعها الثاني دركي آخر ، ومحبها معا بخطى سريعة .

- من يقرض كل يوم قلوبكم ، ويخفف صدوركم .

واندفع الجاسوس امامها ، ولوح في وجهها بقبضته المهددة بالبحا :

- ألن تخرمي اينها العاهرة ؟

واتسمت عينا بيلاجي ، وتطأير منها الشرر ، وارتجفت فكها ، وصاحت

وهي تثبت قدميها فوق البلاط الاملس :

- انكم لا تستطيعون قتل روح بعثت من جديد .

- اينها الصلبة .

وصفها الجاسوس على وجهها ، ولعل صوت شرير :

- حسناً فمت هذه الجبهة الشمطاء !

وطمس عيني الأم ، للحظة قصيرة ، سائل اسود اللون احمره ، زملاً قهها

فضم فمها ، طعم الدم .

- لا تضررها .

- ايها الفتيان .

- سافل .

- امجموا عليه .

- العقل لا يفرق بالدم !

وكانوا يدفعونها من عنقها وظهرها ، ويضربونها على كتفيها ورأسها فيارتنج كل شيء امام عينيها ويدور في دوامة قاتمة من الصراخ واصوات الصفارات ، والمويل ، واخترق اذنيها احساس بشيء فيه كثافة ، وصمم ، فلأحنجرتها ، وسد انفاسها .

ومادت الأرض تحت قدميها ، وانشت ، وتقومت ركبتيها ، واختلج جسدها تحت وطأة الألم ، ثم تناقل ، وترنج ، خائر القوى ، ولكن عينيها كانتا تلتصعان ابدأ وتروان الى عيون اخرى تشتعل بنار باسلة عنيفة كانت تعرفها جيداً ، دار غالية على قلبها .

ودفعوها من الباب ، فانتزعت احدي يديها من وثاقها وتمسكت بشيء فاني .

- انكم لن تخففوا الحقيقة في اعماق بحار من الدم ...

وسقطت على يدها ضربة .

- يا لكم من مجانين . انكم لن تراكوا الا الحقد ، وسينصب هذا الحقد عليكم .

وامسكها دركي من عنقها ، واخذ يضغط ، فحشرجت :

- يا للأشقياء ...

ورد عليها احدم بشهقة .